

مكتبة مشرق

٦٥
البرهان

في
علم

المنطق

الكتاب
نور

البرهان

Princeton University Library



32101 055469827

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--



مرکز مدیریت حوزه علمیه قم

(۱۱)

الْمُهَيَّبِكُمْ

فِي

عُلُومِ الْقُرْآنِ

الْمَعْرِفَةُ

دِرَاسَاتٌ مُبَسَّطَةٌ عَنْ مُخْتَلَفِ شُؤُنِ الْفُرُقَانِ الْكَبِيرِ

عَرَفَ بِاسْمِ

عُلُومِ الْفُرُقَانِ

الْجُزْءِ الْثَالِثِ

تَأَلَّفَ

مُحَمَّدُ سَادِي عَرَفَةُ

(~~BP~~)

BP 130
.M38

1988

ju2'3

سجل الكتاب

الكتاب : التمهيد في علوم القرآن - الجزء الثالث

المؤلف : الشيخ محمد هادي معرفة

الناشر : مركز مديريت حوزة علميه قم - ١١

مطبعة : مهر قم

الطبعة : ثانية منقحة

المطبوع : ٣٠٠٠ نسخة

التاريخ : صفر الخير ١٤٠٩ الموافق لشهر مهر ١٣٦٧



الحجاء لكم وإملاستهم في القرآن

- ١- التعريف بالمتشابه
- ٢- القرآن والتشابه !
- ٣- حقيقة التأويل
- ٤- هل يعلم التأويل إلا الله؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين

التعريف بالمتشابه

- * - حقيقة الإحكام والتشابه
- * - ما بين المتشابه والمبهم من نسبة
- * - ما بين عوامل التشابه والإبهام من فرق

الإحكام والتشابه

الإحكام هو الإيقان ، يوصف به الكلام إذا كان ذا دلالة واضحة ، بحيث لا يحتمل وجوهاً من المعانى . مأخوذ من الإحكام - بالفتح - بمعنى المنع والسد ، ومنه حكمة اللجام - بفتح الحاء - : ما أحاط بحنكى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد . قاله ابن فارس . فأحكام الكلام : إيقانه تعبيراً وأداءً بالمقصود . وهذا كأكثر آيات التشريع والمواظف والآداب .

والتشابه مأخوذ من تشابه الوجوه ، أى تماثل بعضها مع البعض ، بحيث يحتمل وجوهاً من المعانى ، ومن ثمَّ كان خفاءً فى وجه المقصود . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ البقر تشابه علينا » . قال الراغب : المحكم ما لا تعرض فيه شبهة ، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى ، والمتشابه ما لا ينبىء ظاهره عن المراد . هذا هو تعريف المتشابه بوجه عام ، ومن ثمَّ قد يتحد مع المبهم الذى يكشفه التفسير ، فى حين أنَّ المتشابه بحاجة إلى التأويل ، كأكثر آيات الخلق والتقدير

وعليه فالمتشابه - حسب المصطلح القرآني - هو اللفظ المحتمل لوجوه من المعاني ، وكان موضع ريب وشبهة ، ومن ثمَّ فهو كما يصلح للتأويل إلى وجه صحيح ، يصلح للتأويل إلى وجه فاسد ، ولأجل هذا الاحتمال وقع مطمع أهل الزيغ والفساد ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله إلى ما يتوافق وأهدافهم الضالة .

* * *

ولا يخفى الفرق بين المتشابه والمبهم ، بعد أن كانت النسبة بينهما - حسب مصطلح الفن - هي العموم من وجه ، فإنَّ المتشابه قد يكون مبهماً - ايضاً - كقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء - الانعام : ١٢٥ » إنَّها من المتشابهات وقد علتها طبقة من الإبهام ايضاً . أمَّا التشابه فمن جهة نسبة الإضلال إليه سبحانه ، وأمَّا الإبهام فمن جهة كيفية حصول ذلك الإنشراح والضييق ، وكيف وجه التشبيه بمحاولة الصعود إلى السماء ؟ وستأتي الإجابة على هذه الأسئلة بتفصيل .

وقد لا يكون المتشابه مبهماً في ظاهر لفظه ، وإنَّما التشابه جاءه من قبل سموِّ معناه ، وعلوِّ مستواه بالذات ، ومن ثمَّ قد تزعم العامة وضوح دلالتها في حين توغّلها في الإبهام المعنوي بالنسبة إلى اولئك العوام ، كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى - طه : ٥ » . فتفهم منها العامة أنَّ لله كرسيّاً وهو جالس عليه ، ولا تتوقف في مدلولها الظاهري شيئاً . وكقوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون - القلم : ٤٢ » . فتفهم منها أنَّ الربَّ تعالى يكشف عن ساقه ويدعو الكفار إلى السجود أمامه ، كما هو ظاهرها اللفظي .

وقد لا تكون الآية المبهمة من المتشابهات ، فهي إلى التفسير أحوج منها إلى التأويل . كقوله تعالى : « وعلمَّ آدم الأسماء كلها ثمَّ عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء - البقرة : ٣١ » . فالآية بأمرس حاجة إلى تفسير يجيب هلى

عدة أسئلة يبعثها إبهام في ظاهر الآية . أولاً: كيف تحقق هذا التعليم الذي باهى الله به ملائكته؟ ثانياً: ماهى الأسماء التى يعود عليها ضمير التأنيث تارة ، وضمير الجمع المذكور أخرى؟ وثالثاً: كيف استسلمت الملائكة هذه المباهاة ، واعترفت بعجزها وقصورها مع الأبد؟ وسوا فيك تفصيل الجواب .

اذن لا تلازم بين الإبهام والتشابه كلياً ، وعليه ففتترق موارد الحاجة إلى التفسير عن موارد الإحتياج إلى التأويل . فالتفسير هو كشف القناع عن اللفظ المشكل أى المبهم ، سواء أكان متشابهاً أم لم يكن . والتأويل هو إرجاع الكلام إلى أحد احتمالاته العقلانية ، ولو كان - فى ظاهره - واضح المدلول .

* * *

ولتوضيح ما بين المتشابه والمبهم من فرق، نذكر من عوامل التشابه التى تختلف تماماً عن عوامل الإبهام .

يعود الفرق بين تشابه الآية وإبهامها إلى ما بين عوامل الأمرين من اختلاف، حيث من أهمّ عوامل التشابه هودقة المعنى وسموّ مستواه عن المستوى العام، مضافاً إلى رقة التعبير وجزالة الأداء، كما فى قوله تعالى: «ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى- الأنفال: ١٧» اذ لا يخفى لطف هذا التعبير الرقيق، عن مفهوم هو من أدقّ المفاهيم الإسلامية فى الأمر بين الأمرين «لأجبر ولا تفويض» . ومن ثمّ خفى على غالبية الناس إدراك حقيقته الأصيلة، من عدا اولئك الراسخين فى العلم، الذين استسهلوا الصعاب بفضل جهودهم فى سبيل اكتساب المعالى.

ومن هذا القبيل - أيضاً - قوله تعالى: «الله نور السموات والارض - النور: ٣٥» ، فقد وقع فيها تشبيه ذاته المقدسة بالنور . وهو أدقّ تعبير فى تقريب ذاته المقدسة إلى أفهام العامة ، اذ لو قيل للجمهور: أن لاماهية له تعالى، ولا هو جسم، ولا فيه خواصّ الجسم، لم يقتنعوا فى الجواب عن موجود وقع الاعتراف به، كيف لاماهية له ولا هو جسم؟ فاذا قيل لهم: إنه نور، اقتنعوا ، فى حين أنّ نفس الإجابة صحيحة

يعرفها الراسخون في العلم ، إذ كما أنَّ النور - في المحسوس - غير قابل للإدراك ذاتاً، وإنَّما يحس به من قِبَلِ إنارته للأشياء، كذلك وجوده تعالى - في غير المحسوس - لا يدرك هو ، وإنَّما يدرك بإفاضته الوجود على الموجودات ، فالله تبارك وتعالى يتجلى من خلال كلِّ موجود ، وليس يدرك ذاتاً، كالنور سبب لإدراك الأشياء وتعجز الأبصار عن إدراكه بالذات^١ .

وأما عوامل الإبهام المحوَّجة إلى التفسير ، فتعود إلى جهات أخرى ، منها : غرابة الكلمة عن المألوف العام ، نظراً لاختصاص استعمالها ببعض القبائل دون بعض ، فجاء القرآن ليوحد اللغة باستعمال جميع لغات العرب ، من ذلك «صلداً» بمعنى «نقياً» في لغة هذيل . و«الإملاق» بمعنى «الجوع» في لغة لخم . و«المنسأة» بمعنى «العصا» في لغة حضرموت . و«الودق» بمعنى «المطر» في لغة جهرم . و«بُسَّت» بمعنى «تفتَّت» في لغة كندة . وهلمَّ جرّاً ، الأمر الذي دَوَّنت لأجله كتب غريب القرآن ، وهي كثيرة . ومنها : إشارات عابرة جاءت في عرض الكلام ، بحيث يحتاج فهمها إلى درس عادات ومراجعة تاريخ ، كالنسيء في سورة براءة : ٣٧ . والنهي عن اتيان البيوت من ظهورها في سورة البقرة : ١٨٩ . أو تعابير إجمالية يحتاج الوقوف على تفاصيلها إلى مراجعة السنَّة وأقوال السلف ، كقوله تعالى «أقيموا الصلوة» و«آتوا الزكوة» و«لله على الناس حرج البيت» وأمثال ذلك .

ومنها : تعابير عامَّة صالحة لمعاني لا يعرف المقصود منها إلا بمراجعة ذوى الاختصاص ، كالدابة في سورة النمل : «أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم - ٨٢» والبرهان في سورة يوسف : «لولا أن رأى برهان ربه - ٢٤» . والكوثر في «إننا أعطيناك الكوثر» . والروح في «يوم يقوم الروح والملائكة - النبأ : ٣٨» وأمثال ذلك .

١- راجع : الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٩٢-٩٣ .

ومنها : استعارات بعيدة الاغوار ، يحتاج البلوغ إليها إلى سبر وتعمق كثير ، كقوله تعالى : « أولم يروا أننا أتى الأرض ننقصها من أطرافها - الرعد : ٤١ » وقوله : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم - يس : ٦٥ » ونحو ذلك .

ومن ثم قال الراغب : التفسير إما أن يستعمل في غريب الألفاظ ، نحو البحيرة والسائبة والوصيلة ، أو في وجيز كلام مبين بشرح ، نحو أقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ، وإما في كلام متضمن لقصة لا يمكن تصويره إلا بمعرفتها ، كقوله تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر » وقوله : « ليس البربان تأتوا البيوت من ظهورها » .

هذه نماذج من عوامل الإبهام المحوجة إلى تفسير كاشف ، وقد تبين أنها تختلف تماماً عن عوامل التشابه المستدعية لتأويل مقبول . وعليه فلا يشتهر مورد أحدهما بالآخر ، وإن كانا يشتركان في خفاء المراد بالنظر إلى ذات اللفظ .

القرآن والتشابه

- * هل في القرآن متشابه ؟
- * لماذا في القرآن متشابه؟
- * آراء ثمينة في بيان هذا السر .

هل فى القرآن متشابه ؟

لاشك أنّ القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات - فى أكثرية غالبية - مشتمل على آيات متشابهات - فى عدد قليل - قال تعالى: «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب ، وأخر متشابهات - آل عمران : ٧» ونسبة عدد المتشابهات إلى المحكمات نسبة هابطة جداً، فلو اعتبرنا من مجموع آى القرآن الحكيم مايربو على ستة آلاف آية، فإنّ المتشابهات لا تبلغ المائتين لو أخذنا بالتدقيق وحذف المكررات حسب ما يوافقك نماذج منها. وعليه فالمجال أمام مراجعة الكتاب العزيز، والارتواء من مناهله العذبة ، واسع جداً .

وقد حاول البعض إنكار وجود آى متشابهة بالذات فى القرآن ، بحجة أنّ كتاب هداية عامّة «هذا بيان للناس - آل عمران : ١٣٨» . وقد قال تعالى: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير - هود : ١» . ومن ثمّ فالتعبير بالتشابه فى آى القرآن إنّما يعنى التشابه بالنسبة إلى اولئك الزائغين الذين يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه .

غير أن الإنكار لا يصلح علاجاً لواقعية لامحيص عنها ، نعم لا يصطدم وجود المتشابه في القرآن مع كونه هداية عموم ، أولاً : ضلالة جانب المتشابه ، بحيث كان الطريق أمام المستهدين يهدي القرآن الكريم فسيحاً جداً. ثانياً : هداية الكتاب تعنى كونه المصدر الأول للتشريع وتنظيم الحياة العامة، وهذا لا يعنى إمكان مراجعة الأفراد - بالذات - للقرآن في جميع أحكامه وتشريعاته ، إذ لمثل ذلك اختصاصيون يعرفون من الكتاب ما لا تعرفه العامة . وهم يشكلون قيادة الأمة على هدى الكتاب ، وبذلك أصبح القرآن مصباحاً ينير درب الحياة على ركب الانسانية بشكل عام.

أما الإحكام في سورة هود ، فيعنى الاتقان والستاد ، حيث القرآن ذو أساس مكين لا يتضعض ، وذو مشعل وضاء لا ينطفىء مع الأبدية ، قال تعالى : «إننا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - الحجر : ٩».

وسنعرض فيما يأتى أن الآى المتشابهة متشابهة بالذات، وإنما يعرف الراسخون في العلم تأويلها الصحيح ، بفضل جهودهم وتعمقهم فى أغوار هذا الدين، ليستنبطوا من كنوزه المستورة لثالى وهاجة تبهر العقول .

* * *

وحاول بعضهم فى اتجاه معاكس ، زاعماً أن جميع آى القرآن متشابهة، ومن ثم لا يجوز مسها إلا بدلالة نص معصوم . وبذلك أسقط ظواهر الكتاب عن صلاحية الاستدلال بها أو الاستنباط منها لحكم شرعى ، نظراً لقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً - الزمر : ٢٣ » وبما ورد : « إنما يعرف القرآن من خوطب به » .^١

وهذا قصور و جفاء ، حيث يقول تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها - محمد : ٢٤ » . وقال رسول الله - ﷺ - : « فاذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن » كيف الرجوع إلى القرآن لوضح

١- تفسير البرهان للمحدث البحرانى ج ١، ص ١٨

الملتبسات إذا كان هو ملتبساً ؟ وقد قال الإمام الصادق - عليه السلام - : « إن هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدجى ، فليجل جال بصره و يفتح للضياء نظره ، فإنّ التفكير حياة قلب البصير ، كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور . » وقد ورد - أيضاً - « إن القرآن فيه تفصيل و بيان و تحصيل » و « هو الفصل ليس بالهزل » ، « ظاهره أنيق و باطنه عميق » ، « ظاهره حكم و باطنه علم » على ما تقدم بيانه .^١

أما آية الزمر فتعنى تناسق آى القرآن فى الإجادة والوفاء وقوة التعبير ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً - النساء : ٨٢ » .

لما ذا فى القرآن متشابه ؟

ولعل معترضاً يقول : هلا كانت جميع آى القرآن محكمات ، فكان ذلك أسلم من الالتباس وأقرب إلى طرق الإهتداء العام !

قال الإمام الرازى : « من الملاحظة من طعن فى القرآن ، لأجل اشتماله على المتشابهات ، إذ كيف يكون القرآن مرجع الناس فى جميع العصور ، مع وفرة دواعى الإختلاف فيه ، حيث يجد صاحب كل مذهب مأربه فى القرآن ، بسبب اختلاف آياته فى الدلالة والرد . الأمر الذى لا يليق بالحكيم تعالى أن يجعل كتابه المبين معرضاً للجدل وتضارب الآراء ، فلو كان جعله نقياً من المتشابهات المثيرة للشبهات ، كان أقرب إلى حصول الغرض والمقصود من الهداية العامة » .^٢

وقد عالج ابن رشد الاندلسى - الفيلسوف العظيم - هذه الناحية معالجة دقيقة ، صنّف فيها الناس إلى ثلاثة أصناف : صنّف العلماء ، وعنى بهم من فى طبقته من أرباب الحكمة العالية ، وصنّف الجمهور ، وهم عامة الناس ممن لم يحظوا

١- الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف ، الاصول - ج ٢ ، ص ٥٩٩-٦٠٠

٢- التفسير الكبير ج ٧ ، ص ١٧١

بحلى العلم شيئاً ، وصنف بين بين ، لاهم فى مستوى العلماء ولا مع العامة ، وعنى بهم أرباب المذاهب الكلامية من الأشاعرة وأصحاب الاعتزال .

قال : وهذا الصنف الأخير ، هم الذين يوجد فى حقهم التشابه فى الشرع ، وهم الذين ذمهم الله تعالى . وأما عند العلماء فليس فى الشرع تشابه ، لأنهم يعرفون من كل آية وجه تخريجها الصحيح الذى قصده الشرع ، والجمهور لا يشعرون بالشكوك العارضة ، بعد أن كانوا أخذوا بالظواهر واستراحوا إليها من غير ترديد .

قال : إنَّ التعليم الشرعى هو كالغذاء النافع لأكثر الأبدان ، نافع للأكثر وربما ضرراً للأقل ، ولهذا جاءت الإشارة بقوله تعالى : « وما يضل بها إلا الفاسقين - البقرة : ٢٦ » . وهذا إنما يعرض فى الأقل من الآيات لأقل الناس ، وهى الآيات التى تضمنت الإعلام عن الأشياء المتغيبة عن الحس ، ليس لها مثال فى المحسوس ، فجاء التعبير عنها بالشاهد الذى هو أقرب الموجودات إلى تلك الغائبات ، وأكثرها شبيهاً بها . فربما عرض لبعض الناس أن يأخذ بالمثال ذاته لتلزمه الحيرة والشك .

وهذا هو الذى سمي فى الشرع متشابهاً . الأمر الذى لا يعرض للعلماء ولا للجمهور ، لأن هؤلاء هم الأصحاء الذين يلائمهم الغذاء النافع الذى يوافق أبدان الأصحاء . أمّا غير هذين الصنفين فمرضى ، والمرضى هم الأقل فى الناس ، ولذلك قال تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله - آل عمران : ٧ » . وهؤلاء هم أهل الجدل والمذاهب الكلامية .

قال : وقد سلك الشرع فى تعاليمه وبرامجه الناجحة مسلكاً ينتفع به الجمهور ويخضع له العلماء ، ومن ثم جاء بتعابير يفهما كل من الصنفين : الجمهور يأخذون بظاهر المثال ، فيتصوّرون عن الممثل له ما يشاكل الممثل به ، ويقتنعون بذلك .

والعلماء يعرفون الحقيقة التي جاءت في طيِّ المثال .

مثلاً: لما كان أرفع الموجودات في الحس هو النور ضرب به المثال، وبهذا النحو من التصور أمكن للجمهور أن يفهموا من الموجودات فيما وراء الحس ، مما مثل لهم بامور متخيلة محسوسة . فمتى أخذ الشرع في أوصاف الله تعالى على ظاهرها ، لم تعرض للجمهور شك في ذلك . فاذا قيل : الله نور . وأنَّ له حجاباً من نور، وأنَّ المؤمنين يرونه في الآخرة كالشمس في رابعة النهار ، لم تعرض للجمهور شبهة في حقيقة هذه التعابير . وكذلك العلماء لا تعرض لهم شبهة في ذلك ، حيث قد تبرهن عندهم أنَّ تلك الحالة هي مزيد علم و يقين . لكن إذا ما صرَّح بذلك للجمهور بطلت عندهم الشريعة كلَّها وربَّما كفروا بما صرَّح لهم . لأنَّ الجمهور يرون من كل موجود هو المتخيل المحسوس ، وأنَّ ما ليس بمتخيل ولا محسوس فهو عدَم عندهم .

فاذا قيل : إنَّ هناك موجوداً ليس بجسم، ولا فيه شيء مما يرونه لازم الجسمية، ارتفع عنهم التخيل، وصار عندهم من قبيل المعدوم . ولا سيَّما إذا قيل لهم : إنَّه لا خارج العالم ولا داخله ، ولا فوق ولا أسفل . ومن ثمَّ لم يصرَّح الشرع بأنَّه ليس بجسم ، وإنما اكتفى بقوله : «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير - الشورى: ١١» . وقوله : «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير - الانعام : ١٠٣» .

قال : وأنت إذا تأملت الشرع وجدته - مع أنَّه قد ضرب للجمهور في هذه المعاني المثالات التي لم يمكنهم تصوُّرها إلا بذلك - قد نبه العلماء على تلك المعاني بحقائقها . فيجب أن يوقف عند حدِّ الشرع في نهج التعليم الذي خص به صنفاً صنفاً من الناس، وأن لا يخلط التعليمان فتفسد الحكمة الشرعية النبوية . ولذلك قال عليه السلام : «انا معشر الانبياء امرنا أن ننزل الناس منازلهم، وأن نخاطبهم على قدر عقولهم»^١ . وقد انتهج الامام الرازي نفس المنهج ، قال : «والسبب الاقوى في هذا

١- الكشف عن مناهج الادلة لابن رشد، ص ٨٩ و ٩٦ و ٩٧ و ١٠٧ .

الباب : أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواصّ والعوامّ جميعاً . و طبائع العوام تنبو - فى أكثر الامر - عن ادراك الحقائق، فمن سمع من العوام - فى أول الأمر - اثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه ، ظنّ أنّ هذا عدم ونفى وقوع التعطيل . فكان الأصح أن يخاطبوا بالفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخلونه ، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح . فالقسم الأول - وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر - يكون من باب المتشابهات، والقسم الثانى - وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر - هى المحكمات .

* * *

وهذا المنهج الذى انتهجه الفيلسوفان ، فى توجيه وجود المتشابه فى القرآن ، معالجة للقضية فى بعض جوانبها ، وهى الآيات المتشابهة المرتبطة مع مسألة المبدأ والمعاد ، وليس علاجاً حاسماً للمادة من جذورها ، اذ تبقى آيات الخلق والتقدير ، والقضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، والعدل والعصمة ، وما شاكل ، خارجة عن إطار هذا العلاج .

أما العلاج الحاسم لمادة الإشكال فى كلّ جوانب المسألة ، فهو : أن وقوع التشابه فى مثل القرآن - الكتاب السماوى الخالد - شىء كان لا محيص عنه ، مادام كان يجرى فى تعابيره الرقيقة مع أساليب القوم ، فى حين سمو فحواه عن مستواهم الهابط .

القرآن جاء بمفاهيم حديثة كانت غريبة عن طبيعة المجتمع البشرى آنذاك ، ولا سيما جزيرة العرب الفاحلة عن أنحاء الثقافات ، فى حين التزامه - فى تعبيراته الكلامية - نفس الأساليب التى كانت دارجة ذلك العهد . الأمر الذى ضاق بتلك الالفاظ . وهى موضوعة لمعان مبتذلة وهابطة الى مستوى سحيق . من أن تحيط

١- التفسير الكبير ج ٧، ص ١٧٢ وهو خامس وجوه ذكرها بهذا الصدد

بمفاهيم هي في درجة راقية وبميدة الآفاق . كانت الألفاظ والكلمات - التي كانت العرب تستعملها في تعبيراتها - محدودة في نطاق ضيق حسبما كانت العرب تألفه من معان محسوسة أو قريبة من الحس ومبتدلة الى حدّما . فجاء استعمالها من قبل القرآن - الكتاب الذي جاء للبشرية على مختلف مستوياتهم مع الأبدية - غريباً عن المؤلف العام .

ومن ثم قصرت أفهامهم عن ادراك حقائقها ما عدا ظواهر اللفظ والتعبير . إذ كانت الألفاظ تقصر بالذات عن أداء مفاهيم لم تكن تطابقها ، ومن ثمّ كان اللجوء إلى صنوف المجاز وأنواع الإستعارات ، أو الإيفاء بالكناية و دقائق الاشارات . الأمر الذي قسرب المفاهيم القرآنية الى مستوى أفهام العامة من جهة ، وبعدها من جهة اخرى . قريبا من جهة إخضاعها لقوالب لفظية كانت مألوفة لدى العرب . وبعدها حيث سمو المعنى ، كان يأبى الخضوع لقوالب لم تكن موضوعة لمثله ، كما كان يأبى النزول مع المستوى الهابط مهما بولغ في إخضاعه . إذ اللفظ يقصر عن أداء مفهوم لا يكون قابلاً له ولا يتطابقه تماماً . هذا هو السبب الأقوى لوقوع التشابه في تعبيرات القرآن بالذات ، كما مرّ من مسألة الأمر بين الأمرين ، وغيرها من مسائل كلامية غامضة تبحث عن شؤون المبدأ تعالى والمعاد ، ومسائل شؤون الخليفة وما انطوت عليه من أسرار وغوامض خافية على غالبية الناس .

مثلا قوله تعالى: «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة - البقرة: ٣٠» تعبير رمزى عن شأن الانسان - بصورة عامة - فى الارض ، إنّه ذلك الموجود العجيب ، الذى يملك فى ذاته قدرة جبارة يضيق عنها الفضاء ، وتخضع لها قوى الارض والسماء «وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً - الجاثية: ١٣» . كل ذلك بفضل نبوغه واستعداده الخارق الذى يمنحه القدرة على الخلق والابداع ، على أثر تفكيره وجهاده فى الوصول إلى درجة الكمال ، وليتمثل مظهريته تعالى ، فهو الموجود النموذجى لمظهرية ذى الجلال والاکرام ، ومن ثمّ كان خليفته فى الارض يومذاك

ليصبح خليفته فى عالم الوجود إطلاقاً .

لم تكن العرب تستطيع ادراك هكذا تصور عن الانسان ، ولا كان يخطر ببالها إن لهذا الإنسان شأن فى عالم الوجود، سوى أنه الموجود الضعيف الذى تتألب عليه الضواري ، ولا يفتات إلا على لحوم بنى جلده سلباً ونهباً و اراقة للدماء والفساد فى الأرض .

ومن ثم لما جاء التعبير عن شأن آدم بهكذا التعبير - مما ينم عن عظمة وإكبار - حسبوه « المتصرف فى الأرض » عن جانب الله القابح فى زاوية السماء ، أو فسروه - كما فى عصر متأخر - بأنه الخلف عن مخلوق كان قبل آدم ، الجن أو النسناس . وهكذا الإنجذاب بالآية بمنة ويسرة ، مادام لم يعرفوا من حقيقة الانسان ، ولا أدركوا من شأنه الخطير .

* * *

وهكذا جاء التعبير المجازى فى آيتين لا تختلفان من حيث الأداء والتعبير ، غير ان احدهما لما كانت تعبر عن معنى هو فوق مستوى العامة ، حصل فيها التشابه ، أما الأخرى فكانت تعبيراً عن معنى محسوس ، ومن ثم لم يقع فيها إشكال . فقوله تعالى : « الى ربها ناظرة - القيامة : ٢٣ » فيها مجاز الحذف ، أى الى رحمة ربها . كما فى آية اخرى نظيرتها : « واسأل القرية - يوسف : ٨٢ » أى أهل القرية . غير أن الأولى صارت متشابهة ، لقصور أفهام العامة عن إدراك مقام الألوهية ، فحسبوا منها جواز رؤيته تعالى . أما الآية الثانية فلم تتوقف فى فهم حقيقتها ، لأنها فى معنى محسوس . ونظير ذلك قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود - القلم : ٤٢ » دعا جهل العامة بصفاته تعالى الى فهم ساق له سبحانه ، فى حين أن استعارة الساق للشدة عند العرب كان امراً دارجاً ، قال شاعرهم : « وقامت الحرب على ساق »

أى أخذت فى شدتها ، فهم عندما يستمعون الى هذا الشعر لا يترددون فى فهم الحقيقة ، اذ يعلمون أن لارجل للحرب ولاساق . أمافى الآية الكريمة فيذهب وهمهم الى وجود رجل له تعالى وساق ، ومن ثم ذهب بعضهم إلى عقيدة التجسيم ، تعالى الله عن ذلك .

* * *

وقد ذهب سيدنا الطباطبائى - دام ظله - أيضاً الى هذا الرأى ، وذكر : ان سبب وقوع التشابه فى القرآن يعود الى خضوع القرآن - فى إلقاء معارفه العالية - لالفاظ وأساليب دارجة ، هى لم تكن موضوعة لسوى معانى محسوسة أو قريبة منها ، ومن ثم لم تكن تفى بتعام المقصود ، فوقع التشابه فيها وخفى وجه المطلوب ، نعم ، إلاعلى اولئك الذين نفذت بصيرتهم وكانوا على مستوى رفيع . قال تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً - الى قوله - كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال - الرعد : ١٧ » وهكذا القرآن تحتله الأفهام على قدر استعداداتها ، وفيه من المتشابهات ما تزول بتعميق النظر وإجادة التفكير ، فيبقى القرآن كله محكماً مع الأبد بسلام^١ .

وهكذا قال الشيخ محمد عبده : « ان الأنبياء بعثوا الى جميع أصناف الناس من دان وشريف ، وعالم وجاهل ، وذكى وبليد . وكان من المعانى ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة يفهما كل أحد ، ففيها من المعانى العالية ، والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصة ، ولو بطريق الكناية والتعريض ، ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه الى الله ، والوقوف عند حد المحكم ، فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده^٢ . »

١- تفسير الميزان ج٣ ، ص ٥٨ - ٦٢ بتلخيص واختزال .

٢- تفسير المنار ج٣ ، ص ١٧٠ . وهو ثالث وجوه ذكرها بهذا الصدد

وهناك عامل آخر فى إيجاد التشابه فى غالبية الآيات الكريمة، اذ لم تكن متشابهة من ذى قبل ، وإنما حدث التشابه فيها على أثر ظهور مذاهب جدلية ، بعد انقضاء القرن الأول الذى مضى بسلام ، اذ كانت العرب اول عهدا بنزول القرآن تستذوقه بمداويها البدائية الساذجة، حلواً بديعاً سهلاً بليغاً. أما بعد ما احتبكت وشائج الجدل بين أرباب المذاهب الكلامية ، منذ مطلع القرن الثانى ، فقد راج التشبث بطواهر آيات تعريفاً بمواضع الكلم، ومن ثم غمها نوع من الإبهام والغموض الإصطناعيين، وأخذت كل طائفة تعطف بما يروقها من آيات لغرض تأويلها إلى الوجه الذى يؤيد مذهبها .

ولاريب أن القرآن حتمال ذو وجوه - كما قال أمير المؤمنين عليه السلام - لأنه كما ذكرنا معتمد فى أكثر تعابيره البلاغية على أنواع من المجاز والإستعارة والتشبيه ، فأكسبه ذلك خاصية قبول الإنعطاف فى غالبية آياته الكريمة، ومن ثم نهى الامام عليه السلام عن الإحتجاج بالقرآن تجاه أهل البدع والأهواء، لانهم يعمدون إلى تأويله بلاهودة قال عليه السلام لابن عباس لما بعثه للإحتجاج على الخوارج: «لاتخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمال ذو وجوه ، تقول ويقولون . ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً» .

انظر إلى هذه الآية الكريمة: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة - القيامة: ٢٢-٢٣» ربما لم تكن العرب تخطر ببالها إرادة الرؤية بالعين، كما قال الزمخشري: سمعت مستجديدة بمكة، بعدما أخلق الناس أبو ابهم من حرّ الظهيرة، تقول: «عيني نوى نظرة إلى الله واليكم» ولم يختلج ببال أحد أنها تقصد النظر بالتحديق إلى الله سبحانه ، وإنما كان قصدها الإنقطاع وتوقع فضله ورحمته تعالى . وهكذا فى الآية الكريمة نظراً إلى موقعية

١- نهج البلاغة ج ٢، ص ١٣٦ من الكتب والوصايا رقم : ٧٠

٢- راجع: الكشاف، ذيل الآية ، وأساس البلاغة مادة «نظر»

الحصر فيها. لكن الأشاعرة وأذناهم من مشبهة ومجسمة جمدوا على ظاهر الآية البدائي وأصروا على أنه النظر إليه تعالى بهاتين العينين اللتين في الوجه^١.

وهكذا لما سمعت العرب قوله تعالى: «ثم استوى على العرش يدبر الأمر» - يونس: ٢٣ ربما لم تفهم منه سوى استقلاله تعالى بملكوت السماوات والأرض وتدبيره لشؤون هذا العالم، نظير قول شاعرهم:

ثم استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مهران
وقال آخر:

فلما علونا واستوينا عليهم
تركانهم صرعى لنسروكاسر

لكن الأشاعرة ومن ورائهم سائر أهل التشبيه أبوا إلا تفسيره بالإستقرار على العرش جلوساً متربعا فوق السماوات العلى، وقد ينزل إلى السماء الدنيا ليطلع على شؤون خلقه فيغفر لهم ويوجب دعاءهم، إذ لا يمكنه ذلك وهو متربع على كرسيه فوق السماوات!^٢. وعلى هذا السبيل، لما نزلت الآية: «وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء» - المائدة: ٦٤ لانظن أن العرب فهمت منها الجوارح والأعضاء، نظير قوله تعالى: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط» - الاسراء: ٢٩ لا يعنى الجارحة المخصوصة كما زعمته المشبهة من أصحاب الحشو، وإنما عنى يد القدرة ونفى العجز عن التصرف فيما يشاء تعالى. أما الأشعري ومن حذا حذوه فانهم قد انحرفوا في فهم هذا المعنى الظاهر، فأولوه إلى الجارحة، وقالوا إن الله يداً ورجلاً وعيناً ووجهاً وما إلى ذلك وقولاً مع ظاهر الكلمة في القرآن^٣.

١- راجع: الابانة لابي الحسن الأشعري، ص ١١، طحيدرآباد الدكن

٢- راجع: الابانة ص ٣٥ فما بعد. ورسالة الرد على الجهمية للدارمي، ص ١٣

فما بعد.

٣- راجع: الابانة ص ٣٩ فما بعد، وغيرها من كتب القوم وهي كثيرة.

والشواهد على هذا التحريف بظواهر القرآن كثيرة ، سنعرض نماذج منها
في فصل : «عرض الآى المتشابهة» . ونذكر مدى تأثير تلكم المذاهب المبتدعة في
تشويه ظاهر القرآن الكريم ، من جراء تناول أياديهم الأثيمة نحو هذا الكتاب الالهى
المقدس تلويثاً لجانب قداسته الناصعة ، لكن « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره
الكافرون - التوبة : ٣٢ » .

وسياتى هذا الجانب من البحث بتوضيح أكثر .

حقيقة التّأويل

- * ما بين التّأويل والتفسير من فرق .
- * المعانى الاربعة للتّأويل .
- * آراء غريبة فى حقيقة التّأويل .

التأويل يستعمل بمعنى توجيه المتشابه ، وهو تفعيل من الأول بمعنى الرجوع ، لأن المؤول عندما يخرج للمتشابه وجهاً معقولاً ، هو آخذ بزمام اللفظ ليعطفه الى الجهة التى يحاول التخريج إليها ، ومن ثم يستعمل فى تبرير العمل المتشابه أيضاً كما فى قصة الخضر عليه السلام قال لصاحبه: «سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً-الكهف: ٧٨» اى سأطلعك على السر المبرر لأعمال أثارت شكوكك ودعتك الى الاعتراض . إذن فكلمة لفظ أو عمل متشابه - أى مثير للريب - اذا كان له توجيه صحيح ، فهذا التوجيه تأويله لامحالة . وعليه فالفرق بين التفسير والتأويل ، هو أنّ الأول توضيح للجانب اللفظ من إبهام ، والثانى توجيه مافيه من مثار الريب ، وقد سبق ما بين هوامل الإبهام والتشابه من فرق .

هذا ، وقد اصطالحوا - أيضاً - على استعمال التأويل فى معنى ثانوى للآية ، فيما لم تكن بحسب ذاتها ظاهرة فيه ، وإنما يتوصل إليه بدليل خارج ، ومن ثم يعبر عنه بالبطن ، كما يعبر عن تفسيرها الأولى بالظهر ، فيقال : تفسير كل آية ظهرها ، وتأويلها بطنها . والتأويل بهذا المعنى الأخير ، عام لجميع آى القرآن ، كما فى الأثر : «مافى القرآن آية إلا ولها ظهر وبتن» . وقد سئل الامام محمد بن على الباقر - عليه السلام - عن ذلك فقال : « ظهره تنزيله ، وبتنه تأويله ، منه ما قد مضى ومنه

ما لم يكن، يجرى كما يجرى الشمس والقمر^١» وقال عليه السلام أيضاً: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم^٢» فقد جاء التنزيل - في كلامه عليه السلام - بمعنى التفسير ، أى إنَّ للآية مورد نزول يكشف عن مدلولها الأولى المنصرم ، ويعبر عنه بسبب النزول ، ولا غنى للمفسر عن معرفة أسباب النزول فى كشف إبهام الآية ، كما فى آية النسيء - التوبة : ٣٧ - و آية نفى الجناح عن السعى بين الصفا والمروة - البقرة : ١٥٨ - و آية النهى عن دخول البيوت من ظهورها - البقرة : ١٨٩ - ونحوها كثير .

نعم هناك عموم ثابت أبدي تنطوى عليه الآية ، وبذلك تشمل عامة المكلفين مع الأبدية ، وهو بطنها و تأويلها الذى يعرفه الراسخون فى العلم ، ولولا ذلك لبطلت الآية . قال الامام الباقر - عليه السلام - : « ولو أن الآية إذا نزلت فى قوم ثم مات اولئك القوم ماتت الآية ، لما بقى من القرآن شىء . ولكن القرآن يجرى أوله على آخره مادامت السماوات و الأرض . ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شر »^٣ وقد صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ان فيكم من يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلت على تنزيله ، وهو على بن أبى طالب »^٤ فقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله على تطبيق القرآن الخاص حسب مورد نزوله ، وقاتل على عليه السلام على تطبيقه العام على مشابه القوم .

فقوله تعالى : « وليس البربان تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون - البقرة : ١٨٩ » نزلت

١- بصائر الدرجات، ص ١٩٥ . والبحار، ج ٩٢، ص ٩٧، رقم : ٦٤ .

٢- تفسير العياشى ج ١، ص ١١ . والبحار، ج ٩٢، ص ٩٤، رقم : ٤٦ .

٣- تفسير العياشى ج ١، ص ١٠، رقم : ٧ . والصابى، ج ١، ص ١٤ .

٤- تفسير العياشى ج ١، ص ١٥-١٦، رقم ٦ .

رادعة لعادة جاهلية ، كان الرجل إذا أحرم نقب في مؤخر بيته نقباً، منه يدخل ومنه يخرج . وهذه العادة أصبحت لا وجود لها بعد أن باد أهلها. غير أن الآية لم تمت بذلك وإنما بقي عموم ردعها عن إتيان الأمور من غير وجوها بصورة عامة^١ فهذا تأويلها المنطوق عليه الآية ، يعمل بهامع الأبد .

وقوله تعالى: «قل أرايتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين- الملك ٣٠». تفسيرها : ان الله هو الذي « انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه - الزمر : ٢١ » وهذا معنى ظاهرى يدل عليه ظاهر اللفظ . وجاء في تأويلها: إذا فقدتم حجة من حجج الله الذين كنتم ترتون من عذب نعيمهم ، فمن الذى يأتيكم بحجة اخرى يواصل هديكم فى ركب الحياة^٢ . وهذا المعنى يعبر عنه بالبطن ، لايجرأ أحد على بيانه إلا بنص معصوم . واستعارة ينبوع الماء لمصدر الهداية الربانية شىء متناسب، فكما أن الماء هو أصل الحياة المادية ، كذلك الهداية الإلهية هى أصل الحياة العليا السعيدة .

* * *

ويتلخص الكلام فى حقيقة التأويل أنه يستعمل فى موردين :
الأول: فى توجيه المتشابه، سواء كان كلاماً متشابهاً ، أم عملاً مثيراً للرب والتأويل بهذا المعنى خاص بالآى المتشابهة فحسب .
الثانى: فى المعنى الثانوى للكلام ، المعبر عنه بالبطن ، تجاه المعنى الأولى المعبر عنه بالظهر . والتأويل بهذا المعنى عام لجميع آى القرآن ، فإن للقرآن ظهراً وبطناً ، وربما الى سبعة بطون .

وقد تبين أن التأويل - بكلا الاصطلاحين - هو من قبيل المعنى والمفهوم الخافى

١ - راجع : تفسير شبر، ص ٦٧، طبعة الكشميرى

٢ - راجع : تفسير الصافى ج ٢، ص ٧٢٧

عن ظاهر الكلام ، وبحاجة إلى دلالة صريحة من خارج ذات اللفظ .

وقد شد ابن تيمية فيما زعم أن معرفة تأويل الشيء إنما هو بمعرفة وجوده العيني قال: «فإن للشيء وجوداً في الأعيان ووجوداً في الأذهان ، والكلام لفظ له معنى في القلب ويكتب بالخط ، فإذا عرف الكلام وتصوّر معناه في القلب وعبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج ، مثال ذلك : أن أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة محمد ﷺ وخبره ونعته ، وهذا هو معرفة الكلام ومعناه وتفسيره . وتأويل ذلك هو نفس محمد ﷺ المبعوث ، فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام . وكذلك إذا عرف الإنسان الحج والمشاعر وفهم معنى ذلك ، ولا يعرف الأمكنة حتى يشاهدها فتكون تأويل ما عرفه أولاً» .

وهكذا ذهب سيدنا العلامة الطباطبائي - دام ظله - إلى أن التأويل ليس من مداليل الألفاظ ، وإنما هو عين خارجية ، وهي الواقعة التي جاء الكلام اللفظي تعبيراً عنها . قال: «الحق في تفسير التأويل أنه الحقيقة الواقعة التي تستند إليها البيانات القرآنية ، من تشريع وموعظة وحكمة ، وأنه موجود لجميع آي القرآن ، وليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ ، بل هي من الأمور العينية المتعالية من أن تحيط بها شبكات الألفاظ . وأن وراء ما نقرأه ونتعقله من القرآن ، أمراً هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد والممثل من المثال وليس من سنخ الألفاظ ولا المعاني ، وهو المعبر عنه بالكتاب الحكيم ، وهذا بعينه هو التأويل ، ومن ثم لا يمسّه إلا المطهرون ، قال تعالى : «انه لقرآن كريم في كتاب مكتون لا يمسه إلا المطهرون - الواقعة : ٧٩» . وقال : «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ - البروج : ٢٢» . وقال : «انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وانه في ام الكتاب لدينا لعلى حكيم - الزخرف : ٤» فهذه الايات تدل على أن القرآن النازل كان عند الله أمراً أعلى وأحكم من أن تناله

١- في تفسير سورة التوحيد : بنقل رشيد رضا في تفسير المنار ج ٣ ص ١٩٥

العقول أو يعرضه التقطع والتفصيل ، لكنه تعالى عناية بعباده جعله كتاباً مقروءاً أو البسه لباس العربية ، لعلمهم يعقلون ما لم يكن لهم سبيل الى تعقله ومعرفته مادام في ام الكتاب قال تعالى : « كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير - هود : ١ » فالاحكام هو كونه عند الله لائمه فيه ولا تفصيل ، والتفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وآية آية وتنزله على النبي ﷺ .

* * *

ولعل مازعه ابن تيمية ناجم عن خلط امر المصداق بأمر التأويل ، إذ لم يعهد إطلاق اسم «التأويل» على الوجود العيني ، وإنما يطلق عليه اسم «المصداق» حسب مصطلح الفن . فإن كل لفظة لها مفهوم هو ما يتصوره الذهن من دلالة ذلك اللفظ . ولها مصداق هو ما ينطبق عليه ذلك المفهوم خارجاً . كالتفاحة لها مفهوم هو وجودها التصوري الذهني ، ولها مصداق هو وجودها العيني الخارجي ، ذو الآثار والخواص الطبيعية ، ولم يعهد إطلاق اسم التأويل على هذا الوجود العيني للتفاحة أصلاً .

ومنشأ الاشتباه أخذ التأويل من أصل اشتقاقه اللغوي بمعنى «مآل الأمر» أى ما يؤول اليه أمر الشيء كما في قوله تعالى : «هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله ، يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفاء - الاعراف : ٥٣» . أى ينتظر هؤلاء لينظروا الى ما يؤول أمر هذا الدين .. ويوشك أن يأتي اليوم الذي ينتظرونه ، غير أن الفرصة قد فاتتهم ولات الساعة ساعة مندم .

وأما تأويل الرؤيا فما أخذ من المعنى الثانى المتقدم ، لأنه معنى خفى باطن لا يعرفه سوى الذين اتوا العلم . وقد استعمل في تعبير الرؤيا فى القرآن فى ثمانية مواضع من سورة يوسف : ١٦ و ٢١ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٥ و ١٠٠ و ١٠١ .

واستعمل بمعنى «مآل الامر» فى خمسة مواضع : سورة النساء : ٥٩ ، وسورة

١- راجع : الميزان ج ٥ ، صفحات : ٢٥ و ٤٥ و ٤٩ و ٥٤ و ٥٥

الأسراء : ٣٥ ، وسورة الأعراف : ٥٣ مكررة ، وسورة يونس : ٣٩ .
 وبمعنى «توجيه المتشابه» في أربعة مواضع : سورة آل عمران : ٧ مكررة ،
 وسورة الكهف : ٧٨ و ٨٢ . أما استعماله بمعنى «البطن» فقد جاء في الآثار - حسبما
 تقدم - وقد أخذ منه تعبير الرؤيا كما نبهنا .
 فهذه أربعة معانٍ للتأويل استعملت في سبعة عشر موضعاً من القرآن ، ولم يكن
 واحداً منها بمعنى العين الخارجية إطلاقاً .

* * *

أما رأى سيدنا الطباطبائي فلا يعدو توجيهها لطيفاً للمزعومة المتقدمة ، وتبدو
 عليه مسحة عرفانية غير مستندة ، ومن ثم فهي غريبة شذت عنه - دام ظله - وقبل أن نتكلم
 في وجه تنفيذها يجب أن نعرف أن ليس اللوح المحفوظ شيئاً ذا وجود بذاته ، كوعاء
 أو لوحة أو مكان خاص ، مادياً أو معنوياً ، كلاً ، وإنما هو كناية عن علمه تعالى الأزلي
 الذي لا يتغير ولا يتبدل وهو المعبر عنه بالكتاب المكنون وأم الكتاب أيضاً ، وغيرهما من
 تعابير لا تعنى سوى علمه تعالى المكنون الذي لا يطلع عليه أحد إطلاقاً .
 وبعد فقولته تعالى : «وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم - الزخرف : ٤ »
 لا يعني أن للقرآن وجوداً آخر في وعاء « أم الكتاب » ، وإنما جاءت هذه الاستفادة
 الخاطئة من توهم المكان من قوله : « لدينا » . بل المقصود : أن لهذا القرآن شأناً
 عظيماً عند الله في سابق علمه الأزلي ، والتعبير بأم الكتاب كان بمناسبة أن علمه تعالى
 هو مصدر الكتاب وأصله المتفرع منه .

وقوله تعالى : « انه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون -
 الواقعة : ٧٩ » يعني نفس هذا القرآن الذي بأيدي الناس ، فهو في كتاب مكنون
 أي قدر له البقاء في علمه تعالى الأزلي ، وجاء هذا المعنى - صريحاً - بتعبير آخر :
 « انانحن نزلنا الذكر واناله لحافظون - الحجر : ٩ » . وقوله : « لا يمسه الا المطهرون »
 يعني : لا يدرك كنه معناه ، ولا يبلغ الاهتداء به على الحقيقة ، الا الذين طهرت نفوسهم

عن الزينغ والانحراف «ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين».

وقوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد - اى عظيم شأنه » فى لوح محفوظ -
البروج : ٢٢ » أى قدّر فى علمه تعالى أنه يبقى محفوظاً عن كيد الخائنين وتحريف
المبطلين ، لا يمسّوه بسوء ابدأ .

هذا . . . ولعلنا اوجزنا الكلام عن آيات تمسكوا بها فى المقام ، لأننا اجلنا
البحث عن دلائلها الى مجال التفسير ان شاء الله .

* * *

ثم لنفرض أنّ وراء هذا القرآن الذى بأيدينا قرآناً آخر ، ذا وجود مستقل
فماهى الفائدة المتوخاة من ذلك ، وهل هناك من يعمل به؟ أو أنه مذخور ليوم آخر،
كالطعام يدخر لأيام الجذب ، أو المال يكتنز ليوم الحاجة والافتقار . ! وأخيراً ، فما
الذى دعا هؤلاء الى تسمية ذلك القرآن المذخور - فرضاً - تأويلاً ووجوداً عينياً
لهذا القرآن الحاضر؟ وهل يصح - اذا كان للشئ وجودان ، وجود مبذول ووجود
محفوظ - أن يطلق على وجوده الآخر عنوان التأويل لهذا الوجود؟!
إن هذا الكلام شعري ، مقترح عن ذوق عرفاني ، بعيد عن مجالات الجدل
والإستدلال ، نعم سوى استحسان عقلائي مجرد!

هيأة العقيدة الإسلامية

- *- توجيه السؤال بصورة عامة .
- *- ماذا يستفاد من الآية بصورة خاصة .
- *- شكوك واعتراضات .
- *- مزعومة المنكرين .
- *- من هم الراسخون في العلم ؟

هنا سؤال ذوجانبيين، أحدهما عام : هل يستطيع أحد الوقوف على تأويل
المتشابهات ، بل وعلى تأويل آى القرآن كله؟ والثانى خاص : ماذا استفاد من الآية
« وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به كل من عند ربنا -
آل عمران : ٧٧ - بالذات ، هل الواو للتشريك أو الإستيناف ؟

وللاجابة على الجانب الأول للسؤال نقول : لاشك أن القرآن كما هو مشتمل
على آيات محكمات ، مشتمل على آيات متشابهات . ولا محالة يقصده أهل الأهواء
والأطماع الفاسدة ، سعيأ وراء المتشابهات ابتغاء تأويلها وانحرافها الى ما يلبثهم وأهدافهم
الباطلة ، وقد جاء التصريح بذلك فى نفس الآية : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون
ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » فلولا وجود علماء ربانيين فى كل عصر ومصر
ينفون عنه تأويل المبطلين - كما فى الحديث الشريف ' - لأصبح القرآن معرضاً
خصباً للشغب والفساد فى الدين . فيجب - بقاعدة اللطف - وجود علماء عارفين
بتأويل المتشابهات على وجهها الصحيح ، ليقفوا سداً منيعاً فى وجه أهل الزيغ
والباطل ، دفاعاً عن الدين وعن تشويه آى الذكر الحكيم .

١- راجع: سفينة البحار ج ١، ص ٥٥

وأيضاً - لو كانت الآى المتشابهة مما لا يعرف تأويلها إلا الله ، لأصبح قسط كبير من آى القرآن لافائدة فى تنزيلها سوى ترداد قراءتها ، وقد قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن لا كهها بين لحييه ثم لم يتدبرها» وقال تعالى : «كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الباب - ص : ٢٩» .

ولنفرض أن الأمة - عند ماوقفت على آية متشابهة - راجعت علمائها فى فهم تلك الآية ، فأبدوا عجزهم عن معرفتها ، فذهبوا والعلماء معهم إلى أحد الائمة خلفاء الرسول ﷺ فكان الجواب : اختصاص علمها بالله تعالى ، لكنهم لم يقتنعوا بهذا الجواب فهبوا جميعاً الى حضرة الرسول ﷺ ضارعين سائلين : ما تفسير آية أنزلها الله اليك لتدبرها؟ فاذا النبى ﷺ لا يفرق عن آحاد امته فى الجهل بكتاب الله العزيز الحميد !

أو ليست الأمم تسخر من أمة عمها و علمائها وأئمتها و نبيها - ! - الجهل بكتابها الذى هو أساس دينها مع الخلود !؟

اللهم إن هذا إلا زعم فاسد و حط من كرامة هذه الامة المفضلة على سائر الامم بنبيها العظيم و كتابها الكريم .

أو ليس النبى ﷺ هو الذى أرجع امته الى القرآن إذا ما التبتست عليهم الأمور كقطع الليل المظلم ، فيما ذا يرجعون إذا التبتس عليهم القرآن ذاته !؟

وأخيراً فإننا لم نجد من علماء الامة - منذ العهد الأول فالى الآن - من توقف فى تفسير آية قرآنية بحجة أنها من المتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله . وهذه كتب التفسير القديمة والحديثة طافحة بأقوال المفسرين فى جميع آى القرآن بصورة عامة ، سوى أن أهل الظاهر يأخذون بظاهر المتشابه ، أما أهل التمحيص والنظر فيتعمقون فيه ويستخرجون تأويله الصحيح ، حسبما يوافق العقل والنقل الصريح .

قال الشيخ أبو على الطبرسى : «ومما يؤيد هذا القول - أى أن الراسخين يعلمون

التأويل - أن الصحابة والتابعين أجمعوا على تفسير جميع آي القرآن ، ولم نرهم توقفوا على شيء منه لم يفسروه بأن قالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله^١ .
 وقال الإمام بدر الدين الزركشى : «ان الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده ، وليدل به على معنى أرادته ، ولا يسوغ لأحد أن يقول : إن رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه . فإذا جاز أن يعرفه الرسول ﷺ مع قوله : «وما يعلم تأويله إلا الله» جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ، والمفسرون من أمته . ألا ترى أن ابن عباس كان يقول : أنا من الراسخين في العلم . ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ من المتشابه إلا أن يقولوا : «آمنّا» لم يكن لهم فضل على الجاهل ، لأن الكل قائلون ذلك . قال : ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية توقفوا عن شيء من القرآن ، فقالوا : هذا متشابه لا يعلم تأويله إلا الله . بل أمرّوه على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة»^٢ .

* * *

أما بالنظر إلى ذات الآية، فلعلّ دلالتها على التشريك واضحة ، إذ من الضروري رعاية المناسبة القريبة بين عنوان المسند إليه وفحوى مدلول المسند ، وذلك فيما إذا تعنون المسند إليه بوصف خاص ، فإنه يجب - حينذاك - من مراعاة ما بين هذه الصفة ، والحكم المترتب عليها من علاقة سببية أو شبهها ، وهي التي لاحظها علماء الفن فيما أثار منهم : «مناسبة الحكم والموضوع» . وهذا كقولنا : «العلماء باقون ما بقى الدهر» حيث كانت صفة العلم وآثاره البناءة، هي التي تستدعى الخلود للعلماء.

ومن ثمّ قد يستشم نوعية الخبر من نفس عنوان الموضوع ، قبل أن ينطق بالمخبر به ، كما في قول الشاعر .

بينما دعائه أعزّ وأرفع

ان الذى سمك السماء بنى لنا

١- مجمع البيان ج ٢، ص ٤١٠

٢- البرهان في علوم القرآن ج ٢، ص ٧٢-٧٣

فقد لمسنا عظمة المخبر به ورفعة شأنه من عنوان « سامك السماء » الذي جاء في الموضوع .

وعليه فعنوان «الراسخون في العلم» بنفسه يستدعي أن يكون المنسوب إليهم من جنس ما يتناسب والمعرفة الكاملة ، أما الايمان الأعمى فلامناسبة بينه وبين الرسوخ في العلم .

وعليه فرعاية هذه المناسبة هي التي تستدعي وجوب التشريك ، ليكون الراسخون في العلم - أيضاً - عالمين بتأويل المتشابهات .

واعترض بأن مقتضى التشريك هو تساوى العلماء مع الله ولو في هذه الجهة الخاصة ، وقد قال تعالى : « ليس كمثل شيء » .

واجيب بأن شرف العلم هو الذي رفعهم إلى هذه المنزلة المنيعة ، كما في آية اخرى : « شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط - آل عمران : ١٨ » .

واعترض آخر : ماذا تكون موقعية قوله : « يقولون آمنا به ... » اذا ما اعتبرنا «الراسخون» عطفاً على «الإله» ؟

والجواب : أنها جملة حالية موضعها النصب حالاً توضيحياً من الراسخين . قال الزمخشري : « يقولون ، كلام مستأنف موضح لحال الراسخين »^١ ومقصوده من الإستيناف نفى رابطة الإسناد الخبرى بينه وبين الراسخين . وهكذا صرح ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص ٧٢ ، وأبو البقاء العكبرى في املاء ما من به الرحمان ج ١ ، ص ١٢٤ ، والشريف المرتضى في أماليه ج ١ ، ص ٤٣١ - ٤٤٢ المجلس ٣٣ ، والزر كشي في البرهان ج ٢ ، ص ٧٣ ، والعلامة الطبرسى في مجمع البيان ج ٢ ، ص ٤١٠ ، والشيخ محمد عبده في تفسير المنارج ٣ ، ص ١٦٧ وغيرهم من أقطاب العلم والأدب

١- الكشاف ج ١ ، ص ٣٣٨ ط بيروت

وللاية نظائر كثيرة فى القرآن، وفى الشعر القديم، جاء فى سورة الحشر - فى بيان مصرف الغنائم - قوله تعالى: «ما أفاء الله على رسوله . . . إلى قوله: للفقراء المهاجرين . . . إلى قوله: والذين تبوءوا الدار والايمان . . . الى قوله: والذين جاءوا من بعدهم، يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان . . . ٧٠ - ١٠» فجملة «يقولون . . .» كلام مستأنف حال من «والذين جاؤوا . . .» المعطوف على ما قبله، للتشريك معهم فى استحقاق غنائم دار الحرب .
وكذلك قوله تعالى: «وجاء ربك والملك صفاً صفاً - الفجر: ٢٢» فالمنصوب حال من «الملك» المعطوف على «ربك» .

وقال يزيد بن المفرغ الحميرى - يهجو عباد بن زياد :-

أصرمت جملك فى أمامة من بعد أيام برامة
فالريح تبكى شجوها والبرق يلمع فى غمامة^١

قوله «والبرق» عطف على «فالريح» للتشريك معه فى البكاء . و«يلمع» حال من المعطوف، أى ويبكى البرق - أيضاً - فى حال كونه لامعاً.
إذن فلا غرو أن تكون «يقولون آمنابه . . .» جملة حالية موضحة لحال الراسخين وسندكر فائدة هذه الحال هنا .

واعترض ثالث - هو أقوى حجة اعتمدها الامام الرازى - قال: «وان الله مدح الراسخين فى العلم بأنهم يقولون: آمنابه . وقال فى أول سورة البقرة: «فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم - ٢٦». فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين بتأويل

١- الاغانى لابي الفرج ج ١٧، ص ١١٢ ط بيروت، وص ٥٥ ط الساسى . وابن خلكان

ج ٦، ص ٣٤٦ رقم ٨٢١ . وغرد القوائد للشريف المرتضى ج ١، ص ٤٤٠

ذلك المتشابه على التفصيل ، لما كان لهم في الايمان به مدح ، لأن كل من عرف شيئاً على سبيل التفصيل ، فانه لا بد أن يؤمن به . انما الراسخون في العلم هم الذين علموا بالدلائل القطعية أن الله تعالى عالم بالمعلومات التي لانهاية لها ، وعلموا ان القرآن كلام الله تعالى ، وعلموا أنه لا يتكلم بالباطل والعبث . فاذا سمعوا آية ودلت الدلائل القطعية على أنه لا يجوز أن يكون ظاهرها مراداً لله تعالى ، بل مراده منه غير ذلك الظاهر ، ثم فوضوا تعيين ذلك المراد الى علمه ، وقطعوا بأن ذلك المعنى - أى شيء كان - فهو الحق والصواب . فهؤلاء هم الراسخون في العلم بالله ، حيث لم يزعمهم قطعهم بترك الظاهر ، ولا عدم علمهم بالمراد على التعيين ، عن الايمان بالله والجزم بصحة القرآن»^١ .

قلت : ليس كل من عرف الحق اعترف به وأذعن له ، قال تعالى : «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون - النحل : ٨٣» . هذا ، والمدح على الايمان عن بصيرة أولى من المدح على ايمان أعمى . قال الامام البيضاوى : «مدح الراسخين في العلم بجودة الذهن وحسن النظر ، وإشارة الى ما استعدوا للاهتمام به الى تأويله ، وهو تجرد العقل عن غواشى الحس»^٢ .

والتقييد بالجملة الحالية - هنا - جاء للإشارة الى نكتة دقيقة ، هي : أن المتشابهة متشابهة على كل من العالم والجاهل جميعاً ، سوى أن العالم بفضل علمه بمقام حكمته تعالى ، يجعل من المتشابهة موضع تأمله ودقيق نظره ، وبذلك يتوصل الى معرفة تأويله الصحيح في نهاية المطاف .

توضيح ذلك : أن الناس تجاه المتشابهة ثلاث فرق : فرقة تستريح الى ظاهره ، وهم غالبية العامة ممن لا معرفة له باصول معارف الإسلام الجليلة ، وفرقة تعتمد على

١- التفسير الكبير ج ٧، ص ١٧٧

٢- انوار التنزيل ج ٢، ص ٥

المتشابه عن قصد التمويه ، لغرض تأويله الى أهداف باطلة ، ذريعة الى تشويه الحقيقة ، وهم أهل الزيغ والانحراف ممن يبغى الفساد بين العباد ، وفرقة ثالثة - هم الراسخون في العلم المؤمنون حقاً - يقفون عند المتشابه يتأملونه بدقيق النظر ، ولسان حالهم : أنّ هذا المتشابه - كأخيه المحكم - صادر عن مقام الحكمة تعالى ، وتقدس ، فلا بد أن وراء ظاهره المتشابه حقيقة راهنة تكون هي المقصودة بالذات ، وهذه الفكرة عن المتشابه هي التي تدعو المؤمنين حقاً الراسخين في العلم الى البحث والتحقيق عن تخريجه الصحيح .

والباحث الصادق - أمام المتشابه - لا يضطرب اضطراب الجاهل الذي وضع إيمانه على حرف «فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة - الحج : ١١» ولا يتروغ مراوغة المعاند الغاشم ، ليجعل من المتشابه ذريعة للعيث والفساد في الأرض «أما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله - آل عمران : ٧» . وإنما يقف عنده وقفة المتأمل الفاحص عن جلي الأمر . ولا شك أنه سوف يحتمضن مطلوبه بفضل استقامته وثباته على إيمانه الصادق ، وقد جرت سنة الله في خلقه : أن من جدّ وجد ومن لجّ ولج . قال تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين - العنكبوت : ٦٩» .

والخلاصة : ان الراسخين في العلم ، بفضل ثباتهم على العقيدة الصادقة ، سوف يهتدون الى معرفة تأويل المتشابه كما أراه الله ، ويكون قولهم : «آمنّا به كلّ من عند ربنا» تمهيداً لطلب الحقيقة ، ونقطة باعثة الى البحث عن طرق التحقيق والفحص .

وهكذا قال الشيخ محمد عبده : «وأما دلالة قولهم : «آمنّا به كلّ من عند ربنا» على التسليم المحض ، فهو لا ينافي العلم ، فإنهم إنّما سلموا بالمتشابه في ظاهره

أوبالنسبة الى غيرهم ، لعلمهم باتفاقه مع المحكم ، فهم لرسوخهم فى العلم ووقوفهم على حق اليقين ، لا يضطربون ولا يتزعزعون ، بل يؤمنون بهذا وبذاك على حد سواء ، لأن كلاً منهما من عند الله ربنا ، ولا غرو ، فالجاهل فى اضطراب دائم والراسخ فى ثبات لازم . ومن اطلع على ينبوع الحقيقة لانتشبه عليه المجارى ، فهو يعرف الحق بذاته ، ويرجع كل قول إليه ، قائلاً : آمنا به كل من عند ربنا .

بقى هنا شىء : وهو أن الامام الرازى - تأكيداً لاختياره الإختصاص - استمدّ بالأدب الرفيع ! وقال : «إنّ العطف بعيد عن ذوق الفصاحة ، ولو اريد العطف لكان الأولى أن يقال : وهم يقولون آمنا به ، أو يقال : ويقولون آمنا به» .^٢

ووافقه على هذا الذوق الأدبى ! سيدنا العلامة الطباطبائى ، قائلاً : وظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصوراً عليه تعالى . وظاهر الكلام أن الواو فى «الراسخون...» للاستيناف ، لكونه طرفاً للترديد الواقع فى صدر الآية « فأما الذين . . . » . ولو كان للعطف الدال على التشريك ، لكان من افضل الراسخين - حينذاك - هو الرسول الأعظم ، فكان من حقّه أن يفرد بالذكر ، تشريفاً بمقامه كما فى قوله تعالى : « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون - البقرة : ٢٨٥ » . وقوله : « ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين - براءة : ٢٦ » . وقوله : « وهذا النبى والذين آمنوا - آل عمران : ٦٨ » .

قلت : إن كنا نرى لهذين العلمين منزلتهما الشامخة فى مجال الحكمة والعلوم العقلية ، فإنّ ذلك - بنفس المرتبة - أبعدهما عن عالم الأدب اللسنى والعلوم النقلية ، لاسيما وأنهما لم يذكرنا سبب تلك الاستدافة الغربية ! وقد أسلفنا نقل كلام أئمة

١- تفسير المنار ج ٣، ص ١٦٧

٢- التفسير الكبير ج ٧، ص ١٧٧

الادب في ترجيح العطف على الاستيناف^١. هذا ، وقد ذهب عن الامام الرازي أنّ الجملة الحالية إذا صدرت بالفعل المضارع يجب تجريدتها عن الواو البتة ، قال ابن مالك في باب الحال من ألفيته في النحو :

وذا ت بدء بمضارع ثبت حوت ضميراً ومن الواو اخلت

كما ذهب عن سيدنا الطباطبائي أنّ في القرآن كثيراً من عمومات تشمل النبي الأكرم ﷺ يقيناً ولم يفرد بالذكر ، منها: قوله تعالى : «شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط - آل عمران : ١٨» ، وقوله : «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة - فصلت : ٣٠» ، وقوله : «ان الله يدافع عن الذين آمنوا - الحج : ٣٨» ، وقوله : «انما يخشى الله من عباده العلماء - فاطر : ٢٨» وغيرهن من آيات كثيرة جداً .

مزعومة المنكرين

نسب جلال الدين السيوطي القول باختصاص معرفة التأويل به تعالى ، الى أكثرية السلف خصوصاً أهل السنة ، قال : « وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم ، خصوصاً أهل السنة ، فذهبوا الى الثاني ، أي القول بأنّ التأويل لا يعلمه إلا الله »^٢ .

وأظنه مبالغاً في هذه النسبة ، ولا سيما بعد مراجعتنا لأقوال السلف اتضح عدم صحة النسبة . قال ابن تيمية : «قول القائل : إنّ أكثر السلف على أنّ التأويل لا يعلمه إلا الله ، قول بلا علم^٣ . فانه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنّه قال : إنّ الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه . بل الثابت عن الصحابة أنّ المتشابه يعلمه الراسخون ...» .

١- تقدم في صفحة : ٣٩

٢- الاتقان ج ٢ ، ص ٣ ط ١ . و ص ٥ - ٦ ط ٢ .

٣- ويل لمن كفره نمرود

وقال - قبل ذلك - : «إنَّ السلف قد قال كثير منهم: إنَّهم يعلمون تأويله ، منهم مجاهد مع جلاله قدره ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن جعفر بن الزبير ، وابن عباس ... وقد تكلم أحمد بن حنبل في تأويل كثير من آيات متشابهة ... إلى أن يقول: وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة ، منهم ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقي ...»^١ .

وقال أبو جعفر الطبري : «إنَّ جميع ما أنزل الله من آي القرآن على رسوله ﷺ فإنما أنزله عليه بياناً له ولأمته وهدى للعالمين ، وغير جائز ان يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه ، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة ، ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل»^٢ .

وقال مجاهد : «عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره ، أوقفه عند كل آية وأسأله عنها . وكان يقول : أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»^٣ .

وقال الراغب - في مقدمة تفسيره - : «وذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً ، وإلا لادى إلى إبطال فائدة الإنتفاع به ، وحملوا قوله : «والراسخون» بالمعطف على قوله : «الالاه» وقوله : «يقولون» جملة حالية^٤ . وذهب أبو الحسن الأشعري - شيخ الأشاعرة - إلى وجوب الوقف على «والراسخون في العلم» لأنَّهم يعلمون تأويل المتشابه . وقد أوضح هذا الرأي وانتصر له أبو إسحاق الشيرازي بقوله : «ليس شيء استأثر الله بعلمه ، بل وقف العلماء عليه ، لأنَّ الله تعالى أوردَ هذا مدحاً للعلماء ، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامة»^٥ .

١- بنقل تفسير المنار ج ٣، ص ١٧٥ - ١٧٤

٢- جامع البيان للطبري ج ٣، ص ١١٦

٣- تفسير المنار ج ٣، ص ١٨٢

٤- البرهان للزركشي ج ٢، ص ٧٤

٥- المباحث لصبحي الصالح ص ٢٨٢

وفيما نقلنا هنا - من أقوال الأعلام كفاية في تزييف مانسبه جلال الدين الى السلف . ولعلّ الباحث يجد من أقوال الأئمة أكثر .

والعمدة : أن منكرى العطف استندوا إلى مزعومة مفضوحة ، قالوا: «لان المتشابه هو ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل ، مما استأثر الله بعلمه دون خلقه ، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى بن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك ، فإنّ ذلك لا يعلمه أحد» . وقالوا في تفسير الآية : يعنى جل ثناؤه بذلك : وما يعلم وقت قيام الساعة وانقضاء مدة أجل محمد وامته وما هو كائن ، إلاّ الله ، دون من سواه من البشر ، الذين أملوا ادراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة . وأما الراسخون في العلم فيقولون آمناّ به كل من عند ربنا لا يعلمون ذلك ، ولكن فضل علمهم في ذلك على غيرهم ، العلم بأنّ الله هو العالم بذلك دون من سواه من خلقه ^٢ .

ولعلّ هؤلاء قد غشيتهم غفلة ، فذهب عنهم أنّ آية آل عمران تقصد تنويع آي القرآن إلى محكمات ومتشابهات ، وأنّ المحكمات هن مراجع الأئمة بالذات ، أما الآيات المتشابهات فيعمد إلى تأويلها الباطل أهل الأهواء الفاسدة ولا يعلم تأويلها الصحيح سوى الله والراسخين في العلم . هذا هو فحوى الآية الكريمة ، الأمر الذي لا يرتبط والامور السبعة التي استأثر الله بعلمها من نحو خروج الدجال، ونزول المسيح وطلوع الشمس من المغرب ، أنها من أشراط الساعة ، ولا ماساس لها بموضوع آية آل عمران . أنها غفلة غريبة لاندرى كيف خفى عليهم ذلك ولم يتنبهوا إلى هذا الفضح الواضح ! ؟

١- راجع : جامع البيان للطبري ج ٣، ص ١١٦

٢- المصدر ص ١٢٢ . ومجمع البيان ج ٢، ص ٤١٠ . والبيضاوي ج ٢، ص ٥ .

من هم الراسخون في العلم ؟

الراسخون في العلم هم من لمسوا من المتشابه وجه التشابه فيه أولاً ، ثم تمكنوا من الوصول إلى وجه تخريجه الصحيح في نهاية الأمر ، لأن فهم السؤال نصف الجواب كما قيل .

إذ الراسخون في العلم هم من عرفوا من قواعد الدين اسسها المكينة، ودرسوا من واقع الشريعة اصول مبانيها الرصينة ، ومن ثم إذا ما جوبهوا بما يخالفها في ظاهر اللفظ ، عرفوا ان له تأويلاً صحيحاً ، يجب التوصل إليه في ضوء تلك المعارف الأولية ، ومن جد في طلب شيء ، وكان من أهله ، تحصله في نهاية المطاف . أما الجاهل الأعمى فلا يعرف من الدين شيئاً سوى ظواهره ، من غير أن يميز بين محكماته والمتشابهات .

والخلاصة : أن العلماء الصادقين ، بما أنهم واقفون على قواعد الشريعة ، وعارفون بموازن الشرع ومقاييسه الدقيقة ، إذا ما عرضت عليهم متشابهات الامور هم قادرون على استنباط حقائقها وعلى أوجه تخريجاتها الصحيحة .

ومن ثم فإنهم يعلمون تأويل المتشابهات بفضل رسوخهم في فهم حقيقة الدين بعناية رب العالمين « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - العنكبوت : ٦٩ » . « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى - مريم : ٧٦ » ، « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة - فصلت : ٣٠ » ، وقد قال تعالى : « وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً - الجن : ١٦ » . أوليس العلم بحقائق الشريعة البيضاء من الماء الغدق ؟ انها شربة حياة العلم ، يفيضها الاله تعالى على من يشاء من عباده المؤمنين ، ويطلعهم على أسرار الملك والملكوت في العالمين .

وأول الراسخين في العلم هو رسول الله ﷺ . قال الإمام محمد بن علي الباقر

عليه السلام: «أفضل الراسخين في العلم رسول الله ﷺ قد علم جميع ما أنزل الله في القرآن من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله» ثمّ باب مدينة علمه أمير المؤمنين عليه السلام - والأوصياء بعده - صلوات الله عليهم أجمعين - قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ان الله علم نبيه التنزيل والتأويل ، فعلم رسول الله ﷺ علماً علينا وعليما ، والله» ٢ .

وهكذا استمر بين أظهر المسلمين - عبر العصور - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فثبتوا واستقاموا على الطريقة فسقام ربهم ماء غدقاً . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين ٣ .

وقد جاء التعبير عن علماء أهل الكتاب الربانيين بالراسخين في العلم «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك - النساء : ١٦٢» دليلاً على أنّ العلماء العاملين ، الذين ساروا على منهج الدين القويم ، وكملت معرفتهم بحقائق الشريعة الطاهرة ، هم راسخون في العلم ، ويعلمون التأويل . قال الامام الصادق عليه السلام: «نحن الراسخون في العلم ، فنحن نعلم تأويله» ٤ . وعن ابن عباس - تلميذ الامام أمير المؤمنين عليه السلام : «انا ممن يعلم تأويله» ٥ . وفي وصية النبي ﷺ: «فما اشتبه عليكم فاسألوا عنه اهل العلم يخبرونكم» ٦ . فلولا أنّ في أمته علماء عارفين

١- بحار الانوار ج ٩٢، ص ٧٨

٢- مرآة الانوار ص ١٥

٣- سفينة البحار ج ١، ص ٥٥

٤- تفسير البرهان للبحراني ج ١، ص ٢٧١

٥- الدر المنثور للسيوطي ج ٢، ص ٧

٦- آلاء الرحمن للبلاغي ج ١، ص ٢٥٨

بتأويل المتشابهات، لما أوصى ﷺ بمراجعتهم في حلّ متشابكات الأمور و«الحمد لله
الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله» ' وصلى الله على محمد وآله
الطاهرين .

تعرفوا بحالهم الى :

مذاهب سلفيتنا

اوجدت التشابه في وجه الايات

رأينا من الأفضل - قبل عرض المتشابهات - ان نتعرف
الى شىء من مذاهب سلفية كانت السبب الاول فى نشوء
التشابه فى وجه كثير من آيات القرآن الحكيم . وكان أسبقهم
الى ذلك «الصفاتية» ، ثم انحدرت عنها «الأشعرية» و«المشبهة»
و «الكرامية» ، كما تشعبت منها «الحشوية» و «الجبرية»
و«القدرية» . وكانت مذاهب أهل العدل ؛ «العدلية» - فى
حقيقتها - انتفاضة حقيقية وعقلانية فى وجه السلفيين الظاهريين
المتزمتين ، واليك :

تمهيد

تقدم أن غالبية مانعبره اليوم متشابهاً من آى القرآن ، قدحصل التشابه فيها فى عصر متأخر عن زمن نزولها ، يوم راجت البحوث الجدلية حول مسائل كلامية^١ عن ذاته المقدسة وصفاته الجمالية والجلالية^٢ .

كان أكثر السلف - ممن لاعهدلهم بالعلوم العقلية ، ولاوقفوا على كنههقائق

١- يطلق «علم الكلام» على جملة مسائل خلافية تبحث عن الوجود وعن شؤون الواجب تعالى ، تشعباً من فلسفة اليونان ، وتطبيقاً مع العقيدة الاسلامية بالذات ، مزيداً عليها مسائل النبوة والامامة والمعاد .

٢- تطلق «صفات الجمال» على «الصفات الثبوتية» التى ينعت بهاذاته المقدمه ، ولايجوز اخلاؤه تعالى عنها ولااتصافه باضدادها ، كالحى والقادر والعالم . وتطلق «صفات الجلال» على «الصفات السلبية» التى يتنزه ذاته المقدسة عن الاتصاف بها ، كالحديث والجسمية والرؤية ونحوها .

الإسلام ، والتي كانت دقيقة للغاية ، ماعدا ظواهر ألفاظ كانوا يلوكونها من غير تعميق ، وبالتالي لم تكن لهم تلك المعرفة الدقيقة بشؤون الواجب تعالى وتفصيل صفاته الثبوتية والسلبية ، ولا تمييز صفات الذات عن صفات الفعل ' وما إلى ذلك - كانوا اذا ما وجدوا من نعوته تعالى مذكورة في الكتاب أوفى أقوال الرسول ﷺ أخذوا بظواهرها مستريحين بأنفسهم الى ما يفهمون منها حسب ما أوتوا من أفهام ساذجة بدائية ، لا يزيدون شيئاً ولا ينقصون .

لأشك أنها كانت طريقة الوقف والاحتياط في الدين ، بالنسبة إلى من لم يرتفع مستواه عن مستوى العامة بشيء . وبذلك قد سلموا عن كثير من شبهات اعترضت طرق الخلف ، ممن ولجوا في مسائل عقلية غامضة ، وكان قد أهوزتهم الوسيلة النافذة ، التي كانت تؤهلهم لسبر تلكم الأغوار .

هذا أبوهريرة سئل عن المبدع الأول كيف وجد ؟ فلم يحجر جواباً وجعل يضطرب من مفاجأة هكذا سؤال . قال : واني لجالس ذات يوم ، اذ قال رجل من أهل العراق : يا أبا هريرة هذا «الله» خلقنا ، فمن خلق الله تبارك وتعالى ؟ قال أبوهريرة : «فوضعت اصبعي في اذني وصرخت : صدق الله ورسوله ، الله الواحد الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد»^٢ . اذ مسألة « وجود الواجب بالذات »^٣

١- صفات الذات : صفات ثابتة قديمة لا يجوز إخلاء الذات عنها أبداً ، كالعالم والحى والقادر . وصفات الفعل ما يجوز إخلاء الذات عنها فيما لم تتعلق إرادته تعالى بالابجاد ، كالخالق والرازق والمحى والمميت .

٢- راجع : رسالة «الرد على الجهمية» لثمان بن سعيد الدارمي ، ص ٧

٣- ينقسم الموجود الى «موجود بالذات» و«موجود بالغير» ، ونعني بالثاني ما يستمد في وجوده من خارج ذاته ، اى يوجد غير . وكل «ما بالغير» لابد أن ينتهي الى «ما بالذات» لامحالة ، وهومنتهى سلسلة الموجودات . ومن ثم فالبارئ تعالى هو مبدأ هذه السلسلة ، فهو «موجود بالذات» لم يستمد في وجوده من خارج ذاته ، وإلآلم تنته السلسلة . ويطلق عليه تعالى ←

لم تكن مما يدركها أمثال أبي هريرة ذلك العهد .

وقال أبو بكر: «أى أرض تقلنى وأى سماء تظلمنى إذا قلت فى كلام الله ما لا أعلم». وسئل عبيدة السلماني عن شيء من تفسير القرآن ، فقال: «راتق الله عليك بالسداد». وجاء رجل إلى مالك بن أنس - إمام المالكية - فقال : يا أبا عبد الله . «الرحمان على العرش استوى» كيف استوى؟ فوجد مالك من مقالته، وعلته الرخصاء، وأطرق برأسه. وبعد أن سرى عنه قال: «الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وإنى لأخاف ان تكون ضالاً ، ثم أمر بالرجل فأخرج من المسجد»^٢ .

وفى رواية : وزاد «من عاد إلى هذا السؤال عنه أضرب عنقه» .

وسئل الأوزاعي عن تفسير هذه الآية ، فقال: «الرحمان على العرش استوى ، كما قال هزوجل ، وإنى لأراك ضالاً» .

وسئل ابن راهويه عن الإستواء : أ قائم هو أم قاعد ؟ فقال: «لا يمل عن القيام حتى يقعد ، ولا يمل عن القعود حتى يقوم ، وأنت إلى غير هذا السؤال أحوج»^٣ .

تلك كانت طريقة السلف ممن كانت تعوزهم كفاءة التجوال فى ميادين البحوث النظرية العريقة ، وبذلك سماوا: «الصفاتية»، أى الذين أخذوا بظواهر الصفات وان لم يدركوا حقائقها. وتشعبت منهم «المشبهة» الذين أخذوا من ظاهر الصفات دليلاً على

→ «واجب الوجود» ، كما يطلق على غيره - من سائر الموجودات جميعاً - : «ممكن الوجود». فوجوده تعالى وجود كامل غنى بذاته لذاته، وغيره محتاج فقير، ومستمد منه تعالى وتقدس .

١- نفس المصدر السابق ص ٥

٢- نفس المصدر ص ٢٧ . يقال : وجد على كذا أى غضب . والرخضاء - بضم الراء

وفتح الحاء - عرق الحمى يتصبب من جبين المحموم .

٣- البرهان للزركشى ج ١، ص ٧٨

اثبات مفاهيمها المعهودة عندهم لذاته تعالى ، تشبيهاً بغيره من المخلوقين . ومنهم :
 «الكرامية» أصحاب أبي عبدالله محمد بن كرام^١ كانوا ممن يثبتون الصفات إلا أنهم
 انتهوا فيها إلى التجسيم والتشبيه . أمّا «الأشعرية» فكانت امتداداً للصفاتية على ما سنده .
 وأمّا «المعتزلة» فكانوا انتفاضة في وجه السلف الصفاتيين ، على يد واصل بن عطاء
 وعمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصرى ، جرى بين واصل واستاذه نقاش في مسألة
 مرتكب الكبائر هل هو مؤمن أم هو خارج عن الإيمان ، فقال واصل : لا مؤمن ولا
 كافر ، والتزم بالمنزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن ، فاعتزله واصل إلى ناحية
 المسجد ، وانضم إليه عمرو .

الصفاتية

كان أكثرية السلف يثبتون لله صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة
 والسمع والبصر والكلام والجود والإنعام والجلال والاكرام ، ولا يفرقون بين صفات
 الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً . كما كانوا يثبتون مثل
 اليد والرجل والوجه والعين والنزول والصعود والرؤية ، ويسمونها «صفات خبرية»
 أى أنها صفات وردت في الشريعة وجاء بها الخبر الصحيح . كانوا يعترفون بها
 وان لم يدركوا من حقيقتها شيئاً ، وكانوا لا يشبهون ذاته المقدسة بصفات المخلوقين
 إذ ليس كمثله شيء ، ولا كانوا يؤولونها . قالوا : عرفنا بمقتضى العقل أن الله
 تعالى ليس كمثله شيء ، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء منها ، وقطعنا
 بذلك ، إلا أننا لانعرف معنى اللفظ الوارد فيه ، مثل قوله تعالى : «الرحمن على
 العرش استوى - طه : ٥» ، ومثل قوله : «خلقت بيدي - ص : ٧٥» ، ومثل قوله :

١ - سننقد في آخر الكتاب فصلاً عن ترجمة من يأتي ذكره في هذا الحقل من اصحاب

الاراء الكلامية وأضرابهم ، فلانشوش على القارىء ذهنه بمراجعة عدة تراجم ربنا في ذيل

«وجاء ربك - الفجر: ٢٢»، الى غير ذلك . قالوا : ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها . بل التكليف قدورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له وليس كمثلته شيء، وذلك قد اثبتناه يقيناً^١ .

من هؤلاء : مالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل ، وسفيان بن سعيد الثوري ، وداود بن علي الإصفهاني ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وشريك بن عبدالله ، وابن أبي ليلى ، ومقاتل بن سليمان ، ومن تابعهم من أصحاب الحديث ، وسما «الحشوية» أيضاً لأنهم كانوا يحشون ملاء كتبهم بما عثروا عليه من أحاديث غثه وسمينة ولا مبالاة^٢ . حتى انتهى الزمان الى عبدالله بن سعيد الكلابي وأبي العباس القلانسي والحارث ابن أسد المحاسبي . وهؤلاء كانوا من جملة السلف ، إلا أنهم باشروا علم الكلام ، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية ، وبراهين أصولية . وصنّف بعضهم ودرس بعض ، حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري وبين استاذه أبي علي الجبائي مناظرة في مسألة «الصلاح والأصلح»^٣ فتخاصما، وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة (الصفائية من السلف) فأيدّ مقالاتهم بمنهج كلامية ، وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة وانتقلت سمة «الصفائية» الى «الأشعرية»^٤ .

١- الملل والنحل للشهرستاني ج ١، ص ٩٢

٢- راجع: الملل والنحل للشهرستاني ج ١، ص ٩٣ و ١٠٤ . والمقالات والفرق لسعد

ابن عبدالله الأشعري، ص ٦.

٣- تقول المعتزلة : ان الله لا يفعل إلا ما فيه مصلحة، ولا يكلف إلا ما فيه مصلحة، ولا يختار

إلا ما هو الأصلح ، وذلك بمقتضى حكمته تعالى ، وانكرت الاشاعرة ذلك ، قالوا : إن الله يفعل ما يشاء ويختار ما يريد .

٤- الملل والنحل للشهرستاني ج ١، ص ٩٣

الحشوية

قال ابن المرتضى : «والحشوية لامذهب لهم منفرد ، وأجمعوا على الجبر والتشبيه ، وجسموا وصوروا وقالوا بالأعضاء والجوارح للرب تعالى ، وقالوا بقدوم القرآن . قال الحاكم : ومنهم أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وداود بن محمد الكرابيسي . ومن متأخريهم : محمد بن اسحاق بن خزيمة صنف كتاباً في أعضاء الرب تعالى عن ذلك ^١ .

وقال الجرجاني : «وسميت الحشوية حشوية لأنهم يحشون الأحاديث التي لأصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ، قال : وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه ، وتوصيفه تعالى ، بالنفس واليد والسمع والبصر . وقالوا : إن كل حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجة أياً كانت الوساطة ^٢ .

وهذا الاسم يطلق - كما قدمنا - على جماعة السلفيين ، ممن أخذوا بظواهر الفاظ الشريعة ، فلزمهم القول بالجبر والتشبيه وإثبات الجوارح والأعضاء لله ، مما هو لازم الجسمية ، تعالى الله عن ذلك ، وتمسكوا في ذلك بظواهر آيات وروايات رووها عن السلف ، حسبما يبدو لك فيما ناقش الأشعري ومن حذا حذوه ، في القول بالجهة والجوارح والقول بالمعاني والاحوال الزائدة على ذاته تعالى وتقدس .

وهم فريد وجدى فيما زعم : أن الحشوية فرقة من المعتزلة تمسكوا بظواهر القرآن ووقعوا في التجسيم ، قال : وهم منسوبون إلى الحشو أى رذال الناس ^٣ . ولعله يقصد بهم أصحاب الحديث من أصحاب الأشعري ، كانوا على مذهب الاعتزال ، فانحازوا إلى الانتصار لمذهب السلف الصفاتيين . وقد ذكر «الصفدي» : «أن الغالب في

١- الملل والنحل لابن المرتضى اليمنى ص ١١ - ١٢

٢- التعريفات للجرجاني ص ٣٤١ ، والحوار العين ص ٢٠٤ ، ومعرفة المذاهب ص ١٥٠ .

٣- دائرة معارف القرن العشرين ج ٣ ص ٤٤٧ ، مادة «حشو» .

الحنفية معتزلة ، والغالب في الشافعية أشاعرة ، والغالب في المالكية قدرية (لعله يعني جبرية) والغالب في الحنابلة حشوية^١ .

الأشعرية

أصحاب أبي الحسن على بن اسماعيل الأشعري^٢ نسبة إلى جده الثامن عبد الله ابن قيس أبي موسى الأشعري^٣ صاحب عمرو بن العاص في قضية التحكيم. كان أبو الحسن في بدء أمره معتزلياً ، وكان يتلمذ على امام المعتزلة في عصره أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي^٤ فخالفه في مناظرة وقعت بينه وبين استاذه^٥ .

وفي نهاية المناظرة قال الجبائي للأشعري : إنك مجنون ، فقال : لا ، بل وقف حمار الشيخ في العقبة . فرجع الأشعري عن عقيدة الاعتزال^٦ وقام في نصرة «الصفائية»

١- الغيث المنسجم للصفدي ج ٢ ص ٤٧ . وراجع : ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٣ ص ٧١ . ومن أشهر كتبهم كتاب التوحيد والصفات لابن خزيمة ، طبع ١٣٨٧ هـ
٢- توفي سنة ٣٢٤ هـ . ومن أشهر كتبه «مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين» و«الابانة عن اصول الدين» .

٣- هلك سنة ٤٤ هـ ، كان في وقعة الجمل والياً على الكوفة ، امره امير المؤمنين -ع- عليها . فارسل امير المؤمنين يدعو أهل الكوفة لينصروه ، لكن أباموسى الأشعري أمرهم بالعودة فعزله امير المؤمنين ، وكان منعزلاً حتى أيام التحكيم بصفين فخدعه عمرو بن العاص . فارتد ابوموسى إلى الكوفة ومات بها .

٤- توفي سنة ٣٠٣ هـ . له في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة .

٥- المناظرة نقلها ابن خلكان في ترجمة الجبائي برقم : ٦٠٧ ج ٤ ص ٢٦٧-٢٦٨ .

٦- قال ابن الجوزي في المنتظم ص ٧١ : «ان الأشعري ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلاً (اربعين سنة) ثم تركه واتى بمقالة بخط بها عقائد الناس» . راجع : هامش الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٧٨ .

وتاب من القول بالعدل وخلق القرآن ، في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ،
ورقى كرسياً ونادى بأعلى صوته: «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا عرفه
بنفسي ، أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن
أفعال الشرّ أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم
ومعايبهم» .

وأصبح أبو الحسن الأشعري - بعد ذلك - شيخ أهل السنة والجماعة^٢ وأخذ
مذهبه ينتشر في الناس انتشاراً بطيئاً حتى أوائل القرن الخامس ، حيث تدخلت
الحكومة تدخلاً رسمياً لفض المنازعات المذهبية ، ففي عام ٤٠٨ هـ أصدر الخليفة
القادر بالله العباسي كتاباً ضد المعتزلة ، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة
في الاعتزال ، وأنذرهم - ان خالفوا أمره - بحلول النكال والعقوبة . وانتهج
السلطان محمود في غزوة نهج الخليفة في بغداد ، في صلب المخالفين و نفيهم
و حبسهم ، وأمر بلعنهم على المنابر . قال ابن جوزي : « و صار ذلك سنة في
الاسلام »^٣ .

١- راجع: ابن خلكان برقم: ٤٢٩ ج ٣ ص ٢٨٥ . وقد خص الأشعري من كتابه «مقالات
الاسلاميين» فصلاً مشعباً بعرض آراء المعتزلة .

٢- هذه السمة وسمه بها ارباب التراجم واصحاب الحديث من الحشوية ، لاسيما ابن
تيمية الحراني في كتابه : المنهاج والموافقة . وتقدم عن الشهرستاني في الملل والنحل ج ١
ص ٩٣ .

٣- المنتظم لابن جوزي ص ١٦٥ ب . قلت : ولعل التكييل بائمال هؤلاء كانت سنة
قبل ذلك . فهذا عثمان بن سعيد الدارمي يتهج بمقتل الجعد بن درهم على يد خالدين عبدالله
القسري . قال خطب خالد بواسط يوم الاضحى (عام ١١٨) فقال : ايها الناس ، ارجعوا
فضحوا تقبل الله منا ومنكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً
ولم يكلم موسى تكليماً ، وتعالى عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه . ←

و صدر في بغداد كتاب آخر سمي « الاعتقاد القادري » ، و ذلك في ١٧
 المحرم سنة ٤٠٩ هـ و قرىء في الدواوين ، و كتب الفقهاء فيه : « ان هذا اعتقاد المسلمين
 و من خالفه فقد فسق و كفر » جاء في الكتاب : « و هو القادر بقدرته ، و العالم بعلم أزلي غير
 مستفاد ، و هو السميع بسمع ، و المبصر ببصر ، متكلم بكلام ، لا يوصف إلا بما و صف
 بها نبيّه - ص - ، و كلّ صفة و صف بها نفسه ، أو وصفه بها رسوله ، فهي صفة حقيقية
 لا مبرّزية ، و أنّ كلام الله غير مخلوق ، تكلم به تكليماً ، فهو غير مخلوق بكلّ حال ، متلوّ
 و محفوظاً و مكتوباً و مسموعاً ، و من قال : انه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر ،
 حلال الدم بعد الاستتابة منه ... »^١ .

وبهذه المهزلة الحمقانية انتهت سيطرة العقل على اصول العقائد ، ليخلفها
 تقليد مبتذل أعشى ، فلم يعد لبرهان التحقيق و النظر في اصول العقيدة الاسلامية
 مجال ، و أصبح الدين في أحرق اسمه فاقداً لبرهان العقل . هكذا أطاحوا بمعالم

→ انظر : الرد على الجهمية للدارمي ص ٤ . و الجعد هذا كان معتزلياً ، و هو اول من
 قال بخلق القرآن ، و نفى الصفات عن الذات ، و كان يقول بالقدر . نعم كانت له مخاريق
 فرجع عنها ، منها : انه جعل في قارورة تراباً و ماء فاستحال دوداً و هو ام ، فقال : انا خلقت هذا
 لانى كنت سبب كونه . فبلغ ذلك الامام جعفر بن محمد الصادق - ع - فقال : فليقل : كم
 هو ، و كم الذكران منه و الاناث ، إن كان خلقه . و ليأمر الذى يسمى الى هذا ان يرجع الى
 غيره . فبلغه ذلك فرجع . لسان الميزان لابن حجر ج ٢ ص ١٠٥ . و الكامل لابن الاثير ج ٤
 ص ٣٣٢ - بيروت . و الاعلام للزركلّى ج ٢ ص ١١٤ و الملل و النحل ج ١ ص ٨٦ ، و البداية و النهاية
 لابن كثير ج ٩ ص ٣٥٠ .

١ - المتظم ص ١٩٥ ب - ١٩٦ أ . و الحضارة الاسلامية لادم متزج ص ١٨١ - ٣٨٢
 و البداية و النهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٦ - ٧ . و هامش تاريخ ابن الاثير ج ٧ ص ٢٩٩ - ٣٠٠
 طبعة دار الكتاب العربي - بيروت .

الاسلام وشوهوا من سمعته المجيدة ، الى مظاهر شكلية جوفاء^١ .
واليك من آراء الأشعري ما صريح لفظه :

* * *

قال أبو الحسن الأشعري : « قولنا الذى نقول به وديانتنا التى ندين بها :
التمسك بكتاب ربنا وبسنة نبينا -ص- وماروى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ،
وبما يقول به أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون... »
« وإن الله مستو على عرشه ، كما قال : الرحمان على العرش استوى . وإن
له وجهاً ، كما قال : ويبقى وجه ربك . وإن له يدين بلا كيف ، كما قال : خلقت
بيدى . وقال : بل يدها مبسوطتان . و ان له عينين بلا كيف ، كما قال : تجرى
بأعيننا . وإن الله علماً ، كما قال : أنزله بعلمه . ونسبت له السمع والبصر ، ولانفى
ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج . ونسبت أن لله قوة ، كما قال : هو
أشد منهم قوة . ونقول : إن كلام الله غير مخلوق . وإن أحداً لا يستطيع أن يفعل
شيئاً قبل أن يفعله الله . وإنه لا خالق إلا الله . وإن أعمال العبد مخلوقة لله مقدره ، كما
قال : خلقكم وما تعملون » .

« وإن الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر اليهم وأصلحهم وهداهم .
وأضل الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالآيات ، كما زعم أهل الزيغ والظغيان .
ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين . وإن الله يقدر
أن يصلح الكافرين حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم ،
وخذلهم وطبع على قلوبهم » .

١- قال الدكتور احمد امين : « وفى رأى ، لوسادت تعاليم المعتزلة الى اليوم ،
لكان للمسلمين موقف آخر فى التاريخ غير موقفهم الحالى ، وقد اعجزهم التسليم ، وشلهم
الجبر ، وقعد بهم التواكل » معرضاً بمذهب الاشعري السائد على عامة المسلمين منذ المهد
القادرى حتى اليوم . راجع : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٧٠

« ونقول : إن كلام الله غير مخلوق ، وإن من قال بخلق القرآن فهو كافر .
و ندين بأن الله تعالى يرى فى الآخرة بالأبصار كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه
المؤمنون كما جاءت الروايات عن الرسول - ص - و أن الكافرين محجوبون
عنه ، كما قال : كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . و ان موسى سأل ربه
الرؤية فى الدنيا ، و أن الله تجلّى للجبل فجعله دكاً ، فعلم بذلك موسى أنه لا
يراه فى الدنيا» .

« و ندين الله عز وجل بأنه يقرب القلوب بين اصبعين من أصابعه ، وأنه عز
وجل يضع السماوات على إصبع والأرضين على إصبع ، كما جاءت الرواية عن
رسول الله - ص - » .

« ونصدق بجميع الروايات التى يشتهها أهل النقل من النزول الى السماء
الدنيا ، و ان الرب عز وجل يقول : هل من سائل ، هل من مستغفر ، و سائر ما نقلوه
و اثبتوه ، خلافاً لما قال أهل الزيغ والتضليل » .

« ونقول : إن الله عز وجل يجيء يوم القيامة ، كما قال : وجاء ربك
و الملك صفأ صفأ . و إن الله يقرب من عباده كيف شاء ، كما قال : و نحن أقرب
إليه من حبل الوريد . و قال : ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى »^١ .

وقال : « البارئ تعالى عالم بعلم ، قادر بقدره ، حى بحياة ، مرید بارادة ،
متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر . قال : وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته
تعالى ، لا يقال : هو ، ولا : هو ، ولا : هو غيره ، ولا : لا هو ، ولا : لا غيره » .

قال : « وإرادته تعالى واحدة قديمة أزلية ، متعلقة بجميع المرادات من
أعماله الخاصة وأفعال عباده ، من حيث إنها مخلوقة له ، لا من حيث إنها مكتسبة

١- نقلنا هذه النصوص بألفاظها عن كتابه : «الابانة» ط ٢ حيدرآباد ص ٥ - ٩ . وقد

ذكرها بين ألفاظها أيضاً فى كتابه : «مقالات الاسلاميين» ج ١ ص ٣٢٠ - ٣٢٥ عند حكاية
جملة قول اصحاب الحديث واهل السنة ، فراجع .

لهم . قال : أراد الجميع ، خيرا وشرها ، ونفعها وضررها . وكما أراد و علم ، أراد من العباد ما علم ، وأمر القلم حتى كتب فى اللوح المحفوظ . فذلك حكمه وقضاؤه وقدره الذى لا يتغير ولا يتبدل . وخلاف المعلوم مقدور الجنس ، محال الوقوع « ١ » ،

وسند كراستدلالاته على هذه العقائد عند ما تعرض الآيات .

المشبهة

حكى الأشعري عن محمد بن عيسى أنه حكى عن مضر ، وكهمس ، وأحمد الهجيمي : أنهم أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ، وأن المسلمين المخلصين يعاقبون فى الدنيا والآخرة ، إذا بلغوا فى الرياضة والاجتهاد إلى حد الإخلاص والاتحاد المحض .

وحكى الكمبي عن بعضهم : أنه كان يجوز الرؤية فى دار الدنيا ، وأن يزوروه و يزورهم . وحكى عن داود الجواربي أنه قال : « اعفونى عن الفرج واللحية واسألونى عما وراء ذلك » وقال : « إنَّ معبوده جسم ولحم و دم ، و له جوارح وأعضاء ، من يد ورجل و رأس ولسان وعينين و اذنين ، ومع ذلك جسم لا كالأجسام ، ولحم لا كاللحوم ، و دم لا كالدماء ، وكذلك سائر الصفات وهو لا يشبه شيئا من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء » . وحكى عنه أنه قال : « هو أجوف من أعلاه إلى صدره ، مصمت ماسوى ذلك ، وأنَّ له وفرة (الشعر المتدلى على الأذنين) سوداء ، وله شعر قطط » .

وما ورد فى التنزيل من « الاستواء » و « الوجه » و « اليدين » و « الجنب » و « المجرى » و « الإتيان » و « الفوقية » وغير ذلك ، فقد أجرها على ما يفهم من ظاهرها عند الإطلاق على الأجسام .

١- الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٩٥-٩٦

وكذلك ماورد في الاخبار من الصورة وغيرها، في قوله -ص- « خلق الله آدم على صورته ». و قوله : « حتى يضع الجبار قدمه في النار ». و قوله : « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمان ». و قوله : « خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً ». و قوله : « وضع يده أو كفه على كتفى حتى وجدت برد أنامله ». الى غير ذلك ، أجروها على مايتعارف في صفات الاجسام .

وروا عن النبي -ص- « ان الله تعالى اشتكى عينيه فعادته الملائكة ». و « بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه ». و « ان العرش ليثبط من تحته كأطيبت الرجل الحديد ». و « انه يفضل من كل جانب أربع أصابع » .

وروا عن النبي -ص- أنه قال : « لقيني ربي فصافحني وكافحني ووضع يده بين كتفي حتى وجدت برد انامله » .

ومن المشبهة من مال الى مذهب الحلول الصوفي ، قالوا : يجوز أن يظهر الباري تعالى بصورة شخص - كما كان جبرئيل ينزل في صورة دحية الكلبي - وقد تمثل تعالى لمريم في صورة بشر سوى . وعليه حملوا قوله -ص- : « رأيت ربي في أحسن صورة »^١ .

الكرامية

أصحاب محمد بن كرام ، كان من سجستان ثم خرج الى نيسابور، وادعى مخاريق زعمها ظواهر الشرع ، وكانت دعوته ذات صبغة سلفية ، فنصره السلطان محمود بن سبكتكين ، فصب البلاء على أصحاب الاعتزال والشيعة بالخصوص . قال الشهرستاني : « ونبغ رجل متممس بالزهد^٢ من سجستان ، يقال له : أبو عبدالله

١- الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٠٥-١٠٦-١٠٨

٢- التمس : التستر بالشيء

محمد بن كرام ، قليل العلم ، قد قمش^١ من كل مذهب ضعفاً ، و أثبتة فى كتابه ، و روجه على اغتنام^٢ غرجة و غور و سواد بلاد خراسان ، فانتظم ناموسه ، و صار ذلك مذهبا^٣ .

قال : « وانما عدد ناه من « الصفاتية » لانه كان ممن يثبت الصفات ، الا انه ينتهى فيها الى التجسيم والتشبيه - قال : وهم طوائف بلغ عددهم الى اثنتى عشرة فرقة » .

« نص أبو عبدالله محمد بن كرام ، على أن معبوده استقر على العرش استقراراً ، وانه بجهة فوق ذاتاً ، واطلق عليه اسم «الجوهر» . وانه مماس للعرش من الصفحة العليا . وجوز الانتقال والتحول والنزول . واطلق بعضهم عليه تعالى لفظ « الجسم » ، والمقاربون منهم قالوا : نعى بكونه جسماً انه قائم بذاته .»
« ومما أجمعت عليه طوائف الكرامية من اثبات الصفات ، قولهم : البارى تعالى عالم بعلم ، قادر بقدره ، حى بحياة ، شاء بمشيئة ، و جميع هذه الصفات قديمة ازلية قائمة بذاته تعالى » . و ربما زادوا «السمع والبصر» كما اثبتة الاشعري . و ربما زادوا «اليدى» و «الوجه» : صفات قديمة ، قائمة بذاته تعالى . وقالوا : «له يد لا كالايدى ، ووجه لا كالوجوه » . واثبتوا جواز رؤيته من جهة فوق دون سائر الجهات^٤ .

١- اى أخذ من كل مذهب رذالته

٢- اى الهمج الرهاع

٣- يقال : ان اتباعه فى خراسان وحدها بلغوا اكثر من عشرين ألفاً ، وكان له مثل ذلك فى

ارض فلسطين ، راجع : الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص ٣١ و ١٠٨ .

٤- الملل والنحل ج١ ص ١٠٨-١٠٩-١١٢

الجبرية

هم القائلون بعدم قدرة العباد على فعل ما يريدون وترك ما يكرهون، إلا أن يشاء الله ذلك «هو خالق كل شيء» ويضيفون القدرة على أحداث أفعال العباد، إلى الله سبحانه فكل عمل خير أو شر إذا فعله العبد فانما هو من فعله تعالى حقيقة، وإن العبد تجاه ما يفعله أو يتركه مسلوب الاختيار، كآلة في يد الفاعل الحقيقي، وهو الله، قال تعالى: «خلقكم وما تعملون».

والجبرية صنفان: جبرية صريحة، وهي التي لا تثبت للعبد قدرة على عمل إطلاقاً، فتحريك اليد للاخذ والاعطاء، وحركتها الارتعاشية عندهم سواء. ونسب هذا الرأي إلى «الجهم بن صفوان»، قال: «الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة. وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وإنما تنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات، فيقال: أثمرت الشجرة، وطلعت الشمس، وتغيبت السماء، واهتزت الأرض. قال: والثواب والعقاب - أيضاً - جبر «لا يسأل عما يفعل» كما أن التكليف كان جبراً، فالمؤمن إنما يؤمن لاعن اختياره، والكافر إنما يكفر لاعن اختياره. قال تعالى: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس». ونحن نشك في هذه النسبة التي جاءت من قبل خصوم كانوا لا يتورعون الكذب والافتراء في سبيل تفريق شمل المسلمين.

الثانية: جبرية ملتوية، وهي التي أثبتت لقدرة العبد أثراً ما في الفعل على جهة الكسب لا الإيجاد، لأن الموجد لأفعال العباد كلها هو الله تعالى، فقالوا: العبد مكتسب لفعله، وليس بقادر على إيجاده، وهذا القول منسوب إلى «النجارية» أصحاب «الحسين بن محمد النجار» المعتزلي. نسب إليه أنه قال: «الله خالق أعمال

١- الملل والنحل للشهرستاني ج١، ص ٨٦-٨٧. والفرق بين الفرق لابن طاهر ص ١٢٨

العباد ، خيرها وشرها ، حسنها وقبيحها ، والعبد مكتسب لها» . قال الشهرستاني :
«أثبت النجار للقدرة الحادثة - أي قدرة العبد ، تجاه قدرة الله القديمة - تأثيراً . وسمى
ذلك كسباً ، على حسب ما يشتهه الأشعري^١ .

وهذا هو مذهب الأشعري بالذات ، أثبت للعبد اكتساباً تجاه من أثبت له الاختيار
والقدرة المستقلة . ولم يفصح عن مذهبه هذا ما يكون حداً فاصلاً بين الجبر والاختيار ،
ومن ثم حار اتباعه في تفسير «الكسب» بوجه مفتح . وقد وجه القاضي عبد الجبار
سؤاله الى القائلين بالكسب : «عقلونا معنى الكسب وخبرونا عنه . فان اشتغلوا
بالتحديد ، قلنا : الشيء يعقل أولاً ثم يحد . ثم يقال لهم : وما هو الذي حددتم به
الكسب ؟ فان قالوا : ما وقع بقدرة محدثة ، قلنا : ماتعون بقولكم : ما وقع بقدرة
محدثة ؟ فان اردتم به ما حدث ، فهو الذي نقوله ، وإن أردتم به ما وقع كسباً ، فمن
الكسب سألناكم ، فكيف تفسرونه بنفسه ، وهل هذا الا إحالة بالمجهول على
المجهول؟»^٢ .

قال سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني - بصدد توضيح الكسب- : «فان قيل :
لامعنى لكون العبد فاعلاً بالاختيار ، إلا كونه موجداً لأفعاله بالقصد والارادة ، وقد
سبق أن الله تعالى مستقل بالأفعال وایجادها ، ومعلوم أن المقدور الواحد لا يدخل
تحت قدرتين مستقلتين ، قلنا : لا كلام في قوة هذا الكلام ومثانته ، إلا أنه لما ثبت
بالبرهان أن الخالق هو الله تعالى ، وبالضرورة ان لقدرة العبد و ارادته مدخلاً في
بعض الأفعال كحركة البطش ، دون البعض كحركة الارتعاش ، احتجنا في التفصي
عن هذا المضيق الى القول بأن الله خالق ، والعبد كاسب . وتحقيقه : ان صرف العبد
قدرته وإرادته الى الفعل كسب ، وایجاد الله تعالى الفعل عقيب ذلك خلقه ، والمقدور
الواحد داخل تحت قدرتين ، لكن بجهتين مختلفتين ، فالفعل مقدور الله تعالى بجهة

١- الملل والنحل للشهرستاني ج ١، ص ٨٩

٢- شرح الاصول الخمسة للقاضي ص ٣٦٦-٣٦٧

الايجاد ، ومقدور العبد بجهة الكسب ، وهذا القدر من المعنى ضرورى ، وان لم نقدر على أزيد من ذلك فى تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون فعل العبد بخلق الله وابدائه ، مع ما للعبد فيه من القدرة والاختيار .

انظر الى هذا التلوى فى التخريج ، فى حين أن مذهبهم فى الاستطاعة صراحة فى الجبر ، وأن الله تعالى مستقل فى ارادته فى ايجاد أفعال العباد ، ولم يبينوا ماذا كان الله مستقلا فى ايجاد أفعال العباد ، فما موضع تأثير قدرة العبد و ارادته الخاصة؟ هذا شىء أعجزهم عن الاجابة الوافية ، وجعلهم فى مأزق مظلم لا يدرون أين وجه المخرج .

واليك من عبارات « الأشعرى » الصريحة فى الجبر وسلب قدرة العبد على الاختيار .

قال : « وان الأشياء تكون بمشيئة الله عزوجل ، وان أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله ، ولا يستغنى عن الله ، ولا يقدر على الخروج من علم الله عزوجل ، وان لخالق الاله ، وان أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة ، كما قال تعالى : « خلقكم وما تعملون » .

قال : « وان الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر اليهم وأصلحهم وهداهم وأصل الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالآيات - كما زعم أهل الزيغ والطغيان - ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين . وان الله يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وطبع على قلوبهم »^٢ .

وقال - فى المقالات - : « وقالوا - أى أهل السنة - : انه لا يكون فى الارض من

١- شرح العقائد النسفية للفتازانى ص ٦٥ - ٦٦ طبعة كابل - افغانستان .

٢- الابانة ص ٦-٧

خير أو شر إلا ما شاء الله. وأن الأشياء تكون بمشيئة الله ، كما قال عز وجل : وما تشاؤون إلا أن يشاء الله . وكما قال المسلمون : ما شاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون . وقالوا : إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله - أي الله - أو يكون أحد يقدر أن يخرج عن علم الله ، أو أن يفعل شيئاً علم الله أنه لا يفعله .
 إلى أن يقول : «ولكنه أراد أن يكونوا - أي الكافرون - كافرين كما علم ، وخذلهم وأضلهم وطبع على قلوبهم»^١

* * *

تلك مقالة الأشعري الصريحة في الجبر ، يرى من علمه تعالى بوقوع الأشياء سبباً حتمياً للوقوع ، ويكون العبد مرغماً في فعل ما علم الله أنه يفعله . وزاد : أن العبد لا قدرة له على فعل ، إلا إذا كان الله قد أراد ذلك الفعل ، فالعبد في أفعاله تابع لإرادة الله ومشيئته الخاصة ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله .

وهكذا زعم أن الكافر مجبر على الكفر ، لا يستطيع الإفلاع عنه ، قال - في مسألة «الاستطاعة» - : « ويقال لهم - أي للقدرية ، ويريد بهم المعتزلة - : أليست استطاعة الايمان نعمة من الله وفضلاً واحساناً ؟ فإذا قالوا : نعم ، قيل لهم : فما أنكرتم أن يكون توفيقاً وتسديداً . فلا بد من الاجابة الى ذلك ، يقال لهم : فإذا كان الكافرون قادرين على الايمان ، فما أنكرتم أن يكونوا موقفين للايمان ، ولو كانوا موقفين مسددين لكانوا ممدوحين ، وإذا لم يجز ذلك لم يجز أن يكونوا على الايمان قادرين ووجب أن يكون الله - عز وجل - اختص بالقدرة على ايمان المؤمنين .»

وقال - في نهاية المسألة - : « وإن سألوا عن قول الله عز وجل «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» فالجواب عن ذلك : ان الله عز وجل انما عنى المؤمنين ، دون الكافرين ، لانه أخبر أنه ذرأ لجهنم كثيراً من خلقه ، فالذين خلقهم لجهنم وأحصاهم

١- مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

وعدّهم ، وكتب بأسمائهم وأسماء آبائهم وامهاتهم ، غير الذين خلقهم لعبادته^١ وبمثل ذلك قال فى مسألة «الهداية والضلال» وغيرها من مسائل تكشف عن جزمه بمسألة الجبر فى التكليف والايان والكفر ، وسلب قدرة العباد عما قدر الله لهم فى الأزل ، ثم يذكر روايات فى القدر يعتمدها فى تشييد مذهبه فى نفى الاستطاعة^٢ .

* * *

وقد زعم بعضهم أن عويصة «مسألة الكسب» لا يمكن حلها الا بالكشف الصوفى ، أما فى ضوء برهان العقل فإنها تبقى غامضة ابداً .

قال الشعرانى : «اعلم يا أخى أن هذه المسألة من أدق مسائل الاصول واغمضها ، ولا يزيل اشكالها إلا الكشف الصوفى ، أما أرباب العقول من الفرق فهم تائهون فى ادراكها ، وآراؤهم فيها مضطربة . اذ كان أبو الحسن الأشعري يقول : ليس للقدرة الحادثة (يعنى قدرة العبد) أثر ، وإنما تعلقها بالمقدور مثل تعلق العلم بالمعلوم فى عدم التأثير .

وقد اعترض عليه بأن القدرة الحادثة إذا لم يكن لها أثر فوجودها وعدمها سواء ، فان قدرة لا يقع بها المقدور بمثابة العجز . ولقوة هذا الاعتراض لجأ بعض أصحاب الأشعري إلى القول بالجبر ، ومال آخرون الى أن لها تأثيراً ما ، وهو اختيار الباقلانى ، لكنه لما سئل عن كيفية هذا التأثير ، فى حين التزامه باستقلال القدرة القديمة فى خلق الافعال ، لم يحر جواباً ، وقال : انا نلتزم بالكسب لانه ثابت بالدليل ، غير أنى لا يمكننى الافصاح عنه بعبارة . وتمثل الشيخ أبو طاهر بقول الشاعر :

إذا لم يكن إلا الأسنّة مركب فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

١- الابانة ص ٥٧-٥٩ . وراجع ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٧ فما بعد .

٢- المصدر ص ٧٠-٧٤

قال الشعراني : وملخص الامر : أن من زعم أن لا عمل للعبد فقد عاند ،
ومن زعم أنه مستبد بالعمل فقد أشرك ، فلا بدّ أنّه مضطّرّ على الاختيار .

أما الكشف الصوفي فقد جاء في كلام الشيخ محيي الدين ابن العربي - في
الفتوحات المكية باب ٢٢ - : ان صورة مسألة خلق الافعال صورة «لا» من حروف
الهجاء ، فان الراءى لا يدري أى الفخذين هو اللام حتى يكون الآخر هو الألف ،
ومن ثم يسمى هذا الحرف حرف الالتباس . وهكذا لم يتخلص الفعل الظاهر على
يد المخلوق لمن هو ؟ ولكن ان قلت : هو لله ، صدقت . وان قلت للمخلوق مع
الله ، صدقت . ولولا ذلك لما صح التكليف ولا اضافة العمل اليه بنحو قوله :
« اعملوا » .

وقال - في باب ٤٢٢ - : انما أضاف تعالى الأعمال الينا ، لأننا محل الثواب
والعقاب ، وهي لله حقيقة . ولكن لما شهدنا الاعمال بارزة على أيدينا وادعيناها لنا ،
أضافها تعالى الينا بحسب دعوانا ، ابتلاء منه لأجل الدعوى . ثم اذا كشف الله
تعالى عن بصيرتنا ، رأينا الافعال كلها لله تعالى ، ولم نر إلاّ أحسنأ ، فهو تعالى فاعل
فيما ما نحن العاملون . ثم مع هذا المشهد العظيم لأبدّ من القيام بالأدب ، فما كان
من حسن - شرعاً - أضافناه اليه تعالى خلقاً ، وإلينا محللاً . وما كان من سيء
أضافناه الينا باضافة الله تعالى ، فنكون حاكين قول الله عز وجل ، وحينئذ يرا الله وجه
الحكمة في ذلك المسمى سوءاً فنراه حسناً من حيث الحكمة ، فيبدل الله سيئاتنا حسنات ،
تبديل حكم لا تبدل عين^١ .

قلت : لا محيص عن رجوع مسألة الكسب - بهذا التفسير - الى الجبر
المخالص ، وليس إلاّ فراراً من المطر الى الميزاب .

١- البواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر ، للعارف الشيخ عبدالوهاب الشعراني

ج ١ ص ١٣٩-١٤١ ، المبحث ٢٤ .

القدرية

هذا الاسم أطلقته المعتزلة على الأشاعرة ، باعتبار قولها بالقدر ، وأن الله تعالى هو الذى قدر الشر والكفر ، وأن أفعال العباد خارجة عن استطاعتهم فى الاختيار ، بل هى مقدرة بقدر الله و قضائه فى علمه الأزلى القديم ، حسبما تقدم فى كلام الأشعرى .

وحاول الأشعرى ردّ هذا الاسم على المعتزلة ، بحجة قولهم بقدره العبد على فعله واستطاعته فيما يختار . قال : « وزعمت القدرية - يريد بهم أصحاب الاعتزال - أننا نستحق اسم القدر ، لأننا نقول : ان الله عزوجل قدر الشر والكفر ، فمن يثبت القدر كان قديراً ، دون من لم يثبت . يقال لهم : القدرى هو من يثبت القدر لنفسه ، دون ربه عزوجل ، وأنه يقدر أفعاله دون خالقه . و كذلك هو فى اللغة ، لأن الصائغ هو من زعم أنه يصوغ ، دون من يقول : انه يصاغ له . فلما كنتم - خطاب الى المعتزلة - تزعمون أنكم تقدرون أعمالكم و تفعلونها دون ربكم ، و جب أن تكونوا قدرية ، ولم تكن نحن قدرية ، لأننا لم نصف الاعمال الى أنفسنا دون ربنا ، ولم نقل : انا نقدرها دونه ، وقلنا : إنها تقدّر لنا » .^١

قال أبو الفتح محمد بن على الكراجكى : « لم نجد فى أسماء الفرق ما ينكره أصحابه و يترأ منه أهلها ، سوى القدرية . فاهل العدل - يعنى بهم فرقة الاعتزال - يقولون لأهل الجبر - يعنى بهم الأشاعرة - : أنتم القدرية ، و أهل الجبر يقولون لأهل العدل : أنتم القدرية . و إنما تبرأ الجميع من ذلك ، لأنهم رووا - من طريق أبى هريرة - عن النبى - ص - أنه لعن القدرية ، و قال : انهم مجوس هذه الامة ، ان مرضوا فلا تعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوهم » .^٢

١ - الابانة ص ٦١

٢ - كنز الفوائد للكرا جكى ص ٤٩

قلت : أما الحديث فمفتعل بلا ريب . قال أبو حاتم : « وهذا الحديث باطل » .
وقال النسائي : « هذا الحديث باطل كذب » . ويذكر ابن الجوزي حديث لعن
القدرية ، ثم يعقب : « هذا حديث لا شك في وضعه »^١ .

أما استدلال الأشعري فلا يعدو مغالطة مفضوحة ، إذ « القدرية » نسبة الى
القول بالقدر - بفتحيتين - كالجبرية نسبة الى القول بالجبر ، وليس اشتقاقاً
من القدرة بمعنى الاستطاعة . هذا فضلاً عن أنَّ القياس بالصائغ ، قياس مع
الفارق بعد أن كانت الكلمة المبحوث عنها « قدرية » - بياء نسبة - لا « قادر »
اسم فاعل .

وعليه فلو صحَّ الحديث - ولم يصحَّ - كان انطباقه على مذهب الأشعري ،
القائل بالقدر ، و سلب قدرة العباد ، أولى من انطباقه على مذهب الاعتزال ، القائل
باستقلال العباد في اختياراتهم للأفعال . فالقدرية - على ذلك - هم الجبرية من
غير فرق .

* * *

وإذ قد تبينا المذاهب التي عملت في تشويه مفاهيم الاسلام ، وكانت السبب
الأول في طرود التشابه على كثير من أوجه آي القرآن الحكيم ، يجدر بنا للتعرض
لمذهب الاعتزال - أيضاً - الذي انتهج - الى حدِّ ما - منهج العقل وتحكيم الفطرة
في درس القضايا الاسلامية . أما المذهب الذي لم يخطئ منهج القرآن وبرهان
العقل الرشيد في جميع قضاياها ، فهو مذهب « الامامية » الذي سار في ضوء

١- راجع : الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٢٧٥-٢٧٦ . وجاء في مسند احمد
و غيره ما يناقض الحديث المذكور . فقد روى ابن عمر عن النبي - ص - انه قال : « لكل
امة مجوس ، ومجوس امتي الذين يقولون : لا قدر . ان مرضوا فلا تعودوهم ، وان ماتوا
فلا تشهدوهم » . المسند ج ٢ ص ٨٦

تعاليم الرسول - ص - مباشرة ، والخلفاء من أهل بيته الأطهار ، فلنتعرض لهما باختصار : -

المعتزلة

قلنا : ان «الاعتزال» كان انتفاضة في وجه «الصفاتية» ، تنزيهاً لساحة قدسه تعالى عما وصفه الجاهلون ، وتحكيماً لبرهان العقل الرشيد في معرفة شئون المبدع تعالى ، حيث العقل كان هو الأساس لمعرفة القديم تعالى وعدله وحكمته وسائر صفاته الازلية ، فلا يجوز الاستدلال بالسمع ، في هكذا مسائل ، على خلاف ما يستدعيه حكم العقل .^١

ونحن نورد اصول معتقداتهم حسب ما تبينه الأدخوص مهم «أبو الحسن الأشعري»^٢ فقد كان معتزلياً قضى أكثر عمره (أربعين سنة) في الاعتزال ، وعرف من اصول معتقداتهم الشيء الوافي ، مع مراجعتنا لكتبهم أيضاً .

قال : أجمعت المعتزلة على «أن الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جنة ، ولا صورة ، ولا لحم ولا دم ، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ، ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعص ، ولا بذى أبعاد وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ، ولا يجري عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسّة ، ولا العزلة ، ولا الحلول في الاماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ، ولا ذهاب في الجهات ، وليس بمحدود ، ولا ولد ولا مولود ، ولا تحيط به الاقدار ،

١- راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٩٤-١٩٥ .

٢- تقدم ص ٦٠- استهتاره بمذهب الاعتزال حسبما نقله ابن خلكان ج ٣ ص ٢٨٥ .

ولاتحجبه الأستار ، ولاتدركه الحواس ، ولايقاس بالناس ، ولايشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولاتجرى عليه الآفات ، ولاتحل به العاهات ، وكل ماخطر بالبال ، وتصور بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل أولاً ، سابقاً ، متقدماً للمحدثات موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل عالماً قادراً حياً ، ولايزال كذلك . لاتراه العيون ، ولاتدركه الأبصار ، ولاتحيط به الأوهام ، ولايسمع بالاسماع . شىء لاكالأشياء ، عالم قادر حتى لاكالعلماء القادرين الأحياء . وأنه القديم وحده ، ولاقديم غيره ، ولاإله سواه ولاشريك له فى ملكه ، ولاوزير له فى سلطانه ، ولامعين على إنشاء ماانشأ وخلق ماخلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شىء بأهون عليه من خلق شىء آخر ، ولابأصعب عليه منه ، لايجوز عليه اجترار المنافع ، ولاتلحقه المضار ، ولايناله السرور واللذات ، ولايصل اليه الأذى والآلام ، ليس بذى غاية فيتناهى ، ولايجوز عليه الفناء ، ولايلحقه العجز والنقص . تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والابناء» . قال : فهذه جملة قولهم فى التوحيد ^١ .

وعقد القاضى فصولاً فى أنه تعالى عالم لابعلم ، قادر لايقدره ، حتى لابحياة ، أى إنه تعالى إذا وصف بأنه عالم ، لايقصد من ذلك أن ذاته المقدسة قدأضيف عليها هذه الصفات فصارت كذلك ، اذ ذلك يستدعى أحد أمور وكلها باطلة ، أما أنها أيضاً قديمة مقرونة بذاته المقدسة ، فيلزم تعدد القديم تعالى ، وأنها حدثت على ذاته المقدسة ، فيلزم أن يكون ذاته المقدسة محلاً للحوادث ، كمايلزم خلوه تعالى عن هذه الصفات قبل عروضها ، وهو أيضاً باطل ^٢ .

وقد اصطلمحت الاشاعرة على تسمية مبادئ صفات الذات بالمعاني ومبادئ صفات الفعل بالأحوال . فأنكرت المعتزلة اقتران ذاته المقدسة لا بالمعاني ولا بالأحوال ،

١- «مقالات الاسلاميين» لابي الحسن الاشعري ج١، ص٢١٦-٢١٧ .

٢- راجع : «شرح الاصول الخمسة» من ص١٨٢ فما بعد .

فقالوا : عالم لا يعلم كما قالوا : متكلم لا يكلم . وهذا معنى نفى الصفات عند المعتزلة ، وقد أثبتتها الأشاعرة . فقالوا : عالم بعلم ، متكلم بكلام ، حسبما تقدم .

فتوصيفه تعالى بأنه عالم .. عند المعتزلة .. يعنى : أنه لا يبجھل ، ولا يحتجب عنه شىء . وتوصيفه بأنه قادر ، يعنى : أنه لا يعجز ، ولا يعجزه شىء . لأنّ صفة العلم أو صفة القدرة قائمة بذاته ، كما فى المخلوقين . ومن ثم قالوا : « خذ الغايات واترك المبادئ » . فان الغاية من العلم هو الانكشاف ورفع الحجاب عن المعلوم . وهذا شىء يقولونه بشأنه تعالى ، أمّا انه متّصف بمبادئ هذه النعوت فلا . ففى صفات الذات قالوا : انه تعالى عالم لا يعلم بل بنفسه ، قادر لا يقدر بل بنفسه ، وفى صفات الفعل قالوا : متكلم لا يكلم بل بخلقه الكلام ، ومن ثم قالوا : إنّ كلام الله مخلوق .

وزعمت الأشعرية أنّ ذاته المقدسة متّصفة بمبادئ هذه النعوت ، كما فى المخلوقين ، لكن لا على نحو اتّصافهم بها ، فخطوا وخلطوا ، ولم يحققوا من واقع مذهبهم فى ذلك : ماذا أرادوا ؟ قال القاضى : « ثمّ نبخ الأشعرى ، وأطلق القول بأنّه تعالى يستحقّ هذه الصفات لمعان قديمة ، لوقاحتها وقلة مبالاته بالاسلام والمسلمين » .^١

واتفقت « المعتزلة » - أيضاً - على أنّ العبد قادر مختار فى أفعاله ، خيرها وشرها ، وهو الذى يستحقّ - على ما يفعله - المدح والثواب ، أو الذمّ والعقاب ، وأنّ الرب تعالى منزّه أن يضاف اليه شرّ أو ظلم وفعل الكفر والمعصية . وهذه الطريقة سمّيت بالاستطاعة ، وسمّاهم الأشعرية لذلك « قدرية » .

واتفقوا على أنّ الرب تعالى لا يفعل إلاّ الصلاح والخير ، وأنّه يجب عليه تعالى - بمقتضى حكمته - رعاية مصالح العباد ، وهو الذى يعبر عنه بقاعدة

١- شرح الاصول الخمسة ص ١٨٣

اللفظ . و سميت هذه الطريقة بالعدل . ويعبر عن المعتزلة بالعدلية لذلك .
 و من مبادئ المعتزلة تأويل ماورد في الشرع مخالفاً في ظاهره لمعتقدهم
 في الأصول ، وبهذه الطريقة افترقوا عن « الصفاية » من أصحاب الأشعري ، و
 « الحشوية » من أصحاب الحديث ، ممن احتفظوا خلى ظواهر الصفات . و سنعرض
 نماذج من هذا الاختلاف عندما نعرض الآيات .

الإمامية

قال الشيخ أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي - في رسالة « البيان عن جمل
 اعتقاد أهل الايمان » - : « اعلم أنّ الواجب على المكلف أن يعتقد حدوث العالم
 بأسره ، وأنّه لم يكن شيئاً قبل وجوده ، و أنّ الله هـنو محدث جميعه من أجسامه
 و أعراضه ، إلّا أفعال العباد الواقعة منهم ، فانهم محدثوها دونه سبحانه ، و أنّ الله
 قديم وحده لا قديم سواه ، وأنه موجود لم يزل ، و باق لا يزال ، و أنّه شيء لا
 كالأشياء ، لا يشبه الموجودات ، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات ، و ان له
 صفات يستحقها لنفسه ، لا لمعان غيره ، و هي كونه حياً عالماً قادراً قديماً باقياً ، لا
 يجوز خروجه عن هذه الصفات الي ضدها ، يعلم الكائنات قبل كونها ، ولا يخفى
 عليه شيء منها ، و أنّ له صفات أفعال لا يصح إضافتها اليه في الحقيقة إلاّ بعد
 فعلها ، و هي ما وصف به نفسه ، من أنّه خالق و رازق و معط و راحم و مالك و متكلم
 و نحو ذلك ، و أنّ له صفات مجازيات ، و هي ما وصف به نفسه ، من أنه يريد
 و يكره و يرضى و يغضب ، فارادته لفعل هي الفعل المراد بعينه ، و ارادته لفعل
 غيره هي أمره بذلك الفعل ، و ليس تسميتها بالارادة حقيقة ، و انما هو على المجاز .
 و غضبه هو وجود عقابه ، و رضاه هو وجود ثوابه » .

« و أنّه لا يفتقر الى مكان ، ولا يدرك بشيء من الحواس ، و أنّه منزّه عن
 القبائح ، لا يظلم العباد و ان كان قادراً على الظلم ، لانه عالم بقبحه غنى عن فعله .

قوله صدق ، ووعدته حق ، لا يكلف خلقه ما لا يستطيع ، ولا يحرمهم صلاحاً لهم فيه الانتفاع ، ولا يأمر بما لا يريد ، ولا ينهى عما يريد ، وأنه خلق الخلق لمصلحتهم ، وكلفهم لأجل منازل منفعتهم ، وأزاح في التكليف عنهم ، وفعل أصلح الأشياء بهم ، وأنه أقدرهم قبل التكليف ، وأوجد لهم العقل والتمييز ، وأن القدرة تصلح أن يفعل بها الشيء وضده بدلاً منه .

« وأن القرآن كلام رب العالمين ، وأنه محدث ليس بقديم ، ويجب أن يعتقد أن جميع ما فيه من الآيات التي يتضمن ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقها ، وأنه يجبرهم على طاعته أو معصيته ، أو يضلّ بعضهم عن طريق هدايته ، فإن ذلك كله لا يجوز حمله على ظاهره ، وأن له تأويلاً يلائم ما تشهد به العقول ، مما قدمنا من صفاته تعالى »^١

قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : « أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده »^٢ ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه^٣ ، لشهادة كل صفة^٤ انها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه^٥ فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن

١- كنز القوائد للكراچكى ص ١٠٩-١١١ .

٢- يعنى -ع- توحيد ذاته المقدسة عن التجزئة والتأليف .

٣- يعنى -ع- نفى الصفات ، نفى مبادئها ، فذاته المقدسة اذا وصف بعالم ، فلا يعنى هذا التوصيف ان مبدأ العلم قائم بذاته كما فى سائر المخلوقين ، فهو تعالى عالم بذاته لا يعلم كما تقول الاشعرية ، حتى بذاته لا بجهة ، قادر بذاته لا بقدره . فهذه المبادئ من العلم والحياة والقدرة التى هى صفات زائدة على الذات ، منفية عن ذاته تعالى وتقدس .

٤- وهى الصفة الزائدة على الذات ، التى هى مبدأ اشتقاق الوصف .

٥- اى قال : انه تعالى عالم بعلم ، وحى بحياة ، وقادر بقدرة .

ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ^١ ، ومن جهله فقد أشار اليه ، ومن أشار اليه فقد حدّه ^٢ ومن حدّه فقد عدّه ^٣ ومن قال : فيم ؟ فقد ضمنه ، و من قال : علام ؟ فقد أخلى منه ^٤ ، كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ^٥ ، مع كل شيء لا بمقاربة ، وغير كل شيء لا بمزايلة ^٦ ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير اذا منظور اليه من خلقه ^٧ «...» ^٨ .

وقال - عليه السلام - : « لا تراه العيون بمشاهدة العيان ، و لكن تدركه القلوب بحقائق الايمان ، قريب من الاشياء غير ملامس ، بعيد منها غير مباين ، متكلم لا بروية ، مرید لا بهمة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالبرقة...» ^٩ .

و ستبدو الطريقة المثلى التى مشت عليها الامامية ، فى ضوء هدى اهل البيت - عليهم السلام - وضوحاً أكثر ، عند ما نعرض الآيات ، و اسلوبنا فى

-
- ١- لانه زعم ان الواجب القديم مركب ، وهو جهل فاضح بذاته المقدسة المتزهة عن التركيب المستلزم للحدوث والقناء .
 - ٢- لان الاشارة تستدعى الجهة ، وهو تعالى منزه عن الحدود والجهات .
 - ٣- لان القول بالجهة فى ذاته المقدسة لا ينفى امكان تعدده تعالى .
 - ٤- لان القول بجهة فوق يستدعى الاخلاء عن سائر الجهات .
 - ٥- اشارة الى قدمته تعالى .
 - ٦- لان المقارنة والمزايلة تستدعيان الجهة ، وهو تعالى منزه عنها ، فلا يخلو منه مكان ولا يحويه مكان .

٧- لان السمع والبصر عبارتان عن علمه تعالى القديم .

٨- هى اولى خطبة من نهج البلاغة .

٩- من كلام له فى جواب من سأله : هل رأيت ربك ؟ نهج البلاغة ج ١ ص ٣٣٤ .

التخرج عن متشابهاتها .

* * *

و بعد فيجب علينا تنويع المتشابه من الآيات ، على حسب نوعية الشبهة
التي وقعت فيها أرباب المذاهب السالفة ، في فصول متمايزة ، نذكر في كل فصل
ما يخصه من آيات .

نماذج من :

مَشَاهِدَاتُ الْقُرْآنِ

صفات ذات

أجمعت الامة الاسلامية على أن لله تعالى صفات ذاتية قديمة ، كان حياً عالماً قادراً لم يزل و لا يزال . انما الكلام فيما تؤديه هذه النعوت من مفاهيم ، فذهب أهل العدل والتنزيه الى أنّ هذه الاوصاف هي عين ذاته المقدسة ، لابصفة زائدة على الذات ، فهو تعالى حي بذاته ، عالم بذاته ، قادر بذاته . وينزهونه عن اقتران مبادئ هذه النعوت بذاته المقدسة - بأن يكون حياً بحياة ، عالماً بعلم ، قادراً بقدرة ، كما زعمه الاشعري - لأنّ اقتران ذاته بهذه المبادئ - وهي قديمة فرضاً - يستدعى تعدد القديم تعالى عن ذلك .

و من ثم فمعنى أنّه حيّ : أنه يدرك ويريد ويفعل . ومعنى أنّه عالم : أنّ الاشياء لديه شهود ، لا يحتجب عنه شيء . ومعنى أنّه قادر : أنه يفعل ما يريد ، لا يعجزه شيء ولا يحول دون ارادته شيء .

و هذا التفسير التنزيهي لجميع أوصافه تعالى يتلخص في قولهم : « خذ الغايات ودع المبادئ » . وهذا هو مرادهم من نفى الصفات . انهم يصفونه تعالى بما وصف به نفسه ، وينزهونه عن اقتران مبادئها بذاته المقدسة .

وقال الاشعري : انه تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة ... الخ و تشبث بظواهر

آيات ، منها :

- ١- «فاعلموا أنّما انزل بعلم الله - هود : ١٤» .
- ٢- «لكن الله يشهد بما انزل اليك أنزله بعلمه - النساء : ١٦٦» .
- ٣- «وماتحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه - فاطر : ١١ ، وفصلت : ٤٧» .
- ٤- «ولا يحيطون بشيء من علمه - البقرة : ٢٥٥» .
- ٥- «أولم يروا أنّ الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوة - فصلت : ١٥» .
- ٦- ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين - الذاريات : ٥٨» .

قال : وزعمت الجهمية أنّ الله عزوجل لاعلم له ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر له ، وأرادوا أن ينفوا أنّ الله عالم قادر حى سميع بصير ، فمنعهم السيف ، فأتوا بمعناه . لانهم اذا قالوا : لاعلم لله ولا قدرة له فقد قالوا : انه ليس بعالم ولا قادر وهذا انما أخذوه عن أهل الزندقة والتعطيل .

وقال ردّاً على المعتزلة - أتقرلون ان الله علماً سابقاً بالاشياء ؟ فان قالوا : نعم ، فقد أثبتوا العلم ، وان قالوا : لا ، قيل لهم : هذا جحد منكم لقول الله عزوجل : «أنزله بعلمه» . وذكر بقية الآيات .

واستدل - أيضاً - بأننا وجدنا اسم «الحى» مشتقاً من «الحياة» و«العالم» مشتقاً من «العلم» و«القادر» من «القدرة» وهلمّ جراً . فلاتخلو أسماء الله اما مشتقة لافادة معانيها اولمجرد التلقيب بلافادة معنى . ولاشك أنّ الثانى غير جائز . فثبت أنها مشتقة ومفيدة لمعانيها ، اذن فمعنى عالم : انه ذو علم ، ومعنى قادر : انه ذو قدرة ، ومعنى حى : انه ذو حياة . فقدوجب اثبات العلم والقدرة والحياة لله عزوجل ، كما

هو الشأن في اثبات هذه المعاني فينا عند ذكر هذه الأوصاف لبعضنا^١.

* * *

وقد تبين مما قدمنا فساد هذه المغالطة الأشعرية، إذ لا يريد المعتزلة : انه تعالى لا علم له ، بل يفسرونه بما لا يستلزم زيادة صفة على ذاته المقدسة . ومن ثم فقد حار الأشعري تجاه شبهة : «تعدد القديم» ولجأ الى قولة مبهمه ، عجز هو وأصحابه عن إفصاحها ، قالوا : « وهي لاهو ولا غيره »^٢ واعترض عليهم بانه رفع للنقيضين ، بل هو في الحقيقة جمع بينهما ، فأجابوا بما يزيد تيهاً في الضلال ، وشناعة في المقال^٣.

صفات فعل

وهكذا أجمعت الامة على أنه تعالى مرید ، متكلم ، خالق ، رازق ، محي ، مميت . واصطلاح أهل الكلام بتسميتها صفات فعل ، أي انها أفعاله تعالى ، قديتصف بها وقد لا يتصف ، لانه قد يفعلها وقد لا يفعلها ، فهو تعالى قدير بدشيئاً فهو مرید له ، وقد لا يريد به فليس بمرید له ، وهو قبل أن يخلق خلقاً لم يكن خالقاً له ، ولما خلق صح اطلاق اسم الخالق عليه تعالى ، وهكذا .

وقد ذهب أهل العدل والتنزيه الى أن مبادئ هذه الصفات غير قائمة بذاته المقدسة ، لأنها أحوال وحوادث ، والله تعالى متنزه أن يكون محلاً للحوادث .

وذهب الأشعري الى أن مبادئ هذه الصفات - أيضاً - قائمة بذاته المقدسة ،

١- الابانة ص ٤٤ - ٤٨

٢- الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٩٥ . وشرح العقائد النسفية ص ٣٢

٣- راجع : شرح العقائد النسفية للفتنازاني ص ٣٩ . وراجع ص ٦٣

فهو تعالى متكلم بكلام هو قائم بذاته تعالى ، مرید بارادة أزلية قائمة بذاته . ومن ثم زعم أنّ كلامه تعالى قديم ، لأنّ القائم بذات قديمة قديم . قال أهل العدل والتنزيه : معنى أنه تعالى يتكلم : أنه يخلق الكلام المسموع ، وهى عبارة عن اهتزازات وذبذبات تحدث فى أمواج الهواء يخلقها الله تعالى عند ارادة الكلام ، وأما غيره فيتكلم بآلة ، وان ذاك التموج يحصل بقرع اللسان والأسنان . قالوا : و ارادته تعالى هو فعله ، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحوها . ومن ثمّ قالت المعتزلة : كلام الله مخلوق وقالت الأشاعرة : غير مخلوق ، فكان ذلك الجدل العنيف ، وقد ذهبت فى طيه نفوس .

استدلّت الأشاعرة بأنّها صفات اشتقاق ، فلا بدّ من اثبات مبادئها للذات ، كما اذا وصفنا بها بعضنا . قال التفتازانى : «ضرورة امتناع اثبات المشتقّ للشئ من غير قيام مأخذ الاشتقاق به»^١ .

وتشبت الأشعرى بقوله تعالى : «وكلم الله موسى تكليماً» - قال : والتكليم هو المشافهة بالكلام ، ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم حالاً فى غيره ، مخلوقاً فى شئ سواه ، كما لا يجوز ذلك فى العلم^٢ .

وبقوله تعالى : «أله الخلق والامر - الاعراف : ٥٤» ، دلت الآية على أنّ الأمر شئ غير الخلق . ثم قال تعالى : «ومن آياته أن تقوم السماء والارض بامرهم - الروم : ٢٥» قال : وامر الله - هنا - هو كلامه تعالى . وبما أنّ الامر غير مخلوق - كما فى الآية الاولى - فوجب ان يكون كلامه الذى هو أمره غير مخلوق^٣ . وبذلك أثبت قدم كلامه تعالى وقيامه بذاته المقدسة .

١ - شرح العقائد النسفية ص ٤٤ .

٢ - الابانة ص ٢٢ .

٣ - الابانة ص ١٩ .

وأظننا في غنى عن تفنيد هذا الاستدلال المزيف ، بعد أن كان أشبه بسفاسف
الكلام .

صفات تنزيه

كان ماسبق صفات ثبوتية ، وتسمى «صفات جمال» ، وفي قبالها صفات سلبية ،
تسمى «صفات جلال» ، وهى التى تجل ذاته المقدسة عن الانصاف بها ، واتفق أهل
العدل على تنزيهه تعالى عنها .

أما أهل التجسيم فزعموا من ذاته المقدسة جسماً متركباً من أعضاء وجوارح ،
وأثبتوا له الجهة والمكان والحركة ، وامكان رؤيته بالأبصار ، ومسه بالأيدى فى
مصافحة ومعانقة . قالوا : إنه متربّع على كرسى عرشه فوق السماوات ، وسوف
ينزل الى الملاء يوم القيامة ليراه المؤمنون بعيونهم ، ويكشف عن ساقه ويضع
رجله فى جهنم فنقول : يارب ، قط قط .

هذا قول أوائلهم ، وقد شنع عليهم هذا القول ، فقالوا : انه جسم لا كالأجسام ،
وله لحم لا كاللحوم ، ودم لا كالدماء ... الخ .

وقد تقدم كلامهم عند الكلام عن المجسمة .

ولا كلام لنا معهم الآن ، وقد انقطع دابرهم ، ولم يبق منهم سوى نقل آثار .
انما الكلام مع الأشعرى الذى لم يبتعد عن القول بالتجسيم كثيراً ، سوى أنه قال
بمقالتهم فى شىء من اللف والالتواء ، وصريح كلامه - فى الابانة والمقالات - هو الالتزام
بالتجسيم ، أخذاً بظواهر آيات وروايات . وقد بقيت آراؤه سائدة حتى هذا العهد .
لا سيما فى أوساط . مرتجعة لم تنضج فكرتهم عن التوحيد والنبوات ، سوى نظرات

سطحية وشكلية، محضه وغالبيتهم من المتأثرين بتعاليم ابن تيمية الحراني (٦٦١-٧٢٨) ^١
في دعوته السلفية حسب مصطلحه ^٢.

١ - له اثر غريبة فيما يكتبه . راجع كلامه المسهب في اثبات الرؤية ، ورده على
من تمسك لنفي الرؤية بقوله تعالى : « لا تدركه الابصار » . وكذلك اثبات الجهة والفوقية ،
تعالى الله عن ذلك . (منهاج السنة ج ١ ص ٢١٥ و ٢١٦) .
ولابن بطوطة حكاية غريبة في رحلته (ج ١ ص ٥٧) عندما حل بدمشق ، يقول :
وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية كبير الشام ، يتكلم في الفنون ، الا
أن في عقله شيئاً . وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظمهم على المنبر وتكلم مرة بأمر
أنكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فأمر بأشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء
بمجلس الملك الناصر ، وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي ، وقال : ان هذا الرجل قال
كذا وكذا ، وعدد ما أنكر على ابن تيمية ، وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي
القضاة . وقال قاضي القضاة لابن تيمية : ما تقول ؟ قال : لا اله الا الله . فأعاد عليه ، فأجاب
بمثل قوله . فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواماً . وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن ،
سماه البحر المحيط في نحو أربعين مجلداً . ثم ان امه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه ،
فأمر باطلاقه . الى ان وقع منه مثل ذلك ثانية ، وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرت يوم الجمعة
وهو يعظ الناس على منبر الجامع ، ويذكرهم . فكان من جملة كلامه ان قال : « ان الله ينزل
الى السماء الدنيا كنزولي هذا » ونزل درجة من درج المنبر . فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن
الزهراء ، وأنكر ما تكلم به ، فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالايدي والنعال ضرباً
كثيراً حتى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه شاشية حريز ، فأنكروا عليه لباسها ، واحتملوه
الى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة فأمر بسجنه وعززه بعد ذلك ؛ فانكر فقهاء المالكية
والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين تنكيز ، وكان من خيار
الامراء وصلحائهم ، فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقداً شرعياً على ابن تيمية بامور
منكرة ، منها : المسافر الذي ينوي سفره زيارة القبر الشريف لا يقصر الصلاة ، وأشبه ذلك .
وبعث العقداً الى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسجن بها حتى مات في السجن .

٢- اما المتأثرون بفكرته السلفية فبروقهم التسمية بالتيمية انتماء الى اسم صاحب الدعوة . ←

اما اليوم فقد اشتهر وبالوهابية اتباع الشيخ محمد ابن عبد الوهاب النجدى
(١١١٥-١٢٠٦) ٢ .

قال ابن الموصلى مفتخراً بانتسابه لعقيدة ابن تيمية :

ان كان اثبات الصفات جميعها من غير كيف موجباً للوم
واصير تيمياً بذلك عندكم فالمسلمون جميعهم تيمى
(آخر رسالة ابن شيخ الحزاميين فى عقيدة اهل السنة والجماعة، المنشورة فى مجموعة
«اربح البضاعة» طمكة المكرمة ص ٥٥) .

١- نسبة الى والد صاحب الدعوة، وزعم الالوسى انها نسبة غير صحيحة ، نسبها
اليهم خصومهم ، وهم منها براء (تاريخ نجد ص ١١١) لكننا وجدناهم يطلقون على انفسهم
هذا الاسم فخاراً بصاحب النسبة . راجع : كتاب «الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية»
مجموعة خمس رسائل، ترتيب الشيخ سليمان النجدى. يقول فى اولها : «من رسائل ائمة نجد
وعلمائها فى الدعوة الوهابية لتجديد الاسلام» ص ٤ . وراجع : ٢٧ و ٩٣ و ٨٦ يقول شاعرهم :
نعم نحن وهاية حنيفة حنيفة نسقى لمن غاظنا المرا

٢- صاحب الحركة الوهابية فى ربوع نجد ، قامت على اغارة بلاد المسلمين
وتكفير وقتل ونهب ، باسم الاصلاح الدينى السلفى ، ولم تكن سوى امتداد مرير للوحشية
الجاهلية الاولى نكوصاً على عقب . وقد استغلها الاستعمار الغربى - المنتهض حديثاً ذلك
المهد - تمزيقاً لبلاد الاسلام وتفريقاً للكلمة المسلمين . تحقيقاً لمبدأ « فرق تسد » . والحركة -
شاءت ام لم تشأ - فانها خدمت الاستعمار الكافر اكبر خدمة ممكنة فى الذهاب برونق الاسلام
المجيد ؛ «ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه - سبأ : ٢٠» . «الذين ضل سعيهم فى الحياة
الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا - الكهف : ١٠٤» .

واليك من تشبثات أبي الحسن الأشعري دليلاً على مذهبه فسي التجسيم

والتشبيه :

الرؤية :

١- قال - في قوله تعالى : «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة - القيامة : ٢٣» -
يعنى رائية . اذ ليس يخلو النظر من وجوه ثلاثة ، اما نظر الاعتبار ، كما في قوله
تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت - الغاشية : ١٧ » . أو نظر الانتظار ،
كما في قوله : « ما ينظرون الاصبحة واحدة - يس : ٤٩ » . أو نظر الرؤية . أما الأول
فلا يجوز ، لأن الآخرة ليست بدار اعتبار . وكذا الثاني ، لأن النظر اذا ذكر مع الوجه
فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه . ولأن نظر الانتظار لا يقرب «الى» ، كما في

→ والعقيدة الوهابية في الصفات هي العقيدة السلفية الظاهرية ، قال شاعرهم :
لله وجه لا يحد بصورة ولربنا عينان ناظرتان
وله يدان كما يقول الهنا ويمينه جلت عن الايمان
كلتا يديه يمين وصفها فهما على الثقلان منفتقان
كرسيه وسع السماوات العلى والارض وهو يعمه القدامان
والله يضحك لا كضحك عبيده والكيف ممتع على الرحمان
والله ينزل كل آخر ليلة لسماؤه الدنيا بلاكتمان
فيقول : هل من سائل فاجيبه ؟ فانا القريب اجيب من ناداني

(من قصيدة عبدالله بن محمد الاندلسي المالكي ، نشرت في «اربع البضاعة في معتقد

اهل السنة والجماعة» ص ٣٢ جمع على بن سليمان آل يوسف - منشور مكة المكرمة سنة

، (١٣٩٣)

قوله تعالى: «فناظرة بم يرجع المرسلون - النمل: ٣٥». فان قال قائل: لم لا يجوز أن يراد «الى ثواب ربها ناظرة»؟، قيل له: ثواب الله غيره، وقد قال تعالى: الى ربها ناظرة، ولم يقل: الى غيره ناظرة. والقرآن على ظاهره. وليس لنا أن نزيله عن ظاهره، الالحجة. ألا ترى أنه لما قال: صلوا لى وابدوني لم يجز أن يقول قائل: انه أراد غيره، ويزيل الكلام عن ظاهره، فلذلك لما قال: الى ربها ناظرة، لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة.

٢- وتشبث - أيضاً - بقوله تعالى: «رب أرني أنظر اليك - الاعراف: ١٤٣» قال: دلت الآية على أن الله تعالى يرى بالأبصار، اذ لا يجوز أن يكون موسى ﷺ قد سأل ربه ما يستحيل عليه، وقد ألبسه الله جلابيب النبوة وعصمه بعصمة المرسلين. واذالم يجز ذلك على موسى ﷺ فقد علمنا أنه لم يسأل ربه مستحيلاً، وأن الرؤية جائزة على ربنا عز وجل.

٣- قال: ودليل آخر، مما يدل على جواز رؤية الله بالأبصار، قوله تعالى لموسى: «فان استقر مكانه فسوف ترانى - الاعراف: ١٤٣». فلما كان الله قادراً على أن يجعل الجبل مستقراً، كان قادراً على الامر الذى لوفعله لرآء موسى. فدل ذلك على أن الله تعالى قادر على أن يرى نفسه، وأنه جائز رؤيته. فان قال قائل: فلم لا قلتم ان هذه الآية تبعيد للرؤية؟، قيل له: لو أراد الله تبعيد الرؤية، لقرن الكلام بما يستحيل وقوعه، ولم يقرنه بما يجوز وقوعه، فلما قرنه باستقرار الجبل، وذلك أمر مقدور لله عز وجل، دل ذلك على أنه جائز أن يرى الله. ألا ترى أن الخنساء لما أرادت تبعيد صلحها لمن كان حرباً مع أخيها، قرنت الكلام بمستحيل، فقالت:

ولا اصالح قوماً كنت حربهم حتى تعود بياضاً حلقة القار^١

قال: والله تعالى انما خاطب العرب بلغتها، وما نجده مفهوماً فى كلامها ومعقولا فى خطابها، فلما قرن الرؤية بأمر مقدور جائز، علمنا أن رؤية الله بالأبصار

١- الحلقة: شدة السواد. والقار: القير

٤- قال : ودليل آخر، قال تعالى: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - يونس: ٢٦»
قال أهل التأويل : الزيادة الموعودة هنا هو النظر اليه تعالى ، قالوا : ولم ينعم الله
عز وجل أهل جنانه بأفضل من نظرهم اليه ^١ .

٥- وهكذا قوله تعالى : « لهم فيها ما يشاءون ولدينا مزيد - ق : ٣٥ » قيل :
المزيد هو النظر الى الله عز وجل ^٢ .

٦- وقال تعالى : «تحتهم يوم يلقونه سلام - الاحزاب : ٤٤» قال : واذا لقيه
المؤمنون رأوه .

٧- وقال تعالى : «كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون - المطرفين : ١٥ »

١- قال ابن كثير : وافضل ما ينعم به اهل الجنة واعلاه هو النظر الى وجهه الكريم ، وقد
روى ذلك عن ابي بكر الصديق ، وحذيفة بن اليمان ، وعبدالله بن العباس ، وسعيد بن المسيب
وعبدالرحمان بن ابي ليلى ، وعبدالرحمان بن سابط ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعامر بن سعد ، وعطاء
والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن اسحاق ، وغيرهم من السلف والخلف .
وقد وردت فيه احاديث كثيرة . التفسير ج ٢ ص ١٤٤ . وراجع : الطبرى - التفسير - ج ١١
ص ٧٣ - ٧٥ . وغيره من اصحاب التفسير بالمأثور . وهكذا ارباب التفسير الصوفى كالقشيري
فى «لطائف الاشارات» ج ٣ ص ٩١ . والخوaja عبدالله الانصارى فى تفسيره العرفانى . راجع
ملخصه للامام احمد الميلى ج ١ ص ٤٢٩ . يقول الخوaja : «وشرط است كه ميزبان ديدار
خودرا از مهمانان بازنگيرد» .

٢- قال ابن كثير : فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومى : انها النظر الى وجه الله
الكريم . وعن انس بن مالك قال : يظهر لهم الرب عز وجل فى كل جمعة . التفسير ج ٤ ص ٢٢٨

فحجبهم (أى الكفار) عن رؤيته ، ولا يحجب عنها المؤمن .

٨- واستدل - أيضاً - بما روى عن النبي ﷺ قال : «ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لاتضارون فى رؤيته» . قال : وهو حديث متواتر^١ .

٩- قال : ودليل آخر على جواز الرؤية : انه لا موجود إلا وجائز أن يرىناه الله ، ماسوى المعدوم . فلما كان الله موجوداً مثبتاً كان غير مستحيل أن يرىنا نفسه وأيضاً فانه تعالى يرى الاشياء ، وليس يصح أن يرى أحد الاشياء الا اذا صح أن يرى نفسه ، واذا كان الله لنفسه رائباً ، فجائز أن يرىنا نفسه ، كما أنه تعالى لما كان عالماً بالاشياء ، كان عالماً بنفسه ، ولما كان عالماً بنفسه ، جاز أن يعلمناها .

قال : ومن زعم أن الله لا يجوز أن يرى بالابصار ، يلزمه أن لا يجوز أن يكون الله رائباً ولا عالماً ولا قادراً ، لان العالم القادر الرائب ، جائز أن يرى ، وقد قال تعالى : «اننى معكما أسمع وأرى - طه : ٤٦» .

١٠- وأجاب عن قوله تعالى : «لاتدرکه الابصار - الانعام : ١٠٣» بأنه يحتمل أن يكون لاتدرکه الابصار فى الدنيا ، وتدرکه فى الآخرة ، لأن رؤية الله تعالى أفضل اللذات وأفضل اللذات يكون فى أفضل الدارين . قال : ويحتمل : لاتدرکه أبصار الكافرين

١- قال التفتازانى : رواه أحد وعشرون من اكابر الصحابة . شرح العقائد النسفية ص ٥٨ . و«لاتضارون» موافق لرواية احمد فى مسنده ج ٣ ص ١٦ . قال الاعمش : لاتضارون اى لاتمارون . وفى رواية البخارى فى جامعه ج ١ ص ١٤٥ باب ١٦ ، و ص ١٥٠ باب ٢٦ من المواقيت : «لاتضامون» وفى نسخة : «لاتضاهون» . قال ابن الاثير : لاتضامون - بالتشديد - اى لايزدحم بعضكم بعضاً فى رؤيته .

وذكر الامام الرازى نحو هذه الادلة - نقلا عن اصحابه الاشاعرة - فى تفسيره الكبير ج ١٣ ص ١٣١ - ١٣٢ .

هذه عقيدة الأشعري - شيخ أهل السنة والجماعة - في جواز رؤية الله تعالى بالأبصار ، وعبثاً حاول الشيخ محمد عبده تأويل كلامه وكلام أصحابه ، بارادة : كمال المعرفة بالذات^٢ حيث أحس بشناعة مذهب أسلافه ، فحاول تغطيتها بهكذا تأويل مفضوح ، وقد صرح شيخهم الأشعري بأنه النظر بهاتين العينين اللتين في الوجه^٣ وتقدم نقله .

وقد سبق الأشعري الى هذه الشنعة امامهم الآخر أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي (٢٠٠ - ٢٨٠) ، في الة ردّها على الجهمية فيما زعم . حشاها باخبار زعمها أدلة قاطعة على اثبات الرؤية والجهة والمكان والحركة في ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك .

منها مرواه عن شيخ بغدادى لا يعرفه بالاسناد إلى أنس بن مالك ، قال : يتجلى لأهل الجنة في كل جمعة ، تفسيراً لقوله تعالى : « ولدينا مزيد » . وباسناد آخر فيه ضعف وجهالة ، عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، يحكى - فيما زعم - حالة المسلمين يوم القيامة ، قال : ونحن على كوم يوم القيامة ، اذ يأتينا ربنا ، فيقول : ماذا تنتظرون فنقول : ننتظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم ، فنقول : حتى ننظر اليك . فيتجلى لنا وهو يضحك ، فنتبعه الى الجنة .

وروى عن أبي بكر في قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : النظر الى وجه الله^٤ الى غيرها من مخاريق وترهات الصقوها بساحة قدس النبى

١- الابانة - باب الكلام فى اثبات رؤية الله تعالى بالأبصار فى الاخرة - ص ١٠ - ١٩

٢ حيدرآباد الدكن .

٣- تفسير المنار ج ١١ ص ١٢٨ - ١٢٨

٤- الابانة ص ١١ . وتقدم فى ص ٩٠

٥- رسالة « الرد على الجهمية » للدارمي ص ٤٥ - ٥٨

صلى الله عليه وآله - وكبار صحابته ، وهم منها براء . وانما اولع بها أصحاب الحديث من الحشوية ، حسبما تقدم ^١ .

نعم تسترت الأشعرية بسفسفة اخرى ، اتخذوها شعاراً لمذهبهم ، فقالوا : انه تعالى يرى بلا كيف ، وله وجه بلا كيف ، وله يد بلا كيف ، وهلمّ جرأ وحاوّلوا بذلك الفرار عما يوجه اليهم من اعتراض : كيف يرى ؟ وهل تكون رؤيته تعالى كرؤية بعضنا بعضاً ؟ أرادوا بذلك إلقاءهم الى محاذير التجسيم والجهة والاشارة . فقالوا : لا يسأل بكيف . ومن ثمّ هجّاهم المعتزلة بأنّه قول بلا علم ، ورواية بلا دراية ، قال الزمخشري : ثم تعجب من المتسمين بالاسلام ، المتسمين بأهل السنة والجماعة (يعنى بهم الاشاعرة) كيف اتخذوا هذه العظيمة (جواز النظر اليه تعالى) مذهباً ، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة ^٢ فانه من منصوبات أشياخهم (أى حباثلهم المغرية) . والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

وجماعة سموا هواهم سنة	لجماعة حمر لعمرى موكفة ^٣
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا	شنع الورى فتستروا بالبلكفة ^٤

* * *

أما أهل العدل والتنزيه فكانت نظرهم في توحيد الله نظرة في غاية السمو والرفعة ، فطبقوا قوله تعالى : « ليس كمثله شئ » ^٥ أبدع تطبيق وفصلوه خير تفصيل ، وحاوّلوا الانظار الوضعية التي تثبت لله تعالى جسماً ، له وجه ويدان وعينان ، وله جهة هي الفوقية وأن له عرشاً يستوى عليه ، وأنه يرى بالأبصار ، وأنه خلق آدم بيده ، الى

١- راجع : الطبرى - التفسير - ج ١١ ص ٧٣ - ٧٥ . والدر المنثور ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .

٢- البلكفة : مخفف « بلا كيف » مصدر جملى . كالحقولة والبسمة .

٣- الوكاف : البرذعة وهو ما يلقى على ظهر الدابة .

٤- راجع : تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٥٦ ذيل الاية : ١٤٣ من سورة الاعراف .

آخر مآقالتة الاشاعرة وأذنا بھم من المشبھة والكرامية۔ حسبما تقدم۔ فأتى أهل العدل وسموا على هذه الأنظار ، وفھموا من روح القرآن تجرید الله عن المادية ، فساروا فی تفسیرھا تفسیراً دقیقاً واسعاً ، وأولوا ما یخالف هذا المبدأ ، وسلسلوا عقائدهم تسلسلاً منطقیاً . فاذا كان الله تعالى لیس مادة ، ولا مر كباً من مادة ، فلیس له یدان ولا وجه ولا عینان ، لان ذلك یدل على جزء من كل ، والله تعالى لیس كلاً مر كباً من أجزاء ، وإلا كان مادة . واذا كان كذلك فلیس تدركه عیوننا التي خلقت ، ولیس قدرتها إلا أن ترى ما هو مادة ، وما هو فی جهة ، وهكذا ساروا فی هدی العقل جریثین ، ویقررون ما یرشد الیه فی شجاعة وإقدام . وهم أمام النقل یسلمون ما یوافق منها البرهان العقلى ویؤولون ما یخالفه بكل صراحة ، من غیر خوف من النتائج مهما كانت ، متى اطمأنوا الى أنهم یسایرون العقل ، فالعقل هو الحكم عندهم بین الآیات المتشابهات ، وهو الحكم على الحدیث ، لیقرر عدم صحته ان لم یوافق العقل ولم یحتمل التأویل^١ وهم انما یؤولون المتشابه على حساب تحقیق المحكم من العقل والنقل ، على عكس الاشاعرة ، الذین یعمدون الى تأویل المحكم على حساب التحفظ على ظاهر المتشابه ، كما تقدم تأویل أبى الحسن الاشعری قوله تعالى : « لاتدركه الأبصار » على حساب التحفظ على ظاهر قوله تعالى : « الى ربھا ناظرة » . هذا هو الفارق الاساسى بین الفريقین - فريق أهل العدل والتنزیه ، وفريق أهل السنة والجماعة - حسب تعبییرهم هم .

* * *

وقد فصل الكلام - فی نفى رؤيته تعالى - القاضى عبد الجبار فى كتابه : « شرح الاصول الخمسة^٢ » وأوفى البحث حقّه . وهكذا الخواجا نصیر الـدین

١- راجع : ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين ج ٣ ص ٦٨-٦٩ .

٢- باب نفى الرؤية ص ٢٣٢-٢٧٧ .

الطوسي في مختصره: «تجريد الاعتقاد» بايجاز وايفاء، وغيرهما من اصول معتمدة .
 وملخص الكلام في نفى الرؤية : أن النظر بالعين ، عبارة عن اشعاع نورى
 يحيط بالجسم المرئى ، الواقع في جهة مقابلة لعين الرائي، فتنتطبغ فيها صورته
 الخارجية . وهذا مستحيل عليه تعالى ، لانه يستدعى تجسيمياً وجهةً ومحدودية ،
 وقبولاً للإشارة الحسية ، وكل ذلك باطل - بشأنه تعالى - في ضرورة العقل ومحكم
 الكتاب العزيز ، قال تعالى : « ليس كمثل شيء - الشورى : ١١ » . ولاشك أن
 التجسيم ومستتبعاته تشبيه محض . وكذا قوله تعالى : « لا تدركه الابصار وهو يدرك
 الابصار وهو اللطيف الخبير - الانعام : ١٠٣ » . والادراك المقرون بالبصر يعنى
 النظر بالعين ، كما أن الادراك بالقلب عرفان نفسى مجرد . وبما أن الآية مدح بشأن
 من الشؤون الكلية الالهية ، فدلائلها على تأييد النفي واضحة ، ولاسيما بتلك الصيغة العامة .
 وأما الآيات التى استشهد بها الأشعري ، فان لها تأويلات صحيحة ومعقولة
 لم يعرفها أصحاب الحشو ، واليك بايجاز : -

* * *

١- أما الآية الاولى : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة - القيامة : ٢٣ »
 فانها مسوقة لبيان الحصر ، نظراً لتقديم الجار . فهى تصف موقف المؤمنين فى
 ذلك اليوم الرهيب ، انهم على رغم أهواله الجسم مسرورون مبهجون ، ليس لشيء
 الا لأنهم منصرفون عن غيره تعالى ، ومتوجهون بكل وجودهم الى الله ، تحقيقاً لقوله
 تعالى : « انالله وانا اليه راجعون » . فلانظر منهم الا اليه سبحانه ، وقد صار علم يقينهم عين
 يقين . وانكشف لهم من أسرار الملك والملكوت ما كانوا يعلمونه بالدلائل والآيات .
 والنظر الى كذا ، لا يختص بمعنى تحديق العين اليه ، بل يستعمل بمعنى
 القصد اليه وكمال التوجه اليه أيضاً ، كما يقال : ان هذه القصيدة تنظر الى قصة
 كذا ، أو ان هذه الاية تنظر الى مناسبة كذا . أى تهدف فى مضمونها . وهكذا يقال :
 نظرى اليك ، أى رجائى منقطع عن سواك ، كقول الشاعر :

١- بشرح العلامة الحسن بن المطهر الحلى ص ١٦٣-١٦٥ .

وإذا نظرت اليك من ملك والبحر دونك جرتني نعماً
وقال آخر :

انى اليك لما وعدت لناظر نظر الفقير الى الغنى الموسر
ولم يقصدا سوى الرجاء والتوجه بكل وجودهما ، لابل الجارحة .
قال جار الله الزمخشري : سمعت سرورية مستجديدة بمكة وقت الظهر ، حين
غلق الناس أبوابهم وأبوا الى مقاتلهم ، تقول : « عينتى نويظرة الى الله واليكم »
تقصد راجية ومتوقعة لاحسانهم اليها . وقال : قولهم : أنا أنظر الى الله ثم اليك ، معناه :
أتوقع فضل الله ثم فضلك .^١

قال الامام الرازى - فى قول الشاعر :

وجوه يوم بدر ناضرات الى الرحمان تنتظر الفلاحا
- : ان الرواية الصحيحة : يوم بكر . والمراد من هذا الرحمان مسيلمة الكذاب .
قلت : فليكن ، بعد أن لم يكن النظر هنا وتحديق العين . بل الرجاء وتوقع الفرج ،
سواء أكان هو رحمان العالمين أم رحمان اليمامة .
فمعنى الآية - على هذا - ان المؤمنين يوم القيامة فى بهجة وسرور ، لأنهم
لا يتوقعون النعمة والكرامة الا من عند ربهم ، وقد تحققت أمانهم بعين شهود .

* * *

٢- وهكذا قوله تعالى - حكاية عن سؤال موسى عليه السلام - : « رب أرني أنظر
اليك - الاعراف : ١٤٣ » لا يدل على جواز الرؤية . لأن سؤاله ذلك كان من تجاهل
العارف ، على أثر ضغط من قومه الجاهلين ، فقد جاء فى التفسير : ان قومه أبوأن
يصدّقوه الا أن يسمعهم كلام الرب تعالى ، فاختار منهم سبعين ليصحبوه الى
الميقات ، فلما كلمه الله تعالى وأسمعهم أيضاً ، أبوا إلا أن ينظروا اليه يتكلم فيرونه
جهاراً ، وبذلك أخرجوا من موقف نبي الله موسى عليه السلام تجاه ربه ومسؤولية رسالته

١- راجع : الكشاف و اساس البلاغة .

الى بنى اسرائيل . روى أنه ﷺ لم يستطع التفوه بتلك العظيمة - لمكان علمه باستحالتها - غير أن موقفه ذلك قد أخرج ، فقال : يارب انك قد سمعت مقالة بنى اسرائيل ، وأنت أعلم بصلاحهم . فأوحى الله اليه : ياموسى ، سألنى مسألوك ، فلاؤأخذك بجهلهم . فعند ذلك تجرأ موسى ﷺ على ابداء تلك المسألة .

ودليلاً على ذلك ما جاء فى سورة النساء - ١٥٣ - : «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» .

فقد جاءت تبعة تلك المسألة العظيمة موجهة الى بنى اسرائيل ، فكانوا هم الذين طلبوا من موسى ﷺ أن يريهم الله جهرة ، فأخرجوه الى أن يسأل ربه فيما طلبوا .

وأصرح منها قوله تعالى فى سورة البقرة - ٥٥ - : «واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون» . وهذا يؤكد ما جاء فى الرواية : ان الذين سألوه هذا السؤال كانوا السبعين الذين اختارهم لميقاته تعالى فأخذتهم الرجفة لهيبة منازل بهم من صاعقة النكال ، فجعل بعضهم ينظر الى بعض وهم يتهافتون على الارض ، ثم بعثهم الله ، بعد التضرع والتذلل من موسى ﷺ قال تعالى : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا - الاعراف : ١٥٥ » أى بما فعل السفهاء منا من التجاسر على سؤال الرؤية . فاضافة ذلك الى السفهاء تدل على أنه كان بسببهم ومن أجلهم ، وانما سألوا ما لا يجوز عليه .

وأما قوله : «سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين» فانما هو تعليم لقومه كما فى قوله تعالى : «ومالى لأعبد الذى فطرني واليه ترجعون ، ءأخذ من دونه آلهة

١- راجع فى ذلك : امالى المرتضى ج ٢ ص ٢١٥ مجلس ٧٠ . ومتشابهات القرآن لابن شهر آشوب ج ١ ص ٩٦ . وقصص الانبياء للنجار ص ٢٩٢ . وشرح الاصول الخمسة للقاضى ص ٢٦٢ . ومتشابه القرآن - ايضاً - له ج ١ ص ٢٩١ .

ان يردن الرحمن بضرلاتفن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ،انى اذ ألقى ضلال مبين،
انى آمنتم بربكم فاسمعون - يس : ٢٢-٢٥ . ومن ثم جاء فى موضع آخر: «أنت ولينا
فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة
انا هدنا اليك - الاعراف : ١٥٥-١٥٦ . فكما ان السؤال كان عن قومه ، كانت التوبة
- أيضاً - استغفاراً لقومه .

وقد حمل بعضهم الرؤية فى سؤال موسى ﷺ على العلم الضرورى الذى
لا حاجة معه الى اقامة برهان، وهذا هو جواب أبى الهذيل العلاف المعتزلى ، واختاره
وأيدته سيدنا الطباطبائى - دام ظله - . لكن القاضى عبد الجبار ، وكذا الشريف
المرتضى ، لم يرتضياه ، أما القاضى ، فقال : لان الرؤية انما تكون بمعنى العلم متى
تجردت ، فأما اذا قارنها النظر فلا تكون بمعنى العلم . وأما الشريف المرتضى ، فقال :
لان ذكر الجهرة فى الرؤية لاتليق الابروؤية البصر دون العلم . قال : وهذا يقوى أن
الطلب لم يكن للعلم الضرورى .

وربما يقال : ان موسى - ع - سأل الرؤية لنفسه ، ولا يمتنع أن لا يعرف
النبي استحالته ، أو يطلب زيادة معرفة بزيادة الأدلة وترادفها .
وأجاب القاضى بأن الانبياء لا يجوز عليهم أن يجهلوا ما يرجع الى معرفة الله
تعالى وشؤونه ، لما فى ذلك من النفرة عنهم ، حيث يؤدى الى جواز أن يسألوا عن
ذلك فيجهلوه ويعرفه غيرهم .^٢

* * *

٣- وأما الاستدلال بإمكان استقرار الجبل دليلاً على امكان الرؤية ، فيرده :
أنّ التعليق فى الآية كان على نفس الاستقرار وفعليته ، لا على امكانه « فان
استقر مكانه فسوف ترانى » ، فاذا علم انه لا يستقر ، علم أنه تعالى لا يرى .

١- تفسير الميزان ج ٨ ص ٢٥٢ .

٢- مشابه القرآن للقاضى ج ١ ص ٢٩٥ .

ثم من أين علم المستدل امكان الاستقرار للجبل عند تجلى عظمة الله له ،
 فعل الكون بأسره لا يطبق استقراراً تجاه تلك العظمة والجبروت ، اذ التناسب بين
 جبروت كبريائه تعالى و دائرة نطاق هذا الكون ، لأكبر مما بين الجمل و سم
 الخياط - الاعراف : ٤٠ - فكما أنّ ذلك غير ممكن فكذا هذا بالأولى اذا ملاحظنا
 الفارق بين النسبتين .

* * *

وأما التجلى فى قوله تعالى : « فلما تجلى ربه للجبل » فهو اظهار عظيم
 قدرته و تجلى جبروته تبارك و تعالى ، بما أوجب دكاً فى الجبل ، اذ لم يستطع
 المقاومة . و التجلى : شدة ظهور الشيء و وضوحه ولو بالدلائل والآثار ، قال
 الشاعر .

تجلى لنا بالمشرفية والقنا وقد كان عن وقع الأسنه نائياً
 أراد أنّ تدبيره فى تخطيط القتال دل عليه حتى علم أنّه المدبر له ، وان كان
 نائياً عن وقع الأسنه و لم يحضر الحرب بنفسه . فأقام ما ظهر من دلالة فعله مقام
 مشاهدته ، و عبر عنه بأنه تجلى منه .

و يستعمل « تجلى » بمعنى « جلى » أيضاً ، كما يقال : تحدث و حدث .
 و تصدق و صدق . فيجوز فى معنى « تجلى ربه للجبل » : « جلى شيئاً من
 عظيم قدرته للجبل » . كما قال تعالى : « لا يجليها لوقتها الا هو - الاعراف :
 ١٨٧ »^١ .

على أنه لا بد من الحمل على هذا المعنى ، بعد أن لم تكن المقابلة مع الجبل
 أمراً معقولاً ، و لا كانت للجبل تلك الرؤية التى تحققها المقابلة المذكورة ، و التى يرومها
 المستدل بالاية . فلا بد أنه بمعنى اظهار القدرة و الجبروت ، التى لا يطبق المقاومة
 أمامها أى موجود !

١- راجع : امالى الشريف المرتضى ج ٢ ص ٢٢٠ . و متشابه القرآن لابن شهر آشوب

ج ١ ص ٩٨ .

وليس يجب في المعلق على شيء أن يكون من جنس المعلق عليه ، كما في قول الخنساء الأنف . وكما في قوله تعالى : « ولا يدخلون الجنة - كناية عن التمتع بنعيم الرضوان - حتى يلج الجمل - وهو جبل غليظ - في سم الخياط - الاعراف : ٤٠ » . إذ يكفي لبدء امتناع المعلق مجرد امتناع الشيء المعلق عليه أياً كان جنسه .

* * *

٤- أما الزيادة في قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة - يونس : ٢٦ » فهي تضعيف الحسنات ، بقرينة ما بعدها : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة - : ٢٧ » . فهي نظيرة قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها الانعام : ١٦٠ » . وقوله تعالى : « ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله - فاطر : ٣٠ » . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

والتفسير بزيادة المثوبة والأجر هو المأثور عن أئمة أهل البيت - ع - وعن كبار الصحابة والتابعين بأسانيد جيد^١ فعن ابن عباس قال : « هو مثل قوله : ولدينا مزيد . يقول : يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله وقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون » . وعن علقمة بن قيس ، سئل عن الزيادة ، فقال : « ألم تر أن الله يقول : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . وقال قتادة : « كان الحسن يقول في هذه الآية : الزيادة بالحسنة عشر أمثالها الى سبعمئة ضعف » . وقال مجاهد : « زيادة مغفرة ورضوان » . وهكذا .^٢

١- راجع : البرهان في تفسير القرآن للمحدث البحراني ج ٢ ص ١٨٣ و ج ٣

ص ٢٨٥ ط ٢ .

٢- راجع : جامع البيان للطبري ج ١١ ص ٧٦ .

٣- الدر المنثور للسيوطي ج ٣ ص ٣٠٦ . والطبري ج ١١ ص ٧٦ .

وماورد في تفسيرها بالنظر الى وجه الله ، مطروح رأساً ، للاسباب التالية .
 أولاً - مخالفتها مع ظاهر القرآن ، لان تناسق لفظ الآية يستدعى أن تكون
 الزيادة من جنس المزيد عليه كما لو قيل اعطيك من هذا العسل رطلاً وزيادة ، ولايحسن
 لو كان أراد من الزيادة كتاباً أو مسحة مثلاً . وهكذا في الآية ، وعدهم الله الجزاء
 الحسنى ، وهو أجر عملهم ، وزيادة فضل على الاجر والجزاء .

نعم لو كان اريد من الزيادة من غير الجنس لوجب التصريح ، فيقول : وزيادة
 كتاب مثلاً ، أما اذا اطلق - كما في الآية - فلايحسن الا من جنس المزيد عليه . هذا
 ما استدعيه بلاغة اللفظ في ذاته .

وثانياً - انها معارضة بمثلها ، بل وأصح منها سنداً وأصرح دلالة ، كما
 تقدم .

وثالثاً - مباينتها مع سائر الآيات التي كانت تصلح تفسيراً لهذه الآية ، والقرآن
 اذا كان هو المفسر لنفسه ، فلا حاجة الى غيره مما يتهم شأنه ، وقد تقدمت الاشارة
 الى هذا التفسير الذاتى .

ورابعاً - ضعف أسانيدھا طراً بما لا يصلح حجة اطلاقاً ، فضلاً عن صلاحية
 تفسير كلام الله الحكيم .

اذ في طريق الاسناد - الى أبى بكر وكذا الى حذيفة من الاصحاب^١ - ابو
 اسحاق ، وهو : عمرو بن عبدالله السبيعي الهمداني ، محدث كوفي طعن في السن^٢

١- روى ابو جعفر الطبرى ، عن ابن بشار عن عبدالرحمان عن اسراييل عن ابى اسحاق
 عن عامر بن سعد عن ابى بكر . وبنفس الاسناد ، عن اسراييل عن ابى اسحاق عن مسلم بن نذير
 عن حذيفة . جامع البيان ج ١١ ص ٧٣-٧٤ .

٢- قد جاوز المئة . ولد على عهد عثمان ، ومات حدود سنة مئة وثلاثين .

حتى خرف وكان يختلط في الحديث . وكان قبل ذلك مدلساً يروى عن من لم يره
أو كان يسقط الواسطة ، و من ثم رفضوه . قال أهل الحديث : لم يفسد حديث
أهل الكوفة غير أبي اسحاق . و فرض له معاوية العطاء ثلاثمئة في الشهر . وكان
أحمد بن حنبل لا يرى الرواية عنه ، قال : لان الذين حملوا عنه أدركوه في
مؤخرة حياته ^١ .

ثم ان الذى يروى عنه هو حفيده « اسراييل » - تارة عنه بلا واسطة ، واخرى
بواسطة أبيه « يونس » عن جده « أبى اسحاق » . اذن فهل ياترى من صلة بين هذا
النسب الاسرائيلى النزعة ، وهذه الرواية التى هى أشبه بالاسرائيليات ؟ ! وهلاّتهم
هذه الاسرة المتأثرة ببيئة اسرائيلية فى تسمية أبنائها ، ألا تتأثر فى عقائدها وأفكارها
عن الألوهية والتوحيد ؟ !

وهكذا بقية الاساتيد هى أضعف وأوهن ولانطيل ^٢ .

قال ابن شهر آشوب : وأما الحديث المروى فى ذلك عن أبى بكر فاسناده
غير مرضى ^٣ قلت : ومن ثم فان محمد بن اسماعيل البخارى ، عند تفسيره لسورة
يونس من جامعه ، عفى تلك الروايات رأساً ، و فسر الزيادة - كما عن مجاهد -
بزيادة مغفرة ورضوان ^٤ .

* * *

١- راجع : الجرح والتعديل لابن ابى حاتم الرازى ج ٦ ص ٢٤٣ . وميزان الاعتدال

للذهبي ج ٣ ص ٢٧٠ . وتهذيب التهذيب لابن حجر ج ٨ ص ٦٦ .

٢- تجدها مجموعة فى جامع البيان ج ١١ ص ٧٤ ، وهى تربو على ٢٠ اسناداً

كلها ضعاف .

٣- مشاهبات القرآن ومختلفه ج ١ ص ١٠٠ .

٤- صحيح البخارى - تفسير سورة يونس - ج ٦ ص ٩٠ .

٥- وقوله تعالى : « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد - ق : ٣٥ » قدفسرتها الآية « فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون - السجدة : ١٧ » . يقول تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر^١ . فيجد المؤمن من نعيم الجنة ما لم يكن يترقبه ولا كان يتصوره ، فنقر عينه بتلك النعم الجسام التي منحه الله فوق ما كان يشتهي ، و زيادة عما كان يتوقعه . وفى سورة الزخرف : « وفيها ما تشتهي النفس و تلذ الأعين - ٧١ » . فالاول : ما كان يتصوره من نعيم و ينتظره ، و ان كان قد اتى به متشابهاً - البقرة : ٢٥ - والثاني : ما لم يكن يتوقعه ، وستقر عينه برؤيتها ، وهذا هو المزيد الموعود به . أما تفسيره بالنظر الى وجه الله - كما زعمه المستدل - فشىء غريب عن ظاهر اللفظ و متناف مع سائر الايات ، والكلام فيه عين الكلام فى آية يونس ، فلا نعبد .

* * *

٦- وقوله تعالى : « تحيتهم يوم يلقونه سلام ، و اعدلهم أجراء كريماً - الاحزاب : ٤٤ » لا يعنى اللقاء بالنظر اليه تعالى وجهاً لوجه . اذ نفس التعبير وارد بشأن الكفار المنافقين أيضاً : « فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم الى يوم يلقونه - التوبة : ٧٧ » وقد قال تعالى بشأنهم : « كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون - المطففين : ١٦ » . و انما عنى بيوم التلاق - غافر : ١٥ - يوم القيامة ، وهو يوم الرجعى - العلق : ٨ - « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون - البقرة : ٤٦ » و « قد خسر الذين كذبوا بقاء الله - الانعام : ٣١ » . فيوم اللقاء هو يوم الرجوع و الانتهاء اليه تعالى : « ان الله وانا اليه راجعون - البقرة : ١٥٦ » : سواء المؤمن

١- حديث قلسى مأثور . راجع : الطبرى ج ٢١ ص ٦٥ . و مجمع البيان ج ٨

والكافر ، « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه - الانشقاق : ٦ » .
 والمقصود من هذا اللقاء هو الانتهاء الى حيث لا حكم الاحكمه تعالى ،
 « ويعلمون أن الله هو الحق المبين - النور : ٢٥ » . « وله الملك يوم ينفخ في
 الصور - الانعام : ٧٣ » . « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - غافر : ١٦ » .
 « الملك يومئذ لله يحكم بينهم - الحجج : ٥٦ » فكل من المؤمن والكافر يلاقى
 جزاء عمله ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون -
 المؤمنون : ١٠١ » . « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض فمن ينصرنا من
 بأس الله ان جاءنا - غافر : ٢٩ » .

ومن ثم جاء التعبير بلقاء يوم الحساب و لقاء الآخرة أيضاً ، كناية عن نفس
 المعنى ، ففي سورة الاعراف : « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت
 أعمالهم - ١٤٧ » وفي سورة الكهف : « اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه
 فحبطت أعمالهم - ١٠٥ » . « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي
 يوعدون - الزخرف : ٨٣ » . « انى ظننت انى ملاق حسابه - الحاقة : ٢٠ » . وفي :
 سورة البقرة : « يظنون أنهم ملاقوا ربهم - ٤٦ » .

* * *

٧- واما الحجب فى قوله تعالى : « كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون -
 المطففين : ١٥ » فهو الحرمان عن بيض قدسه تعالى ، ومن ثم جاء التعقيب بقوله :
 « ثم أنهم لصالوا الجحيم - ١٦ » ، « فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا -
 الاعراف : ٥١ » . حيث الذنوب حالت بينهم وبين ادراك الحق ، فحرموا
 عنايته تعالى الخاصة باولى البصائر من أصحاب الايمان . « ورحمتى وسعت
 كل شئ فساكتها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون -
 الاعراف : ١٥٦ » .

٨- واما حديث : « سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر »^١ فان صح السند - ولم يصح كما نذكر - فلا بد من تأويله بالعلم الضروري ، فمن كان له شك في وجوده تعالى ، فسوف لا يبقى مجال لأى شك بعد وضوح الحق كالعيان ، أما الأخذ بالظاهر فمتناف مع قوله تعالى : « لا تدركه الابصار » وحكم العقل القاطع بامتناع الجهة والتقابل بشأنه تعالى . فلا بد إمامن الطرح ، شأن كل معارض لصريح القرآن ، أو التأويل ، على فرض صحة الاسناد .

لكن الاسناد غير نقي ، ورجاله غير موثوق بهم ، اذ أشف ما يتعلقون به هو هذا الحديث ، الذى يروونه عن قيس بن أبى حازم ، عن جرير بن عبد الله البجلي ، عن النبى ﷺ . وقيس هذا مطعون فيه من وجهين ، الاول : انه كان يرى رأى الخوارج . وكان ممن يبغض أمير المؤمنين علياً عليه السلام ^٢ الذى هو نفس الرسول - صلى الله عليه وآله - ومثال الاسلام الكامل ، فلا يبغضه الامنافق وغد ، وهو مبغض للنبي ﷺ وللإسلام جميعاً . قال عليه السلام : « من زعم أنه آمن بى وهو يبغض علياً فهو كاذب » . وقال - لعلى عليه السلام - : « من أبغضك فقد أبغضنى » و« لا يحبك المؤمن ولا يبغضك الامنافق » . وكان الصحابة يعرفون المنافقين على عهد عليه السلام ببغض على عليه السلام . وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : امتحنوا أولادكم بحب على . وقال أحمد بن حنبل : ان الحديث الذى لابس عليه ، هو قول النبى صلى الله عليه وآله : يا على ، لا يحبك إلا المؤمن ، ولا يبغضك الامنافق . وقال الله عز وجل : « ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار - النساء : ١٤٥ » . قال أحمد : فمن أبغض علياً فهو فى الدرك الاسفل

١- صحيح البخارى ج ١ باب ١٦ ص ١٤٥ وباب ٢٦ ص ١٥٠ من المواقيت .

٢- شرح الاصول الخمسة للقاضى ص ٢٦٩ . واسد الغابة لابن الاثير ج ٤ ص ٢١١

وميزان الاعتدال للذهبي ج ٣ ص ٣٩٣ .

هذا ، وقد قال قيس : منذ سمعت علياً على منبر الكوفة يقول : انفروا الى بقية الاحزاب - يعنى أهل النهروان - دخل بغضه قلبى . قال القاضى : ومن دخل بغض أمير المؤمنين قلبه ، فأقل أحواله أن لا يعتمد على قوله ولا يحتج بخبره . وقد تجنّب قدماء الكوفيين الرواية عنه لذلك ، اذ لا ينبغي الرواية عن منافق هو فى الدرك الاسفل من النار - كما قال ابن حنبل - وقد تكلم فيه أئمة النقد ، فبين من حمل عليه ، رعاية للمأثور عن النبي ﷺ بشأن هؤلاء الأوغاد ، ومن وثقه ، لانحراف فى نفسه « ان الطيور على أشكالها تقع » لكنه اعترف بأن له مناكير . قال يحيى بن سعيد : قيس ابن أبى حازم منكر الحديث ٢ .

والوجه الثانى : أنه طعن فى السن حتى كبر وشاخ وذهب عقله وخرف ٣ . قال القاضى : انه خولط فى عقله فى آخر عمره . والكتبة يكتبون عنه على عادتهم فى حال عدم التمييز . ولا ندرى أن هذا الخبر - المنكر - رواه وهو صحيح العقل أو مختلط العقل ٤ .

* * *

٩- وأما قوله : « لا موجود إلا جازئ أن يرينا الله » فلا يعدو سفسطة ومصادرة

١- راجع : ابن عساكر فى ترجمة الامام امير المؤمنين ج ٢ ص ٢٥٣ و ص ٢١٨ - ٢١٩ وكفاية الطالب ص ٧٢ . وراجع : المسند ج ١ ص ٨٤ و ٩٥ . والترمذى ج ١٣ ص ١٧٧ . ومسلم ج ١ ص ٦٠ . وابن ماجه ج ١ ص ٥٥ . وشرح النهج ج ٤ ص ٨٣ . قال : حديث صحيح متفق عليه بين المحدثين .

٢- راجع : تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٨ ص ٣٨٨

٣- نفس المصدر . والذهبي فى الميزان ج ٣ ص ٣٩٣ .

٤- شرح الاصول الخمسة ص ٢٦٩ .

على المطلوب ، اذلا ملازمة بين مطلق الوجود وامكان الرؤية ، بعد أن لم يثبت ذلك ببرهان ، ولا كان ضرورى الثبوت فى الوجدان .

نعم استدلل متفلسفوهم ببرهان « السبر والتقسيم » ، قالوا : انا قاطعون برؤية الأعيان والأعراض ، ضرورة أنانفرق بالبصر بين جسم وجسم ، وعرض وعرض ، ولا بد من علة مشتركة بين الجسم والعرض لهذا الحكم المشترك بينهما ، وهى : إما الوجود ، أو الحدوث ، أو الإمكان ، إذ لا رابع يشترك بينهما . غير أن الحدوث عبارة عن الوجود بعد العدم ، والإمكان عبارة عن عدم ضرورة الوجود . والعدم لا مدخل له فى العلية ، فتعين الوجود « وهو مشترك بين الصانع تعالى وغيره من الأجسام والأعراض » اذن جاز رؤيته تعالى لأنه موجود^١ .

ومغالطة هذا الاستدلال واضحة ، اذ العرض بما هو عرض لا يقبل تعلق الرؤية به ، مالم يقم بجسم ، فيرى من حيث كونه جسماً . وذلك كالكم والكيف والأين والوضع والمدة والإضافة والفعل والإنفعال ومتى^٢ ، الأعراض التسعة المشهورة لا تقبل تعلق احساس بها فى أنفسها . فإن العدد بما هو عدد لا يرى وإنما يرى المعدود . وهكذا بقية الأعراض .

إذن فالذى يرى هو الجسم . والعلة هى الجسمية ، المفقودة فى ذاته المقدسة . وأما قياس الأشعرى الرؤية بالعلم فهو قياس مع الفارق ولا جامع بينهما . مضافاً الى أن الاستدلال بالوجود والعلم على جواز الرؤية باطل فى نفسه ، بعد أن نجد فى بدهة العقل اشياء لها وجود ، كالعلم والعقل والارادة والكراهة والحب والبغض^٣ ، هى موجودة ومعلومة ولكن لا تصح رؤيتها لأنها ليست أجساماً ، وماليس جسماً لا يمكن تحقق التقابل بينه وبين نظر الرائي ، وهو شرط فى تحقق الرؤية .

١- شرح العقائد النسفية لسعود بن عمر التفتازانى ص ٥٦ ط كابل

٢- شرح تجريد الاعتقاد لابن المطهر الحلى - قدس سره - ص ١٠٧

٣- راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضى ص ٢٧٤

١٠- وأما تقييد عموم النفي في قوله تعالى: «لاتدرکه الأبصار - الانعام: ١٠٣» بالرؤية في الدنيا ، أو برؤية الكافرين ، فهو تأويل قبيح بعد أن كانت الآية اشادة بشأن من شؤون الرب تعالى ومدحاً لائقاً بمقام قدسه جل ثناؤه . قال تعالى : «بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لاتدرکه الأبصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ الانعام: ١٠١-١٠٤» .

انظر الى هذا الاطراء الجميل بمقام الألوهية الكريمة، توّهت عن صفات ونعوت جليلة كانت صبغتها العموم المطلق ، لا الاختصاص بهذه الحياة القصيرة المدى أو باناس دون اناس ، الذى يتنافى وكونها صفات جلال واکرام . هذا ، فضلا عن تذييل الآية بشبه تعليل للنعوت المذكورة : «وهو اللطيف الخبير» . اذ اللطيف مقابل الكثيف ، لا يمكن مسه ولا النظر اليه ، والخبير هو المحيط بخصوصيات الشيء «وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء - يونس : ٦١» . فاذا ما قارنا هذا التعليل الذى فى الدليل ، مع تلكم النعوت فى صدر الآية ، يتضح جانب عموم تلك الصفات بجلاء ، الامر الذى لا يكاد يخفى على ذوى الازواق الأدبية الدقيقة !

ولابن تيمية هنا محاولة فاشلة ، قال : «المراد من الادراك فى الآية هى الرؤية المقيدة بالاحاطة ، ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل لا يقال انه أدركها ، وإنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية . قال : ونحن فى هذا المقام ليس علينا بيان ذلك ، وإنما ذكرنا هذا بيانا لسند المنع ، بل المستدل بالآية عليه أن يبين أن الادراك فى

لغة العرب مرادف للرؤية ، وأن كل من رأى شيئاً يقال في لغتهم أنه أدركه ، وهذا لاسبيل إليه ، كيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الإدراك عموم وخصوص ، فقد تقع رؤية بلا ادراك ، وقد يقع ادراك بلا رؤية ...» .

وأضاف : «أن الآية مدح ، ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح ، لأن النفي المحض لا يكون مدحاً أن لم يتضمن أمراً ثبوتياً ، ولأن المعدوم أيضاً لا يرى ، والمعدوم لا يمدح ، فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه »^١ .

وقد غفل أن الإدراك جاء في الآية مقيداً بالأبصار ، وهو من أوضح القرائن على أن المراد به «الرؤية بالعين» تجاه تقييده بالقلب ، المراد به الدرك النفساني المجرد ، يقال : أدركته ببصري ، ويراد معنى يفاير قولهم : أدركته بقلبي . وهذا كاف مستنداً للمستدلين بالآية على نفي رؤيته تعالى ، الامر الذي لم يتنبه له شيخ حرّان .

هذا ، ونفي الرؤية في الآية جاء معللاً بأنه تعالى «لطيف» ، وهو من النفي المتضمن للاثبات لانفي المحض ، فهو كقوله تعالى : «لاتأخذه سنة ولا نوم» لكونه «حياً قيوماً» وقره : «ولا يحيطون بشيء من علمه» كناية عن عظم احاطته تعالى . وأمثال ذلك كثير في القرآن . وهكذا قوله تعالى ، «لاتدركه الابصار» ، لكونه «لطيفاً» . كما أن قوله : «وهو يدرك الابصار» جاء معللاً بكونه «خبيراً» .

وهذا من اللطائف الدقيقة التي تضمنتها الايات الكريمة ، لاتناها أفهام القشرين من أهل الحشو .

وهذا الشيخ عدى بن مسافر الاموي (ت ٥٥٧هـ) أحسن تقديساً لمقام الالوهية من هؤلاء المقلدة السلفيين ، قال : «وانه تعالى ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم ، وانه ليس في جهة من الجهات ، وليس مستقر أعلى مكان وأنه مرئي بالقلوب والابصار - بكسر الهمز - ولا تحويه الأقطار والابصار - بالفتح - ولا تحيط به الجهات ، وأنه واحد فرد صمد ، لا ثاني معه ولا شيء مثله» .

١- منهاج السنة ، تحقيق محمد رشاد طيبروت ج ٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤

قال: «فهذا هو العلم بذاته، مستوعب على عرشه بالمعنى الذى أرادته تعالى، استواء منزهاً عن المماساة والاستقرار والتمكن والحلول والمقدار، لا يحمله العرش، بل العرش وحمله العرش واللوح والكرسى والسموات والارض وما بينهما وما فيهما وما تحتها وما وراءها وجميع المخلوقين والمخلوقات، محمولون بقدره الله تعالى ومقهورون فى قبضته...»^١.

الجهة والمكان

ذهب الأشعري وأذنبه من مشبهة ومجسمة الى أنه تعالى كائن فى جهة «فوق» مستويًا على عرشه فوق أطباق الثرى. وأنه ينزل ويصعد ويتحرك من مكان إلى مكان، فيحويه مكان ويخلو منه مكان. وتشبثوا بآيات وروايات حسبوها دالة على ما فهموا منها وفق ظواهرها، ونحن نذكرها جميعاً، ثم نتبعها بما صحّ لدينا من تأويلها المعقول تبعاً حسب الأرقام:

- ١- قال تعالى: «الرحمن على العرش استوى - طه: ٥».
- ٢- وقال: «إليه يصعد الكلم الطيب - فاطر: ١٠».
- ٣- وقال: «بل رفعه الله إليه - النساء: ١٥٨».
- ٤- وقال: «يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج إليه - السجدة: ٥».
- ٥- وقال - حكاية عن فرعون -: «يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وانى لأظنه كاذباً - غافر: ٣٦ - ٣٧». كذب موسى - سورة القصص - فى قوله: «ان الله فوق السموات».
- ٦- وقال: «أمنت من فى السماء أن يخسف بكم الأرض - الملك: ١٦».

١- فى رسالته «اعتقاد اهل السنة والجماعة» ط بغداد سنة ١٣٩٥هـ ص ١٥.

- ٧- وقال : « يخافون ربهم من فوقهم - النحل : ٥٠ » .
- ٨- وقال : « تعرج الملائكة والروح اليه - المعارج : ٤ » .
- ٩- وقال : « ثم استوى الى السماء وهي دخان - فصلت : ١١ » .
- ١٠- وقال : « ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً - الفرقان : ٥٩ » .
- ١١- وقال : « ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع - السجدة : ٤ » .
- ١٢- وقال : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً - الفجر : ٢٢ » .
- ١٣- وقال : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام - البقرة : ٢١٠ » .
- ١٤- وقال : « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى - النجم : ٩ » .
- ١٥- وقال : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بأذنه ما يشاء - الشورى : ٥١ » .
- ١٦- وقال : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق - الانعام : ٦٢ » .
- ١٧- وقال : « ولو ترى اذ وقفوا على ربهم - الانعام : ٣٠ » .
- ١٨- وقال : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم - السجدة : ١٢ » .
- ١٩- وقال : « وعرضوا على ربك صفاً - الكهف : ٤٨ » .
- قال : كل ذلك يدل على أنه تعالى ليس فى خلقه ، ولا خلقه فيه ، وأنه مستو على عرشه^١ .

١- الابانة ص ٣٨ باب ذكر الاستواء على العرش .

٢٠- وقال تعالى : «الله نور السموات والأرض - النور: ٣٥» .

٢١- واستدل أيضاً بما روى : أنّ الله تعالى ينزل كل ليلة الى السماء الدنيا ،

فيقول : هل من سائل فأعطيه : هل من مستغفر فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر . الى أمثالها من روايات نسبت النزول اليه تعالى ^٢ .

٢٢- وبما روى - أيضاً - عن ابن عباس ، أنه قال : تفكروا في خلق الله ،

ولا تفكروا في الله ، فان بين كرسيه الى السماء ألف عام ، والله عز وجل فوق ذلك .

٢٣- وبما روى عن النبي -ص- أنّه قال : إنّ العبد لا تزول قدماه من بين يدي

الله عز وجل حتى يسأله عن عمله .

٢٤- وبما روى : أنّ رجلاً أتى النبي -ص- بأمة سوداء ، فقال : يا رسول

الله ﷺ انى اريد أن اعتمها في كفارة ، فهل يجوز عتمها ؟ فقال لها النبي ﷺ :

أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : فمن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ﷺ . فقال

النبي ﷺ : اعتمها فإنها مؤمنة . قال الأشعري : فهذا يدل على أنّ الله على عرشه

فوق السماء ^٣ .

٢٥ - وزاد أبو سعيد الدارمي : أنّ هذه العصابة - يعنى بهم المعتزلة -

أقرت بهذه الآيات بألسنتها ثم نقضوا دعواهم بدعوى غيرها ، فقالوا : الله في كلّ

مكان ولا يخلو منه مكان . ثم ذكر حديث الجارية السوداء وقال : ففي هذا دليل

على أنّ الرجل إذا لم يعلم أنّ الله في السماء دون الأرض فليس بمؤمن ، ألا ترى

أنّ النبي ﷺ جعل أمانة إيمانها معرفتها أنّ الله في السماء .

١- نفس المصدر ص ٣٥ - ٣٨ .

٢- نفس المصدر ص ٣٧ . وكتاب التوحيد والصفات لابن خزيمة ص ١٢٦ .

٣- نفس المصدر ص ٣٩ .

وفى قول رسول الله ﷺ « أين الله ؟ » تكذيب لقول من يقول : هو فى كل مكان ، لا يوصف بأين . لأن شيئاً لا يخلو منه مكان يستحيل أن يقال : أين هو ؟ ولا يقال : أين ؟ إلا لمن هو فى مكان ويخلو منه مكان ^١ .

واستدل أبو سعيد بأحاديث أخر أيضاً منها :

٢٦- حديث الاعرابى ، جاء الى النبى ﷺ يشكو الجذب ، فقال : يا محمد هلكت المواشى ونهكت الاموال ، وانا نستشفع بك على الله ، وبالله عليك فادع الله أن يسقينا ! فقال النبى ﷺ : يا أعرابى ويحك ، وهل تدرى ما تقول ؟ ان الله أعظم من أن يستشفع عليه بأحد من خلقه ، ان الله فوق عرشه ، فوق سماواته ، وسماواته فوق ارضيه مثل القبة ، وانه ليثبط به أطيظ الرجل بالراكب .

٢٧- وحديث المطر ، حسر النبى ﷺ عن ثوبه حتى أصابه ، قيل : يا رسول الله ﷺ لم صنعت هذا ؟ قال : لانه حديث عهد بربه . قال ابو سعيد : ولو كان على ما يقول هؤلاء الزائغة - يعنى بهم المعتزلة - انه تعالى فى كل مكان ، ما كان المطر أحدث عهداً بالله من غيره من المياه والخلائق .

٢٨- وحديث أبى بكر : أيها الناس ان كان محمد الهكم فان الهكم قدمات ، وان كان الهكم الله الذى فى السماء ، فان الهكم لم يمت !

٢٩- وحديث بنى اسرائيل : قالوا : يارب أنت فى السماء ونحن فى الارض فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك ؟ قال : اذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم ، واذا غضبت عليكم استعملت عليكم شراركم .

٣٠- وحديث كعب الاحبار : ما من سماء إلا لها أطيظ كأطيظ الرجل العلافى ، أول ما يرتحل ، من ثقل الجبار فوقهن ^٢ .

١- رسالة «الرد على الجهمية» لثمان بن سعيد الدارمى ص ١٤ و ١٧ .

٢- نفس المصدر ص ١٨-٢٥ .

- واستدل - أيضاً - بآيات جاء فيها التعبير بالنزول من عند الله تعالى .
- ٣١ - منها قوله تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب - الكهف : ٤١ » .
- ٣٢ - وقوله : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان - آل عمران : ٣ » .
- ٣٣ - وقوله : « حم تنزيل من الرحمن الرحيم - فصلت : ٢ » .
- ٣٤ - وقوله : « تنزيل من حكيم حميد - فصلت : ٤٢ » .
- ٣٥ - وقوله : « انا أنزلناه فى ليلة القدر - القدر : ١ » .
- ٣٦ - وقوله : « انا أنزلناه فى ليلة مباركة - الدخان : ٣ » .
- ٣٧ - وقوله : « سورة أنزلناها وفرضناها وانزلنا فيها آيات بينات - النور : ١ » .
- ٣٨ - وقوله : « وما ننزل الا بأمر ربك - مريم : ٦٤ » .
- ٣٩ - وقوله : « نزل به الروح الامين على قلبك - الشعراء : ١٩٣-١٩٤ » .
- ٤٠ - وقوله : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق - النحل : ١٠٢ »^١ .
- وعقبها بأحاديث نزوله تعالى عن عرشه .
- ٤١ - منها: حديث نزوله تعالى فى كل ليلة الى السماء الدنيا اذا مضى منه شطره فيقول: هل من مستغفر؟
- ٤٢ - وحديث نزوله تعالى فى ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل نفس الا مشرك أو مشاحن .
- ٤٣ - وحديث نزوله يوم القيامة للحساب وتجليه للمؤمنين فيتبعونه الى الجنة .

١ - نفس المصدر ص ٢٦

٤٤- وحديث نزوله لأهل الجنة ، فيقول : سلونى ، فيقولون بأجمعهم : نسألك الرضا .

٤٥- وحديث عمر بن عبدالعزيز : فاذا فرغ الله من أهل الجنة والنار ، أقبل « فى ظلل من الغمام والملائكة - البقرة : ٢١٠ » فسلم على أهل الجنة فى أول درجة ، فيردون عليه السلام . قال القرطبى : وهذا فى القرآن «سلام قولنا من رب رحيم - يس : ٥٨» . فيقول : سلونى . قال : ففعل بهم ذلك فى درجهم حتى يستوى فى مجلسه ، ثم يأتى بهم التحف من الله تحملها الملائكة اليهم .

قال أبو سعيد : فان قالوا : كيف نزوله هذا ؟ قلنا : لم نكلف كيفية نزوله فى ديننا ، ولا تعقله قلوبنا ، وليس كمثله شىء من خلقه فنشبهه منه فعلا أو صفة بفعالهم وصفتهم . ولكن ينزل بقدرته ولطف ربوبيته كيف يشاء ، فالكيف منه غير معقول ، والايمان بقول رسول الله ﷺ فى نزوله واجب ولايسأل الرب عما يفعل ، كيف يفعل ، وهم يسألون . قال : واذا لو آمنتكم باستوائه على العرش كايمان المصلين به ، لقلنا لكم : ليس نزوله من سماء الى سماء بأشد عليه من ذلك فكما قدر على الاولى قدر على الأخرى كيف يشاء ^١ .

٤٦- واستدل ابن خزيمة بأن فطرة المسلمين علمائهم وجهالهم ، أحرارهم ومماليكهم ، ذكرانهم وأنثيهم ، بالغيم وأطفالهم ، كل من دعا الله جل وعلا ، فإنما يرفع رأسه الى السماء ، ويمد يده الى الله الى أعلاه الى أسفل . وزاد المعلق (محمد خليل هراس) فى هامش الكتاب : ان التوجه الى السماء فى الدعاء ، ليس فطرة فى المسلمين وحدهم ، بل هو فطرة عامة فى سائر الناس ، بل إن الحيوانات نفسها لترفع رأسها الى السماء زمان الجذب ، كأنها تستمطر ربها ، ولايجحد هذه الفطرة إلا معطل قد فسدت فطرته ^٢ . وهكذا استدل أبو الحسن الأشعري .

١- نفس المصدر ص ٢٧-٣٩ .

٢- كتاب التوحيد والصفات ص ١١٠ . وراجع : الابانة ص ٣٥-٣٦ .

هذا جل ماتشبت به القوم في هذا المجال ، فاننظر للاجابة على جميع ذلك
واحدة واحدة تباعاً حسب الارقام .

وللاشاعرة ومن لف لفهم - هنا - كلام سيء ، زعموه نقضاً على أهل التنزيه .
قال أبو الحسن الأشعري : زعمت المعتزلة أن الله في كل مكان ، فلزمهم أنه في بطن
مريم ، وفي الحشوش ، وفي الأخلية ، وهذا خلاف الدين ، تعالى الله عن قولهم !^١
وقال أبو سعيد : فما الذي دعا الملك القدوس ، اذ هو على عرشه في عزه وبهائه ، أن
يصير في الامكنة القذرة وأجواف الناس والطيروالبهائم ، ويصير بزعمكم - خطاب
الى أهل التنزيه - في كل زاوية وحجرة ومكان منه شيء ؟! ^٢ .

والحشوش : الكنف ومواضع قضاء الحاجة ، الواحد : حش ، وأصله من
الحش : البستان ، لانهم كانوا كثيراً مايتغوطون في البساتين . قاله ابن الاثير .
والأخلية : الخلاه . وهو الكنيف ايضاً . انظر الى هذا التعبير السيء في مقام التكلم
عن شؤون رب العزة ، ولاغرو فإن الغريق يتشبت بكل حشيش ، ونحن نقدرهم اذعبروا
ببطن مريم !

هكذا لفق أصحاب التشبيه تلفيقاتهم لاثبات الجهة له تعالى ، وقد أتى عليها أهل
العدل والتنزيه بعاصفة البرهان القاطع ، فنسفوها نسفاً وذرّوها أدراج الرياح .

* * *

قال أهل التنزيه : انه تعالى ليس بجسم ولا فيه شيء من خواص الاجسام ، فليس
يوصف تعالى بالابعاد الثلاثة ، من طول وعرض وعمق ، ولا هو ذو حركة وسكون ،
ولا خفة ولا ثقل ولا وزن ، ولا هو محدود بجهة ، ولا يحويه مكان ، وان كان لا يخلو
منه مكان ، ولا هو معروف الحوادث من الاجتماع والافتراق ، والحضور والغياب ،

١- الابانة ص ٣٦

٢- الرد على الجهمية ص ١٤

والانتقال والذهاب والاياب . اذكل ذلك هو من ملزومات الجسمية ، وهي عوارض
حادثة ، والله تعالى قديم فى ذاته وصفاته ، متنزه عن كل عروض او حدوث^١ «ليس
كمثله شىء وهو السميع البصير- الشورى : ١١» .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «من أشار اليه فقد حده^٢ . ومن حده فقد عده^٣ .
ومن قال : فيم ؟ فقد ضمنه . ومن قال : علام ؟ فقد أخلى منه^٤ . كائن لاعن حدث ،
موجود لاعن عدم^٥ مع كل شىء لاي بمقارنة ، وغير كل شىء لاي بمزايلة^٦» .

وقال عليه السلام : « لا يشغله شأن ، ولا يغيره زمان ، ولا يحويه مكان^٧» . وقال :
« لا يدرك بوهم ، ولا يقدر بفهم ، ولا يشغله سائل ، ولا ينقصه نائل . ولا ينظر بعين ،
ولا يحد بأين ، ولا يوصف بالازواج ، ولا يخلق بعلاج ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يقاس
بالناس^٨» .

وقال الامام جعفر بن محمد الصادق -عليهما السلام- : « ان الله عظيم رفيع
لا يقدر العباد على صفته ، ولا يبلغون كنه عظمته ، لا تدركه الابصار ، وهو يدرك

١- راجع فى ذلك بالخصوص : تجريد الاعتقاد لتصير الدين الطوسى ، شرح العلامة
ابن المطهر الحلى ، بحث الالهيات ، المسألة : ١٢- ٢٠ ، ص ١٦١- ١٦٤ . وشرح الاصول
الخمسة للقاضى عبدالجبار ص ٢١٦- ٢٣٠ .

٢- لان الاشارة الحسية تستدعى حصر المشار اليه فى جهة منقطعا عن غيرها من الجهات
فيكون محدودا ، اى اذا طرف ينتهى اليه . فمن اشار اليه فقد حده .

٣- لان التحديد هو منشأ العد ، فلولا الانتهاء الى حد لما صح العد .

٤- لأنه لو كان على شىء - كالعرش مثلا - لزم اخلاء سائر الامكنة منه .

٥- فهو تعالى موجود ازلى قديم .

٦- من اولى خطبة من نهج البلاغة ط ١ ج ١ ص ١٥- ١٦ .

٧- شرح النهج لابن ابي الحديد ج ١٠ ص ٥٨ رقم : ١٧٩

٨- الفصدر ص ٨٨ رقم : ١٨٣ : من رواية نوف البكالى .

الأبصار ، وهو اللطيف الخبير . ولا يوصف بكيف ، ولا أين ولا حيث . وكيف أصفه بالكيف ؟ وهو الذى كَيْف الكيف حتى صار كيفاً ، فعرفت الكيف بما كَيْف لنا من الكيف . أم كيف أصفه بأين ؟ وهو الذى أَيْن الأين حتى صار أيناً ، فعرفت الأين بما أَيْن لنا من الأين . أم كيف أصفه بـحيث ؟ وهو الذى حَيْث حيث حتى صار حيثاً ، فعرفت حيث بما حَيْث لنا من حيث . فالله تعالى داخل فى كل مكان ، وخارج من كل شيء^١ ، لا تدركه الابصار . وهو يدرك الابصار ، لاله الا هو العلى العظيم ، وهو اللطيف الخبير^٢ . وقال فى جواب ابن أبى العوجاء : «فأما الله العظيم الشأن الملك الديان ، فلا يخلو منه مكان ، ولا يشغل به مكان ، ولا يكون الى مكان أقرب منه الى مكان»^٣ .

وقال الامام أبو ابراهيم موسى بن جعفر - عليهما السلام - وقد ذكر عنده أن قوماً يزعمون أن الله تبارك وتعالى ينزل الى السماء الدنيا ! - : «إن الله لا ينزل ، ولا يحتاج الى أن ينزل ، إنما منظره (اي علمه المحيط) فى القرب والبعد سواء ، لم يبعد منه قريب ، ولم يقرب منه بعيد ، ولم يحتاج الى شيء ، بل يحتاج اليه كل شيء ، وهو ذو الطول لاله الا هو العزيز الحكيم . أما قول الواصفين : انه ينزل - تبارك وتعالى - فإنما يقول ذلك من ينسبه الى نقص وزيادة . وكل متحرك محتاج الى من يحركه أو يتحرك به ، فمن ظن بالله الظنون هلك ، فاحذروا فى صفاته من أن تقفوا له على حد تحدونه بنقص أو زيادة ، أو تحريك أو تحرك ، أو زوال أو استئزال ، أو نهوض أو قعود ، فان الله جل وعز عن صفة الواصفين ، ونعت الناعتين ، وتوهم المتوهمين^٤ .

١- اشارة الى مسألة . «لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان» . وقدم فى كلام الامام

امير المؤمنين -ع- : «مع كل شيء لا بمقارنة . وغير كل شيء لا بمزايلة» .

٢- الكافى الشريف - الاصول - ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

٣- المصدر ص ١٢٦ رقم ٣: باب الحركة والانتقال .

٤- المصدر ص ١٢٥ رقم ١:

هكذا جاء تنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين ، فى كلام الائمة ومحققى العلماء، وحتى من متأخرى الأشاعرة ممن أول كلام أوائلهم، ماعدى أصحاب الحشوم منهم فجزوا على سلفيتهم القديمة حتى هذا العهد ، ولنتعرض لتفنيد مازعمته المشبهة أدلة على ثبوت الجهة له تعالى .

* * *

قال تعالى : « والله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم - البقرة : ١١٥ » . هذه الآية من المحكمات ، دلت على أنه تعالى ليس بجسم . ولا هو محدود بجهة دون اخرى ، « وكان الله بكل شىء محيطاً - النساء : ١٢٦ » . قال الامام الرازى - فى الاية الاولى - : « الآية من أقوى الدلائل على نفى التجسيم واثبات التنزيه ، لانه تعالى خالق الجهات ، والخالق متقدم على المخلوق لامحالة ، فقد كان البارى تعالى خلق العالم منزهاً عن الجهات والاحياز ، فوجب أن يبقى بعد خلق العالم كذلك . وأيضاً ، فانه لو كان جسماً وله وجه جسمانى لكان وجهه مختصاً بجانب معين وجهة معينة، فلم يكن يصدق قوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله »^١ .

هذا مضافا الى قوله تعالى : « ليس كمثله شىء - الشورى : ١١ » نزهته عن مشابهة المخلوقين ، ولاريب أن كونه تعالى فى جهة يستدعى محدودية، وهو تشبيه بمحدودية المخلوقين ، تعالى الله عن ذلك .

فهو تعالى ليس بجسم ولا فيه خواص الجسمانيات ، التى منها التحيز والتحديد بجهة دون اخرى . فكل ماورد - بظاهره ثبوت الجهة له تعالى - يجب أن يؤول وفق سائر المحكمات . وعلى ضوء هذا المقياس نستعرض الآيات التى تمسك بها أهل التشبيه ، مع بيان وجه تخريجها الصحيح :

١ - التفسير الكبير ج ٤ ص ٢١ « المسألة الرابعة » .

أما قوله تعالى : «الرحمن على العرش استوى - طه : ٥» فالكلام فيه يستدعى النظر في جهتين ، الأولى : ماهى حقيقة العرش الذى تكرر ذكره فى القرآن فى أحد وعشرين موضعاً^١ ؟ الثانية : ما مفهوم الاستواء الذى جاء ذكره فى القرآن فى سبعة مواضع^٢ مما يتناسب وشأنه تعالى ؟

العرش والكرسى

رغم تكرر ذكر «العرش» فى القرآن أكثر من عشرين مرة ، لم يأت ذكر «الكرسى» إلا مرة واحدة فى سورة البقرة : ٢٥٥ . وهل هما تعبيران عن شىء واحد أم هما شيئان ؟ ذهب أهل الحشو من أصحاب الحديث الى أن العرش هو سرير ملكه تعالى متربع عليه ، والكرسى دكة أو مصطبة دون العرش ، يكون موضع قدميه تعالى ، وهويثب^٣ من ثقله تعالى أطيظ الرجل الجديد . ورووا فى ذلك أحاديث اعتمدوا ظواهرها من غير تعمق أو تحقيق^٤ .

أما أهل النظر والتمحيص فقد شطبوا على هكذا روايات هى مخالفة لضرورة العقل ومحكم الشريعة ، وفسروا العرش والكرسى بالعلم والقدرة ، لمناسبة جليلة

١- الاعراف : ٥٤ . التوبة : ١٢٩ . يونس : ٣ . هود : ٧ . الرعد : ٢ . الاسراء : ٤٢ .

طه : ٥ . الانبياء : ٢٢ . المؤمنون : ٨٦ و ١١٦ . الفرقان : ٥٩ . النمل : ٢٦ . السجدة : ٤ .

الزمر : ٧٥ . غافر : ١٥٧ . الزخرف : ٨٢ . الحديد : ٤ . الحاقة : ١٧ . التكوير : ٢٠ .

البروج : ١٥ .

٢- الاعراف : ٥٤ . يونس : ٣ . الرعد : ٢ . طه : ٥ . الفرقان : ٥٩ . السجدة : ٤ .

الحديد : ٤ .

٣- أظ أطيظا أى صوت .

٤- راجع بالخصوص : تفسير ابن كثير - ذيل آية الكرسي ج ١ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

من نفس الآيات ، وشواهد من اللغة والآثار^١ .

والذى نستخلصه من مفاد الآيات والروايات الصحيحة: ان العرش والكرسى
تعبيران عن معنى واحد ، هو : جليل قدرته تعالى وسعة علمه المحيط بكل شىء .
غير أنّ «الكرسى» جاء تعبيراً عن «ملكه» تعالى بالذات، و«العرش» تعبيراً عن جانب
«تدبيره» لشؤون الخلق كله . فالكرسى كرسى الملك ، والعرش عرش التدبير .
وكلاهما يشفان عن سعة علمه وعظيم قدرته تعالى ، حيث القدرة الشاملة والعلم
المحيط يستدعيان ملكاً يسع السماوات والارض ، وتديراً شاملاً لعالم الوجود
أجمع .

قال ابن فارس : الكرسى أصل عربى يدل على تلبد شىء فوق شىء وتجمعه
ومنه اشتقت الكراسة اسماً لمجموع أوراق يكتب فيها بعضها على بعض . والكرسى
أصل البناء أيضاً، لضخامته . قال الزمخشري : يقال هو طيب الكرسى أى الأصل^٢ .
والكرسى منسوب الى كرس الملك، وهو ما يعتمد عليه، كما يقال دهرى - بالضم -
نسبة الى الدهر . ومن ثم اطلق على العلماء «الكراسى» لأنهم عماد الامة ومرجعها
فيما ينوب . وقد أنشد قطرب :

تحف بها بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأحداث حين تنوب
أراد بهم علماء خبراء بحوادث الامور ونوازلها . وقد قيل ، خير الحيوان
الأناسى ، وخير الأناسى الكراسى ، أى العلماء العقلاء العارفون بشؤون التدبير^٣ .

قال تعالى: «وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما - البقرة: ٢٥٥»

١- راجع بالخصوص: تفسير الطبرى هنا «جامع البيان» ج ٣ ص ٨، وستقل بعض كلامه

فى آخر الفصل .

٢- كما قال العجاج :

ان ابا العباس اولى نفس بمعن الملك الكريم الكرس

٣- راجع : معجم مقاييس اللغة، واساس البلاغة.

أى وسع ملكه أرجاء عالم الوجود من غير أن يعجز عن إدارة شؤونه بما يدوم مزدهراً مع الأبدية . فهذا التعبير (لا يؤده) يدلنا بوضوح على إرادة الملك من «وسع كرسيه» بالذات ، ومن عبر عن الكرسي بالعلم - كابن عباس ومجاهد وغيرهما - أراد نفس المعنى ، إذ ملكه تعالى منبعث عن علمه المحيط المعبر عنه بالعرش أيضاً ، حيث التدبير الحكيم يستدعى الاحاطة والعلم بمزايا الامور .

قال تعالى : «ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر - يونس : ٣» . وقال : «ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، أله الخلق والامر - الاعراف : ٥٤» .

انظر الى الآية الاولى كيف رتبت التدبير على قوله : «استوى على العرش» ليكون المعنى : استوى على عرش التدبير ، وتوضحه الآية التالية «أله الخلق والامر» فالخلق هو ما عبر أولاً من خلق السماوات والارض ، والامر هو اقامة شؤونهن وحفظهن عن الفساد والاختلال .

وهكذا جاء التعبير فى سورة الرعد : ٢ «ثم استوى على العرش ... يدبر الامر» . وفى سورة الفرقان : ٥٩ «ثم استوى على العرش الرحمن ، فأسئل به خيراً» . وفى سورة السجدة : ٥ «ثم استوى على العرش ... يدبر الامر من السماء الى الارض» وعلى نفس النمط فى سورة الحديد : ٥ ، وغافر : ١٥ ، وطه : ٨ ، وغيرهن من آيات .

وفى سورة الحاقة : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية - ١٣-١٨» .

فالعرش فى هذه الآية هو عرش التدبير وإدارة شؤون الملك يوم لا ملك الا

ملكه، كما جاء في آية أخرى: «كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً - الفجر: ٢٢». وقوله: «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - غافر: ١٦» وقوله: «وله الملك يوم ينفخ في الصور - الانعام: ٧٣». كلها تعابير عن معنى واحد، وهو تصوير سيطرة حكمه تعالى في ذلك اليوم الرهيب «أله الحكم وهو أسرع الحاسبين - الانعام: ٦٢». ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم يغادر منهم أحداً، وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة - الكهف: ٤٨». «هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً - الكهف: ٤٤». وقد جاء تأويل «العرش» في روايات أهل البيت عليهم السلام الى وجهين، احدهما: العلم، والثاني: كل ما سوى الله تعالى. ففي الحديث الصحيح عن الامام أبي الحسن الرضا عليه السلام: «والعرش اسم علم وقدرة. وعرش فيه كل شيء. ثم أضاف تعالى الحمل الى غيره - في قوله: «الذين يحملون العرش» - خلق من خلقه، لأنه تعالى استعبد خلقاً بحمل عرشه، وهم حملة علمه. وخلقاً يسبحون حول عرشه، وهم يعملون بعلمه...»^١

أراد - عليه السلام - تدبيره تعالى الشامل، المنبعث عن علم وقدرة، ومن ثم قال: هم حملة علمه. وهم يعملون بعلمه، أي ينفذون تدبيراته في شؤون هذا العالم. كما أن قوله تعالى: «وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء - هود: ٧» يعني: أن تدبيره تعالى قبل خلق السماوات والأرض لم يكن قد تعلق بشيء سوى الماء. اذ لم يكن في عالم الطبيعة يومذاك موجود ولا معلوم سوى الماء، لأن أول شيء خلقه الله من الماديات هو الماء كما في الأثر^٢.

قال أبو جعفر الطبري: «وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول

١- الكافي الشريف - الاصول - ج ١ ص ١٣١

٢- راجع: بحار الانوار ج ١ ص ١٠٢ وج ٥٧ ص ٣٠٨

ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير عنه أنه قال : هو علمه و ذلك لدلالة قوله تعالى «ولا يؤده حفظهما» على أنّ ذلك كذلك ، فأخبر أنّه لا يؤده حفظ ما علم وأحاط به مما في السماوات والارض . وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً - غافر : ٧» فأخبر أنّ علمه وسع كل شيء ، فكذلك قوله «وسع كرسيه السماوات والارض»^١ .

الاستواء

و الاستواء هو التمكن و الاستيلاء السّام ، دون الجلوس كما زعمت المجسمة ، كقول الأختل يمدح بشراً أخا عبد الملك بن مروان حين ولي على امرة العراقين :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق^٢
وجاء بمعنى استقامة الأمر أيضاً ، كما قال الطرماح بن حكيم :

طال على رسم مهدد أبده و عفا و استوى به بلده^٣

و هكذا جاء بمعنى عمد و قصد ، كقوله تعالى : «ثم استوى الى السماء - البقرة : ٢٩» . و كلما جاء ذكر «الاستواء على العرش» في القرآن ، انما يعنى الاستيلاء التام بتدبير شؤون العالم ، بعد أن كان «العرش» كناية عن مجموع الخلق ، كما جاء في تعبير الصدوق - عليه الرحمة -^٤ .

١- جامع البيان ج ٣ ص ٨ ط الاميرية

٢- البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٧

٣- جامع البيان للطبري ج ١ ص ١٥٠

٤- راجع : بحار الانوار ج ٥٨ ص ٧

الفوقية

وأما الآيات التي جاء فيها ذكر العلو والفوقية له تعالى^١ . أو أنه في السماء^٢ أو أنه يدبر الأمر من السماء^٣ . أو تعرج إليه الروح^٤ . أو تنزل الملائكة من عنده^٥ وأمثال ذلك ، فهذه الفوقية والعلو لا تعنى الجهة التي هي إحدى الجهات الست التي تحدد بها الأجسام ، من فوق وتحت ويمين ويسار وخلف وأمام . إذ بعدما انتفت الجسمية عن ذاته المقدسة ، لم يبق مجال لتصوير الجهة له تعالى إطلاقاً . وأما هذه التعابير الواردة في الآيات ، فإن لها تأويلات حكمية دقيقة ، أوضحها علماء الكلام ، وجاء بعض تفاصيلها في رسالة كتبها أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي ، المعروف بابن شيخ الحزاميين (٦٥٧-٧١١) .^٦ ونحن نذكر منها ما يجيب على غالبية الأسئلة الموجهة بهذا الصدد :

انه تعالى كان و لا مكان ، لا خلاء ، ولا ملاء ، فلم يكن فوق ولا تحت ولا جهة من الجهات ، إذ لا موجود سواه تعالى . ولما خلق الله هذا الكون ذا الجهات الست ، انتزعت له تعالى صفة الخالقية والإبداع وتكوين الأكوان ، ولا شك أنه تعالى قبل أن يخلق الكون لم يكن في كون ، وهكذا بعدما خلق الكون لم يحل في كون ، فلم يزل كائناً لافي كون . ولم يزل موجوداً لافي جهة ، كما كان قبل أن يكون الكون

١- تقدمت في كلام الأشعري برقم : ٣٥٢ و ٧٥٥

٢- تقدم برقم : ٦ «أنتم من في السماء»

٣- تقدم برقم : ٤ «يدبر الأمر من السماء» .

٤- تقدم برقم : ٨ «تعرج الملائكة والروح إليه» .

٥- تقدم في كلام الدارمي برقم : ٣١-٤٠

٦- نشرت ضمن مجموعة «أربع البضاعة» بمكة المكرمة : ١٣٩٣ هـ ص

ويوجه الجهات .

وبعد فنسبة ذاته المقدسة الى الأكوان والجهات نسبة الترفع والتعالى عنها ، لأنها محدثات ، ولاتناسب بين الحادث الممكن بالذات والازلى الواجب بالذات . انه تعالى فوق كل شيء ومتعال عنها ، لأنه أوجدها وأحدثها ، والمخلوق تحت الخالق والصانع فوق المصنوع ، تحتية لبالجهة وفوقية لبالجهة ، بل بالاعتبار والسببية المنتزعة مما بينهما من نسبة قائمة .

وهذا اذا ما لاحظنا من تباين مابين عالم المادة وعالم ماوراء المادة ، وبما أننا عاثشون في وسط من العالم المادى ، فاذا أردنا الاشارة الى العالم الآخر غير المادى ، أشرنا - طبعاً - الى خارج عالمنا هذا ، وهذه الاشارة تقع الى جهة «فوق» لابما أنه «فوق» ، بل باعتبار أن كل خارج عن هذا العالم المادى - فى المحسوس - فوق من كل الجهات ، حيث الواقف فى مركز كرة إذا أراد الإشارة الى خارجها ، لابدان يشير الى خارج سطح الكرة ، الذى هو فوق بالنسبة اليه من كل الجهات .

وهكذا بالنسبة الينا ونحن عاثشون على الارض إذا اردنا الإشارة الى خارج عالمنا هذا ، اشارة بالحس ، لابد أن تقع إشارتنا الى خارج هذا المحيط ، وهو فوق فى جميع جوانب هذه الارض .

وعليه فإذا ما اعتبرنا أن تدابير هذا العالم المادى فى جميع أرجائه ، تنحدر من عالم ماوراء المادة من عند ربنا العزيز الحكيم ، صح إطلاق الفوق عليه تعالى ، وهكذا التعبير بالنزول من عنده والصعود اليه وما أشبه . لا ارادة التحديد والجهة الماديين ، بل الاعتباريين بالنظر الى مابين العالمين من تباين وفرق ، ذاك الى ذروة العلى والشرف والغنى وهذا الى حضيض الخسة والذل والافتقار .

قال تعالى : «وان من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم - الحجر : ٢١ . أى ننزله الى عالم المادة تنزيلاً بالإعتبار . حتى اذا ما نبت زرع أو استخرج معدن من تحت الارض أو اصطيد سمك من جوف الماء ، قلنا أنه من بركات الله النازل

علينا أهل الأرض .

* * *

وعلى ضوء هذا البيان يبدو أن لاغموض على وجه الآيات التي تمسك بها الأشعري وأتباعه ، مما لا دلالة لها على مقصودهم لودققنا فيها الانظار .
واليك الإجابة الوافية على كل واحدة من الآيات حسب الأرقام المتقدمة :

١- اما قوله : «الرحمن على العرش استوى - طه : ٥» ، فقد تقدم أن الرشد هو عرش التدبير كناية ، والاستواء هو الاستيلاء التام والتمكن الكامل من الاحاطة بشؤون التدبير .

٢- وقوله : «اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه - فاطر : ١٠» ، فإنه صعود ورفع معنوي ، لاحسّي ، أى الأعمال المحسنة ترتفع من هذا العالم المادى ، لتتقلب درجات فى عالم آخر لامادى هو فوق هذا العالم شأناً ورفعة .

٣- وقوله : «بل رفعه الله اليه - النساء : ١٥٨» يعنى الرفع المعنوي ، وتخليصه من شروور هذه الحياة السفلى الكدرة ، الى حياة عليا كريمة ، كما جاء فى سورة آل عمران : ٥٥ « ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا » . وكقوله تعالى : « ثم اليّ مرجعكم - آل عمران : ٥٥ » . وقوله فى شأن ادريس عليه السلام : « ورفعناه مكانا علياً - مريم : ٥٧ » . وقوله بشأن الشهداء فى سبيل الله : « أحياء عند ربهم - آل عمران : ١٦٩ » . وغيرها من نظائر كثيرة كان المقصود فيها من التعبير بـ «عند الله» أو «الرفع اليه» هو شرف القرب والرفع المعنوي ، لا القرب المكانى والصعود الحسى .

٤- وقوله : «يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون - السجدة : ٥» ، هذه الآية عبارة أخرى عن قوله تعالى : «وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم - الحجر : ٢١» ، فالسما والارض

أخذتا هنا كناية عن عالم العلو اللامادى وعالم السفلى المادى، وأن تدابير هذه الحياة إنما تتخذ في عالم أعلى من عند ربنا عز وجل . ومن ثم عقبها بقوله: «ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شئ خلقه - السجدة : ٦ - ٧» .

٥- وقوله : « فاطلع الى اله موسى - غافر : ٣٧ » : ليس فيه دلالة على أن موسى - عليه السلام - قال له : «الله فوق السموات» ، فلعلة هو توهم ذلك ، اذ لم ير فى الارض من يصلح أن يكون الاله الذى يدعيه موسى - ع - فتوهمه موجوداً جسمانياً فى احدى طبقات الجو . أو نفرض أن موسى - ع - قال له ذلك ، لكنه لقصور فهمه زعم من السماء طبقة جووية كانت مسكن إله موسى - ع - ولم يدر ان معنى كون الاله فى السماء ، انه متعال عن الماديات وأنه فوق أطباق العلى لبالجهة والحدود ، بل بالرفعة والشموخ . وهكذا الأشعري وأذنانه لم يعد أفهامهم فهم فرعون من أمثال هذا المقال .

٦- وقوله : «أمنت من فى السماء أن يخسف بكم الارض - الملك : ١٧» . قيل : المراد بمن فى السماء هم الملائكة الموكلون بشؤون الارض . لكن الصحيح أن المراد به هو الله تعالى كما فى آية اخرى : «أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض - النحل : ٤٥» . والمقصود بكونه فى السماء كون تدابير له لشؤون الخلق تنزل من مكان عليّ هو عالم ما وراء المادة ، حسبما تقدم .

٧- وقوله : «يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون - النحل : ٥٠» فوقية بالغلبة والقهر لبالجهة والحدود ، اذ الملائكة رهن أوامره تعالى وتحت ارادته « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - التحريم : ٦» . وهذا كفقوية الرئيس على المرؤوس والامير على الأمور .

٨- وقوله : «تخرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة - المعارج : ٤» ، عروجاً الى الملاء الأعلى بعد انتهاء أمد هذه الحياة السفلى ،

رجوعاً إليه تعالى «إليه مرجعكم جميعاً ، وعد الله حقاً ، انه يبدؤ الخلق ثم يعيده
- يونس : ٤٤ » .

٩ - ١٠ - ١١ - واستوى فى سورتي البقرة : ٢٩ ، وفصلت : ١١ ، جاء
بمعنى عمد وتوجه . وهو لا يستلزم الحركة ولا هو بمعنى الجلوس والاستقرار كما
زعم الأشعري . وفى السور السبع الباقية - التى جاء فيها ذكر الاستواء على العرش
- كان بمعنى الاستيلاء والتمكن من التدبير التام لشؤون عوالم الخلق ، تعبيراً كنايياً
لاغير ، وقد تقدم ذلك .

١٢ - ١٣ - وقوله : «وجاء ربك - الفجر : ٢٢ » . وقوله : «يأتيهم الله :
البقرة : ٢١٠ » فمجاز الحذف ، وقد صرح بهذا المحذوف فى قوله : « فاذ جاء
أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون - غافر : ٧٨ » . وقوله : « هل ينظرون
الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك - النحل : ٣٣ » . ونظائر ذلك فى الاضمار
فى آية والاظهار فى اخرى كثيرة فى القرآن ، كما فى آية الانعام « أو يأتى ربك
- ١٥٨ » وآية النحل « أو يأتى أمر ربك - ٣٣ » . و كما فى آية الزمر : « الله
يتوفى الأ نفس حين مسوتها - ٤٢ » وآية السجدة : « قل يتوفىكم ملك الموت
الذى وكل بكم - ١١ » . و لكن أتى لذوى الأفهام المتحجرة فى اطار « الدعوة
السلفية » من ادراك فنون كلام الله البديع .

١٤ - وقوله : « ثم دنى فتدلى - النجم : ٨ » الضمير يعود الى جبرائيل المعبر
عنه قبل الآية بقوله : « علمه شديد القوى ، ذومرة فاستوى ، و هو بالائق الاعلى ،
ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى - أى جبرئيل بما حملة الله
أو الله برسالة جبرائيل - الى عبده ما أوحى - النجم : ٥ - ١٠ » وقد تقدم شرحه .
وعلى تقدير عود الضمير الى الله ، فالمقصود من هذا الدنو هو قرب الشرف

١- فى الجزء الاول ص ٣٤ فما بعد .

ودنو الكرامة لديه تعالى ، لا القرب المكانى المحدود بالجهات .

١٥ - وقوله : « أومن وراء حجاب أو يرسل رسولا - الشورى : ٥١ » لا يدل على أنه تعالى منحاز عن خلقه انحيازاً بالمكان والجهة ، ليكون هو فى جهة أوبقعة والخلق فى جهة وفى رقعة اخرى من هذا العالم الفسيح ، كلاً، بل هو حجاب ذاتى لما بين الواجب تعالى و سائر الممكنات من بينونة ذاتية ، لا نسخية بينهما و لا تجانس . ذلك كمال مطلق فى علو العز و شرف الغنى والافتقار ، وهذا غاية فى النقص والعجز والافتقار . وتقدم ان الحجاب - هنا - حجاب معنوى ، لبعده الفاصلة بين كمال الواجب ونقص الممكن .

١٦ - وقوله : « ثم ردوا الى الله مولاهم الحق - الانعام : ٦٢ » ، كقوله : « ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون - الجمعة : ٨ » ردالى حكمه تعالى يوم لاحكم الاحكمه ، حسبما تقدم فى آيات مشابهة لذلك . و من ثم تعقبها قوله « أله الحكم وهو أسرع الحاسبين - نفس الآية » . قال تعالى : « كل شىء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون - القصص : ٨٨ » .

١٧ - وقوله : « ولوترى اذ وقفوا على ربهم قال ليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون - الانعام : ٣٠ » . المقصود : الوقوف على صدق ما انذروا به على لسان أنبيائهم ، فقد وضع الحق لهم حينذاك وكانوا قبل ذلك فى شك من لقائهم هذا . حيث « قالوا انهى الاحياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين - الانعام : ٢٩ » . « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد - ق : ٢٢ » . « بل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون - الانعام : ٢٨ » . و من ثم جاء التعقيب بقوله : « قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة

قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها - ٣٠ .

١٨ - و قوله : « و لو ترى اذالمجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً انا موقنون - السجدة : ١٢ » كالاية المتقدمة المقصود هو كشف الحق ووضوح الامر . و من ثم جاء فى الاية قبلها : « و قالوا اذا ضللنا فى الارض انا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون - ١٠ » . و جاء التعقيب : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم - ١٤ » .

١٩ - وقوله : « و عرضوا على ربك - الكهف : ٤٨ » كقوله : « انهم ملاقوا ربهم - هود : ٢٩ » كناية عن إيجائهم للمثول بين يدى حكمه تعالى يوم لا حكم الا حكمه .

٢٠ - وقوله : « الله نور السموات والارض - النور : ٣٥ » تعبير رمزى عن كونه تعالى هو منبعث الحياة والازدهار فى عالم الوجود ، كقوله : « وأشرق الارض بنور ربها - الزمر : ٦٩ » . و من ثم قال المفسرون : أى منور السماوات والارض ، اذالنور جسم وهو تعالى ليس بجسم ، بل هو خالق الاجسام كلها ، وقد تقدم وجه استعارة النور لذاته المقدسة ، حيث النور ظاهر بنفسه ومظهر لغيره ، ولا يظهر شىء فى المحسوس الا باشعاعه عليه . وكذلك ربنا تعالى موجود بنفسه ولنفسه ، وموجد لغيره ، ولم يوجد ولا يوجد شىء الا بايجاده تعالى ، فكل شىء ظهر فى عالم الوجود ، فانما هو باسراق فيضه تعالى شأنه .

٢١ - أما أحاديث نزوله تعالى الى السماء الدنيا - إن صححت^١ - فهى كناية

١ - وقد ورد بهذا اللفظ فى رواياتنا ايضاً بشأن ليلة الجمعة . راجع : التهذيب ج ٣ ص ٣ رقم : ٣٠٣ . واما فى حديث العامة فقد ورد بالفاظ منكراً لاشك انها مختلفة وضعتها الايادى الائمة . راجع : الموضوعات لابن جوزى ج ١ ص ١٢٢

عن نزول رحمته قريباً من الناس ، مظلة على رؤوسهم ، رحمة بعباده ورأفة ، وإلا فهل هناك فرق - في محسوسنا نحن أهل الارض - بين أن ينزل الى السماء الدنيا أم يبقى فوق السماوات العلى ، أو ينادى « هل من مستغفر » أم لم يناد . بعد أن لانحس بهذا الاقتراب الودّي ، ولا نسمع ذلك النداء العطوف ، لولا أنّه مجاز وكناية عن قرب رحمته تعالى وتواصل دعوته الى الانابة والاستغفار .

وفي روايات أهل البيت - عليهم السلام - : ان في الليل لساعة اذا ما وافقها العبد وهو يصلى ويدعو الله عزوجل استجاب الله له ، وهي اولى ساعة بعد منتصف الليل من كل ليلة ^١ .

وروى محمد بن علي بن الحسين الصدوق باسناده عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - قال : « من كان له الى ربه حاجة فيطلبها في ثلاث ساعات : ساعة في يوم الجمعة . وساعة تزول الشمس . وساعة في آخر الليل . فان ملكين يناديان : هل من تائب يتاب عليه ؟ هل من سائل يعطى ؟ هل من مستغفر فيغفر له ؟ هل من طالب حاجة فتقضى له ؟ فأجيبوا داعي الله واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، فانه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الارض ، وهي الساعة التي يقسم الله فيها الرزق بين عباده » ^٢ .

٢٢- والفواصل الماثورة لتحديد ما بين أجرام السماء ، كلها تقريبية حسب أفهام البسطاء ذلك العهد ، كما اثر عن أمير المؤمنين (ع) أنّه سئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب ، فقال : مسيرة يوم للشمس . وسئل : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم : فقيل : وكيف يحاسبهم ولا يرونه ؟

١- الكافي الشريف ج ٢ ص ٤٧٨ رواها ثقة الاسلام الكليني عن الامام جعفر بن

محمد الصادق (ع) .

٢- الخصال (ط نجف) ص ٨٠ • من حديث الاربعمئة .

فقال : كما يرزقهم ولا يرونه . وسئل : كم بين السماء والارض ؟ فقال : مدالبصر
ودعوة المظلوم^١ .

وهذا الإجمال المقنع لأفهام العامة فى كلام الامام (ع) أبعد عن التمويه
والدجل الذى جاء فى كلام غيره من تحديدات مقياسية لأصل لها ولا توصلت اليها
آراء علماء الفلك آنذاك فكيف بعرب الجزيرة الجاهلة .

٢٣- وقوله : « بين يدى الرب » أى بين يدى حكمه وقضائه .

٢٤- وحديث « الأمة السوداء » يعنى شيئاً آخر غير ماظنه الاشعري وأتباعه ،
وذلك : أنّ العرب يومذاك كانت تعبد أوثاناًهم نحتوها بأيديهم من أحجار و
أخشاب ، وكانوا يزعمونها آلهة فى الأرض تمثل اله السماء ، « ما نعبدهم الا
ليقربونا الى الله زلفى - الزمر : ٣ » فلما جاء الاسلام وأمر بنبذ الآلهة غير الله ،
أصبح عنوان التوحيد هو الاعتراف باله السماء، ونبذ آلهة الارض ، كناية عن
الاعتقاد بالله الهأ واحداً لا شريك له ولا نظير ولا مثيل ، فإذا قال انسان : انى لا أعبد
سوى الاله الذى فى السماء ، اعتبر - ذلك اليوم - موحدأ، بالنظر الى هذا المعنى ،
اى بالنظر الى جانب سلب القضية ، وهو نفى آلهة الارض المزعومة ، لا اثبات
كون الاله فى السماء مكاناً له بالخصوص ، وقد قال تعالى - اشارة الى هذا المعنى -
« وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله - الزخرف : ٨٤ » . فهو اله الارض
والسماء جميعاً ، « فأينما تولوا فثم وجه الله - البقرة : ١١٥ » . لكن من المؤسف
أنّ الاشاعرة لم يهتدوا الى فهم هذا المعنى .

والقصة التالية - أيضاً - شاهدة صدق لهذا المعنى الذى تنبهنها له ، رواها
عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين . قال : حدثنى أبى عن

١- قضاء امير المؤمنين للتستري ص ١٨٩-١٩٠ عن نهج البلاغة باب قصار كلماته
٢٩٤/٣ و ٣٩٦/٣ . وكتاب الغارات للثقفى .

أبيه عن جده : « ان قريشاً جاءت الى الحصين وكانت تعظمه ، فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل - يعنون محمداً (ص) - فانه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي -ص- ودخل الحصين ، فلما رآه النبي -ص- قال : أوسعوا للشيخ - وعمران وأصحابه متوافدون . فقال الحصين : ما هذا الذى يبلغنا عنك ، أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ، وقد كان أبوك جفنة وخبزاً - يريد بسط جوده وكرمه على قريش - فقال : يا حصين كم الهاً تعبد اليوم ؟ قال : سبعة ، ستة فى الارض واله فى السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء . قال : فاذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء . فقال له النبي ﷺ : فيستجيب لك وحده و تشركهم معه ؟ ! »

٢٥- وأسوأ فهماً وأردأ ادراكاً لحقائق الدين ومفاهيمه العليا، هم الحشوية من أصحاب الحديث ، أمثال أبى سعيد عثمان بن سعيد الدارمى (٢٠٠ - ٢٨٠) ، وأبى بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة السلمى (٢٢٣ - ٣١١) ، ومن لف لفهما فى كرف حثالات الأخبار والأسقاط وحشو كتبهم منها ، من غير دراية ولا تمحيص . هذا ابن خزيمة حشى كتابه الذى أسماه « التوحيد والصفات » من خزعبلات اسرائيلية كانت رائجة ذلك العهد ، فأثبت به للرب تعالى أعضاء وجوارح، وبذلك انحرفوا عن مسير الاسلام وأخذوا فى اتجاه معاكس ، مغبة اعراضهم عن مسائله اهل الذكر الذين هم آل بيت الرسول ﷺ وذريته الأطيبون . وقد قال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون - النحل : ٤٣ » . لكنهم أعرضوا فعموا فأعمى الله قلوبهم « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور - الحج : ٤٦ » .

٢٦- وهكذا استدلال أبى سعيد بحديث الاعرابى الذى جاء الى النبي ﷺ

١- كتاب التوحيد لمحمد بن اسحاق ص ١٢٠-١٢١ .

يشكو الجذب - الى قوله - ان الله فوق عرشه ، فوق سماواته ، وسماواته فوق أرضيه مثل القبة ، وانه ليثبط به أطيظ الرجل بالراكب . فان مضمون ما استشهبه باطل ، اصطنعه أهل التجسيم افكاً وزوراً . هذا فضلاً عن أن هذا الحديث يرويه أبو سعيد عن محمد بن اسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة عن جبير ، وقد ذكر الذهبي يعقوب في «المغنى» في الضعفاء ، قال : روى حديث الأطيظ عن جبير بن محمد ، ولم يرو عنه هذا الحديث سوى ابي اسحاق . وأبو اسحاق هذا أيضاً فيه ما فيه .

٢٧- وحديث المطر ، يرويه ثابت بن أنس عن أبيه ، وهو مجهول في رواية الحديث ، صرح بذلك الذهبي في «المغنى» .

٢٨- وحديث أبي بكر لا يصلح للاستناد اليه ، لاسنأ ولا مدلولاً ، بعد أن كان تعبيراً من نفسه لا غير .

٢٩-٣٠- وهكذا حديث بني اسرائيل ، وحديث كعب أحبارهم ، ادلا ينبغي لمسلم أن يتشبت بكلام عليه صبغة يهودية .

٣١-٤٠- وآيات جاء فيها التعبير بالنزول من عند الله ، قد تقدم حل اشكالها ، وأنه نزول من مكان على ، علواً بالشرف والمنزلة ، لا علواً بالحس والجهة . اذ كان لعالم ما وراء المادة رفعة شأنية على عالم المادة ، وباعتبار احاطة ذلك العالم بهذا الكون المحسوس ، احاطة تدبير وتربية ، توجه أهل الارض الى خارج محيطها ، لتصور هذا المعنى في مرتكزهم فصوروه في صورة المحسوس ، ومن ثم توقعوا نزول البركات من جهة العلو ، تشبيها لغير المحسوس بالمحسوس ، وقياساً للغايب بالمشهود .

٤١ - ٤٢ - وأحاديث نزوله تعالى ، قد تقدم أنه تعبير عن اقتراب رحمته من الناس وترفف بركاته عليهم ، « ونحن أقرب اليه من جبل الوريد - ق: ١٦٦ .

٤٣- وحديث نزوله يوم القيامة وتجليه للمؤمنين ، قد تقدم الجواب عنه
فى أحاديث الرؤية . وأنها أحاديث مفتعلة سوى التى دلت على معنى معقول قابل
لتأويل صحيح .

٤٤ - ٤٥ - وهكذا أحاديث إقباله تعالى على أهل الجنة ، فإنها لم تصح ،
والصحيح منها لا يدل على ما حسبه القوم من المقابلة الحسية وما أشبهه ، وإنما هى
زلفى فى دار رضوان .

رفع اليدين الى السماء

٤٦- وأمّا رفع الرأس واليدين الى السماء حالة الضراعة الى الله والدعاء ، فقد
تقدم (ص ١٢٧) أنّ الانسان فى فطرته يعلم بأنّ تدابير شؤون هذه الحياة المادية ، إنّما
تتخذ فى عالم آخر غير مادى ، حيث يشاهد أنّ ما أحاط به من مظاهر هذا الكون جميعاً
أمثاله ، ذوات حاجة وافتقار الى من يدبر شؤونها ، ومن يقوم بسداد خللها ، فلا بدّ أنّ
وراء هذا المظهرذى النقص والعجز ، من جهاز مقتدر غنى ذى قدرة وكمال ، هو
الذى يقوم بهذا التدبير وذاك السداد ، وما هو إلاّ عالم خارج عن المادة المفتقرة
فى ذاتها .

وإذا كان الانسان يرى من ذلك العالم اللامادى وراء هذا العالم ، فانه يراه
محيطاً به من كل الجوانب ، احاطة المدير - بالكسر - بالمدير - بالفتح - ، وأعلى
منه ، علو الكمال على النقص ، ومتبائناً منه ، تبائن القدرة عن العجز .

وبعد فاذا كان الانسان يرى ما بين العالمين هذا التباعد ، وكان يرى من عالم
الشهود مدبصره فى جميع جوانبه ، ياترى ، فأين يقع عالم الغيب؟! لا بدّ أنه محيط
بهذا العالم ، وإذا كان محيطاً به فهو فوقه ، لأنّ كلّ محيط بجسم كرى فهو فوقه
من جميع الجهات لامحالة ، هكذا يتصوره تجسيم الخيال . اذن فعالم الغيب هو
فوق هذا العالم الذى نعيش فيه هذه العيشة المادية ، قياساً لغير المحسوس بالمحسوس

في كلّ ما يتصوره الإنسان من شؤون ما وراء محسوسه إذا ما قاسها بمالديه من محسوسات .

قال تعالى : «وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم - الحجر : ٢١» تنزيلا من عالم الغيب الى عالم الشهود، الامر الذي دعا بالمؤمنين وغير المؤمنين من سائر الموحدين ، بل ومن كل من يعتقد بما وراء المحس والشهود ، أنّ الرحمة والبركات تنزل من عند الله العليّ القدير ، من عالم هو أسمى وأسنى : «وفي السماء رزقكم وما توعدون - الذاريات : ٢٢» .

وهكذا جاء في كلام الامام أمير المؤمنين عليه السلام في جواب ابن سبأ عند ما سأله عن سبب رفع اليدين الى السماء عند الدعاء

الاعضاء

تقدم أنّ المشبهة أثبتوا لله سبحانه أعضاء وجوارح كما في المخلوقين ، وحكى عن داوود الجواربي أنه قال : اعفوني عن الفرج واللحية واسألوني عما وراء ذلك . وقال : ان مبعوده جسم ولحم ودم ، وله جوارح وأعضاء ، من يد ورجل ورأس ولسان وعينين واذنين ، ومع ذلك هو جسم لا كالأجسام ، وله لحم لا كاللحم ، ودم لا كالدماء وكذلك سائر الصفات ، وهو لا يشبه شيئا من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء^١ .

وما ورد في التنزيل من الاستواء والوجه والعين واليدين والجنب والمجىء والايان والفوقية ، أجرؤها على ظاهرها ، وكذلك ما ورد في الاخبار من الصورة وغيرها ، أجرؤها على ما يتعارف من صفات الأجسام ، وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها الى النبي ﷺ زورا وبهتانا . وقد تقدّم نقل بعضها عند الكلام عن مذهب أهل التشبيه والتجسيم .

١ - الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٠٥

ونحن في هذا المجال لا نتعرض لهم بالذات ، لأنهم قوم بادوا ولم يبق منهم سوى نقل آثار في بطون الكتب وقد أكل عليهم الزمان وشرب. إنما المهمّ التعرض لأناس زعموا أنهم من صميم الاسلام ، في حين أنهم لم يبتعدوا عن القول بالتشبيه والتجسيم مايفصلهم عنه ، سوى إعادة مقالوه في شيء من اللف والالتواء في مراوغة خبيثة ، وبذلك شوهوا من وجه الاسلام الأغر ، فضّلوا وأضلّوا .

وهؤلاء هم الأشاعرة بالذات ومن لفّ لفّهم من المتشدقين بالسلفية من غير دراية «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون - البقرة : ١٧٠» .

وفيما يلي بعض ما ذكره أبو الحسن الأشعري وأذنا به ومن حذا حذوه في الأخذ بظاهر المتشابهات، لاثبات الوجه والعين واليد والرجل وسائر الاعضاء والجوارح لله سبحانه ، من غير بيان الكيف ولاتشبيه بشيء من المخلوقين - فيما زعموا - على غرار ما نقلنا من كلام الجواربي حرفاً بحرف .

قال أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري : بالله نستهدى وإياه نستكفي ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو الله المستعان . أمّا بعد فمن سألنا فقال : أتقولون ان لله سبحانه وجهاً ؟ قيل له : نقول ذلك ، خلافاً لما قاله المبتدعون ، وقد دلّ على ذلك قوله عز وجل :

١- «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام - الرحمان : ٢٧» .

قال : فان سألنا أتقولون ان لله يدين ؟ قيل : نقول ذلك ، وقد دلّ عليه قوله عز وجل :

٢- «يدالله فوق أيديهم - الفتح : ١٠» .

٣- وقوله عز وجل : «لما خلقت بيدي - ص : ٧٥» .

٤- وروى عن النبي ﷺ أنه قال : «ان الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذريته» . قال : فثبتت اليد .

٥- وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ ان الله خلق آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده .

٦- وقال عز وجل : «بل يدها مبسوطتان - المائدة : ٦٤» .

٧- وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : كلتا يديه يمين .

٨- وقال عز وجل : «لأخذنا منه باليمين - الحاقة : ٤٥» .

قال : وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل :

عملت كذا بيدي ويعنى به النعمة ، واذا كان الله عز وجل انما خاطب العرب بلغتها ومايجرى مفهوماً في كلامها ومعقولاً في خطابها ، وكان لايجوز في لسان أهل البيان أن يقول القائل : فعلت بيدي ويعنى النعمة ، بطل أن يكون معنى قوله عز وجل بيدي النعمة . وذلك أنه لايجوز أن يقول القائل : لى عليه يدبمعنى : عليه نعمة^١ .

قال : وقد اعتل معتل بقول الله عز وجل : «والسما بيناها بأيدي - الذاريات : ٤٧»

قالوا : الأيد القوة . قيل لهم : هذا التأويل فاسد من وجوه ، أحدها : أن الأيد ليس بجمع لليد التي بمعنى النعمة ، لأنها تجمع على «أيدى» . الثاني : أن مخالفتنا لا يثبت قدرة واحدة فكيف بقدرتين . الثالث : لما ثبتت لآدم مزية على ابلis في قوله عز وجل « لما خلقت بيدي » لو كانت اليد بمعنى القدرة ، لأن ابلis أيضاً مخلوق بقدرته تعالى^٢ .

وعقد محمد بن اسحاق بن خزيمة باباً في كتابه «التوحيد والصفات» حاول

فيه اثبات الوجه وسائر الجوارح له تعالى ، وتشبث بآيات وروايات ، منها قوله تعالى «ويبقى وجه ربك» المتقدم في كلام الاشعري ، ومنها :-

٩- قوله تعالى : «كل شيء هالك الاوجه - القصص : ٨٨» .

١- الابانة للاشعري طحيدرآباد ص ٤٠ - ٤١

٢- نفس المصدر ص ٤١ - ٤٢

١٠- وقال: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون

وجهه - الكهف: ٢٨».

١١- وقال: «فاينما تولوا فثم وجه الله - البقرة: ١١٥» .

١٢- وقال: «للذين يريدون وجه الله - الروم: ٣٨» .

١٣- وقال: «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله - الروم: ٣٩» .

١٤- وقال: «انما نطمعكم لوجه الله - الانسان: ٩» .

١٥- وقال: «وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى -

الليل: ١٩ - ٢٠» .

١٦- ولما نزلت الآية «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم -

الانعام: ٦٥» قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» .

١٧- وقال رسول الله ﷺ في دعاء: «وأسألك لذة النظر الى وجهك» .

قال ابن خزيمة: ألا يعقل ذو الحجب - ياطلاب العلم - أن النبي ﷺ لا يسأل ربه ما لا

يجوز كونه! ففي مسألة النبي ﷺ ربه لذة النظر الى وجهه أبين البيان وأوضح

الوضوح أن الله - عز وجل - وجهاً يتلذذ بالنظر اليه^١ وقد أكثر ابن خزيمة من سرد

روايات جاء فيها ذكر «وجه الله»، لافائدة في تكرارها .

كما عقد باباً آخر^٢ ذكر فيه صورة ربنا جل وعلا! وأسهب بغير طائل .

ثم ذكر حديث أبي هريرة: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ولا يقل قبح الله

وجهلك ووجه من أشبه وجهك فان الله خلق آدم على صورته» أي صورة هذا المصروب^٣

وحديثه الآخر: «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق

١- رسالة «التوحيد والصفات» لابن خزيمة ص ١٠-١٣

٢- نفس المصدر ص ١٩-٣٦

٣- نفس المصدر ص ٣٦-٣٧. وراجع: كتاب الاسماء والصفات لليهقي ص ٢٩٠ .

ينقص حتى الآن^١ .

وهكذا عقد الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي فصلاً في كتابه «الاعتقاد» الذي ألقه على مذهب السلف - ذكر فيه آيات وأخباراً في إثبات صفة الوجه واليدين والعين^٢ .

لكنه في آخر الفصل أول ذلك كله بما لا يستلزم التشبيه ، تمسكاً بقوله تعالى « ليس كمثل شيء » وبدلائل من العقل والنقل . ومن ثم نعتبره الحد الوسط بين الأشاعرة ومشرّب الإعتزال .

وعقد ابن خزيمة في كتابه «الصفات» باباً لإثبات الرجل والقدم لله تعالى ، حاملاً على أصحاب التنزيه الذين ينفون الاعضاء عنه تعالى ، قائلاً : رغم انوف المعطلة الجهمية الذين يكفرون بصفات خالقنا التي أثبتها الله في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه ﷺ وقد قال تعالى : «ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها - الاعراف : ١٩٥» فأعلمنا ربنا جل وعلا أن من لا رجل له ولا يد ولا عين ولا سمع فهو كالانعام بل هو أضل . ثم جعل يسرد من أخبار جاء فيها ذكر «الرجل» لله تعالى ، منها : -

١٨ - مرواه المغيرة بن الأحنس عن عكرمة مولى ابن عباس «ان رسول الله ﷺ أنشد قول امية بن الصلت - وكان ممن تنصر في الجاهلية وكان ينشد الأشعار في تمجيد الله - :

رجل وثور تحت رجل يمينه	والنسر للآخرى وليث مرصد
قال ﷺ : صدق . ثم قال :	
والشمس تصبح كل آخر ليلة	حمراء يصبح لونها يتورد

١- المصدر ص ٤٠ - ٤١ . والبيهقي - كتاب الاسماء والصفات ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

٢- الاعتقاد على مذهب السلف اهل السنة والجماعة ص ٢٩ - ٣٠ .

تأبى فما تطلع لنا فى رسلها
الا معذبة والا تجلد
فقال رسول الله ﷺ : صدق ' .

١٩ - ومارواه ابن سيرين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «وأما النار فيلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟ ويلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه ، هناك تمتلىء ويدنو بعضها الى بعض وتقول : قط قط . هذا الحديث رواه أهل الحشو فى تفسير قوله تعالى : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد - ق : ٣٠» ٢ .

٢٠ - قال تعالى : «يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون - القلم : ٤٣-٤٢» .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً» . وهكذا أخرج ابن منده فى كتابه «الرد على الجهمية» عن أبى هريرة ، الحديث .
وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن منده عن ابن مسعود ، قال : «يكشف عن ساقه تبارك وتعالى» ٣ .

* * *

هكذا زعمت المشبهة ومن على شاكلتهم من حشوية وأشاعرة ، ان لله تعالى يداً ورجلاً وساقاً ، ووجهاً وعيناً وغيرها من أعضاء وجوارح . هى حاجة المفتقر

١- رواه احمد فى مسنده ج ١ ص ٢٥٦ . وابن خزيمة فى التوحيد والصفات ص ٩٠ .

٢- رواه البخارى فى صحيحه ج ٦ ص ١٧٣ عند تفسير سورة ق . وابن خزيمة فى التوحيد

والصفات ص ٩٤ . والسيوطى فى الدر المنثور ج ٦ ص ١٠٧ .

٣- الدر المنثور - جلال الدين السيوطى - ج ٦ ص ٢٥٤ . وراجع : صحيح البخارى

ج ٦ ص ١٩٨ عند تفسير سورة القلم .

الى عضو وآلة في مزاولة الأمور ..! ونحن في غنى عن اقامة البرهان على استغناؤه تعالى عن الاستعانة بشيء على الاطلاق ، لأن الحاجة مطلقاً صفة الممكن بالذات ، والله تعالى واجب الوجود بالذات ، وهو مرجع الحوائج والافتقارات وملجأ كل ذي حاجة وفقير ، ويستحيل أن تعرضه تعالى حاجة أو افتقار الى شيء سوى ذاته المقدسة ، وإلا لانقلب الغنى الواجب بالذات الى الفقر الممكن ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . « يا أيها الناس أتمم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد - فاطر : ١٥ » .

وإذا لاحظنا صفة الغنى في ذاته المقدسة « وربك الغني ذو الرحمة - الانعام : ١٣٣ » ورجعنا الى الآيات الكريمة التي تصفه تعالى بالغنى الذاتي في جميع شؤونه تبارك وتعالى « فان ربي غني كريم - النمل : ٤٠ » . « وأنه هو أغني وأقنى - النجم : ٤٨ » كفانا مؤونة البحث عن تنزيهه تعالى عن الاعضاء والجوارح . انها آيات محكمات لها صراحة وموافقة لحكم العقل الرشيد ، هن ام الكتاب ويجب ارجاع ما ظاهره التناقض اليها في ضرورة الدين . وعليه فكل آية أو قول مأثور جاء فيه ذكر الوجه أو اليد أو العين لله تعالى فمؤول الى معان اخر غير ظاهرها اللغوي البحث .

وحاول بعض المشبهة وكذا الأشاعرة تحويراً في اسناد الجوارح الى الله ، فقالوا : له يد لا كاليدى ، ووجه لا كالوجه ، وعين لا كالعيون ، اوان له يدأ بلا كيف . . . الخ ، أى لا ينبغي أن يسأل : كيف هذه اليد التي أثبتتموها لله تعالى ، وكيف هذه الرجل التي يضمها الجبار في جهنم فتقول : قطقط !؟

لكنها محاولة عقيمة وفاشلة الى حد بعيد ، اذ لا يفرق في حكم العقل بين يد ويد أو جارحة و جارحة ، انه تعالى مستغن عن استعمال جارحة اطلاقاً ، سواء أكانت على نحو جوارح الناس أم كانت نحواً آخر ، اذ لو كانت له تعالى جارحة ، فمعناه انه تعالى بحاجة اليها ، مهما كانت نوعيتها . كما أن اثبات الاعضاء - على أى نحو

كانت - يستدعى تركيبه تعالى منها ، والتركيب في ذاته المقدسة مستحيل ، نظراً لان المتركب من الاجزاء محتاج اليها في تركيبه ، الامر الذي يمتنع بشأنه تعالى اطلاقاً .

* * *

أمّا الآيات التي تمسكوا بها فلادلالة لها على ثبوت عضوله تعالى ، حتى في ظاهر تعابيرها البديعة ، فضلاً عن امكان تأويلها الى ما يتوافق ومحكمات الآيات والعقول . ولندكر من الآيات ماجاء فيها ذكر الوجه والعين واليد واليمين والساق على الترتيب . وننظر فيما خرج به العلماء في تأويلاتها الحكيمة ، ثم لنعرض لما تشبوا به من أحاديث .

الوجه

ذكر «الوجه» مضافاً اليه تعالى في القرآن في أحد عشر موضعاً ، في البقرة: ١١٥ و ٢٧٢ . والانعام : ٥٢ . والرعد : ٢٢ . والكهف : ٢٨ . والقصص : ٨٨ . والروم ٣٨ و ٣٩ . والرحمان : ٢٧ . والانسان : ٩ . والليل : ٢٠ . وليس واحداً من هذه المواضع مراداً به العضو الذي فيه الأنف والعينان . بل اما بمعنى الذات او بمعنى القصد او التقرب والزلفى لديه تعالى ، ولا يمكن ارادة الوجه بمعنى العضو المعروف بتاتا : -

قال تعالى : « كل شيء هالك الا وجهه - القصص : ٨٨ » . وقال : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام : الرحمان ٢٧ » . ليس المعنى أنّ الباقي بعد فناء كل شيء هو وجهه بمعنى العضو ، بل المراد : لا يبقى شيء سوى ذاته المقدسة تبارك وتعالى ، أي كل شيء هالك الا هو . فجاء الوجه في هاتين الآيتين بمعنى الذات لا غير . ونستغرب كيف فسر الأشعري وتابعوه «الوجه» في الآية بمعنى العضو ! في حين أنّ هذا التفسير تحريف واضح بمدلول الآية الظاهري ، يعرفه

كل من ألقى الى الآبة نظرتة ولو بدوية . نعم قديخفى ذلك على من كان على بصره
فشاوة .

وقال تعالى : « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله - البقرة :
١١٥ » . أيضاً بمعنى ذاته المقدسة ، المحيطة بهذا العالم احاطة علم وتدبير ، لا يخلو
منه مكان ولا يحويه مكان دون مكان . والاية رد على اليهود كانت تزعم أنّ الصلاة
تجب الى البيت المقدس كما كانت قبل تحويل القبلة الى البيت الحرام ، وقامت
تعبير على المسلمين هذا التحويل المفاجيء : ان كان الاتجاه الى البيت المقدس
اتجهاً الى الله - كما كان من ذى قبل - فالاتجاه الى الكعبة اتجاه الى غيره تعالى .
وان كان الاتجاه اليه هو الاتجاه الى الكعبة ، فالاتجاه السابق كان الى غيره تعالى
هذا هو الاعتراض الذى وجهه اليهود الى المسلمين . « سيقول السفهاء من الناس
ما وليهم عن قبلتهم التى كانوا عليها - البقرة : ١٤٢ » .

فجاءت الآبة الكريمة رداً حاسماً على هذا الاعتراض ، انه تعالى لم ينحصر
فى جهة أو مكان ، « قل لله المشرق والمغرب - البقرة : ١٤٢ » . « والله المشرق والمغرب
فأينما تولوا فثم وجه الله - البقرة : ١١٥ » . أى أنّ الجهات كلها لله وتحت ملكه ،
لا يختصّ به مكان دون مكان ، وإنّما كانت النسبة إليه تشريفية محضة ، فإن كان الله
أمركم بالاتجاه الى البيت المقدس ، لم يكن ذلك لسبب غير التشريف والاعتبار ،
لأنّه مكانه الخاص أو أنّه تعالى حالّ فيه جل شأنه . فهكذا اقتضت المصلحة تحويل
هذا الاتجاه العبادى الى الكعبة وهو بيت الله العتيق ، له نسبة تشريفية قديمة اليه
تعالى ، لالشيء آخر سواه . « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع
الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله - البقرة :
١٤٣ » .

فقوله : « فثم وجه الله » يعنى : أينما اتجهتم فى عباداتكم فثمّ اتجاه الى الله
تعالى ، لانه هو المقصود بالعبادة الخالصة لوجهه الكريم . وإنّما جاء الامر باتجاه

خاص ، لمصلحة في ذلك ، ربما كانت وحدة الاتجاه العبادى لجميع المسلمين في
عامه عباداتهم ، الامر الذى كان يشد من وحدتهم في سائر الامور .

وقال تعالى : « انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكوراً - الانسان :
٩ » ، أى لقصده ، وان ليس المقصود من هذا الاحسان سوى التقرب والزلفى لديه
تعالى ، فهو المقصود بالذات لا المكافئة ولا الثناء . وهكذا قوله : « وما آتيتم من زكاة
تريدون وجه الله - الروم : ٣٩ » أى كانت خالصة لله . الى غيرها من آيات نظائر .
والوجه بمعنى القصد كثير فى القرآن وفى الشعر . قال تعالى : « ومن أحسن
ديناً ممن أسلم وجهه لله - النساء : ١٢٥ » أى أخلص قصده الى الله . وأنشد الفراء .
أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد اليه الوجه والعمل
أى اليه القصد والعمل . وغيره من أشعار استشهد بها الشريف المرتضى
ليبان أوجه المعانى المقصودة من « الوجه » فى الاستعمال ، وقد استوفى البحث حقه ،
فراجع ^١ .

العين

ذكر العين - مضافة اليه تعالى - فى القرآن فى خمسة مواضع ، أحدها مفردة
فى سورة طه : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني - ٣٩ » . خطاباً مع
موسى عليه السلام . والباقي جمعاً : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا - هود : ٣٧ » .
« فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا - المؤمنون : ٢٧ » . « تجرى بأعيننا
- القمر : ١٤ » . الثلاثة خطاباً مع نوح عليه السلام . « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا
الطور : ٤٨ » . خطاباً مع محمد عليه السلام . والمراد فى الجميع هى الرعاية الخاصة .
اذ هذا النحو من الاستعمال لا يقصد منه سوى هذا المعنى حتى فيمن كانت له

١- الامالى ج ١ ص ٥٩٠-٥٩٣ . المجلس : ٤٥ .

وذلك لأن دخول الباء عليها متعلقة بفعل مذکور ، يجعلها ظاهرة في معنى الرعاية ، أمّا الجمود على ظاهر اللفظ حينئذ فيقتضى وقوع الفعل المذكور في نفس الجارحة ، وهو فاسد قطعاً ، فليس المراد سوى وقوعه تحت الرعاية الخاصة .

وأيضاً لو كان المراد نفس الجارحة ، لم يصح الأفراد ولا الجمع في مثل الآيات المذكورة ، حيث اضافتها الى شخص واحد . فاذا قلت : إنك تفعل بعيني أوبأعيننا ، لم يصح وأنت ذوعينين إذا كنت قصدت الجارحة الخاصة . أمّا ارادة الرعاية والعناية الخاصة فصحيحة ، كما في قولهم - عند تشييع مسافر - سر فعين الله ترعاك ، أى رعايته الخاصة تحفظك عن الأخطار .

اليد

ذكرت اليد في القرآن مضافة اليه سبحانه في اثني عشر موضعاً ، منها في سورة المائدة - ٦٤ - « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » . غل اليد وبسطها كناية عن الامساك والانفاق ، كما في قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط - الإسراء : ٣٩ » . اذ ليس المقصود شد يديه الى رقبته كالكسير ، ومدهما الى طرفيه افقياً كلاعب رياضة . غير أن صاحب الذوق الأشعري لا يرى سوى الجمود على ظاهر التعبير ، بعيداً عن ذوق العرب الرقيق .

وفي سورة آل عمران : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن

١- آل عمران : ٧٣ و ٢٦ . المائدة : ٦٤ مكررة . المؤمنون : ٨٨ . يس : ٧١ و ٨٣

ص : ٧٥ . الفتح : ١٠ . الحديد : ٢٩ . الملك : ١ . الذاريات . ٤٧

أغنياء - ١٨١ . تعبير آخر عما جاء في سورة المائدة ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وقوله تعالى : « قل ان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله واسع عليم - آل عمران : ٧٣ . » وقوله : « وان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم - الحديد : ٢٩ . » أى فى ملكه وتحت اختياره ، ومن ثم عقبه بايتاء من يشاء دليلاً على ارادة هذا المعنى ، اذ ليس الفضل شيئاً ملموساً قابلاً للامساك باليد . وكذا قوله : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون - يس : ٨٣ . » وقوله : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير - الملك : ١ . » عبارة أخرى عن قوله : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير - آل عمران : ٢٦ . » يكون المقصود استقلاله تعالى بماكوت كل شىء « وهو بجبر ولايجار عليه ان كنتم تعلمون - المؤمنون : ٨٨ . » أى يمنع من يشاء ويعطى من يشاء لا يزاحمه فى ملكه أحد وهو الله الواحد القهار .

وقوله تعالى : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي - ص : ٧٥ » كناية عن مزيد عناية بشأن الانسان ، خلقه تعالى بلا توسط سبب كما فى سائر المخلوقات . وهكذا قوله : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون - يس : ٧١ » كناية عن تفرده تعالى بخلقهن لم يشركه أحد فى الخلق ، يعنى انهن مصنوعات لله تعالى ، وهم يتصرفون فيها تصرف الملاك كأنها مصنوعات أنفسهم ، فبدلاً من الشكر يكفرون .

وقوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيدى وانا لموسعون - الذاريات : ٤٧ » أى بقوة واحكام ، كما فى قوله : « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولى -

الأيدى والأبصار - ص : ٤٥ . « أى اولى قوة وبصيرة ، زادهم بصطة فى العلم والجسم .

وأما قولة الأشعرى : لا يجوز فى لسان العرب أن يقول القائل : عملت كذا بيدي يعنى به النعمة .. فكلام شعرى ودعوى بلا علم ، اذ اليد فى الآيات المذكورة كان المقصود بها الحصر فى ملكه تعالى . وفى آية الذاريات القوة والاحكام . وقد خبط الأشعرى فى انكاره الجمع على « الايدى » اذ التى لاتجمع على « الايدى » هى التى بمعنى النعمة ، التى تجمع على « الايدى » . ولا بحث عنها فى آية الذاريات المقصود منها القوة ، وهى تجمع على « الايدى » بلا كلام ، كما فى سورة ص : ٤٥ « اولى الأيدى والأبصار » . كما أن النافى للقدرة إنما ينفى قيام مبدئها بذاته المقدسة صفة زائدة ، ولا ينفى قدرته تعالى على الاطلاق . وهذا تليس من الأشعرى فى اسناد ما لم يقل به خصمه .

كما أن اليد فى « خلقت يدي » كانت بمعنى العناية الخاصة ولم تكن بمعنى القدرة كما زعمه الأشعرى رداً على خصومه أهل العدل والتنزيه .

وقوله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه - الفتح : ١٠ » . أى أن يد رسول الله ﷺ التى فوق ايديهم فى المبايعه ، هى يد الله العليا ، لأن يد الرسول يد المرسل ، فمن كان يبايع رسول الله ﷺ فإنما يبايع الله ، ومن ثم فإن الناكث لبيعته ناكث لما عاهد عليه الله .

وأما قوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين - الحاقة : ٤٤-٤٦ » . فاليمين يمين المأخوذ ، أى لو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الأقوياء بمن يتكذب عليهم ، معالجه بالسخط والانتقام . فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيد المقتول

وتضرب رقبتة . وخص اليمين عن اليسار لأنّ القاتل اذا أراد ايقاع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد ايقاعه في جيده وأن يكفحه بالسيف - وهو أشد على المصبور لنظره الى السيف وهو واقع به - أخذ بيمينه^١ . وعلى أى حال فهذا التعبير كناية عن قتل الذل والهوان ، وليس كما ذهب أهل الحشو الذين ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

الساق

قال تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون - القلم : ٤٢ » . قال الزمخشري : الكشف عن الساق والابداء عن الخدام^٢ : مثل يضرب لشدة الأمر وصعوبة الخطب . وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن وابداء خدامهن عند الهرب . قال حاتم :
أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا
وقال ابن الرقيات :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العذراء

فمعنى « يوم يكشف عن ساق » : يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا يكشف ثم ولا ساق ، كما تقول للاقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل . وانما هو مثل في البخل . وأما من شبه^٣ فلضيق عطنه^٤ وقلّة نظره في علم البيان . والذي غره

١- راجع : الكشاف للزمخشري ج ٤ ص ٦٠٧ ط بيروت .

٢- الخدام جمع خدمة وهي الخلخال، وذلك كرقاب جمع رقبة .

٣- اى من تشبث بهذه الاية من اصحاب التشبيه لاثبات ساق له تعالى ورجل ، كما

تقدم نقله .

٤- اى ضيق مجال فكرته وقصور عقله

حديث ابن مسعود : « يكشف الرحمان عن ساقه : فاما المؤمنون فيخرون سجداً ،
وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقا طبقا كأن فيها سفايد ^١ . ومعناه : يشتمد الامر
ذلك اليوم ويتفقم هولاه ، وهو الفزع الاكبر يوم القيامة . قال : ولو كان حيث ذهب
المشبهة لكان من حق الساق أن تعرف ، لانها ساق معهودة عندهم وهى ساق الرحمان
سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون ^٢ .

الرجل والقدم

لم يأت في القرآن ذكر رجل أو قدم لله تعالى ، وإنما تشبث المشبهة بأحاديث
زعمتها دالة على ذلك حسبما تقدم .

وأغرب من الجميع استدلال ابن خزيمة بأية الاعراف : ١٩٥ ، اذ تعبير
الآلهة (الاصنام) بعدم الاعضاء والجوارح انما كان بالقياس الى سائر الناس ،
حيث هم أفضل مما يعبدون مما لا حركة له ولا نشاط . فلا دليل على وجودها لله
تعالى ، اذ الكل معترفون بأنه خالق السماوات والارض رب العالمين . أما هذه
الاصنام التي يعبدونها من دون الله ، فانها خشب مسندة جماد لفعالية لها ولا عمل ، فهي
لا تضر ولا تنفع ، فكيف يعبدونها ! ؟

أما رواية عكرمة لشعر امية بن الصلت ، فواضحة الفساد ، لاحتوائها على
مناكير ، فضلاً عن اتهام عكرمة ذاته ، فقد كذبه مجاهد وابن سيرين ومالك ، وكان
يرى رأى الخوارج ، وهكذا انسان لا يعتمد على رواياته ، لاسيما فيما يخص جانب
التوحيد والصفات ، وعلى غرارها رواية أبي هريرة لحديث جهنم ، فان أبا هريرة
بنفسه متهم في أحاديثه ، فضلاً عن استدعائها التجسيم في ذاته المقدسة تعالى الله عن
ذلك .

١- جمع سفود - بالتشديد - وهى حديدة يشوى بها اللحم .

٢- راجع : الكشف ج ٤ ص ٥٩٢-٥٩٤ .

ثم لوضح الحديث - حسبما زعمه أهل السنة - فإن له تأويلات تعرض له العلماء من وجوه ذكرها الحافظ ابن حجر في شرح البخارى . منها: أن يكون المراد اذلال جهنم حيث بلغت فى الطغيان وطلب الزيادة ، فأذّلّها الله بأن وضعها تحت قدمه ، وليس المراد حقيقة القدم ، والعرب تستعمل ألفاظ الاعضاء فى ضرب الامثال ولا تريد أعيانها ، كقولهم : «رغم أنفه» وسقط فى يده» ونحو ذلك وذكر تأويلات اخرى لابأس ببعضها ، فراجع .

واما ما ذكره الأشعرى من وجوب الوقوف عند ظاهر اللفظ حتى يقوم دليل على خلافه ، فحق . لولا ما يبدو عليه من مراوغة خبيثة ، اذ حجية ظواهر الكلام مما ثبتت فى الأصول ، وهو اصل من الأصول العقلية ، وعليه بنيت مجارى الافادات والاستفادات لدى أهل المحاورة من جميع الأعراف العامة والخاصة . لكن هذا فيما لم يتم دليل من عقل أو نقل قطعى يصلح قرينة صارفة لظاهر الكلام ، وعند ذلك تكون القرينة هى الحجة القاطعة دون أصل وضع الكلمة اللغوى . هذا صحيح ، غير أن أمثال الأشعرى إنما تفوهوا بهذا الكلام تمويهاً وتديساً على العوام ، اذ لم يتعرض أهل العدل والتنزيه لتأويل كل ظاهر من الكلام ، سوى ما قام دليل قاطع على ارادة خلاف ظاهره من عقل رشيد أو محكم نى الكتاب والسنة .

وقد تقدم الفارق بين الأشاعرة الذين يؤولون المحكم على حساب المتشابه كتأويل الأشعرى « لا تدركه الابصار » على حساب التحفظ على ظاهر « الى ربها ناظرة » وأهل العدل الذين يؤولون المتشابه على حساب المحكم ، وكم بين الطريقتين من فرق واضح ، وكم ابتعدت الأشاعرة عن منهج الاستقامة فى استنباط المفاهيم الاسلامية العريضة ، لان الابتعاد عن منهج العقل ابتعاد عن صميم الاسلام ، فضلاً عن استدعاء منهج الأشعرى تشويهاً لمبادئ الاسلام واصوله الضافية ، وذلك حط من كرامة

١ - فتح البارى ج ٨ ص ٤٥٧ . وراجع : مشكل الحديث لابن فوركص ٤٤

هذا الدين وتحريف بمواضع الكلم ، وذنوب لا يغفر .

مسألة الاستطاعة

من المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأشاعرة وأهل العدل ، هي مسألة «الاستطاعة» : هل للعبد قدرة على اختيار ما يريد وترك ما يكره ، أم ليس له اختيار لاعلى فعل ولاعلى ترك ، وإنما هو مضطر على الفعل أو الترك وفق ما أراد الله .
وبعبارة أوجز : هل للعبد ارادة فيما يوجد من أفعال ، أم لا ارادة له ، وإنما يفعل مايفعل بارادة الله ، كآلة صماء في يد الفاعل المختار، وهو الله الواحد القهار ؟
ذهب أهل الجبر - وفي مقدمتهم أبو الحسن الأشعري - الى سلب اختيار العباد، وإنما هي ارادة الله مسيطرة على عالم الوجود، فلا يقع فعل ولايتحقق عمل من الاعمال إلا بإرادته تعالى ، لاندخل لاختيار العباد وإرادتهم ، بل لا اختيار لهم ولا ارادة .
ولشناعة هذا المذهب وبداهة بطلانه، ابتدع الأشعري مسألة هي مسألة «الكسب» قال : ليس للعباد اختيار فيما يفعلونه، وإنما لهم اكتساب في الأفعال ، بسبب الإرادة الحادثة .

قالوا : هناك ارادتان ، قديمة وحادثة ، فارادة الله القديمة هي العلة الاصلية لوقوع مايقع من أفعال وأعمال ، وان كانت منسوبة الى العباد ، وهذه النسبة انما جاءتهم من قبل ارادتهم الحادثة ، حيث إنهم أرادوا فعل شيء أو تركه، وهذه الارادة وان كانت لم تؤثر في وقوع ماوقع ، لكنها صارت سبب هذا الانتساب ، ومن ثم كانت نسبة الافعال الى العباد نسبة اكتساب ، فهم مكتسبون لها بسبب ارادتهم هذه الحادثة تجاه ارادة الله القديمة التي هي العلة والسبب ، وسابقة على ارادات العباد .
وعليه فالعباد مكتسبون لافعالهم وليسوا مختارين فيها ، وبذلك قال : إن لارادة العباد تأثيرا ، وأراد جهة الاكتساب والانتساب للتأثير في الوقوع ، أما تأثير ارادتهم في وقوع الافعال وعدمه فينفيه ، لأنه تحت إرادة الله المستقلة السابقة على هذه الإرادات الحادثة .

وقد شنع عليهم هذا الرأي - أيضاً - بأنه اذ لم يكن لارادة العبد واختياره تأثير في الفعل وعدمه ، فما موقعية مسألة الكسب لتكون فاصلة بين الجبر والاختيار ؟ ! وقد تقدم ' أنّ الاشعري مهما حاول التخلص عن شناعة القول بالجبر ، فإنه جبرى خالص ، وإنّما محاولته تلك مراوغة ونفاق ، ولا مفهوم لمسألة الكسب اطلاقاً . ! واليك من تشبثات الاشاعرة وسائر أهل الجبر فيما زعموه دليلاً على نفى الاستطاعة وسلب القدرة عن العباد :-

- ١- قال تعالى : «قال أتعبدون ما تنتحون والله خلقكم وما تعملون - الصافات :
- ٩٥-٩٦» أى عملكم ، على أن «ما» مصدرية أو مفعولكم ، على أن «ما» موصولة . فعلى الاول يكون نفس الابداع والايقاع من فعله تعالى . وعلى الثانى فالعمل المتحقق خارجاً هو فعله تعالى . وعلى كلا التقديرين يثبت أن لا حمل للعبد . قاله التفتازانى .
- ٢- وقوله تعالى : «وخلق كل شيء فقدره تقديراً - الفرقان : ٢» .
- ٣- وقوله : « ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه - الانعام : ١٠٢» .

- ٤- وقوله : «قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار - الزعد : ١٦» .
 - ٥- وقوله : «الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل - الزمر : ٦٢» .
 - ٦- وقوله : «وذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو - غافر : ٦٢» .
- قال التفتازانى : أى خالق كل شيء ممكن ، بدلالة العقل ، وفعل العبد شيء فهو داخل في عموم مخلوقاته تعالى .
- ٧- وقوله تعالى : «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلاتدكرون - النحل : ١٧» ،

١- تقدم فى ص ٧١ ان ابا الحسن الاشعري يرى من تعلق القدرة الحادثة بالمقدور كتعلق العلم بالمعلوم ليس له تأثير أصلاً . وقد تكلمنا هناك عن مذهب الاشعري فى الجبر ، ووهن مسألة الكسب التى ابتدعها للتخلص عن شناعة القول بالجبر ، الامر الذى كان فراراً من المطر الى الميزاب .

قال التفنازاني: وهذا مقام التمدح بالخالقية، وأن الخالقية هي مناط استحقاق العبادة فلو كان غيره تعالى خالقاً لاستحق العبادة أيضاً .

٨- وقوله: «هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض - فاطر: ٣» .

٩- وقوله: « هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى - الحشر :

٢٤ » .

١٠- وقوله: « ألاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين - الاعراف: ٥٤» .

١١- وقوله: « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون -

النحل: ٢٠» .

١٢- وقوله: «الذى خلق السموات والارض وما بينهما - الفرقان: ٥٩» قالوا:

وأعمال العباد فيما بين السموات والارض، فيجب أن تكون من خلق الله .

١٣- وقوله: «ان ربك فعال لما يريد - هود: ١٠٧» . قالوا: وفي أفعال العباد

ما يريده الله تعالى فيجب ان يكون فاعلا لها .

١٤- وقوله: «ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من

قبل أن نبرأها - الحديد: ٢٢» .

١٥- وقوله: «واختلاف ألسنتكم وألوانكم - الروم: ٢٢» . فما يخرج من

اللسان كاللون مخلوق لله.

١٦- وقوله: «وأسرأ قولكم أو أجهروا به انه عليم بذات الصدور، ألا يعلم

من خلق وهو اللطيف الخبير - الملك: ١٣ و ١٤» . فكل سرّ أوجهر من القول فهو

مما خلقه الله.

١٧- وقوله: « ربنا واجعلنا مسلمين لك - البقرة: ١٢٨» . يدل على أنّ

الاسلام والايمان من قبله تعالى .

١٨- وقوله: «وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة - الحديد: ٢٧» .

١٩- وقوله: «وأنه هو أضحك وأبكى - النجم: ٤٣» .

- ٢٠- وقوله: «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون - الطور : ٣٥» .
- ٢١- وقوله : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم - الرعد : ١٦» .
- ٢٢- قالوا : ان الواحد منالو كان محدثاً لتصرفاته لوجب أن يسمى خالقاً لها ، والأمة قد انفقت على أن «لا خالق الا الله» .
- ٢٣- وقالوا : لا تجتمع قدرتان على مقدور واحد ، فإما أن يكون المؤثر في ايجاد الفعل هي القدرة القديمة (قدرة الله) او القدرة الحادثة (قدرة العبد) . وبما أن القدرة القديمة سبقت الحادثة ، فهي المستقلة بالتأثير المستغنية عن علة اخرى هي متأخرة وهي القدرة الحادثة .
- ٢٤- وأيضاً فان لازم القول بتأثير قدرة العبد - في ايجاد الافعال - هو الشرك مع الله في الخلق والايجاد ، ولا مؤثر في الوجود إلا الله .
- ٢٥- وقالوا : لو كان العبد خالقاً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها ، ضرورة أن ايجاد الشيء بالقدرة والاختيار لا يكون إلا كذلك ، واللازم باطل ، فان المشي من موضع الى موضع قد يشتمل على سكنات متخللة وعلى حركات بعضها أسرع وبعضها أبطأ ، ولا شعور للمشي بذلك . وليس هذا ذهولاً عن العلم ، بل لوسئل لم يعلم . وهذا في أظهر أفعاله . وأما إذا تأملت في حركات أعضائه في المشي والأخذ والبطش ونحو ذلك وما يحتاج اليه من تحريك العضلات ومدّ الأعصاب ونحو ذلك فالأمر أظهر .
- ٢٦- وزادت المجبرة الصريحة تمسكاً بقوله تعالى : «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون - الاعراف : ١٧٩» .
- ٢٧- ويقوله تعالى : «ولوشئنا لآتيناك كل نفس هديها ، ولكن حق القول مني لأملئن جهنم من الجنة والناس أجمعين - السجدة : ١٣» .
- ٢٨- ويقوله : «ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله - الانعام : ١١١» .

٢٩- وبقوله : «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله-الإنسان : ٣٠» .

٣٠- وبقوله : «ولو شاء الله ما أشركوا -الانعام : ١٠٧» .

٣١- وبقوله : «ولو شاء الله ما اقتتلوا -البقرة : ٢٥٣» . وغيرها من آيات جاء فيها ذكر المشيئة . وبآيات الهداية والضلالة منسوبة إلى الله^١ سنعرض لها في فصل قادم .

٣٢- وأجاب أبو الحسن الأشعري عن قوله تعالى : «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - الذاريات : ٥٦» بأن الله عز وجل إنما عنى المؤمنين دون الكافرين ، لأنه أخبر أنه ذرأ لجهنم كثيراً من خلقه ، فالذين خلقهم لجهنم وأحصاهم وعدمهم وكتب باسمائهم وأسماء آبائهم وامهاتهم غير الذين خلقهم لعبادته .

٣٣- وعن قوله تعالى : «وما أصابك من سيئة فمن نفسك-النساء: ٧٩» بالحمل على الاستفهام الانكاري ، أى أتزعم أنها من نفسك ؟! . جمعاً بينه وبين قوله : «قل كل من عند الله -النساء : ٧٨»^٢ .

٣٤- وعن قوله تعالى : «وما الله يريد ظلماً للعباد - غافر : ٣١» . وقوله : «وما الله يريد ظلماً للعالمين - آل عمران : ١٠٨» بأنه تعالى لا يريد أن يظلمهم ، لأن يظلم بعضهم بعضاً ، إذ لم يقل : لا يريد ظلم بعضهم لبعض . فلم يرد أن يظلمهم ، وان كان أراد ظلم بعضهم لبعض^٣ .

٣٥- وقالوا -في قوله تعالى : «فتبارك الله أحسن الخالقين-المؤمنون: ١٤» . وقوله تعالى : « واذتخلق من الطين كهيئة الطير -المائدة : ١١٠» . - : ان الخلق هاهنا

١- راجع: الابانة لابي الحسن الاشعري ص ٦٠ و٤٩-٥٩ . وشرح الاصول الخمسة

للقاضى ص ٣٨٢- ٣٨٧ و٤٦٤ و٤٧٥ . وشرح العقائد النسفية للفتازانى ص ٦٠- ٦١ .

٢- الابانة ص ٥٩

٣- الابانة ص ٥٨

بمعنى التقدير^١ .

٣٦- واعترض عليهم بأن الكافر والفاسق حينذاك مجبوران على الكفر والفسق فلا يصح تكليفهما بالإيمان والطاعة . فأجابوا : انه تعالى اراد منهما الكفر والفسق باختيارهما فلا جبر . كما أنه علم منهما الكفر والفسق بالاختيار ولم يلزم تكليف المحال^٢ .

والكلام في هذا المجال كثير اقتبسنا نماذج هي رؤوس مطالب القوم^٣ حاولوا فيها اثبات شمول قدرته تعالى ، بما يستلزم سلب القدرة عن العباد اطلاقاً على ايجاد فعل أو ترك ، وإتمامهم مضطرون فيما يفعلون ، لا ارادة لهم ولا اختيار . وبذلك حاولوا - فيما حسبوا - نفى الشريك عنه تعالى ، وطعنوا على أهل العدل بأنهم يشبتون الله شركاء لاحصر لها ولا حد . قالوا : المجوس أسعد حالاً منهم ، حيث لم يشبتوا إلا شريكاً واحداً ، وهؤلاء يشبتون شركاء لا تحصى^٤ .

ونحن - في هذا العرض - نقدم فصلاً نبحت خلالها عن مسائل : «الاختيار» و«الإرادة» و«الأمر بين الأمرين» وعن نسبة ما بين قدرة العبد وقدرته تعالى . وعن السر في اضافة الافعال والمولدات اليه سبحانه ، وما الى ذلك من بحوث لها صلة بالموضوع ، وأخيراً نتعرض الى شبهات أهل الجبر وحلّ متشابهات آيات تشبوا بها في هذا المجال ، وتخريج تأويلها الصحيح انشاء الله تعالى ، ومنه التوفيق :-

١- شرح العقائد النسفية ص ٦٢

٢- شرح العقائد النسفية ص ٦٣

٣- ولتفصيل اكثر راجع اصل نظرية الجبر ، في شرح المواقف للشيخ الجرجاني

- المرصد السادس ص ٥١٥ . وراجع نقد النظرية بأسلوب منطقي حكيم ، في محاضرات سيدنا

الاستاذ - بقلم القياض - ج ٢ ص ٤٤ - ٧٧ .

٤- شرح العقائد النسفية ص ٦١

الافعال الاختيارية

أما أهل العدل والتنزيه فوقفوا من مسألة «الاستطاعة» موقفاً نزيهاً ، وقدسوا
صاحه قدسه تعالى أجمل تقديس، في هدى العقل الرشيد ومحكمات الآيات والآثار
الصحيحة .

قالوا : ان الله خلق الخلائق لاشريك له في الخلق ، ولاخالق سواه ، وركب
في كل مخلوق صفة وجعل لكل موجود أثراً ، وجعل من أوصاف الأشياء وآثارها
نوعين ، منها ما يصدر عنها صدوراً لا باختيارها ولاهي مقيدة بارادتها ، كطلوع
الشمس واشراقها ، ونبت الشجر واثماره . ومنها ما يصدر عنها صدوراً تحت اختيارها
ومقيدة بارادتها ، كمشى الدابة ووقوفها وطلبها للحشائش وأكلها .

قالوا : هناك فرق ضرورى بين حركة يد المرتعش الحادثة لاعن اختياره ،
وتحريك اليد لتناول الطعام والشراب ، المنضبط تحت الاختيار . كالفرق بين
التنفس والتكلم ، وهكذا بين نبت الشعر وحلقه ، الاول لا اختيارى والثانى
اختيارى .

والفعل الاختيارى هو ما اذا شاء الانسان فعله أو شاء تركه ، الامر الذى يجده
الانسان فى صميم فطرته فارقاً بين الامرين بديهياً لاغبار عليه .

كما يجد الانسان من نفسه الفرق بين تعلق الارادة بالعمل الذى يريده ، وتعلق
العلم به . حيث لأثر للعلم فى تحقق المعلوم ، أما الارادة فهى الباعثة على تحقق المراد .
وكذا القدرة على عمل هى التى جعلته تحت اختياره ان شاء فعله أو تركه ، ولاهكذا
اثر للعلم بالنسبة الى المعلوم .

والخلاصة : أن هناك أفعالا اختيارية تصدر من الفاعل المختار حسب ارادته
واختياره ، يكون هو المسؤول عنها ، تحسیناً أو تقييهاً ، مدحاً أو ذماً ، ثواباً أو عقاباً .
ولا يسأل عنها غيره بتاتاً . لا يؤخذ الجار بذنب الجار . ولا تزر وازرة وزر اخرى ،

ومضاعفات كل عمل إنما ترجع على العامل وتستند اليه تبعاته من خير أو شر ، صلاح أو فساد ، حق أو باطل .

هذاماتشهد به ضرورة العقل وبداهة الوجدان، وعليه صحّ التكليف والتشريع وبعث الرسل وانزال الكتب ،والامر والنهى ،والوعد والوعيد، والمثوبة والعقوبة وما اليها، وإلغى التكليف وبطل التشريع والبعث والزجر، ولم يكن موقع لتحسين أو تقييح ولا استحقاق جزاء . ولا أصبح تحسين المحسن هلى احسانه عبثاً كمدح الجميل على حسن صورته . وهكذا لغى ذم المسيء على اسائه كذم الدميم على قبح منظره وقدح القصير على قصر قامته أو الأعرج على عرج رجله .

ولنتساءل الأشاعرة : هل تجدون من انفسكم الفرق بين جود الكريم وصفاء اللؤلؤ؟ أو شح البخيل وسواد الفحم ؟ فإن قالوا: نعم، سألناهم فإلى من يرجع مدح الجود إذا جاد الكريم ، والى من يعود ذم الشح إذا بخل البخيل ؟ فإن قالوا : الى الله قلنا: فلم يكن فرق بين الكريم واللثيم اذا كان كرم ذلك ولؤم هذا كلاهما من عند الله، غير داخلين تحت اختيارهما واراדתهما، وبالتالي لم يكن فرق بين كرم الكريم وصفاء اللؤلؤ ، أو بين شح البخيل وسواد الفحم ، فقد نقضتم ما اعترفتن به أولاً !

* * *

وقد دل صريح القرآن فى محكمات آياته الكريمة على صحة ما شهدت به العقول واعترفت به العقلاء ، وذلك جميع الآيات التى جاء فيها ذكر الوعد والوعيد والامر والنهى ، والتكليف والتشريع ، والمثوبة والجزاء ، والدعوة الى الايمان والخروج عن طاعة الشيطان ، ومدح المؤمنين وذم الكفار والمنافقين . وهى تشكل غالبية آى القرآن الكريم ولنذكر منها شواهد :

١- قال تعالى : « ألا تزر وازرة وزر اخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ،

وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزىة الجزاء الأوفى - النجم : ٣٨ - ٤١ » .

٢- وقال : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم

مشكوراً - الاسراء : ١٩ .

٣- وقال : « ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى - طه : ١٥ . »

٤- وقال : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانه كاتون - الانبياء : ٩٤ . »

٥- وقال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - الزلزله : ٧ - ٨ . »

٦- وقال : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً - النساء : ١١٠ . »

٧- وقال : « من يعمل سوءاً يجز به - النساء : ١٢٣ . »

٨- وقال : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات - الطلاق : ١٠ . »

٩- وقال : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً - الانسان : ١٢ . »

١٠- وقال : « ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون - الانعام : ١٤٦ . »

١١- وقال : « سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب - الانعام : ١٥٧ . »

١٢- وقال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون - النحل : ٩٦ . »

١٣- وقال : « كل نفس بما كسبت رهينة - المدثر : ٣٨ . »

١٤- وقال : « فأصابهم سيئات ما كسبوا - الزمر : ٥١ . »

١٥- وقال : « لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت البقرة : ٢٨٦ . »

١٦- وقال : « كل امرء بما كسب رهين - الطور : ٢١ . »

١٧- وقال : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن - النساء : ١١٠ . »

١٨- وقال: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس - الروم: ٤١».

١٩- وقال: «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - غافر: ١٧».

٢٠- وقال تعالى: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم - البقرة: ٢٨».

لو كان الله هو خالق الكفر في الكافر لم يتوجه هذا التوبيخ . كما لا توبيخ على الصحة والمرض والموت والحياة.

٢١- وقال: «ومانع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى - الاسراء: ٩٤».

ما هذا الاستفهام الانكارى اذا كان الله هو الذى منعهم عن الايمان ؟!

٢٢- وقال: «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر - النساء: ٣٩» .

٢٣- وقال: «وما لكم لا تؤمنون بالله - الحديد: ٨» . فلو لا أن الايمان موقوف

على اختيارنا لم يستقم هذا الكلام ، ولجرى مجرى أن يقول لهم : لم لا تطول قوائمهم أولاتبيض أبدانهم ونحو ذلك . وكان للممتنع عن الايمان أن يقول : أنت الذى منعتنى عن الايمان ولم تخلقه فى ، فكيف توبخنى عليه ؟!

٢٤- وقال : «فما لهم عن التذكرة معرضين - المدثر: ٤٩» . ما هذا الانكار

لو كان اعراضهم بفعل الله ؟!

٢٥- وقال تعالى: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر - الكهف: ٢٩» . دليلا

على أن الكفر والايمان كليهما واقمان تحت اختيارنا وليسا مخلوقين فينا من غير جهة ارادتنا ، وإلا لم يصح هذا الكلام . ولما فى الآية التالية :

٢٦- «لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي - البقرة: ٢٥٦» . فان اعتناق

الايمان والكفر يأبى الاكراه والاجبار ، مادام الاعتقاد بشيء رهن وضوح الحق واقتناع النفس به .

٢٧- وقال : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون - الذاريات: ٥٦» . دليلا

على أن الله تعالى لا يريد من العباد جميعاً سوى الاطاعة والانقياد، ارادة تشريع وحكم فكيف يخلق فيهم الكفر والعصيان بارادة تكوينية، ثم يطلب منهم الاطاعة والانقياد تشرعاً؟!

٢٨- وقد قال تعالى : «وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا -ص: ٢٧».

٢٩- وقال تعالى : «ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا - المزمّل :

١٩ « .

٣٠- وقال : «لمن شاء منكم ان يتقدم أو يتأخر - المدثر : ٣٧» .

٣١- وقال : «كلا انه تذكرة، فمن شاء ذكره - المدثر : ٥٥» .

٣٢- وقال : « كلا انها تذكرة، فمن شاء ذكره - عبس : ١٢» .

٣٣- وقال : « ان هو الا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم ان يستقيم

-التكوير : ٢٧-٢٨» .

٣٤- وقال تعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ،

ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل

هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن و إن أنتم إلا تخرون

-الانعام : ١٤٨ « .

لاتعدو قولة المشركين- في الجبر وأن اشراكهم مفروض عليهم من قبل الله -

قولة الاشاعرة في أن الكفر والايان مخلوقان في الكافر و المؤمن بمعزل عن

اختيارهما- كما تقدم في كلام الاشعري بالذات- ومن ثم فهذه الاية الكريمة رد صريح

على مذهبهم الفاسد ، و يوجه اليهم الاعتراض : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا

ان تتبعون الا الظن وان أنتم - أيتها العصابة الأشعرية - إلا تخرون.

و أمّا الاية التي بعدها : « قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهديكم اجمعين

-الانعام : ١٤٩ « فالمشيئة هنا هي المشيئة التكوينية ، اما المشيئة التشريعية فقد شاءها

الله تعالى بلاشك ، لأنه تعالى وجه دعوته الى عامة الناس : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم - البقرة : ٢١ » . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً - النساء : ٣٦ » . « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم - النساء : ٥٩ » . « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا - التغابن : ١٦ » .

٣٥- وقال : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم - الزخرف : ٢٠ » . وهكذا الاشاعرة قالوا : لو شاء الرحمن ما كفر الكافر ولا عصى العاصي . ما لهم بهذا الكلام الباطل من علم « إنهم إلا يخرصون » .

٣٦- وقال تعالى : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون - آل عمران : ١٣٢ » . ما هذا الامر وما هذا الطلب ، لو كانت الاطاعة والعصيان خارجتين عن تحت قدرتهما ، ولا يستطيعان الايمان ولا الكفر إلا اذا خلق الله ذلك فيهم ، فهل هذا الاطلب ما لا يقدر العباد على فعله ؟!

٣٧- وقال : « أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون - الانفال : ٢٠ » .

٣٨- وقال : « وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى - طه : ٩٠ » .

٣٩- وقال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فانهما على رسولنا البلاغ المبين - التغابن : ١٢ » .

والايات من هذا القبيل - تسند الاطاعة والعصيان ، والكفر والايمان ، وسائر أفعال العباد الى أنفسهم و اختيارهم ، ان شاؤوا فعلوا وان شاؤوا تركوا - كثير في القرآن ، وقد أرجعت تبعات أعمال العباد الى أنفسهم بالذات ، من خير أو شر ، صلاح أو فساد . - ٤٠ - « وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعاً فان الله لغنى حميد - ابراهيم : ٨ » . فكيف هذا الكلام لو كان الله هو خلق فيهم الكفر ؟ !
ومن ثم نقول للاشاعرة بالذات : « ان تكفروا - أنتم أيضاً - فان الله غنى عنكم

ولا يرضى لعباده الكفر - الزمر : ٧ . اذ كيف يخلق فيهم الكفر يريد انهم الكفر -
حسب تعبير الاشعري - وهو تعالى لا يرضى لعباده الكفر ؟ ! نعم « فعميت عليكم
أنزل مكموها وأنتم لها كارهون - هود : ٢٨ . « فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى
القلوب التي في الصدور - الحج : ٤٦ » .

و بعد هذا العماء والعمه و الانحراف فسى قلوبكم - أيتها الاشاعرة حتى
اليوم - « لا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم
- هود : ٣٤ » .

ارادة تكوينية و ارادة تشريعية

اصطلاح أهل الفن على تسمية ارادة الله المتعلقة بتكوين شيء بالارادة التكوينية
وتسمية طلبه وأمره لشيء بالارادة التشريعية ، وهو يشكل طرفاً من بحث «الطلب
والارادة» في علم الاصول .

فمن الاول قوله تعالى : « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون - يس :
٨٢ » : وقوله : « قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءاً أو أراد بكم
رحمة - الاحزاب : ١٧ » . وقوله : « واذا أراد الله بقوم سوءاً فلامرده - الرعد :
١١ » . الى غيرهن من آيات .

ومن الثاني قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - البقرة :
١٨٥ » . وقوله : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم
والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان
تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً - النساء : ٢٦ -
٢٨ » . وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته
عليكم لعلكم تشكرون - المائدة : ٦ » .

١ - الابانة ص ٦-٧ وص ٦٦-٦٧ .

والارادة التكوينية لا تتخلف عن تحقق المراد ، ما أراد الله كان وما لم يرد لم يكن ، « انما قولنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون - النحل : ٤٠ » بل لا حاجة الى قوله « كن » . وانما هي تقدير ، وبعبارة فنية : ان نفس ارادته تعالى لتكوين شيء كافية في تحققه وجوداً ، والامر في قوله « كن » أمر تكويني أيضاً ، حيث ارادته تعالى هو فعله .

قال الشيخ أبو عبد الله المفيد : ان ارادة الله تعالى لافعاله هي نفس أفعاله ، و إرادته لافعال خلقه أمره بالأفعال ، وبهذا جاءت الآثار عن أئمة الهدى من آل محمد - صلى الله عليه وآله - وهو مذهب سائر الامامية الامن شذ منها عن قرب^١ وفارق ما كان عليه الاسلاف . واليه يذهب جمهور البغداديين من المعتزلة وأبو القاسم

١- شاع تفسير الارادة بالعلم بالمصلحة الداعية في عصر متأخر عن الشيخ المفيد ، ومن ثم اعتبروا الارادة صفة ذاتية ، ولم يعتبروها من صفات الافعال . راجع : تجريد الاعتقاد للطوسي بشرح العلامة الحلي ، بحث الالهيات - المسألة الرابعة - ص ١٥٩ طالهند . وشرح الباب الحادي عشر للفاضل المقداد في الصفة الرابعة ، اختار مذهب الحسن البصري قال : هي عبارة عن علمه تعالى بما في الفعل من المصلحة الداعية الى ايجاده . ص ٢٩ ط ١٣٩٥ هـ . ومن ثم قال العلامة المجلسي في ذيل الرواية : اعلم ان ارادة الله تعالى - كما ذهب اليه اكثر متكلمي الامامية - هي العلم بالخير والنعف وما هو الاصلح ، ولا يثبتون فيه تعالى وراء العلم شيئاً . بحار الانوار ج ٤ ص ١٣٧ .

واعترض عليه السيد الطباطبائي في الهامش ، بأن الذي ذكروه انما هو في الارادة الذاتية ، التي هي عين الذات - انصح تصويرهم لذلك - واما الارادة التي جاءت في الاخبار فهي الارادة التي هي من الصفات الفعلية كالخلق والرزق ، وهي نفس الموجود الخارجي من زيد وعمرو والسماء والارض ، كما ذكره شيخنا المفيد رحمه الله .

قلت : اتفق علماؤنا - الامامية - في هذا العصر المتأخر ، على ان الارادة - فيه تعالى - من صفات الفعل ، كما كانت عليه علماؤنا السلف ، وجاء في روايات اهل البيت - عليهم السلام -

البلخي خاصة وجماعة من المرجئة^١ .

وروى ثقة الاسلام الكليني عن صفوان بن يحيى ، قال : قلت لابي الحسن (الامام الرضا) - عليه السلام - : أخبرني عن الارادة من الله ومن الخلق ؟ قال : فقال عليه السلام : «الارادة من الخلق الضمير وما يبدولهم بعد ذلك من الفعل . وأما من الله تعالى فارادته إحداثه لاغير ذلك ، لأنه لا يروى ولا يهّم ولا يتفكر . وهذه الصفات منفية عنه ، وهي صفات الخلق . فارادة الله : الفعل^٢ ، لاغير ذلك . يقول له : كن ، فيكون . بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك ، كما انه لا كيف له » .

وروى أيضاً باسناده الصحيح عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام سأله عاصم بن حميد عن ذلك ، قال : قلت : لم يزل الله مريداً ؟ قال : « ان المريد لا يكون الا المراد معه ، لم يزل الله عالماً قادراً ثم أراد » فقد فرق عليه السلام بين العلم والقدرة وبين الارادة ، رداً على ما زعمه بعض المتفلسفين من تفسير الارادة بالعلم والقدرة^٣ يدلنا على ذلك ما في حديث بكير بن أعين ، قال : قلت لابي عبد الله

← وشطبوا على ما ذكره لقيف من المتكلمين في العصور الوسطى ، بهدان وضح لديهم ان الارادة فعل النفس في غيره تعالى ، فتكون فيه تعالى فعله خارجاً واحداثه كما في نص الخبر . وقد عرضت على سيدنا الاستاذ الامام الخوئي - دام ظله - تجديد النظر في البحوث الكلامية التي صيغت على نهج المتكلمين في العصور الوسطى ، في صيغة حديثة تتوافق مع ما تجدد من انظار ، وعادت سليمة طبق آراء السلف المستفادة من نصوص اهل البيت عليهم السلام ، فوجدت - دام ظله - بالانجاز . وراجع بالخصوص : محاضرات سيدنا الاستاذ بقلم محمد اسحاق القياض ج ٢ ص ٣٤ - ٤٣ .

١- اوائل المقالات للشيخ المفيد ص ١٩

٢- وفي رواية الصدوق في كتاب التوحيد : « فارادة الله هي الفعل » . راجع البحار

ج ٤ ص ١٣٧ .

٣- تقدم في كلام الحسن البصري واختيار الفاضل المقداد ص ١٨٦ بالهامش

(الامام الصادق) عليه السلام : علم الله ومشيئته هما مختلفان او متفقان ؟ فقال : « العلم ليس هو المشيئة ، الا ترى انك تقول : سأفعل كذا ان شاء الله ، و لا نقول : سأفعل كذا ان علم الله . فقولك : ان شاء الله ، دليل على أنه لم يشأ ، فاذا شاء كان الذي شاء كما شاء . و علم الله السابق للمشيئة » .

وباسناده الصحيح - أيضاً - عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « المشيئة محدثة » .^١

وروى الصدوق باسناده عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال : « المشيئة من صفات الافعال فمن زعم أن الله لم يزل مريداً شائئاً فليس بموحد » .^٢

ولعل ما في ذيل الحديث تعريض بمذهب أهل الصفات (الاشاعرة) حيث زعموا من الارادة صفة ذاتية قائمة به تعالى ، زائدة على ذاته المقدسة ، فلزمهم القول بتعدد القديم تعالى عن ذلك .^٣ أما من ذهب من متكلمي الامامية الى أن الإرادة صفة ذات ، فلم يعتبرها زائدة على ذاته المقدسة ، بل اعتبرها عين ذاته تعالى كما في سائر الصفات الذاتية من العلم والقدرة والحياة ، ومن ثم لا يشملهم الحديث .

* * *

وأما الارادة التشريعية فهي عبارة عن أمره تعالى ونهيه ، بعثاً وزجراً للعباد ، فيما يعود عليهم من مصالح ومفاسد كامنة وراء التكليف .

-
- ١- الاحاديث مستخرجة من الكافي الشريف - الاصول - ج ١ ص ١٠٩-١١٠ .
باب الارادة : انها من الصفات الفعل . وراجع : مرآة العقول بشرح الكافي للعلامة المجلسي ج ٢ ص ١٥-٢٢ . وبحار الانوار ج ٤ ص ١٣٧ .
- ٢- كتاب التوحيد للصدوق ص ٩٣ باب صفات الافعال . وراجع : بحار الانوار ج ٥٧ ص ٣٧ .
- ٣- راجع : تجريد الاعتقاد بشرح العلامة الحلبي ص ١٥٩ . واولئ المقالات للشيخ المفيد ص ١٩ .

وهذه الارادة قد تتخلف عن المراد ، حيث يعصى العباد ويخالفون أمره تعالى ، ولا محذور في ذلك بعد أن كانت دار التكليف دار اختيار ، حيث لا موقع للتكليف لو لا اختيار المكلفين في الاطاعة والعصيان ، وأن مصلحة التكليف هي التي تستدعي اختيار العباد في الامثال والترك تمهيداً لاختبارهم في هذه الحياة ، « ليميز الله الخبيث من الطيب - الانفال : ٣٧ . » « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب - آل عمران : ١٧٩ . »

والنفكيك بين الارادتين شيء معروف في روايات أهل البيت - عليهم السلام - منها : ما رواه الصدوق باسناده عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال : « ان الله ارادتين ومشيتين ، ارادة حتم ، و ارادة عزم . »

ثم شرح عليه السلام الثانية بقوله : « ينهى وهو يشاء » أي يشاء أن يقع وان كان نهى عنه - في الظاهر - أن لا يقع . فنهيه نهى تشريع ، أما اشاءته فاشاءة تكوين ، وقد مثل له الامام - ع - بنهى آدم عن أكل الشجرة ، وقد كانت المصلحة تستدعي الأكل منها ، حيث خلق آدم ليعيش على الارض ويكون خليفة الله فيها . فتخلفت ارادته التشريعية عن ارادته التكوينية .

ثم قال - ع - : « ويأمر وهو لا يشاء » ومثل بأمره تعالى ابراهيم بذبح ابنه اسماعيل - عليهما السلام - حيث تخلف التشريع عن التكوين .^١

وعلى هذا الضوء من البيان الوارد عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام - نستطيع دفع الشبهة عن كثير من آي القرآن ، مثل قوله تعالى : « ولو شاء لهدىكم أجمعين - النحل : ٩ » . وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً - يونس : ٩٩ » . وأمثالهما من الآيات وهي كثيرة جداً . والمشاة فيها هي التكوينية ،

١- راجع : بحار الانوار ج ٤ ص ١٣٩ . و مرآة العقول ج ٢ ص ١٦١ . والكافي

الشريف ج ١ ص ١٥١ باب المشيئة والارادة .

أى لو أراد ربك أن يجعل الناس كلهم مؤمنين بإرادته التكوينية لفعل ، ولما تخلفت إرادته عن المراد ، كما في قوله تعالى : « فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قلنا أتينا طائعين - فصلت : ١١ » .

لكنه تعالى لم يشأ الإيمان إلا عن اختيارهم لغرض الاختبار ، حيث لا تمييز مع الإلجاء .

وبذلك يرتفع إيهام التناقض بين أمثال هذه الآيات ، وآيات آخر جاء فيها : انه تعالى هدى الناس جميعاً ، ولا يرضى لعباده الكفر ، حيث هذه الطائفة من الآيات تعنى مشيئته تعالى التشريعية ، أمراً ونهياً ، بعثاً وزجراً ، في هداية شاملة وإرشاد عام . قال تعالى : « انا هديناه السبيل اما شاكرًا إما كفوراً - الانسان : ٣ » . وقال : « واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى - فصلت : ١٧ » . وقال : « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل - الاحزاب : ٤١ » . وسنبحث عن انحاء الهداية ودرجاتها في فصل قادم .

مسألة التوحيد في الأفعال

التوحيد الكامل هو الاعتقاد بانه تعالى واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله . ثلاث مسائل تبحث عن توحيدته تعالى ، الاولى : توحيد الذات « ليس متركباً من أجزاء » . الثانية : توحيد الصفات « ان صفاته الثبوتية جمع لا تنم عن تعدد معان قائمة بذاته المقدسة ، بل كمال توحيدته نفى الصفات عنه ، ولا شيء هناك سوى ذاته القديمة انتزعت لها تلك النعوت » . الثالثة : توحيد الأفعال « لا شريك له في الخلق والايجاد » .

وهذه المسألة الأخيرة هي موضوع بحثنا الآن : اذا كان العبد مستقلاً في أفعاله ، وكان هو الذى يوجدها ويحدثها وفق ما يريد ، ان شاء فعل وان شاء ترك ، - كما عليه مذهب أهل العدل - فهذا يصدق حينذاك أن في عالم الخلق والايجاد مؤثرين :

الله فيما يختص به من أفعال . والعبد فيما يختص به من أفعال؟! وان قلنا : انما يصدر من العبد من أفعال اختيارية ، ليس مستقلا في ايجادها ، بل الله يشركه في الاحداث والايجاد ، فالأمر أسوأ ، لانه يقتضى التشريك فى الخلق والايجاد ، المنافى لمسألة توحيد الافعال؟!!

قلت: لامنافاة بين الأمرين، استقلال العبد فيما يحدثه من أفعال (الافعال الاختيارية) وكونها لاتحدث ولاتتحقق خارجاً الا باذنه تعالى و ايجاده، تحقيقاً لقاعدة «لامؤثر فى الوجود الا الله» ولقوله تعالى : « الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل - الزمر : ٦٢ .

وذلك انه تعالى جرت سنته فى ايجاد ما يريد العباد ايجاده ، تحقيقاً لمبدء الاختيار الذى منحه لعباده ، وليصح تكليفهم واختبار نياتهم . وان شئت فقل : انه لا يوجد شىء الا باذنه تعالى ، لكن الله جعل من سنته أن توجد الاشياء عند ما يريد العباد ايجادها ، فهو تعالى الموجد لكن عند ارادة العبد ، وقد جعل اختيار وجودها رهناً باختيار العباد انشاؤوا وجدت باذن الله ، وان لم يشاؤوا لم توجد ، حيث ذلك الارتباط هو من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وبذلك صح القول : «ان لخالق الا الله» و«لاموجد الا الله» و«لامؤثر فى الوجود الا الله» . كما صح القول بان العبادهم يحدثون ما يريدون فعله ويتركون ما يكرهون وجوده من أفعال اختيارية .

كما أن مسألة «الامر بين الامرين» عبارة عن هذا المعنى ، واليك توضيحها بالبيان التالى :

مسألة الامر بين الامرين

ان مسألة «الامر بين الامرين» تعود فى أساسها حداً فاصلاً بين مسألة «الجبر الاشعري» ومسألة «التفويض الاعتزالي» ، أرشد اليها أئمة أهل البيت - عليهم السلام -

فى نصوص وتصريحات كثيرة ، مما جعل مذهب الامامية طريقاً وسطاً بين المسلكين
لاجبر ولا تفويض بل أمر بين امرين^١ .

هذه المسألة مرتبطة مع عدة مسائل متشابكة مع بعضها ، يصعب التوفيق بينها
غالبياً ، الا من عصم الله ، وأجاد التفكير فيما اثر عن أهل بيت العصمة - عليهم السلام -
منها : مسألة «التوحيد المطلق» . ومسألة «العدل المطلق» . ومسألة «الحكمة فى
التكليف» . ومسألة «الحسن والقبح العقلين» . ومسألة «استحقاق الثواب والعقاب» .
الى غيرها من مسائل مشابهة .

وقد احتار القوم فى التخرج عن هذه المسائل جميعاً بما لا يستلزم تناقضاً أو
معارضة مع بعضها . فى وثام ووافق بسلام . ومن ثم أخذوا يمنة ويسرة ، فى اعتراف
ببعض ونكران لبعض ، بما ازدادوا شكاً فى ريب .

أمّا الاشاعرة فزعمت أنّها أخذت بجانب مسألة التوحيد المطلق ، وقالت :
لا خالق الا الله ، ولا مؤثر فى الوجود الا الله ، ومن ثم نفت صحة استناد الافعال الى
العباد . وأسندتها الى الله . فلزمها القول بالجبر ، وأنّ العباد مضطرون فيما يفعلون ،
وبذلك خسرت مسألة العدل المطلق ، وأنكرت الحكمة فى التكليف ، ولم تدع
مجالاً لمسألة الحسن والقبح العقلين ولا لمسألة استحقاق المثوبة والجزاء .

وأمّا المعتزلة فأسندت الأفعال الى العباد بصورة مطلقة ، وقالت : إنهم مختارون
فى فعل ما يريدون وترك ما يكرهون . تحكيمياً لمسألة العدل المطلق ، ومسألة الحسن
والقبح والثواب والعقاب ، وتحقيقاً لمسألة الحكمة فى التكليف وبعث الرسل وانزال

١ - بهكذا لفظ ورد مستفيضاً عن ائمة الهدى عليهم السلام . راجع : الكافى الشريف
- الاصول - ج ١ ص ١٦٠ حديث ١٣ باب الجبر والقدر والامر بين الامرين . وكذا باب
الاستطاعة . وراجع : بحار الانوار للعلامة المجلسى ، باب نفى الظلم والجور عنه تعالى وابطال
الجبر والتفويض ، واثبات الامرين والامر بين الامرين واثبات الاختيار والاستطاعة . ج ٥ ص ٦٧-٦٨ .

الكتب .. لكنهم أسرفوا في القول بالاستطاعة المطلقة ، حتى نفوا كل تأثير لارادة الله وحوله وقوته في أفعال العباد ، ومن ثم لزمهم القول بالتفويض ، وأن العبادهم المحذون لأفعالهم باختيارهم و ارادتهم وقدرتهم الخاصة . وأن القدرة وإن كانت منحة من الله منحها لعباده ، لكن أعمال هذه القدرة وتأثيرها في الابداع والاحداث منوطه كل الاناطة باختيارهم واستقلالهم في الإرادة والإقتدار .

واختارت الإمامية - في ضوء تعاليم أئمة الهدى - مذهباً وسطاً في مسألة القدرة والاستطاعة . فلم يعترفوا للعبد استقلاله الكامل في الخلق والابداع ، ولم ينفوا عنه القدرة والاختيار رأساً ، قالوا: لاشك أن كل ما في الوجود واقع تحت ارادته تعالى ، فلا يحدث أمر ولا يوجد شيء إلا باذن الله ، لكن إرادته تعالى قد تعلقت بأن توجد الأشياء وفق قوانين كلية ركبها في طبيعة الموجودات ، فهي تتفاعل مع بعضها ، إما بنفسها كما في الأمور الطبيعية - حسب تعبيرنا - مثل دورة الماء في الطبيعة ، تبخيراً وتكاثفاً وتقاطراً وخرناً ثم جرياً وأخيراً عوداً الى البحر . وفق نظام رتيب لا يتخلف عبر الدهور ، وإما بعلاج كيميائى أو فيزيائى تزاولها يد بشرية حسب مآربه في الحياة .

كل ذلك واقع تحت قوانين عامة في سلسلة من العلل والمعلولات « قانون العلية العامة » .

مثلاً إذا بذر الإنسان حبة في الارض الصالحة ، واهتمّ بشأنها من تسميد وسقى ودفع آفات ، فإنها تنبت ، لكن بفضل تفاعلها مع أملاح الارض وغيرها من مواد كامنة في التراب والماء وما يصل اليها من شعاع الشمس وهبوب الرياح وما الى ذلك ، فاذا ما اجتمعت الأسباب المؤاتية لنبات الزرع ونمائه ، حصل الزارع على نتيجة ، لم تكن هي وليدة يده فحسب ، وانما ساعده على ذلك عوامل طبيعية كثيرة لا تحصى ، كان لها القسط الأوفر ، بل علة العلل لهذا الاثمار والانتاج .

ومع ذلك فانا ننسب الزرع اليه ، فنقول : هو الذى بذر الحبة وزرع النبتة وغرس الشجرة وأثمرها ، ونطلق عليه اسم الزارع والفلاح اطلاقاً حقيقياً ، من غير عناية مجاز أو استعارة . فى حين أننا لودققنا النظر لوجدنا الفضل الاكبر بل كل الفضل يعود الى عوامل آخر كانت هى المؤثرة لهذا الاثر والمنتجة لهذه النتيجة . وعليه فبما أن هذه العوامل - التى نعبر عنها بعوامل طبيعية - ليست سوى قوانين كلية ركبها الله فى ذوات الأشياء ، فاذا ما تفاعلت مع بعضها أنتجت تلكم النتائج العظام ، فهى فى ذات وجودها وفى بقاءها على التأثير رهن قدرته و ارادته تعالى ، ومن ثم فان نسبة الانبات والزرع والاثمار وما شا كل اليه تعالى ، أولى من نسبتها الى ذلك الانسان الذى لم يكن حظه منها سوى تقارب وتالف بين عدة عوامل قليلة لتتفاعل هى بنفسها مع البعض ، وتستمد من قوى اخرى كثيرة اودعها الله فى هذا الكون .

قال تعالى : «أفرأيتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه ام نحن الزارعون» . وقال : «أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون» . وقال : «أفرأيتم النار التى تورون ، أنتم أنشأتم شجرتها ام نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين - الواقعة : ٦٣-٧٣» .

وأوضح مثال لذلك هى ظاهرة الولادة ، لم يكن حظ الوالد والوالدة من تكوين الولد ، سوى تلقيح النطفة ، وليس تحققه - أيضاً - واقعاً تحت اختيارهما الكامل وقدرتهما ، ومع ذلك فان الولد فى وجوده منسوب الى والديه ، فى حين أن جميع العوامل التى أثرت فى اللقاح والانعقاد وقضاء المراحل الجنينية الى مرحلة التولد ، كانت طبيعية مودعة فى ذات الرحم والنطفة بقدره الله ، وبارادته فى اصل التأثير والبقاء على التأثير . قال تعالى : «أفرأيتم ماتمنون ، أنتم تخلقونه ام نحن الخالقون - الواقعة : ٥٨-٥٩» .

والخلاصة : ان ما يوجد ويتحقق فى عالم الوجود ، انما يوجد بفضل تفاعل القوى المودعة فى هذا الكون ، وان حظ الانسان من ذلك هو مجرد تقارب ما بين هذه

القوى لتتفاعل هي مع بعضها . وبعبارة أوجز : أنّ الانسان إنّما يوجد شرط التفاعل
أما أصل الایجاد فهو من فعل العوامل والقوى الطبيعية ، وهي بدورها مجمولة ومنتظمة
بارادة الله وحوله وقوته أبدياً .

* * *

وبذلك نستطيع أن ندرك وجه انتساب الأفعال الاختيارية الى فاعليها ، في حين
صحة انتسابها الى الله والى القوى الطبيعية التي أودعها الله في هذا الكون .
أما وجه انتسابها الى العباد ، فلأنّهم هم أوجدوا شرائط وجودها باختيارهم
وقصدهم الخاص ، ولولا ذلك لما وجدت . فإنّ الزارع إنّما عمد الى الحرث والزرع
بمحاولته الخاصة للحصول على الثمرة . فقد تصور الفائدة أولاً واشتاقتها نفسه ،
فعمد باختياره وارادته الخاصة الى ترتيب المقدمات المنتجة لما كان يتوخاه .
وهذا دليل اختياريّة العمل .

ومن ثم تقع تبعات كل عمل اختياري على عاتق العامل ، ويكون هو المسؤول
عنها مدحاً أو ذمّاً ، مثوبة أو عقوبة . حتى في مثل الايلاد ، لولا أنّه واقع امر أنه لما
حصل الولد ، ويكون حصول الولد منتسباً اليه بالذات .
فلوفرضنا أنّ عملاً خارجياً يوصف بالقبح أو الحسن ، فان المسؤول عن ذلك
هو العامل ، ولا يمكنه الاعتذار بأن أكثر القوى العاملة في تكوينه كانت خارجة عن
اختياره ، حيث كانت تلك القوى بانفسها معدات ومقتضيات ، أمّا الذي وافق بينها
وأوجد شرط تفاعلها مع البعض ، فهو هذا العامل الذي عمد باختياره الى ايجاد
شرط الوجود .

وأما وجه انتسابها الى الله تعالى ، فمن جهة أنّ القوى العاملة في تكوين الأشياء ،
كلّها مخلوقة ومقدرة بقدره الله ، وهو الذي أكسبها تلك الخاصيات بحيث اذا تقاربت
مع بعضها تفاعلت في الایجاد والتكوين وهو تعالى لا يزال يمدّها بتلك الخاصيات

وفق مامنحها أولاً ، فهو تعالى كما أفاض عليها حدوثاً ، هو يمدّها بالافاضة بقاء ، فلا تزال تلك القوى تستمد - في تأثيراتها المتواصلة طول وجودها - من فيوضه تعالى المتواصلة ، سنة الله التي جرت في الخلق .

وهذا هو الذي يعبر عنه « اذن الله » في لسان الشريعة المقدسة . فلولا أنه تعالى يمد القوي في تأثيراتها آنأ فآنأ ، لما أمكنها التأثير شيئاً أصلاً .

وليس معنى ايداعه تعالى الخاصية في شيء : أنه أودعها فيه وتر كها تعمل بذاتها وتؤثر بنفسها فيما بعد . إن هذا إلا التفويض الذي يتحاشاه مذهب أهل الحق . بل كما أودعها الله حدوثاً ، فهو تعالى لا يزال يمدّها بتلك الخاصية والتأثير بقاء حسب الآتات باستمرار .

فكل قوة من القوى الطبيعية اذا أثرت في شيء ، فإن هذا التأثير يعود الى إذنه تعالى ، حيث أمدها بخاصية ذلك التأثير في نفس الوقت ولولاه لما أمكنها التأثير اطلاقاً . قال تعالى - بشأن تأثير سحر السحرة - : « وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله - البقرة : ١٠٢ » . حيث الساحر يسخر خواص الأشياء في سحره ، لكن هذه الخواص مما أودعها الله في ذوات الأشياء ، إن لم يشألم يمدّها فينقطع أثرها ، غير أن سنته تعالى جرت في امداد القوي وان كانت مستخدمة في تأثير الفساد في الارض . وهكذا قوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه - الاعراف : ٥٨ » . وقوله : « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها - ابراهيم : ٢٥ » .

حتى أنه تعالى ليضيف فعل العباد الى اذنه « واذن خلق من الطين كهيئة الطير باذن - المائدة : ١١٠ » حيث خاصية تشكل الطين وتماسك أجزاءه ، مما أودعها الله في الطين ولم يزل يمدّه بهذه الخاصية أبدياً ولم يكن من عيسى عليه السلام سوى جعل أجزاء الطين على بعضها في نسبة معينة ، أما نفس التماسك فكان بفعل الله ، كما أن نفس عمل عيسى - أيضاً - كان باقداره تعالى وافاضته القدرة عليه آنذاك ، ومن ثم كان جميع ما وقع إننا وقع باذن الله .

وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل المقام ، إنك إذا عرضت يدك للنار ، فإنها

تحترق . ولكن هذا الاحتراق لا يكون الا باذن الله ، فالله هو الذى أودع النار خاصية الحرق ، ولايزال يمدّها بتلك الخاصية ، كما أودع يدك خاصية الاحتراق بالنار . ولايزال يمدّها بتلك الخاصية ، وهو قادر على أن يوقف تلك الخاصية حين لا يمدّها ولا يأذن ، لحكمة خاصة يريدّها ، كما فعل فى قصة ذبح اسماعيل ، سلب السكين خاصية القطع ، وسلب حلقوم اسماعيل خاصية الانقطاع ، أى لم يمدّها فى هذه الخاصية فلم يأذن لهما فى القطع والانقطاع ، فلم يتحقق الذبح .

ومثال آخر تمثل به سيدنا الاستاد - دام ظله - قال : ان الأشياء (الممكنة بالذات) كما تفتقر فى حدوثها الى افاضة المبد تعالى ، كذلك فى بقائها - الذى هو حدوث فى آن ثان - فلا بد فى بقائها واستمرارها من استمرار افاضة الوجود عليها من المبد تعالى . فلو انقطعت الافاضة عليها فى آن لانعدمت من فورها . بداهة استحالة بقاء الممكن بالذات (وهو المفتقر فى وجوده الى مبدء يفيض عليه الوجود حدوثاً وبقاءً) بدون تلك الافاضة المستمرة .

نظير وجود النور داخل الزجاج الكهر بائية ، تشع به مادامت الطاقة الكهر بائية متصل اليها من مركز التوليد عبر الاسلاك ، لا يمكن تحقق هذا الوجود النورى - داخل الزجاج - حدوثاً وبقاءً إلا باستمرار ذلك الاتصال المفاض عليها من المركز ومتى ما انقطعت تلك الافاضة أو انقطع السلك ، فإنّ النور ينقطع فى آنه .
وحيث نذلوا فرضنا أنّ انساناً وضع يده على زر الكهرباء ، كانت اشارة الزجاج واقعة تحت اختياره بالمباشرة ، ان شاء ضغط على الزر فتتنور الزجاج ، وان شاء رفع يده فتطفى . وصحت نسبة اشارة الغرفة وإظلامها إليه بنفس هذا الاعتبار ، وان كان حظه من ذلك هو نفس القطع والوصل لأكثر . وهكذا حظ الانسان فى إحداث ما يريد من أعمال وإيجادها ، فتدبر جيداً .

وبعد ، فقد تبين - في ضوء ما قدمنا - صحة اسناد حدوث جميع المحدثات الى الله سبحانه ، واطلاق القول بأن لخالق الآلهة ولا مؤثر في الوجود إلا الله . إذ ترجع جميع القوى في تأثيراتها إلى امداد فيضه تعالى باستمرار .

كما صحت نسبة الأفعال الاختيارية الى فاعليها و ارادتهم الخاصة ، بما أوجدوا من جوصالح لذلك التفاعل الطبيعي والتأثيرات والتأثرات .

ومن ثمَّ فإنَّ مضاعفات الأعمال السيئة تعود الى مرتكبيها بالذات ، حيث استخدموا من القوى الصالحة ، في سبيل العيب والفساد . وأما نتائج الاعمال الحسنة فإنَّ القسط الاكبر من فضلها يعود الى الله سبحانه ، نظراً لاعداده سبل الخير والسلام ، واقداره العباد على الاستفادة منها والاستخدام . فكان حقاً توجيه المحامد كلها الى الله ، « سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين - الزخرف : ١٣ » . « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله - الاعراف : ٤٣ » .

وبهذا المعنى جاءت الآثار عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام - فقد روى ثقة الاسلام الكليني عن الحسن بن علي الوشاء ، قال : سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام فقلت : الله فوض الأمر الى العباد ؟ قال : الله أعز من ذلك . قلت : فجبرهم على المعاصي ؟ قال : الله أعدل وأحكم من ذلك . ثم قال الامام عليه السلام : « قال الله : يا ابن آدم ، أنا أولى بحسناتك منك ، وأنت أولى بسيئاتك مني ، عملت المعاصي بقوتي التي جعلتها فيك » .

وعن الامام الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله . ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج من سلطانه . ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله . ومن كذب على الله أدخله الله النار » . وقوله صلى الله عليه وآله : « بغير قوة الله » يعني الامداد بافضة القوى ، حسبما ذكرنا .

وسأل رجل الامام الصادق عليه السلام : أجبر الله العباد على المعاصي ؟ فقال عليه السلام :

لا . قال: ففوض اليهم الامر؟ فقال: لا. قال: فماذا؟ قال: لطف من ربك بين ذلك. يعنى **يُفَوِّضُ** الامداد والاقدار بما يجعل العباد مستقلين فى الارادة والاختيار .
 وعن الامامين الباقر والصادق -عليهما السلام - قالوا: «ان الله أرحم بخلقه من أن يجبرهم على الذنوب ثم يعذبهم عليها ، والله أعز من أن يريد أمرأ فلا يكون ، قيل: فهل بين الجبر والقدر (التفويض) منزلة ثالثة؟ قالوا: نعم ، أوسع مما بين السماء والارض» .
 وسئل الامام الصادق **عليه السلام** عن الجبر والقدر ^١ . فقال: «للاجبر ولاقدر ولكن منزلة بينهما فيها الحق ، لا يعلمها الا العالم أو من علمها اياه العالم» . يعنى **يُفَوِّضُ** : العالم من اهل بيت العصمة .

وقال له رجل: «جعلت فداك ، أجز الله العباد على المعاصى ؟ فقال: الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصى ثم يعذبهم عليها . فقال له: جعلت فداك ، ففوض الله الى العباد ؟ فقال : لو فوض اليهم لم يحصر بالامر والنهى . قال له : جعلت فداك ، فينبهما منزلة ؟ فقال : نعم ، أوسع ما بين السماء والارض» ^٢ .

اختيارية الإرادة

قالوا : دليل اختيارية كل عمل هو أن يصدر عن ارادة فاعله وعن اختياره الخاص فلا يوصف عمل بالاختيارية إلا إذا سبقته ارادة ، فرقاً بينه وبين الآثار المتولدة من أشياء لا ارادة لها ولا اختيار فى التوليد .
 وعليه فقد يستشكل فى نفس الإرادة، هل هى اختيارية أم غير اختيارية، نظراً لأنها لو كانت اختيارية لوجب أن تسبقها ارادة اخرى ، وهذا يتسلسل الى غير نهاية ، ومن ثم أنكربعض المتفلسفين أن تكون الارادة بنفسها اختيارية، وان كانت هى السبب لاختيارية سائر الافعال الاختيارية ^٣ . وبذلك ربما انتقضت القاعدة المعروفة «فاقد

١- كثيراً ما يطلق «القدرية» - فى روايات اهل البيت - على اهل التفويض .

٢- الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف - كتاب التوحيد - باب الجبر والقدر

والامر بين الامرين ج ١ ص ١٥٥ - ١٦٠ رقم : ٣ و ٦ و ٩ و ١٠ و ١١ .

٣- راجع : كفاية الاصول - للمحقق الخراسانى - بحث الطلب والارادة ج ١ ص ١٠٠

الشيء لا يعطى!»!

قلت: كلّ ما بالغير لا بدّ أن ينتهي الى ما بالذات، وإلّا تسلسلت حلقات الحاجة والافتقار. فاختيارية كلّ عمل إنّما هي بمسبوقيته بارادة الفاعل المختار، والارادة هي التي تكسبه وصف الاختيارية. هذا صحيح: غير أنّ نفس الارادة توصف بالاختيارية ذاتاً، لا بسبب غير ذاتها. كما أنّ ملوحة الأشياء مكتسبة من الملح، أمّا ملوحة الملح فذاتية له، وكذا تنوّر الأشياء بالنور، وتنوّر النور ذاتي. وهكذا الإرادة بذاتها اختيارية، وأمّا سائر الأفعال فإنّما تكون اختيارية إذا كانت تحت الاختيار، وكانت تصدر عن ارادة الفاعل المختار.

وأيضاً فإنّ معنى اختيارية الأفعال الاختيارية - على ما أسلفنا - أنّها تتحقق باذن الله و ارادته لأن توجد عند ارادة فاعليها واختيارهم الخاص. أما نفس الارادة والاختيار من العباد فانهم مستقلون فيها عند تحقق مبادئها، من تصور العمل وفائدته والشوق اليها وما الى ذلك. فالارادة من العباد انما تتحقق بتكوين نفسى منهم، وتنبعث بذاتها من داخل كيانهم وباطن وجودهم بالذات، وليست معلولة لشيء آخر، من قبيل جوهر النفس اللااختياري - كما ذهب اليه المحقق الخراساني - أو ارادة الواجب تعالى - كما ذهب اليه مجبرة الفلاسفة - اذ كل ذلك نقض لاساس الاختيار ورجوع ملتو عن القول باختيارية الأفعال.

ارادة الله الحادثة

تقدّم أنّ الارادة من صفات الفعل¹ ومن ثمّ فهي حادثة وقائمة بمتعلقاتها، كما هو الشأن في سائر الصفات الفعلية كالخلق والرزق والاحياء والامامة. وهذه الارادة من الله بالنسبة الى أفعال العباد الاختيارية واقعة في رتبة التابع من

المتبوع ، حيث جرت سنته تعالى على تحقق ما يريد العباد فعله ، وقد عبر عنها في القرآن بالأذن. فما يريد العباد ايجاده من أفعال اختيارية ، فانه تعالى يأذن في تحققها وفق ما يريدون - حسبما تقدم - وعليه فلم تكن ارادة العبد معلولة لارادته تعالى ، ولانبعثه عنها ، كما توهمه بعض المتفلسفين . وانما ارادته منبعثة عن داخل ذاته عند حصول مقدماتها السالفة ، لاعتن شيء آخر . وبذلك أثبتنا اختيارية الارادة من العباد اختيارية تامة . هكذا جعل الله العباد مختارين تمام الاختيار في الارادة ، لئلا يكون اجبار أو اضطرار الى هذا النمط من الافعال ، ومن ثم صح التكليف ، وجازت المؤاخذة ، وحسن المدح والذم .

انتساب الحوادث الى الله

في كثير من تعابير القرآن الكريم جاءت نسبة الحوادث ، سواء أكانت ذوات علل وعوامل طبيعية ، أم كانت وليدة صنع الانسان وعمله^١ .

قال تعالى : «انالما طغى الماء حملناكم في الجارية - الحاقة : ١١» . وقال :

«وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام - الرحمان : ٢٤» . وقال : «والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم - الى قوله - وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم - النحل : ٨١» .

وقال تعالى : «جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً - الكهف : ٣٢» . وقال : «والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى - الاعلى :

٥» . وقال : «ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً - النور : ٤٣»

وقال : «الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً - الروم : ٤٨» . وقال : «ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً - الزمر : ٢١» .

١- راجع في ذلك : اوائل المقالات للمفيد ص ٨٦ - ٨٧ .

والآيات من هذا القبيل كثيرة جداً. وسبب ذلك يعود الى ما ذكرنا : ان جميع ظواهر هذا الكون، سواء أ كانت طبيعية أم اصطناعية، فانها تتكون وفق قوانين عامة جعلها الله في جملة الاشياء، وهي تتفاعل مع بعضها في نظام متسق، من غير أن تستغنى عن امداد افاضته تعالى في كل آن. فمن ألقى حطباً في النار واحترق الحطب، صح القول : انه تعالى أحرقه ، لما أودع في طبيعة النار من خاصية الاحراق وفي طبيعة الخشب من خاصية الاحتراق ، وهو تعالى يمدهما بابقاء تلك الخاصية فسي كل آن . كما صح القول بأن الملقى في النار هو الذي أحرق الحطب ، لانه أوجد شرط هذا التفاعل الكيماوي بين النار والخشب .

حل شبهات المجبرة

وبعد فقد حان وقت التعرض لما تشبث به أهل الجبر (الاشاعرة وأذناهم) من آيات وروايات حسبوها دالة على نفي استطاعة العبد وسلب قدرته و ارادته في الفعل والترك... وما هي الاشبهات تنقشع على ضوء ما قدمنا من بيان. واليك الاجابة - تفصيلاً - على ما لفقوها ، تبعاً حسب الارقام المتقدمة : -

١- أما قوله تعالى : «والله خلقكم وما تعملون - الصافات : ٩٦» فسواء اريد الاصنام أم الأعمال ذاتها، فانها مخلوقة لله بالمعنى المتقدم، حيث لم يكن صنع البشر سوى ايجاد شرط التفاعل بين قوى التكوين ، ولم يكونوا هم مستقلين في تحقيق أى صنع أو عمل مادامت القوى الطبيعية هي التي تتجاذب وتتماسك مع بعضها باذن الله فهي بالانتساب الى الله أولى من انتسابها الى العباد ، غير أن مضاعفاتها السيئة تعود عليهم حسب ارادتهم واختيارهم للعمل ، وبالفعل هم أوجدوا شرط تحققه بارادتهم الخاصة . ومن ثم قال المفسرون : «وما تعملونه ، فان جوهرها بخلقه ، ونحتها باقداره» .

وقال القاضي : ظاهر الآية كون «ما» موصولة ، لان ظاهر قولهم : «أعطيتك

ماتاً كل وماتشرب» هو ارادة المأكول والمشروب ، لانفس الأكل والشرب . نظير قوله تعالى : « تلقف ما يأفكون - الاعراف : ١١٧ » . وقوله : « تلقف ما صنعوا - طه : ٦٩ » . وذلك لان الكلام ظاهر في التعليل ، وهو يتناسب وكونه تعالى خالقاً لانفسهم ولما نحتوه ، أما كون نفس النحت فعله تعالى ، فهو يصلح تبريراً لفعلهم وعذراً لهم ، اذ حينئذ تكون عبادتهم أيضاً من فعله تعالى ، فلم يصح توجيه اللائمة اليهم بالذات^١ .

٢- الى ٦- والآيات من سورة الفرقان : ٢ . وسورة الانعام : ١٠٢ . والرعد : ١٦ . والزمر : ٦٢ . وغافر : ٦٢ . أيضاً بنفس المعنى ، ولا سيما والتعقيب في سورة الفرقان : « فقدره تقديراً » شاهد على ارادة ايداع القوى التي تتماصك مع بعضها في نظام واتقان . وهكذا التعقيب في سورة الزمر : « وهو على كل شيء وكيل » دليل على ذلك النظم والتدبير ، وافاضة القوى الفاعلة عبر الوجود .

وقال القاضي : « ظاهر (خلق) - هنا - يقتضى أنه قدر ودبر » . قال ابن منظور - في لسان العرب - : « والخلق : التقدير . وخلق الأديم يخلقه خلقاً : قدره لما يريد قبل القطع ، وقاسه ليقطع منه مزادة أو قرينة أو خفّاً » . وقال ابن قتيبة - في تأويل مشكل القرآن ص ٣٨٨ - : « وأصل الخلق : التقدير . ومنه قيل : خالقة الأديم » .

قال القاضي : ولذلك قال الشاعر^٢ :

ولأنت تفرى ما خلقت وبه ض القوم يخلق ثم لا يفرى^٣
قال : ومتى حمل الكلام على هذا الوجه كان حقيقته : أنه تعالى قد قدر

١- مشابهات القرآن ج ٢ ص ٥٨٠-٥٨٦

٢- هو : زهير بن ابي سلمى . راجع : ديوان زهير ص ٤٥ ط دار الكتب . ولسان العرب

وشرح الاصول الخمسة ص ٣٨٠ .

٣- قال ابن منظور في معنى البيت : انت اذا قدرت امرأ قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدر

ملا يقطعه ، لانه ليس بماضى العزم ، وانت مضاء على ما عزم عليه .

أفعال العباد ودبرها وبين أحوالها . فكان الخلق خلق تدير لخلق ايجاد واحداث . قلت : حتى ولو كان بمعنى الإحداث والإيجاد ، صح أيضاً على ما بينا من صجّة إضافة الأحداث والمولدات اليه تعالى حقيقة ، وإن كان الفاعل لها غيره باعتبار خلق الجو الملائم لذلك التفاعل والتماسك الطبيعي العام .

قال : ووجه آخر : ان هذه اللفظة ليست للتعميم : كقول القائل : أكلت من كل شيء . وتحدثنا بكل شيء ، وفعلت كل شيء . وقد قال تعالى : « تبيانا لكل شيء . - النحل : ٨٩ » . وقال : « ما فرطنا في الكتاب من شيء . - الانعام : ٣٨ » . وقال : « تدمر كل شيء بأمر ربها . - الاحقاف : ٢٥ » . وقال : « يجيبى اليه ثمرات كل شيء . - القصص : ٥٧ » . الى غيرهن من آيات . حيث المقصد بذلك هي المبالغة في الكثير من ذلك النوع المذكور ^١ .

وروى الصدوق في الخصال عن الامام الباقر عليه السلام وكذا في عيون الاخبار عن الامام الرضا عليه السلام : « ان أفعال العباد مخلوقة خلق تقدير لخلق تكوين . والله خالق كل شيء ، ولانقول بالجبر والتفويض » ^٢ .

وأيضاً فان الآية بذاتها تعبير صريح عن هذا المعنى ، قال تعالى : « بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء هليم . ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . - الانعام : ١٠١-١٠٢ » . انظر الى هذه الدقة في التعبير ، ذكر خلق كل شيء أولاً ثم عقبه بعلمه بكل شيء . ثم ذكر خلق الأشياء ثانياً وعقبه بكفالاته لحفظها وتدير شؤونها . . . فلو فرضنا الآية تشمل خلق أفعال العباد أيضاً ، فإن ذلك خير قرينة على ارادة علمه الشامل وتديره العام لشؤون المحدثات على الإطلاق .

١- متشابهات القرآن ج ١ ص ٢٥١-٢٥٤ .

٢- تفسير الصافي ج ١ ص ٥٣٦ نقلا عن الخصال و عيون اخبار الرضا - ع-

٧- الى ١١- وقوله «أفمن يخلق كمن لا يخلق - النحل : ١٧» يريد المخلق بمعنى الابداع والابديع ، الذي لاحظ لمخلوق في ذلك سوى خلق الجوالملائم وفعل الشرط لأكثر . وهكذا بقية الآيات التي تنفي قدرة غيره تعالى على المخلق يعنى الاستقلال التام في المخلق والتكوين . الذي هو شأن المعبود تعالى وتقدس .

١٢ - وقوله : «خلق السموات والارض وما بينهما - الفرقان : ٥٩» ظاهر في الموجودات العينية ، لمناسبة السخية الملحوظة بين المتعاطفات : السماء والارض وكل موجود جسماني واقع بينهما . والدليل على ذلك تمام الآية : «الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش - الفرقان : ٥٩» . ولو كانت تشمل أفعال العباد أيضاً لوجب حملها على ارادة التقدير والتدبير ، لأن الأفعال متدرجة الحدوث بعد الستة الايام التي تمّ فيها خلق السماوات والارض وما بينهما من موجودات . ويشهد لذلك التعبير بالرب في آيات مماثلة : « رب السموات والارض وما بينهما - الشعراء : ٢٤» . وفي قوله تعالى : «وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق - الحجر : ٨٥» لدليل على خلقه سبقت وجود العباد وأفعالهم ، وشاهد صدق على ارادة الموجودات العينية .

١٣ - والارادة في قوله تعالى : «فعال لما يريد - هود : ١٠٧» ارادة تكوين . أى يفعل ما يريد أن يفعله هو تعالى «انما امره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» . وهذا هو الظاهر من أمثال هذا الكلام عند حذف المتعلق .. أما ارادته تعالى المتعلقة ببعض أفعال العباد ، فهي ارادة تشرعية قد تتخلف عن المراد على ما سبق البحث عن ذلك إجمالياً .^١

١٤- وقوله : «ما أصاب من مصيبة في الارض (كجذب وآفة) ولا في أنفسكم

١- راجع : صفحة ١٦٧

(كمرض وعاهة) إلآفنى كتاب من قبل أن نبرأها - الحديد : ٢٢ . إشارة إلى مسألة القضاء والقدر ، التى ليست سوى علمه تعالى بما سيحدث وعلى الصفة التى تحدث فى علمه القديم . من غير أن يكون علمه تعالى علة لتكوين المعلوم ، حيث لاشأن للعلم أن يكون مؤثراً فى تحقق المعلوم ، سواء تعلق به قبل حدوثه أم بعده أم مقارناً له . وسنبحث عن هذه المسألة فى فصل قادم ، ان شاء الله .

١٥- وقوله : «واختلاف ألسنتكم - الروم : ٢٢» لايعنى تكلماتهم فيما ينطقون ، وانما عنى اختلاف لهجاتهم ، واقدارهم على النطق بمختلف اللغات . وقد فسر باختلاف نبرات الصوت ، حتى لا تشبه نغمات صوتين ، كما لا تشبه لمحات وجهين حتى ولو تشابهت الألوان .

قال القاضى : وذلك أنّ اللسان آلة فى الكلام ، وبحسبه يختلف الكلام ، فأراد تعالى أن يبين أنّه خالف بين الألسنة لكى تختلف الأصوات والنغم فى الكلام ، ويفصل بين متكلم ومتكلم ، كما خالف بين الألوان ، ليقع للمشاهد التمييز .

١٦ - وقوله : « وأسرأ قولكم أو أجهروا به انه عليم بذات الصدور - الملك : ١٤ » كان المشركون يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيخبر الله نبيّه ، فقال بعضهم : أسرأ قولكم لثلا يسمعه إله محمّد ، فنزلت : أنّه لا فرق عند الله بين الجهر والاخفات ، إنّّه يعلم ما تختلج به صدوركم قبل النطق به . ثمّ جاء التعقيب معللاً : « الأيعلم » - أى خفايا جوانحك - « من خلق » - أى من خلقكم ، فهو أعرف بخباياكم قبل مظاهركم - « وهو اللطيف الخبير - الملك : ٣١-٣٤ » فلا يعزب عنه شيء وان دق ولطف .

إذن فلا دلالة فى الآية الكريمة أنّه تعالى خلق الخواطر والألفاظ ، كما زعمه الأشعري وأذنا به ممن يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه .

١- مشابهاة القرآن ج ٢ ص ٥٥٣-٥٥٤ . وتفسير الصافى ج ٢ ص ٢٩٨ .

١٧- وقوله : «ربنا واجعلنا مسلمين لك - البقرة : ١٢٨» اى وفقنا لتكون مسلمين لك ، وذلك بافاضة الطاف خاصة يفيضها الله على من استهدى من عباده وجاهد فيه ، «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقويهم - محمد: ١٧» . «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - العنكبوت : ٦٩» وسنتكلم عن مراتب الهداية ، وانها عامة وخاصة ، منها ماعمّ الناس جميعاً ابتداءً منه تعالى . ومنها ماخصّ المسترشدين المستهدين ممن ساروا على مناهج الهدى وكانت لهم سابقة جد واجتهاد .
والدليل على ذلك ما جاء فى تعقيب الآية : «ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم - البقرة : ١٢٨- ١٢٩» . فهو دعاء وابتهاج الى الله أن يمنحهم بلطفه ومعونته وتأييده الخاص .
لأن يخلق فيهم الاسلام ديناً قهرياً مجبرين عليه ، كما زعمه الأشعري .

١٨- وهكذا قوله : «وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة - الحديد : ٢٧» تعبير عن لطفه وعنايته الخاصة بشأن متبعي المسيح ﷺ جزاء بما صبروا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه . «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الأتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة - فصلت : ٣٠- ٣١» .

١٩ - وقوله : «وأنه هو أضحك وأبكى - النجم : ٤٣» كناية عن مناشيء الأفراح والسرور ، وعوامل الأحزان والغموم . وبدليل ما بعدها من آيات : «وأنه هو أمات وأحيى» . «وأنه هو أغنى وأقنى» . «وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى» . اذ لو كان المقصود : أنه تعالى هو يخلق الضحك والبكاء - جموداً مع ظاهر اللفظ - لتنافى مع قوله : «وأن ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزيه الجزاء الأوفى - النجم : ٣٩- ٤٢» قبل هذه الآية الصريحة فى أن للعباد نشاطات

ومساعى هم يحاولونها عن إرادة واختيار ، وتعود عليهم بالذات مضاعفات أعمالهم
فى هذه الحياة .

٢٠- وقوله : «أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون - الطور : ٣٥» . لايعنى
سلب قدرة العباد عن الإحداث والايجاد حتى لمثل أفعالهم الاختيارية ، لأن وجه
هذه الاية إلى غير هذه الجهة ، وإنما تعنى نفى أنهم خالقون لأنفسهم ، بصدد اثبات
أنه تعالى هو خالق الأرض والسماء وجميع الخلائق ، ببرهان السبر والتقسيم :
إذ يدور أمر الخلق بين ثلاث : الاولى - أنهم خلقوا من غير شىء ، فلم يكن هناك مبدع
ولا صانع ، وإنما وجدوا صدفة من العدم المحض . الثانية - أنهم هم الذين خلقوا
أنفسهم . الثالثة - أن الله خلقهم كما خلق سائر المخلوقات .

قال تعالى : «أم خلقوا من غير شىء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السملوات
والارض بل لايقنون - الطور : ٣٥-٣٦» .

وبما أن الصدفة والخروج عن العدم المحض من غير علة ولا سبب موجود
مستحيلة ، فى بداهة العقل الرشيد ، وكذا أن يكون موجود هو أوجد نفسه فيكون
بذاته علة لذاته وفى نفس الوقت معلولاً عن ذاته ، ليتحد العلة والمعلول ، هذا أيضاً
مستحيل ، فثبتت الثالثة ، وأن هناك صانعاً مدبراً هو الذى خلق وقدر .

٢١- وقوله : «شركاء خلقوا كخلقه - الرعد : ١٦» نفى أن يكون من زعموه
شريكاً مع الله فى العبادة أن يكون شريكاً معه فى الخلق . فإذا لم يكونوا شركاء فى
الخلق ، فكيف أصبحوا شركاء فى العبادة ؟! والخلق المنفى هنا هو الإستقلال والإستبداد
فى الإحداث والإبداع ، الأمر الذى لا يتنافى واختيارية أفعال العباد ، الذين هم غير
مستقلين فيها ، فلم يكونوا شركاء له تعالى فى الخلق والتدبير التام . اذنسبة الفعل
الى فاعله - باعتبار أنه موجود لشرطه - لا تقتضى استقلاله فى الإحداث .

٢٢- والاجماع على أنه لا خالق إلا الله ، كآيات المتقدمة ، ينفى استقلال غيره

في الإحداث والإيجاد، أمّا إيجاد شرط الشيء لتفاعل القوى الطبيعية مع بعضها تماشياً وتجاذباً ، وفق سنة الله التي جرت في الخلق ، فهذا شيء لا ينفيه الاجماع المذكور ولا الآيات السابقة . وقد تقدم الكلام في ذلك . واطلاق الخلق على هذا النمط من الإحداث والصنع ليس شيئاً ينكر ، قال تعالى -خطاباً مع عيسى ﷺ : « واذتخلق من الطين كهيئة الطير - المائدة : ١١٠ » أى تصنع . فأسند الخلق الى عيسى ذاته . وقال تعالى : « فتبارك الله احسن الخالقين - المؤمنون : ١٤ » . « اتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين - الصافات : ١٢٥ » . أى أحسن الصانعين ، حيث استقلاله واستغناؤه في الصنع والإحداث ، وافتقار غيره من الصانع الى فعل القوى التي أودعها الله في جيلة الأشياء .

٢٣- أمّا عدم اجتماع قدرتين على مقدور واحد ، فان اريد قدرتان مستقلتان على إيجاد الشيء خارجاً . فحق ، ولا كلام لنا في ذلك . إنّما الكلام في قدرتين إحداها على ايداع القوى في طبيعة الأشياء والأفاضة عليها في خط البقاء . والثانية على إيجاد شرط التفاعل بين هذه القوى . كما في مثال الإحراق والإحتراق بالنار وهذا شيء بديهى لا غبار عليه .

٢٤- وأمّا التشريك في الخلق فإنما يلزم لو قيل بتأثير قدرتين مستقلتين كل على مقدور غير مقدور الأخرى ، كما ذهب اليه الثنوية . أمّا لو كانت هناك قدرتان إحداها في طول الأخرى وفي إمتدادها - وفق سنة الله التي جرت في الخلق - لحكمة التكليف والاختبار ، فلاشرك ، بل هو توحيد خالص ، كما لا يخفى على اولى النهى .

٢٥- أمّا العلم بتفاصيل المصنوع فواجب لو كانت جميع تلك التفاصيل من صنعته وواقعة تحت اختياره وعن قصده ، أمّا لو كانت جملة المصنوع إجمالياً واقعة عن قصده ، لكن لزمها بعض الخصوصيات لاعن اختياره ، فلا يجب تعلق علم

الصانع بها .

ففى مثال المشى ، كان الذى قصده الماشى هو : رفع رجله ووضعها الى الأمام فى اتجاه خاص . وهذا المقدار هو الذى ينسب إليه ويكون عن اختياره وقصده وارادته الخاصة . أمّا قدمابين قدميه من مسافة وكم خطوة يريد تخطيها ، فهذا الم يقصده ولا واقع تحت ارادته ، ولا هو منسوب إليه كعمل اختيارى . وهكذا حركات أعضائه عند الأخذ والبطش ، ومدّ الأعصاب والاياعازات العصبية ، وما إليها كلّها خارجة عن إختياره وإرادته الخاصة ، ولا ينسب إليه شىء من ذلك ^١ .

٢٦ - وأما قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس - الاعراف : ١٧٩ » فهو كقوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً - القصص : ٨ » . كانت اللام فى أمثال هذا الكلام للعاقبة والنتيجة ، كقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام : لدوا للموت وابنوا للخراب . أى كلّ ولادة لا بدّ أن تنتهى الى الموت . وكل بناء لا بدّ أن ينتهى الى الخراب . وهكذا كثير ممن خلقهم الله تؤول عاقبة أمرهم الى جهنم . بدليل التعليل فى ذيل الآية : لهم قلوب لا يريدون أن يفقهوا بها . ولهم أعين لا يحاولون الإبصار بها . ولهم آذان لا يستمعون الإستماع بها . وقد جعلوا من أنفسهم كالأنعام بل أضل . الامر الذى هم طلبوه ومهدوا السبيل الى تحقيقه ، كأنهم يجتهدون مساعبهم لدخول النار وبئس المصير .

وأخيراً فالذى يدلنا بوضوح على أنّ دخولهم النار كان لسوء اختيارهم - لأنّه تعالى خلقهم لذلك بحيث اراد منهم فعل المعاصى ليدخلوا جهنم ، كما زعمه الأشعري وأذنا به الاغبياء - قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون - الذاريات : ٥٦ » . وهذه الآية صريحة ومحكمة ، فيجب رد غيرها من متشابهات اليها .

١ - راجع - بالخصوص - محاضرات سيدنا الاستاد - دام ظله - ج ٢ ص ٤٤-٤٥ .

٢٧ - وقوله : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها - السجدة : ١٣ » . المشيئة فيها تكوينية ، أى لو أردنا اجبارهم على الهدى لفعلنا ، غير أنه « لا اكره فى الدين » . إذ حكمة التكليف تقتضى منح المكلفين اختيارهم فى الاهتداء او البقاء على الضلال . ولولا ذلك لم يحصل اختبار ولا تمييز الخبيث من الطيب . ولثلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وقوله - بعد ذلك - : « ولكن حق القول منى لأملئن جهنم من الجنة والناس أجمعين » لا يدل على أنه تعالى حتم عليهم الكفر والعصيان ليدخلوا جهنم . بل المعنى : أنه تعالى حق القول منه أن لا يكره الناس على الطاعة والايان ، بل يجعلهم مختارين فى الاهتداء والبقاء على الضلال تحقيقاً لحكمة التكليف . ومن ثم فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر - الكهف : ٢٩ » ، الامر الذى ينتهى بامتلاء جهنم من العصاة والكفار ، لسوء اختيارهم الفسوق والظغيان . وتدلنا على ذلك الآية بعدها : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون - السجدة : ١٤ » فكان استحقاقهم العقاب ، لسوء تصرفاتهم فى هذه الحياة ، وتناسيهم لقاء يوم الحساب . الامر الذى يتنافى ومقصود الاشعري فى الجبر على الكفر والعقاب .

٢٨ - والآيات التى جاء فيها تعليق الايمان على مشيئة الله ، إنما تعنى ارادته التكوينية للايمان المتنافية مع حكمة التكليف : « ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً - يونس : ٩٩ » . لكنه تعالى لم يشأ ذلك ، بل خول الناس اختيارهم فى الكفر والايان « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة - الانفال : ٤٢ » . وبذلك اتضح تفسير قوله تعالى : « ما كانوا ليؤمنوا - أى باختيارهم - إلا أن يشاء الله - أن يجبرهم على الايمان . لكنه تعالى لا يفعل ما يخالف حكمته فى التكليف - الانعام : ١١١ »

٢٩ - وقوله : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله - الانسان : ٣٠ » يعنى اذنه فى

تحقق الاشياء - على ماسلف تحقيقه - فكل مايريد العباد فعله ، لايقع إلا باذن الله ،
وبارادته الحادثة . الواقعة إثر إرادة العباد ، وفق سنته الجارية فى الخلق .

٣٠ - ٣١ - وكل آية جاء فيها تعليق الايمان أوعدم الشرك أوعدم القتال
على مشيئة الله تعالى ، فإنما هى المشيئة التكوينية ، بنفس التقريب المتقدم
برقم : ٢٨ .

٣٢ - وتأويل الأشعري آية الداريات : ٥٦ بأنه تعالى انما عنى المؤمنين ،
فهو تخصيص لحكم عام من غير مخصص ، ولايعدو تأويلاً باطلاً وتحريفاً بالكلم
عن مواضعه من غير مبرر . اذ لم يخلق الله خلقاً لجهنم - كما زعمه أهل الزيغ
والانحراف - ليكون ذلك تخصيصاً فى آية الداريات . وقد تقدم الكلام عن آية
الاعراف : ١٧٩ برقم : ٢٦ .

٣٣ - وهكذا تأويله آية النساء : ٧٩ بالحمل على الاستفهام الانكارى تأويل
غير مستند ، وتحريف بظاهر الكلام لايعمد اليه غير الذين فى قلوبهم زيغ ، ابتغاء
الفتنة وطلب الفساد بين العباد .

قال القاضى - معرضاً بالأشعري - : فأما من حرّف التنزيل لكيلا يلزمه بطلان
مذهبه ، وزعم أنّ المراد به : فمن نفسك ؟ على جهة الانكار ، فقد بلغ فى التجاهل ،
وردّ التلاوة الظاهرة الى حيث يستغنى عن مكالمته .

* * *

(ملحوظة) قديزم البعض وجود التنافى بين الآيتين التاليتين :
الاولى - قوله تعالى : « وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان
تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل : كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون

١ - متشابهات القاضى ج ١ ص ١٩٩ .

يفقهون حديثاً - النساء : ٧٨ .

الثانية - قوله تعالى - بعقب الاولى - : «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك

من سيئة فمن نفسك - النساء : ٧٩ .

حيث الاولى دلت على أنّ كلاً من الحسنة والسيئة من عند الله ، ودلت الثانية

أنّ الحسنة خاصة من عند الله ، وأمّا السيئة فمن العباد أنفسهم . فما وجه التوفيق ؟

وتخلص الاشعري بنفسه بحمل الاولى على الاستفهام الانكارى ، وقد تقدم

وهنـه برقم : ٣٣ . وقد شنعوا عليه هذا التأويل الذى لا يعدو تحريفاً ظاهراً

لامبررله سوى قلة الورع وعدم المبالاة بالدين .

وقد جاء مثل التعبيرين فى قصة موسى عليه السلام ، قال تعالى : «فاذا جاءتهم الحسنة

قالوا : لنا هذه . وان تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه - الاعراف : ١٣١ .

فقال تعالى مكذباً لهم فى ذلك : «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون -

الاعراف : ١٦٨ . فبين أنه تعالى هو الذى يفعل الامرين بلاء ومصلحة ، لكى يرجع

العاصى ويقتلع عن كفره ومعصيته .

وتفسيرهما الصحيح : أنّ الحسنة هنا : الرخاء ووفور النعم . والسيئة : الجذب

والفحط والبلايا . فكلتاهما من عند الله ابتلاء لعباده بالنعم شكر أم كفراناً ؟ وبالبلابا

ارعوا أم زيادة طغيان ؟ . وقد تكون النعم تفضلاً ومزيداً فى الاحسان جزاء لشكرهم

«لئن شكرتم لازيدنكم - ابراهيم : ٧ . وتكون البلايا نعمة وعقاباً » ولو أنّ أهل

القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم

بما كانوا يكسبون - الاعراف : ٩٦ . «فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست

قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون - الانعام : ٤٣ .

فالسيدة - كالحسنة نازلة من عند الله لحكمة الرجوع الى الرشد والارعوا

عن الباطل لطفاً ، أو نكالا وعقاباً على المرود والطغيان . غير أنّ السبب الموجب

لنزول البلاء عليهم هم أنفسهم جزاء بما كسبوا .

وبهذا يجمع بين قوله - بشأن الحسنه والسيئه - : « كل من عند الله » . وقوله - بشأن السيئه - : « فمن نفسك » . نعم كانت الحسنه (النعم والرخاء) تفضلاً من الله محضاً ، حيث لا استحقاق ذاتياً للجزاء على الحسنات الا ما وعد الله من المثوبه والاحسان والتفضل والرضوان .

٣٤- وما أقبح قول الاشعري : انه تعالى لم يرد أن يظلم العباد بنفسه وان كان قد أراد أن يظلم بعضهم بعضاً !!

وقد قال هذا القول الشنيع تبريراً لمذهبه الباطل ، أن أفعال العباد منسوبة الى الله لاتأثير لارادتهم ولالقدرتهم في تحقيقها . فهو تعالى أراد ظلم الظالمين وعيبت الفاسدين !!

لكن ذهب عنه أولم يستطيع فهم هذه الحقيقه : أن الله تعالى وإن كان قد أقدر الظالم على ظلمه ، وجعل له الاختيار فيما يريد فعله ، لحكمة التكليف والاختبار لكنه تعالى لم يرد هذا الظلم بإرادته التشريعيه ، حيث نهاه ونهره عن الظلم والفساد فكيف يجبره - بما يخرج عن استطاعته - على الظلم والعصيان !؟

٣٥- ولاندرى كيف جازلهم تفسير الخلق بالتقدير في آيتي المائدة : ١١٠ . والمؤمنون : ١٤ . ونسوه فيما دل على أنه تعالى خالق أفعال العباد « خالق كل شيء » !؟

وقد تقدم^١ أن الخلق في قوله « أحسن الخالقين » . وقوله « تخلق من الطين » بمعنى الصنع والإحداث باعتبار أن العباد - فيما يصنعون - هم موجودون لشرائط الحدوث والتحقيق بفعل القوى تجاذباً مع بعضها . وبذلك صح اطلاق الخالق - بمعنى الصانع للشيء - عليهم .

١- راجع صفحة ١٧٨ و ١٩١

٣٦ - وجوابهم - عن اعتراض لزوم الجبر ، بأنه تعالى أراد منهم الكفر والفسوق عن اختيارهما - كلام فارغ لا محصل له ، إذ كيف يريد تعالى منهم الكفر بإرادته التكوينية التي لا تتخلف عن المراد ، وتكون علة تامة لتحقيق المراد ، ثم ينسب ذلك الى اختيارهم ، ولا اختيار لهم مساكين الى جنب سلطان ارادة الله القديمة ، حسبما زعموا !!

وأى معنى لارادة العباد الى جنب ارادة الله إذالم يكن لإرادة العبد تأثير فى تحقق المراد ، كما لاثاثير للعلم فى تحقق المعلوم ، حسب تصريح الأشعرى؟! والغريب : أنهم قاسوا ارادته تعالى المتعلقة بافعال العباد بعلمه تعالى المتعلق بها؟! اذ لو كانت ارادته كعلمه ، كانت لاثاثير لها كما لاثاثير للعلم . وهم إنما يرون أن كل الاثاثير لارادته تعالى ، تحقيقاً لقانون « لا مؤثر فى الوجود الا الله » . وينفون أى اثاثير لارادة العباد ، فكيف هذا التناقض المفضوح؟!

ولنختم الكلام بأصرح آية تقضى على مزعومة الجبر نهائياً ، وتنسب أفعال العباد وما يترتب عليها من تبعات ومضاعفات الى أنفسهم . وهى فى نفس الوقت تبكيت قاطع ومكافحة صارمة فى وجه أمثال الأشعرى ممن يجادلون فى الله بغير علم ، ويحاولون تحريف الكلم عن مواضعه زوراً وبهتاناً . قال تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا حذى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك ^١ وأن الله ليس بظلام للعبيد - الحجج : ٨-١٠ » .

١ - انظر الى هذا التعبير الذى لا يحمّل أى التباس فى ان العباد هم فاعلون لأعمالهم

إن حسنة وان سيئة .

مسألة الهداية والتوفيق

أصل الهداية: الدلالة والارشاد^١، غير أن أنحاء الدلالة تختلف حسب نوعيتها ومرتبها في التأثير والبلوغ. فمن دل غيره على طريق يؤدي إلى مقصده فقد هداه، كما أن الذي أخذ بيده وأوصله إلى مطلوبه أيضاً هداه. ففي الأول يحتمل الضلال، والثاني لا يحتمله. فقوله تعالى: «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى - فصلت: ١٧»، هداية من النوع الأول. وقوله تعالى: «ومن يهد الله فما له من مضل - الزمر: ٣٧» هداية من النوع الثاني. وقد استعملت «الهداية» في القرآن على أنحاء ودرجات، نلخصها فيما يلي: -

الأولى: هداية فطرية مرتكزة في جيلة الأشياء، سواء أكان حيواناً أم نباتاً أم جماداً. إذا من موجود إلا وهو يهتدى - اهتداء ذاتياً - إلى طرق الصلاح والفساد، مما يتلائم وطبعه فيسعى في جلبه، أو يبتغى طبعه فيقوم في وجهه، بدافع من فطرته التي فطره الله عليها «ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - طه: ٥٠». «والذي قدر فهدى - الأعلى: ٣». الأمر الذي نشاهده - بوضوح - في مظاهر هذا الكون. كل يسعى إلى كماله في الوجود، واستجلاب المنافع ودفع المضار، دارتنازع في البقاء.

الثانية: ركب تعالى في هذا الإنسان قدرة تفكيرية جبارة (العقل) بها يستطيع التغلب على قوى الأرض والسماء وتسخيرها في سبيل منفعه، كما استخدم ما أمكنه من حيوان ونبات وجماد، وسائر ما في الوجود من قوى وطاقات، في سبيل تحضره

١- كما في قوله تعالى: «فاهدوهم إلى صراط الجحيم - الصافات: ٢٣». وقوله:

«أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر - أي بالاهتداء بالنجوم - النمل: ٦٣»، كما في قوله:

«وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر - الانعام: ٩٧».

والصعود على مدارج الترقى والكمال المدنى ، ولا يزال .

وبهذه المقدرة العقلية يستطيع تمييز الخير عن الشر والحق عن الباطل ، كما ميز بين المنافع والمضار والصالح والفساد ، نعم اذا لم يغلبه هواه ولم يستسلم لقيادة النفس الأمارة بالسوء !

قال تعالى : « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفهتين وهديناه النجدين - البلد : ٨ - ١٠ » ومن ثم جاء فى روايات أهل البيت - عليهم السلام - : « أن العقل رسول باطنى ، وإتيا جاء الانبياء الى البشرية ليؤيدوا ما هداهم اليه نور العقل ، وهو حجة الله ودليله المتركب فى صميم الانسان . ولولاه لم ينفذ هدى رسول ولا ارشاد نبي .

روى ثقة الاسلام الكلينى عن هشام بن الحكم ، قال له الإمام موسى بن جعفر - عليهما السلام - : « يا هشام ، ان الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ، ونصر النبيين بالبيان ، ودلهم على ربوبيته بالأدلة - الى أن قال - : يا هشام ، إن الله على الناس حجتين ، حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة - عليهم السلام - وأما الباطنة فالعقول » ١ .

الثالثة : نصب الدلائل وبعث الرسل وانزال الكتب والسرائع ، هداية خارجية تؤيد تلك الهداية الباطنية ، كما فى الحديث الآنف .

وهذه الانحاء الثلاثة من الهداية عامة ، شاملة لجميع المخلوقين . ولعامه الناس على مختلف الأمم والطوائف . « انا هديناه السبيل اما شاكرأ - بالاجابة والعمل - إما كفوراً - بالإعراض والتولى - الانسان : ٣ » . « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات - الأنبياء : ٧٣ » . « وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون - الاعراف : ١٨١ » . « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل - الاحزاب : ٤ » . وقال تعالى مخاطباً لنبيه الكريم ﷺ : « وانك لتهدى الى صراط مستقيم - الشورى :

١- الكافى الشريف - الاصول - ج ١ ص ١٣ - ١٦ .

٥٢ . وقال عن القرآن الحكيم : « ان هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم - الإسراء : ٩ » . والهداية - في أمثال الآيات - هداية بالدلالة والارشاد، المصطلح عنها بالهداية التشريعية ، التي هي وظيفة النبي ﷺ الواجبة عليه . أما الهداية التي ينفيها تعالى عن نبيه ﷺ فهي من النوع الآتي ، المصطلح عنها بالتكوينية قال تعالى : « انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين - القصص : ٥٦ » . وبذلك يرتفع التنافي بين هذه الآية وآية الشورى : ٥٢ . كما يحصل بذلك التوفيق بين كثير من آيات كانت بظاها متخالفة ، على ما سنبيه .

الرابعة : توفيق رحمانى وتسديد للخطى نحو الصواب ، منحة الهية خاصة ، لاولئك الساعين في سبل الاهتداء . « ومن يؤمن بالله يهد قلبه - التغابن : ١١ » . « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اولئك الذين هداهم الله ، واولئك هم اولوا الالباب - الزمر : ١٨ » . « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده - الانعام : ٩٠ » . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - العنكبوت : ٦٩ » . « والذين اهدوا زادهم هدى وآتاهم تقويهم - سورة محمد : ١٧ » . « ويزيد الله الذين اهدوا هدى - سورة مريم : ٧٦ » . الى غيرهن من آيات جاءت الهداية فيهن بمعنى العناية الخاصة واللفظ الخاص ، يختص بها المؤمنون حقاً ، المتنورون بنور العقل ، السائرون على هدى الرسل بسلام . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم - المائدة : ١٥ - ١٦ » .

واما المعاكسون لهدى الفطرة فلم يجيبوا دعوة الانبياء ، فقد حرموا على انفسهم سعادة هذا الاهتداء الرحمانى فعموا وصموا ، « ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم - النحل : ١٠٤ » . « ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار - الزمر : ٣ » . « كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءتهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين - آل عمران : ٨٦ » .

* * *

والهداية - بهذا المعنى الرابع - هي التي يمنحها الله من يشاء ، ويمنعها عن
 يشاء . لا يمنحها إلا لأولئك الذين جاهدوا في الله وحاولوا البلوغ الى كمال الاهتداء
 سيراً حثيثاً من مرحلة «علم اليقين» الى مرحلة «عين اليقين» . ومن جدّ وجد . «ومن
 أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً - الاسراء: ١٩» .
 وهكذا لا يمنحها إلا عن اولئك الذين أعرصوا عن ذكره وسعوا في آياته
 معاجزين . «ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى،
 قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك
 اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد
 وأبقى - طه : ١٢٤ - ١٢٧» .

وبذلك تفسر مشيئته تعالى المتعلقة بهداية من يشاء واضلال من يشاء «فيفضل
 الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم - ابراهيم : ٤» . أى يخذل^١
 من أعرض عن ذكره ، ويهدي من سعى اليه . اذ ليست مشيئته تعالى اعتباراً متناًفياً
 لمقام حكمته عز شأنه، «ولا يرضى لعباده الكفر»^٢، وما الله يريد ظلاماً للعالمين»^٣.

الخامسة : قدرة إيمانية عاصمة عن الخطل والزلل ، وعن الخطأ والانحراف ،
 هي عصمة ربانية تتحلى بها نفوس قدسية من عباد الله المصطفين الاخيار « ان الذين
 قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا
 بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة - فصلت :
 ٣٠ ٣١» ، وهذا جزاء استقامتهم على هدى الفطرة وصبرهم في جنب الله « وأن لو
 استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا - الجن : ١٦» . ومن ثم فإنّ العصمة

١- وشرح - في فصل قادم - ان الاضلال من الله هو الخذلان بمعنى ترك المتمرد ونفسه ،
 حيث أصر على العناد والاستكبار .

٢- سورة الزمر : ٧

٣- سورة آل عمران : ١٠٨

خاصة بالانبياء والائمة الأولياء ، هداهم الله اليها جزاء بما صبروا ، وجعلهم الأئمة
 المقتدى بهم فى الناس ، حيث « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - التحريم : ٦ » .
 قال تعالى : « ووهبنا له (ل ابراهيم) اسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحاً هدينا
 من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي
 المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كل من الصالحين ، واسماعيل واليسع
 ويونس ولوطاً ، وكلا فضلنا على العالمين - الى قوله - اولئك الذين آتيناهم الكتاب
 والحكم والنبوة - الى قوله - اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده - الانعام : ٨٤
 - ٩٠ » .

وستتكملم عن مختلف جوانب هذه العصمة الرحمانية الخاصة فى فصل قادم
 ان شاء الله .

* * *

وهناك هداية اخرى هى : هداية إلجاء ، لم يشأ الله - فيما عدا هدى الفطرة
 ونور العقل - أن يلجىء عباده عليها ، ولأن يكرههم على الطاعة والايمان ، حيث
 هذه الحياة الدنيا دار اختيار واختبار ، ولا اختبار مع الإلجاء والإكراه . وبذلك نوه
 الذكر الحكيم ، قال تعالى : « فلو شاء لهداكم أجمعين - الانعام : ١٤٩ » . وقال :
 « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً - الرعد : ٣١ » . لكنه
 تعالى لم يشأها ، حيث منافاتها للتكليف والاختبار .

* * *

وقسم سيدنا الاستاذ - دام ظله - انحاء الهداية الى ثلاثة :
 الاولى - هداية تكوينية عامة ، أعدّها الله فى طبيعة الموجودات ، وهى تسير
 بطبعها نحو الكمال ، وتهتدى بنفسها الى طرق الاستكمال « ربنا الذى أعطى كل
 شىء خلقه ثم هدى - طه : ٥٠ » .

الثانية - هداية تشريعية عامة ، أفاض على الانسان العقل وقدرة تمييز الحق

عن الباطل، وأيدّه بارسال رسل وانزال كتب وشرايع «اناهديناه السبيل اماشاكراً
إما كفوراً - الانسان : ٣» .

الثالثة - هداية تكوينية خاصة ، عناية ربانية حصص الله بها بعض عباده ممن وفقهم
وسددهم نحو الصواب وفق اقتضاء حكمته ولطفه «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سبلنا - العنكبوت : ٦٩» .

وبذلك فسر - دام ظله - طلب الهداية في قوله : «اهدنا الصراط المستقيم -
سورة الفاتحة» . حيث المسلم بعدما اعترف بأن الله قدم من عليه بهدايته العامة التشريعية ،
يطلب من الله أن يمنحه هدايته الخاصة التي يختص بها من يشاء من عباده .^١

* * *

والهداية في كل مرتبة من مراتبها الخمس المتقدمة هي ذات درجات أعلا فاعلا ،
يتدرجها عباد الله النابهن درجة بعد درجة ومرحلة بعد اخرى الى غير نهاية حيث لانهاية
ولا غاية لرحمته تعالى الواسعة ، فكلما بلغ العبد منزلة رفيعة من رحمته تعالى تكون وراها
مراتب أرفع وأعلا وأقرب الى فيض قدسه تعالى ، ولا يزال مثل نبينا ﷺ يرتفع
درجات الى قرب رضوانه تعالى ، كلما صلت عليه امته عبر الدهور ، صلى الله عليه
أكمل صلاة وأرفع تحيات ، وعلى آله الميامين الأطهار .

ومن ذلك يتضح لنا السبب في ترغيب وتكليف طلب الاهتداء عبر الساعات
والأيام ، حيث تتواصل رحمة الله الواسعة ، الشاملة لعباده المؤمنين عبر الدقائق
والآنات .

وإذا لاحظنا من درجات النور المتصاعدة الى الأقوى ، واعتبرنا كل درجة
لاحقة هي أشد تنوراً من سابقتها ، كانت الدرجة السابقة فاقدة لهذا المقدار الأشد
وكانت هذه بنفس النسبة مظلمة بالاضافة الى الدرجة اللاحقة ذات التوير الأقوى

١- راجع : البيان - عند تفسير سورة الفاتحة - ص ٥٢٧ - ٥٢٩

وهكذا درجات الهداية التي هي نور في حقيقتها - فحيثما يتدرج العبد على مدارج الهداية صعوداً الى الأكمل ، فانما هو ينتقل من درجة هي ضلال بالنسبة الى تاليتها وظلمة انتقل عنها بتوفيق الله وهديه الخاص الى نور هي درجة جديدة من نور هدايته تعالى .

وبهذا المعنى فسرنا قوله تعالى : «اللهم اولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور - البقرة : ٢٥٧» ، حيث الفعل المضارع دل على استمرار وجودى لهذا الانتقال التدرجى ، وماذا لك لإعنايته تعالى بشأن المؤمنين من عباده ، أخذاً بأيديهم صعوداً على مدارج الهداية والكمال ، من نور هي ظلمة نسبية الى أنور ، سيراً تقدمياً مع الأبدية . أما الكافر العنود فانه فى سيرته يفتقرى ، رجوعاً من نور عقله وهدى فطرته الى ظلمات الغى والجهالة المردية «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات» . عصمنا الله من غواية النفس وانقذنا من حائل الشيطان ، وهدانا الى سبيل رشده هدياً متواصلاً مع الأبد ، آمين رب العالمين .

* * *

إضلال أم خذلان ؟

تلك هدايته تعالى بالمعاني الخمسة المتقدمة ، منها ما كانت اختيارية ، وهي المتوسطة بين سابق «فطرة وعقل» ولاحق «توفيق وتسديد» فاذا مال الى العبد نداء فطرته وسار على رشد عقله ، انقاد لهدى الشريعة وأطاع ربه ، ومن ثم أدركه توفيق ربانى وانشرح صدره فبلغ الحقيقة والصواب بعنايته تعالى ولطفه الخاص .
أما اذا عاكس فطرته وخالف رشد عقله ، فإنه لا يجيب الى دعوة الأنبياء ولا يمثل تكليف ربه ، ومن ثم لم يستعد بنفسه لشمول نفحات قدسه تعالى ، فأخطأه التوفيق وضاق صدره فلم ينل الاهتداء الى الصواب ، فكان قد حرم سعادة الحياة فى شقاء دائم .

وعليه فمعنى اضلاله تعالى لمن يشاء ، هو خذلان عبده المتمرد الطاغى ،
 يتركه يعمه فى ظلمات غيّه ، جزاء متناسباً مع عناده واصراره على الجهالة والظغيان .
 كسائر على مزالق هاوية سحيقة ، لا يعرف درب النجاة وغمته ظلمات السماء والارض ،
 فيناديه الدليل العارف : ناولنى من يدك لأهديك سواء السبيل ، واتبعنى أهدك صراطاً
 سوياً ، لكنه لسوء اختياره يترفع بنفسه - علواً واستكباراً - أن ينخرط مع سائر المهتمدين
 أو يسير مع ركب المؤمنين « واذ قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما
 آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون - البقرة : ١٣ » . « اذ قال لهم
 اخوهم نوح : ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله واطيعون قـالوا :
 أنؤمن لك واتبك الأردلون - الشعراء : ١٠٦ - ١١١ » . « فقالوا : أبشراً منا واحداً
 نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر - القمر : ٢٤ » .

هكذا أطاعوا بحظهم وألقوا بأيديهم الى التهلكة « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم
 والله لا يهدي القوم الفاسقين - الصف : ٥ » ، قال تعالى : « سأصرف عن آياتى الذين
 يتكبرون فى الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشـد
 لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا
 عنها غافلين - الاعراف - ١٤٦ » .

هذا هو اضلاله تعالى بمعنى خذلانه الطغاة وتركهم فى ظلمات الغى يعمهون
 معاكسة طبيعية وحتمية مع اتجاههم ذاك العاتى « وما الله يريد ظلماً للعباد - غافر : ٣١ »
 « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله
 الظالمين - ابراهيم : ٢٧ » . وهو تفسير قوله : « يضل من يشاء » بدليل قوله : « قل ان الله
 يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب - الرعد : ٢٧ » . فالذين يريد الله اضلالهم - أى
 خذلانهم - هم الذين لا ينيبون الى الله مولا لهم الحق ، وغيرهم فى دينهم ما كانوا يفترون .

١ - مقتبس من قوله تعالى : « ثم ردوا الى الله مولا لهم الحق - الانعام : ٦٢ » .

٢ - سورة آل عمران : ٢٤ .

«فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً - النساء : ١٧٥» .

قال سيدنا الطباطبائي - دام ظله - : قد وقع المؤمنون حقاً بين هديتين : هداية اولى فطرية وانصياح الي رشده العقل ، فشملتهم عناية ربانية في نهاية المطاف . كما ان الكافر وكذا المنافق ، واقع بين ضلالين : ضلال سابق هي معاكسة نداء الفطرة وهدى العقل ، فلحقهم ضلال وعنه عن سبيل الحق مع الأبدية ، « كمثله الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون - البقرة : ١٧-١٨ » .

اذن فكما أن الهداية اللاحقة منحة الهية يكتسبها العبد بفضل جهوده في سبيل لقاء ربه كذلك الضلال اللاحق خذلان من الله استوجبه العبد لنفسه ، مغبة اعراضه عن الحق وصدوده على النقي والضلال ، وفي كلا الجانبين يكون العبد هو السبب العامل لما يصيبه من سعادة وشقاء في نهاية المطاف . « فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضلّ فإتّما يضلّ عليها ، وما أنا عليكم بوكيل - يونس : ١٠٨ » .

* * *

وزعم الأشعري ومن على شاكلته من أهل الجبر ، أن لا سبيل للعبد الى اختيار طرق الهداية أو الضلال اطلاقاً ، وإنما هي إرادته تعالى يهدي من يشاء بلا سبب ذاتي ، ويضل من يشاء بلا استحقاق موجب ، لأنه تعالى يفعل ما يريد ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

قال : ان الله هدى البعض الى الايمان ولطف به وأصلحه فكان مؤمناً ، وأضل البعض ولم يلطف به ولم يصلحه فكان كافراً ، ولو أصلحه ولطف به لكان مؤمناً ، لكنه تعالى أراد أن يكون هذا كافراً ومن ثمّ خذله وطبع على قلبه .
وتشبهت في ذلك بظواهر آيات تنسب اليه تعالى الهدى والضلال مطلقاً « يهدي

١- راجع : تفسير الميزان ج ١ ص ٤٢ طدار الكتب الاسلامية .

من يشاء ويضل من يشاء». قال: الايمان والكفر كلاهما من فعله تعالى يخلقهما في من يشاء من عباده ، من شاء جعله مؤمناً ، ومن شاء جعله كافراً . والخلاصة : انه فسر الهداية - حيثما وردت في القرآن - بخلق الايمان مباشرة أو القدرة عليه ، ومن ثم فهي خاصة بالمؤمنين وحدهم ، لأنهم هم الذين أراد منهم الايمان ، فأقدرهم عليه ووقفهم له ، دون غيرهم من الكفار والمنافقين ، ولو كان أراد من هؤلاء الايمان أيضاً لأقدرهم عليه لكنه تعالى أراد أن يكونوا كافرين فلم يقدرهم على الايمان .

وقال - في قوله تعالى : « وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى » - : ان الضمير في « فهديناهم » يعود على المؤمنين من قوم ثمود خاصة ، والضمير في « فاستجبوا العمى » يعود على الكافرين منهم خاصة . ليكون المعنى : ان الله هدى البعض من قوم ثمود الى الايمان وأقدرهم عليه فأمنوا ، كما لم يهد غيرهم ولم يقدرهم فاستجبوا العمى على الهدى وصاروا كافرين .

وقد تكلم الاشعري في ذلك باسهاب ، في فصول عقدها من كتابه : « الابانة » فراجع ^١ .

ورمى أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت ٤٥٦) القائلين بمثل هذه التفسيرات بالجهالة ، قال : وقال بعض من يتعسف القول بلا علم - معرضاً بالاشعري - ان قول الله عز وجل : « وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى » . وقوله تعالى : « انا هديناه السبيل » . وقوله تعالى : « وهدينا النجدين » : إنما أراد تعالى بكل ذلك المؤمنين خاصة !

قال : وهذا باطل من وجهين ، أحدهما : تخصيص الآيات بلا برهان ، وما كان هكذا فهو باطل . والثاني : ان نص الآيات يمنع من التخصيص - : ثم أخذ في الاستدلال بآيات رداً على تلك المزعومة ^٢ .

١- من طبعة حيدرآباد الدكن عام ١٣٦٧ هـ صفحات : ٦-٧ و ٥٦ و ٥٩ و ٦١ و ٦٣

٦٥-٧٠ .

٢- الفصل في الملل والنحل ج ٣ ص ٤٥-٤٦

قلت : ونحن قد أسلفنا - في مقدمة الفصل - البحث عن الهداية والضلال وان
لاموقع للالغاء مع التكليف ، كما لاملامة ولاذم ولاعقاب ولاجزاء مع عدم الارادة
والاختيار ، وأن للهداية مراتب : أولى ووسطى ونهاية ، والوسطى اختيارية محضة
واقعة بين هدايتين كانتا منحتين الهيئتين . وبذلك استطعنا التوفيق بين الايات الكريمة
وله الحمد .

(ملحوظة) قديقال : لامانع من حمل قوله تعالى : «يضل من يشاء» على حقيقة
الاضلال ، من غير تأويله الى معنى الخذلان والحرمان . وذلك لانه تعالى انما يزيد
فى ضلال العاتى المتمرد عقوبة على استكباره وعناده مع الحق الصريح . فهى عقوبة
اكتسبها العاصى بيده ، فكان جديراً بهذا الجزاء المماثل «وجزاء سيئة سيئة مثلها
- الشورى : ٤٠» .

لكننا اذا مالا حظنا من امداد التائه فى تيهه - مهما كان السبب - قباحة يستنكرها
العقلاء فى الأوساط المتحضرة ، ويستقبحون الاغراء بالجاهل المغرور ، زيادة فى
غيه وجهالته ، حتى ولو كان هو السبب فى غروره و كان قد عاند الحق ولم يعر اهتمامه
لنصح الناصحين اذ ليس من حكمة العقل ان يقوم الدليل بدفع التائه المغرور الى
مهاوى الهلكة بحجة جموحه عن قبول النصح والرشاد .

فلنفرض أن انسانا معجباً بنفسه لم يستسلم لقيادة من كان يدله على الطريق ،
ولم ينصت لنصح من كان ينصحه ، فجعل يسير على مضلات الطريق و متعرجاته حتى
وقف على حافة هاوية سحيقة حائراً فى ضلاله . فهل يجوز العقل حينئذ ان يعود
الدليل فيدفع به الى السقوط فى فوهتها ، أو يزلق برجله حتى يقع هوفى قعرها ؟!
واذا كان العقل لا يجوز أمراً فهو ظلم وقبيح ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً
اذن لامحيص عن تفسير اضلاله تعالى بالخذلان والخيبة والحرمان ، بمعنى ترك
العتاة فى ظلمات غيهم بعمهون .

عرض آيات الهداية والضلال

(التي وقعت موضع تشابه)

وبعد فلنتعرض الآن لآيات ربما وقعت موضع تشبث أهل الجبر في الهداية والضلال ، والاجابة عليها وفق ما أسلفنا من البيان :-

١- قوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم - الفاتحة : ٢٦» : قالت الاشاعرة: لو كان المراد بالهداية الدلالة لكانت حاصلة لهم ، فلم يكن لطلبها معنى ، فوجب أن يكون المراد : نفس الايمان أو القدرة عليه .

والجواب: أن للهداية مراتب متلاحقة لا يقف المؤمن منها عند حد ، فعلى أية درجة كان فانه يطلب المزيد والبلوغ لدرجة أعلا . ولانهاية لرحمته تعالى مع الأبدية، «والذين اهتدوا زادهم هدى - سورة محمد : ١٧٠» . «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردأ - مريم : ٧٦» .

وأيضاً فانا قد بينا في التفسير : أن العبد يطلب من الله الاستقامة في جميع شؤون حياته المادية والمعنوية ، الامر الذي لا يستغنى عن هدايته تعالى بالتوفيق والتسديد الى الصواب مع الليالي والأيام .

٢- «هدى للمتقين - البقرة : ٢» . قالوا : ماوجه اختصاص الهداية بالمتقين ، لو كانت هي الدلالة والارشاد ؟

والجواب : وجه الاختصاص أنهم هم الذين استعدوا بأنفسهم للاهتداء بهذا الكتاب الذي جاء هدى للعالمين . قال تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس - البقرة : ١٨٥» . والآية نظيرة قوله تعالى : « انما أنت منذر

من يخشيها - النازعات : ٤٥ . ولا شك أنه ﷺ جاء منذراً للخلق كلهم ، كما قال تعالى : «وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً - سبأ : ٢٨» .

٣- «ان الذين كفروا سواء عليهم ءأندرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - البقرة :

٦» يدل على أنهم لا يقدرّون على الايمان .

والجواب : انه تبيّس للنبي ﷺ عن تأثير دعوته ، بالنسبة الى اولئك

المردة العتاة ، فهو اخبار عن عدم وقوع ، لا اخبار عن عدم قدرة ، والالم يصح ذلك الذم والتوبيخ ، والوعيد بعذاب عظيم .

٤- «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة - البقرة : ٧» .

فاذا كان الله قد ختم على قلوبهم ، كان ذلك من ادل دليل على انه تعالى هو للايمان الخالق والكفر ، وللاسباب الموجبة لها ! .

والجواب : ان ذلك تشبيه واستعارة ، وكناية عن ذلك الاعتقاد على العنادم

الحق والصمود على التمرد والطغيان . كما جاء في تعبير انفسهم فيما حكى الله عنهم «فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون - فصلت : ٤-٥» .

انظر الى هذا التعبير الجافى ، جعلوا من انفسهم صخرة صماء وحجراً صلباً

لا يتأثر بشيء . وإنما هي تعابير كناية عن تلك القسوة والجفاء العارم «ولكن قست

قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون - الانعام : ٤٣» . وقال تعالى - مخاطباً لامثالهم في انكار لاذع - : «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد

قسوة - البقرة : ٧٤» . ومن ثم ردّ عليهم هذا التبرير الكاذب بقوله تعالى : «وقالوا

قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم قليلاً ما يؤمنون - البقرة : ٨٨» .

وإنما أسند تعالى الختم الى نفسه ، في حين أنهم في آية اخرى جعلوه من ذات

انفسهم «قلوبنا في أكنة» ، لأنه تعالى باقداره لهم على فعل كل من الطاعة والعصيان ، تمهيداً لصحة التكليف والاختبار ، فقد مكنهم على هذا الجموح و تلك المقاومة

تجاه الحق .

وأيضاً فإنّ خذلانه تعالى لهم ومنعهم شمول لطفه الخاص، على اثر استكبارهم عن قبول الهدى ، جعله تعالى كأنّه هو الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة . قال تعالى : «أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة . فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون _ الجاثية : ٢٣» . فقد جاء في هذه الآية الختم والغشاء تفسيراً لاضلاله تعالى الذى هو خذلان وترك لهم فى ظلمات لا يبصرون . قال تعالى : «ولاتطعن من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً _ الكهف : ٢٨ . والآيات يفسر بعضها بعضاً . وأخيراً فلو كان الله هو ختم على قلوبهم فلا يؤمنون الا قليلاً ، فما هو السبب المبرر لتوجيه الملامة اليهم وذلك الاستنكار فى قوله تعالى : « فما لهم لا يؤمنون _ الانشقاق : ٢٠ . وقوله : « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشراً رسولاً _ الاسراء : ٩٤ » . الى غيرهما من آيات !؟

٥- « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً _ البقرة : ١٠ » يعنى : كفراً وشكاً . وذلك يدلّ على أنّه تعالى يخلق الشك والكفر فى قلوب الكافرين والمنافقين . والجواب : انّ المقصود بالمرض فى الآية هو الانحراف والميل الى الفساد ، كما أنّ الجسم اذا انحرف عن استقامته فى الصحة كان مريضاً ، كذلك الروح اذا انحرفت عن جادة العقل وأخذت فى معاكسة الفطرة ، فانها مريضة ، تشبيهاً لغير المحسوس بالمحسوس .

والسبب فى هذا المرض الروحى هو التفريط فى عدم تموين الروح بما يلائمها من غذاء سليم فى هدى العقل الرشيد . وكلما استبد صاحبه فى هذا الانعطاف غير الطبيعى ، ازداد اعوجاجاً عن الجادة الوسطى المستقيمة ، واقترباً الى ملتويات الطريق ، وأخيراً الى سقوط هائل فى مهاوى الضلال السحيق . « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم _ الصف : ٥ » .

ولاشك أنّ الأخذ في زيادة الانحراف كان باصرارهم على العناد واللجاج ،
وتمكن إبليس من قلوبهم واستحواذه على مشاعرهم فهم لا يفقهون ، غير أنّ نسبة ذلك
إلى الله كانت بمناسبة أنّه - عز وجل - أقدرهم على ذلك لحكمة التكليف والاختبار
«لثلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل - النساء : ١٦٥» .

ومن ثم قد نرى نسبة ما يفعله الشيطان إلى الله تعالى ، لنفس السبب . قال تعالى
«ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم - النمل : ٤» ، مع أنّه قال تعالى : «وزين
لهم الشيطان أعمالهم - العنكبوت : ٣٨ . والنمل : ٢٤» وقال : «وزين لهم الشيطان
أعمالهم - النحل : ٦٣» . وقال : «واذ زين لهم الشيطان أعمالهم - الانفال : ٤٨» .
إلى غيرها من آيات .

٦- «الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون - البقرة : ١٥» . فذكر
أنّ الطغيان من فعله تعالى فيهم ، مضافاً إلى إسناد الاستهزاء إلى نفسه تعالى ، دليلاً
على أنّه يخلق فيهم هذه الأفعال !
والجواب : أنّ المد في الطغيان عبارة أخرى عن الخذلان الذي استوجبوه
لأنفسهم مغبة لجاجهم في الجموح . بدليل ما بعده من قوله : «اولئك الذين اشتروا
الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين - ١٦» . إذ لا يصح هذا الوصف
إلا إذا كانوا اختاروا الضلالة على الهدى ، وإلا فلو كان ذلك من فعل غيرهم لم
يجز إطلاق لفظ «الاستهزاء» هنا ، كما لا يخفى .

وأما نسبة الاستهزاء إليه تعالى فهي معاكسة طبيعية كانت على إثر تفصيرهم
في العمل الانساني ، حيث المناق - في سلوكه المزدوج - يستهدف مصالح يبتغيها
وراء أعماله الاجرامية ، ويظن أنّه يبلغها في ستار ثقافته المراوغ . غير أنّ الواقعية
تعاكسه في كل ما يبتغيه من أهداف ، وتفضحه بين حين وآخر في سلوكه ذلك المزدوج
الخبث غير الانساني ، فضلاً عن عيشته تلك القلقة المضطربة «بحسبون كل صبيحة

عليهم - المنافقون : ٤ .

اذن فسلك المنافق المزدوج هو الذى جلب على نفسه الفشل ودوام الاضطراب فى عيشة غير هنيئة ، الامر الذى جعله سخرية الواقع وموضع استهزاء عارم . انها واقعية مرة يجابها المنافق مغبة خطئه فى السلوك .

٧- «صم بكم عمى فهم لا يرجعون - البقرة : ١٨» يدل على أنهم ممنوعين من الايمان .

والجواب : انه مبالغة وتشبيه ، لأنهم لما لم ينتفعوا بهذه الحواس صاروا كأنهم فاقدين لها ، كما فى قوله تعالى : «انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين - النمل : ٨٠» . وقال الشاعر :

لقد اسمعت لونا ديت حياً ولكن لاحياة لمن تنادى

٨- «يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً - البقرة : ٢٦» هلايدل على أن الاضلال من فعله تعالى ؟

والجواب : ان هذا من كلام اولئك الذين كفروا ، ومن ثم جاءهم الرد والاستنكار على هذا الكلام : «وما يضل به إلا الفاسقين» . أى لا ينحرف بالامثال التى يضر بها الله ، إلا الذين فى قلوبهم مرض ، فهم الذين تضجرهم الامثال ، حيث إنها تفضحهم وتنهكهم من موقفهم الثانى . فمعنى الاضلال على ذلك : انه يزيد فى عتوهم وغيظا فى صدور .

٩- «واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم - البقرة : ٩٣» يدل على أنه تعالى خلق الاشراك مزجاً فى قلوبهم .

والجواب : أن ذلك مبالغة فى تمكن حب الشىء من القلب ، كانه اشرب قلبه ذلك ، فهو كناية عن شدة تمسكهم بالعجل واعجابهم بعبادته .

١٠- «وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله - البقرة : ١٠٢» يدل على أنّ اضرار السحر إنّما هو بإرادته تعالى .

والجواب : قد أسلفنا أنّ اذنه تعالى في التأثير والتأثر عبارة عن تحكيم قانون العلية ربطاً بين الحوادث، وفق سنة الله التي جرت في الخلق . فهو تعالى أفاض على القوى تأثيراتها من فاعل وقابل ، وهو تعالى يمدها كذلك ، ولو شاء لأوقف تأثيراتها اذا قطع عنها افاضته الدائمة . وقد تقدم تفصيله^١ .

١١- « ربنا واجعلنا مسلمين لك - البقرة : ١٢٨ » يدل على أنّ الاسلام من فعله تعالى يجعله حيث يشاء .

والجواب : تقدم أنّ ذلك طلب التوفيق والتسديد وتمهيد السبل نحو المطلوب الحق ، بدليل «وأرنا مناسكنا وتب علينا» .

١٢- «يهدى من يشاء الى صراط مستقيم - البقرة : ١٤٢» ولو كان تعالى هدى الكل لم يستقم هذا الكلام .

والجواب : أنّ الهداية هنا بمعنى اللطف الخاص يمنحها للذين جاهدوا في الله واتبعوا رضوانه فهداهم سبل السلام . وقد تقدم ذلك .

١٣- «ولو شاء الله ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد - البقرة : ٢٥٣» .

المشيئة هنا تكوينية - حسبما أسلفنا - أي لو شاء ربك أن يمنعهم عن المقاتلة منع إيجاب لفعل ، لكنه تعالى يفعل ما يريد ، أي يجعلهم مختارين فيما يشاء ون للحكمة التكليف والاختبار .

١٤- «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور - البقرة : ٢٥٧» .

١- راجع : صفحة ١٧٧ و ١٨٣

تقدم : أنّ المهدي درجات متلاحقة ، وكل درجة فهي بالاضافة الى سابقتها نور ، وبلاضافة الى لاحقتهاظلمة ، حسب درجات النور المتفاوتة . والمؤمن في سيره التصاعدي آخذ دائماً من مرحلة نورانية الى أنور ، بحيث لورجع اليها لكان رجوعاً من نور الى ظلام ، كما هو في الكافر - فعلاً - كذلك ، انه يسير سيراً قهقرياً من نور الى ظلمة وإلى اظلم وهكذا .

١٥- « والله لا يهدي القوم الظالمين - البقرة : ٢٥٨ » .

تقدم : انه بمعنى أنّهم لا ينتفعون بهديه تعالى لتوغلهم في الضلال ومررتهم على العصيان والطغيان . فمنعهم الله لطفه الخاص لعدم استعدادهم وعدم قابليتهم للاستفاضة من ذلك المنهل الالهي العذب .

١٦- « ليس عليك هديهم ولكن الله يهدي من يشاء - البقرة : ٢٧٢ » .

اي « فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر - الغاشية ٢١-٢٢ » ، والآية تسلية للنبي ﷺ وبيان عدم مسؤوليته تجاه عدم قبول دعوته من هؤلاء العتاة الطغاة ، حيث هو مسؤول عن البلاغ والاداء . أمّا التأثير والقبول فهذا شيء لا يمسه « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ - الشورى : ٤٨ » .
نعم لو شاء الله ان يهديهم بالجهاد على الهدى لفعل ، لكنه تعالى جعل لهم الاختيار في قبول الدعوة ، لحكمة التكليف والاختبار . فالمشيئة على هذا تكوينية ويمكن أن تكون الهداية المقصودة هنا هو التوفيق والتسديد ، وقد شاء ها الله لعباده المجاهدين في سبيله .

١٧- « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا - آل عمران : ٨ » طلب للمزيد من

التوفيق وتسديد الخطى نحو الصواب ، لئلا ينحرف بهم الهوى ونزعات هذه الحياة الدنيا الى مهاوى الضلال ، فتزيع قلوبهم عن ذكر الله ، فلا يسلموا من شرور الشيطان

ووساوسه الخداعة ، نستعبد منه الى الله .

ويوضح هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: «وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت

الوهاب» .

١٨- «والله يؤيد بنصره من يشاء - آل عمران : ١٣» . وهم الذين جاهدوا

فى سبيل الله ابتغاء وجهه وابتغاء رضوانه ، وليس اعتباراً كما زعم الخصم .

١٩- «زين للناس حب الشهوات - آل عمران : ١٤» . زينتها لهم أنفسهم

فأوها جمالاً وزينة .

على أن فى هذا التزيين حكمة ربانية ، ولولاه لما عمرت الارض ولما ازدهرت

الحضارة الانسانية التى طبقت أرجاء العالم وتكاد تسرى الى جوار السماء . ولا نقطع

التناسل البشرى المتوسع عبر الساعات والأيام .

نعم حدد الشارع المقدس لاستعمالها حدوداً وموازين ، إن هم جاوزوها

كانت وبالاً وأعقبت آثاماً ، «انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم -

التغابن : ١٥» .

٢٠- «قل ان الهدى هدى الله - آل عمران : ٧٣» أى الدلالة التى ينبغى

السير فى ضوءها هى دلالة الله التى جاءت فى شرايعه وأحكامه وتكاليفه ، على يد رسله

وأنيائه . وأما الدلالة على غير هذا السبيل فمسلكتها الى الضلال البعيد «أفغير دين الله

يبغون !؟ - آل عمران : ٨٣» .

٢١- «قل ان الفضل بيد الله - آل عمران : ٧٣» هو التفضل بمزيد التوفيق ،

وافاضة الفيوض القدسية ، لا يبتغيها أحد من سوى الله عز شأنه .

٢٢- «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعاً وكرهاً

واليه يرجعون - آل عمران : ٨٣ . أى استسلم وخضع . وهذه مقايسة بين عبادة رب خضعت له أرجاء الكون وعبادة أصنام يبول عليها الثعلبان ؟ !
قال شاعرهم :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعالب

٢٣- « كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم - آل عمران : ٨٦ » تقدم أنها هداية توفيق وتسديد ومزيد لطف وعناية، لا يستأهلها أولئك الذين سمعوا فى آيات الله معجزين .

٢٤- « وما النصر الا من عند الله - آل عمران : ١٢٦ » أى بتوفيقه تعالى وتسديده ومزيد عنايته، بتقوية إيمان المنتصرين وارعاب جانبهم .

٢٥- « ليس لك من الأمر شيء - آل عمران : ١٢٨ » نفى لمسؤوليته ﷺ تجاه الدعوة ، وتأثيرها فى قلوب القوم . « انما أنت منذر ولكل قوم هاد - الرعد : ٧ » . « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات - فاطر : ٨ » . « ان عليك الا البلاغ - الشورى : ٤٨ » .

والا فالرسول ﷺ مسؤول عن تبليغ الدعوة والبيان : « وانك لتهدى الى صراط مستقيم - الشورى : ٥٢ » .

٢٦- « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداؤها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا منكم ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين - آل عمران : ١٤٠ » .

أى أنّ الحروب لاستتمّ على وتيرة واحدة، فربما كانت لهم وربما كانت عليهم ، وإن كانت النصرة على جميع الأحوال ، وفى نهاية المطاف تكون مع المؤمنين ، لانه تعالى لا يخذلهم، وهم ان غلبوا أحياناً فهو اختبار لايمانهم والمزيد

من مثوبتهم على الصبر والثبات ، وليعلموا أنّ هذه الحياة منغضة ، لاتستمر احوالها على سواء ، فلا ينبغي الركون إليها ، وإنّما الهناء الخالص مع الآخرة ، وانها هي التي يجب السعى إليها ، ومن ثمّ قال : وليعلم ... الخ أي ليتبين الثابت ايمانه عن الذي يعبد الله على حرف . وقوله : لا يحب الظالمين . بيان أنّ ما قد يحصل للكافر من الكرة له ، ليس اكراماً لجانبه ، وانما هو استدراج له فضلاً عما فيه من المصلحة للمؤمنين . فلم تكن تلك نصرة وحباً للظالم في الحقيقة .

٢٧- « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم - آل عمران : ١٥٢ » تبين معناه من الآية المتقدمة . فضلاً عن كونه عقوبة لما بدر منهم من تنازع وفضول ورغبة في حطام الدنيا يوم احد .

٢٨- وهكذا قوله : «فأتابكم غمّاً بغم -١٥٣» . وقد تقدم وجه نسبة ما يقع - خارجاً من حوادث ومظاهر - إليه تعالى ، حيث امداده القوى واستمرار الافاضة عليها عبر الآنات ، سنة الله التي جرت في الخلق .

٢٩- «قل ان الامر كله لله - ١٥٤» يدلّ على أنّ الأمور كلّها بيد الله ، يدبرها كيف شاء وفق مصلحته الكبرى الشاملة وهورب العالمين . لكن ذلك لا يستدعى الإجبار والإلجاء بعد أن كانت المصلحة تستدعى اختيار الناس فيما يزاولون ، لحكمة التكليف والاختبار . فالله تعالى جعل من الامور ترتب بعضها على بعض حسب سلسلة المعاليل التي ركبها في طبيعة الأشياء . فاذا ما فعل الانسان أمر إقن له آثاراً ترتب عليه لامحالة فهو بذاته مسؤول عنها وان كان ذلكم الترتب هو صنيعه تعالى ، حسب ما تقدم تحقيقه .

٣٠- «ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، انهم لن يضروا الله شيئاً ، يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة - آل عمران : ١٧٦» .
قالت الاشاعرة : يدل على أنّه تعالى هو الذي يريد منهم الكفر وأن يصيروا الى جهنم !

والجواب : أنه تعالى انما يريد أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ، بسبب كفرهم
وهذا كقولنا : اريد معاقبة فلان لأنه خالف أمرى . وإلا فلو كان تعالى هو الذى أراد
منهم الكفر لم يصح كون الآية تسليية للنبي ﷺ ولا كونها انكاراً لاذعاً بمسارعتهم
الى الكفر !

وغاية الأمر أن فى الآية تلميحاً الى استدراجهم على الكفر معاقبة لهم ، ومعاكسة
مع لجاجهم مع الحق .

٣١- وهكذا قوله : «ولا يحسبن الذين كفروا أن مانملى لهم خير لانفسهم ،
انمانملى لهم ليزدادوا إثمًا- آل عمران : ١٧٨» . أيضاً استدراج عقوبة على اصرارهم
فى الغى والعناد .

واللام فى «ليزدادوا» لام العاقبة ، كما فى قوله : «فالتقطه آل فرعون ليكون
لهم عدواً وحرناً - القصص : ٨» . أى يكون أثر هذا الاستدراج هى الزيادة فى الاثم
والكفر . وسنبحث عن مسألة «الاستدراج» فى فصل خاص .

٣٢- «ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء - النساء : ٤٩» .
استدلت الأشاعرة بهذه الآية على أن الايمان ليس اختيارياً ، وإنما هو فعله تعالى يجعل
من يشاء مؤمناً ومن يشاء كافراً .

والجواب : أن التزكية - هنا - اخبار عن طهارة النفس ومدح بحسن الأحوال
فلا ينبغي لأحد أن يخبر عن نفسه بحسن النية وطيب السيرة ، بل الله هو الذى يعلم
الخبث من الطيب .

٣٣- «أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً - النساء : ٨٨» .
والاضلال - هنا - خذلان وعقوبة عاجلة على لجاجهم فى الكفر ، بدليل صدر
الآية «فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا» .

٣٤- «ولو شاء الله لسلطهم عليكم - النساء : ٩٠» . المشيئة هنا تكوينية ، ولم يردّها الله بشأن هذه الحياة فيما يخص باب التكليف والتحصين والاختبار .

٣٥- «ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً ، لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً - النساء : ١٣٧» . تمسك بها الأشعرى على أنه تعالى أضل الكافر ولم يهده السبيل .

والجواب : أنّ هذه المعاودة على الكفر واللعب بأمر الدين ، هو الذي جعلهم بمعزل عن جادة الهدى والطريق الوسطى ، فلم يهتدوا الى سبل السلام ، وحرّموا غفرانه تعالى واستحقوا الخذلان .

٣٦- «فبما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً - النساء : ١٥٥» .
تقدم أنّ الطبع والختم على القلوب كناية عن استغزازهم لقبول الحق ، فكأنّهم يقبلون الحق شيئاً متنافران أحدهما عن الآخر . وهى حالة جمود نفسى تحصل على أثر الانهماك فى الفساد والاصرار على الكفر والطغيان «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» .
ومن ثم علل الطبع بكفرهم . وستتكلّم عن الطبع والختم فى فصل قادم .

٣٧- «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون - المائدة : ٦» .
الارادة - هنا - تشريعية . ومن ثم قد تتخلف عن المراد ، حسبما أسلفنا البحث عنها^١ .

٣٨- «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية - المائدة : ١٣» . قالت

١- راجع صفحة : ١٧٠

الاشاعرة: ومعلوم من قسوة قلوبهم أنه بالكفر ، فاذا كان الله قد جعلها قاسية فقد خلق فيها الكفر .

والجواب : أن هذا القساء والجفاء إنما كان على اثر ذلك اللجاج والعناد مع الحق ، وقد عبّر عن هذه القسوة في مواضع اخر من القرآن بالختم والطبع وفي غلاف وأمثال ذلك من تعابير ، كلها تنم عن حالة نفسية جافية كانت لليهود ، هم أوجدوها لأنفسهم بعد إعراضهم عن الحق وإصرارهم على الباطل .

أما النسبة الى الله فقد تقدم أنها باعتبار أنه تعالى أقدرهم على رفض الحق كما أقدرهم على القبول ، لحكمة التكليف والاختبار ، فرفضوه باختيارهم ، لأنه تعالى أجبرهم على الرفض أو أراد منهم الكفر ، سواء بارادة تكوينية أم بارادة تشريعية . لأن ذلك يتنافى وتوجيه ذلك الإنكار والذم إليهم بالذات .

ومعنى الآية : أنهم نقضوا الميثاق وخالفوا عهد ربهم ، فلعنهم وأبعدهم عن رحمته ، ومن ثم قست قلوبهم فجعلوا يحرفون الكلم عن مواضعه بهتاناً وزوراً .

٣٩- وعلى هذا النمط جاءت الآية التالية بشأن النصارى : «ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيمة - المائدة : ١٤» .

أى بما أنهم تركوا شريعة الله المستقيمة ، ونبدوا منها جه القويم ، أخذت دواعي الاختلاف والتكالب على حطام الدنيا ، تدب في أعراقهم وترسب جذوره في أعماقهم ، حيث مختلف النزعات والاهواء ، «فماذا بعد الحق الا الضلال - يونس : ٣٢» . ووجه النسبة اليه تعالى هو الوجه في الآية المتقدمة .

٤٠- «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، اولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم - المائدة : ٤١» : هؤلاء هم الذين عاندوا الحق وأخذوا في اتجاه معاكس للانسانية ، ومن ثم

ابتعدوا عن معالم الهدى وعن المنهج المستقيم فتحملوا خزي الحياة واستحقوا سوء العذاب .

بدليل صدر الآية : «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه ...» .

والفتنة هي العقاب الصارم «يوم هم على النار يفتنون - الذاريات : ١٣» . أو الامتحان بالتكليف «ان هي الافتنتك - الاعراف : ١٥٥» .

فمعنى الآية: ان من يرد الله أن يعاقبه لمعاندته للحق لسوء أعماله الهدامة ، فلن تملك له من الله شيئاً . انهم ممن استحقوا الخذلان وسوء العذاب .

٤١- «ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون - المائدة : ٤٨» .
المشيئة في الآية تكوينية، ومن ثم لم يشأها، لمنافاتها لحكمة التكليف والاختبار يدل على ذلك نفس التعليل الوارد في الآية «ولكن ليبلوكم» أي لم يشأ الإلجاء على الإيمان لغرض الاختبار . ولذلك عقبها بالأمر - وهي إرادة تشريعية - بالاستباق الى الخيرات .

٤٢- «قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، اولئك شرمكانا وأضل عن سواء السبيل - المائدة : ٦٠» .

قالت الاشاعرة : تدل الآية أنه تعالى هو خالق من عبد الطاغوت وجعله كذلك . والجواب : أن ذلك عقوبة على كفرهم ولجاجهم مع الحق ، ومداومتهم على الدسائس الفتاكة ، فخذلهم الله وأخزاهم وسلبهم الشعور بموقفهم الانساني الكريم ، فذلوا وابتذلت شخصيتهم المنحطة ، واذا هم امة منفورة فاقدة لحقوقها الاممية ، داخله في طاعة امم اخرى ، متحملة نير المذلة عبر الحياة . الامر الذي هو من أشد

العقوبات التي أصابت اليهود طول التاريخ ولا يزال. انهم اليوم اصبحوا آلة صماء في يد طواغيت الارض يعبثون بهم كيف شاءت أهواؤهم الخبيثة في العيث والفساد . هذا هو تفسير « عبد الطاغوت » بشأن اليهود العنود . وهي معجزة قرآنية خالدة .

٤٣- «وليزيدن كثيراً منهم ما نزل اليك من ربك طغياناً وكفراً - المائدة : ٦٤ . قالوا : انها تدل على أن القرآن يبعث على كفر كثير من المكلفين .
والجواب : أن المعنى : أنهم يزدادون كفراً وطغياناً غيظاً وحسداً ، عند ما يرون من رواج هذا الدين وازدهار شريعة سيد المرسلين «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً - الاسراء : ٨٢ . « واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور - آل عمران : ١١٦ .»

٤٤- «ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها - الانعام : ٢٥ . وقدمر نظيرها ، وانها كناية عن القسوة والجفاء الذي مر نوا عليه حتى صار كالطبع لهم . بدليل الاية بعدها : «وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون لأنفسهم وما يشعرون - ٢٦ . ولو كان ذلك من فعله تعالى لما صح هذا التعبير والتوبيخ اللاذع .

٤٥- « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى - الانعام : ٣٥ . تقدم أن المشيئة هنا تكوينية . أما المشيئة التشريعية فقد شاء الله أن يكونوا جميعاً على الهدى ، حيث ارسل رسله الى كافة الناس ووجه دعوته الى الجميع .

٤٦- « والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم - الانعام : ٣٩ . اي كأنهم خشب مسندة

لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . ومن ثم حرموا توفيق هدايته تعالى التي خصها الله لمن سعى إليه واستهدى لديه . فهذا هو الذي يشاء الله أن يجعله على صراط مستقيم ، أما الذي أعرض وتولّى فهو الذي يشاء الله أن يضلّه أي يخذله ، حيث هو مهتد لنفسه سبب هذا الخذلان ، «وما الله يريد ظلماً للعباد- غافر : ٣١ » .

٤٧ - « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم - الانعام : ٤٦ » أي خذ لكم وترككم في ظلمات النقي تعمهون ، على اثر هذا اللجاج والعناد الذي اتخذ تموه تجاه وضح الحق الصراح . وقد تقدم الكلام في مثله .

٤٨ - « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا - الانعام : ٥٣ » .

كان - ﷺ - يقرب فقراء المسلمين من نفسه ويلتزم مجالستهم ، وقد شق ذلك على أشرف العرب ، فالزمهم الاسلام بترك أمثال هذه النزعات الجاهلية ، وكان ذلك امتحاناً لمبلغ رضوخهم لتعاليم الاسلام ، غير أن جماعة ممن تمكن في قلوبهم حمية الجاهلية الاولى ، ولم يستطيعوا الانقلاع عن حائل الشيطان ، كانوا لا يزالون يترفعون عن مجالسة فقراء المسلمين ، ويقولون : أهؤلاء من الله عليهم بالاسلام وبالهدى من بيننا ؟ !

وعليه فاللام في الآية للعاقبة ، لا للتعليل .

٤٩ - « ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً - الانعام : ٨٠ » .
قالت الاشاعرة : الآية تدل على أنه تعالى يجوز أن يشاء الشرك والكفر !
والجواب : أن ابراهيم - عليه السلام - استثنى من عدم مخاوفه ، فانه - ع - كان لا يهابهم ولا يهاب آلهتهم ، معتقداً أنهم لا يضرونه شيئاً . إلا أن يشاء الله فيأذن في إضراره كما في آية السحر .

٥٠- « واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم - الانعام : ٨٧ » . انهاهداية توفيق وتسديد « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى - الكهف : ١٣ » .

٥١- « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده - الانعام : ٨٨ » . أيضاً كذلك .

٥٢- « وخلق كل شيء - الانعام : ١٠١ » . تقدم أن لاعموم فى الآية بحيث تشمل أفعال العباد ، وانما تعنى أعيان الموجودات ، كلها مخلوقة لله تعالى ، وعلى تقدير شمولها للافعال أيضاً ، فهو خلق تقدير وتدبير ، أو بمعنى الابداع ، لكن تبعاً لارادة العبد حسبما تقدم تفصيله .^١

٥٣- « ولو شاء الله ما أشركوا - الانعام : ١٠٧ » . انها مشيئة تكوين لم يشأها الله لدار التكليف والاختبار . وقد تقدم الكلام فى ذلك .

٥٤- « كذلك زين لكل امة عملهم - الانعام : ١٠٨ » . أى زينت لهم أنفسهم و زين لهم الشيطان أعمالهم . وأما الاستناد اليه سبحانه فلما تقدم بيانه من اسناد كل ما يقع فى الوجود الى الله ، حيث اقداره وامداده للقوى الفاعلة فى هذه الحياة . وأخيراً فان هذا التعبير حكاية عن الاستدراج الذى هو عقوبة عاجلة للكافر المعاند المتمادى فى الغى والضلال .

٥٥- « وقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون - الانعام : ١١٠ » . خذلان للكافر المعاند على أثر لجاجه مع الحق .

٥٦- « ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله - الانعام : ١١١ » . تبييس للنبي

١- راجع صفحة : ١٧٧ و ١٨٣

ﷺ واخبار عن ذلك الجفاء الذى انطوت عليه قلوبهم القاسية عن ذكر الله .
واما المشيئة فيها فتكوينية، المتنافية مع التكليف الاختيارى الذى هو تمهيد
للاختبار .

٥٧- « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً - الانعام : ١١٢ » . تسلية للنبي ﷺ
واخبار عن ابتلاء الانبياء السلف - ايضاً - باعداء ألداء ، فصبروا وثبتوا على دعوة
الحق . ووجه الاستناد اليه تعالى ما تقدم (ص ٢١٠) وسيجىء نظير الآية برقم : ١٧٨ .
٥٨- « ولو شاء ربك ما فعلوه - الانعام : ١١٢ » . اى بالالغاء المتنافى مع
الاختيارى فى التكليف .

٥٩- « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها - الانعام :
١٢٣ » . اللام فى الآية للعاقبة ، كما فى قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم
عدواً وحزناً - القصص : ٨ » . ومعنى الآية : أن الاوضاع القائمة فى المجتمعات
البشرية غير المهذبة ، جعلت من الناس طبقة أكابر هم يستغلون موارد طبقة
الاصاغر ظلماً واجراماً ، ويحتالون فى الاستحواذ على مشاعر الناس وابقاءهم فى
الجهل والضلال ، غير أن الظلم لا يدوم وسيدور عليهم الحق من حيث لا يشعرون
« سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون -
الانعام : ١٢٤ » .

والا فلو كانت اللام للغاية لتنافت الآية مع آية الذاريات : ٥٦ . وتلك محكمة ،
ومن ثم يجب تأويل هذه على حسابها .

٦٠- « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل
صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء - الانعام : ١٢٥ » .

الهداية والاضلال فى الآية : توفيق وخذلان ، ومن ثم جاء التعقيب بقوله :

« كذلك نجعل الرجس على الذين لا يؤمنون » .

« وبزيد الله الذين اهتدوا هدى - مريم : ٧٦ » . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم

- الصف : ٥ » .

٦١- « ولو شاء الله ما فعلوه - الانعام : ١٣٧ » . اى بالالغاء المتنا فى مع

الاختيار فى التكليف .

٦٢- وهكذا قوله تعالى : « فلو شاء لهداكم أجمعين - ١٤٩ » .

٦٣- « قال فيما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم - الاعراف : ١٦ » .

قال الأشعري - مدافعاً عن أخيه - : انه تعالى هو أغوى ابليس ووقعه فى المعاصى ، دليلاً على أن الكفرو العصيان من فعله تعالى و ارادته . وقد تقدم نقل ذلك عنه (ص ٦٢ و ٧٠) .

والجواب : ان الغى جاء بمعان : الخيبة . الحرمان . حلول المضار . الهلاك . الضلال . الجهل عن فساد عقيدة . وقد استعمل فى القرآن بكل هذه المعانى ، وفى كل موضع أريد معنى غير ما أريد من المواضع الاخر . وليس هنا مجال تفصيل .

ومما جاء بمعنى الخيبة والحرمان ، شاهداً لهذا الموضع ، قول المرقش

الأصغر فى قصيدة مطلعها :

الا يا أسلمى لا صرم لى اليوم فاطماً ولا أبدأ مادام وصلك دائماً

الى ان يقول :

فمن يلتق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغى لاثماً

أى من يخيب فى عيشه أيضاً يجد من يلومه .

وهكذا فى الآية الكريمة يكون المعنى : رب بما خيبتنى وحرمتنى من

فيض قدسك وطرقتني من بابك ، بسبب التكليف الذي كلفتنى به بشأن آدم وحسبته شاقاً على نفسى فعصيتك وخالفتك ، فكان ذلك سبباً لهذا الحرمان واللعنة الأبدية ، سأقوم بمقابلة المثل بشأن آدم وذريته ، وادبر لهم المكائدكى أحرهم من رحمتك وأبعدهم عن بابك .

٦٤- « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة - الاعراف : ٣٠ » الهداية هنا هو التوفيق والمزيد من التسديد يختص به اولئك الذين جاهدوا فى الله سعياً وراء لقاءه الكريم . وأما الفريق الآخر فهم الذين استحقوا الخذلان واستوجبوا لأنفسهم الخيبة والحرمان .

٦٥- « ونزعنا ما فى صدورهم من غل - الاعراف : ٤٣ » . عناية ربانية يمنحها البارئ تعالى بشأن المؤمنين حقاً، والذين اهدوا زادهم هدى .

٦٦- « ألا له الخلق والأمر - الاعراف : ٥٤ » . المراد من الامر هنا: شؤون التدبير والتقدير . بدليل تمام الآية : « ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين - سورة الاعراف : ٥٤ » فبعد أن ذكر خلق العالم ذكر تدبير شؤونه المختلفة ، فقال : ألا له الخلق والامر . ومن ثم ناسب التعقيب بذلك المدح اللائق « تبارك الله رب العالمين » .

٦٧- « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أولتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قدافترينا على الله كذباً ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها ، إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً . على الله توكلنا - الاعراف :

فى هذه الآفة مواضع من الكلام :-

الاول : « بعد اذ نجانا الله منها » . ماهذه التنجية ؟

الثانى : « وما يكون لنا أن نعود فيها » . دليل على سلب قدرة العباد على الكفر والايمان ، وانما هم ملجأون على الدخول فى الكفر أو الايمان !

الثالث : « الا أن يشاء الله ربنا » . ما هذا الاستثناء ؟

والحل : أنه تعالى نجاهم من الضلال بهدى التشريع اولاً ثم بهدى التوفيق والتسديد ، بعد أن أبدوا استعدادهم لمزيد عنايته تعالى . « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله - الاعراف : ٤٣ » .

واما الذى منعهم من العود الى الضلال ، فهو الوازع النفسى وشهادة وجدانهم الصريح ، اذ من وضع لديه الحق وشاهده بعيان ، لا يمكنه مخالفة ضميره اذا كان متحرراً عن وشائج الانحراف وحب التقليد الاعمى . اذ كيف يمكن لانسان حر العقيدة والاختيار ، وقد لمس الحقيقة ووجد الطريق الى سعادة الحياة ، أن يتركها منعطفا الى مهاوى الضلال ؟ ! « ومن يهد الله فما له من مضل - الزمر : ٣٧ » . ومن ثم قالوا : « لقد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم » !

نعم ، الا أن يشاء الله العود ظاهرياً ، عن اكراه عليهم أو اتقاء شرور الاعداء . قال تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تنقوا منهم تقاة - آل عمران : ٢٨ » . ومن ثم أحالوا حكم ذلك الى سعة علمه تعالى بمصالح الامور ودقيق حكمته فى التكليف . « الا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً » .

لكنهم فى واقع ضميرهم كانوا يتوقعون النصره من الله والنجاة الكاملة من براثن أهل الزيغ والضلال « على الله توكلنا ، ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق

وأنت خير الفاتحين» . وكان الله قد وعد المؤمنين حقاً بالفتح والظفر فى نهاية المطاف « كتب الله لأغلبين أنا ورسلى ان الله قوى عزيز - المجادلة : ٢١». فكان منبعث قوتهم فى المقاومة تجاه أهل الشرك والاحداد .

وهنا نكتة أدق : إن من أدب العبد العارف بموقف مولاه الجليل ، أن لا يقطع فى أمر الا اذا علقه على ارادة مولاه ، حتى ولو كان واقفا على جلى الأمر . وهكذا الانبياء لم يبرموا فى كلام قاطع الا وقد أحالوه على مشيئة الله جل شأنه . « ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله - الكهف : ٢٣-٢٤» .

٦٨- « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة - الاعراف : ٩٥» . قالت الاشاعرة : انها دليل على أنه تعالى هو الفاعل للحسنات والسيئات ، والا لم يصح التبديل منه . والجواب : أن السيئة والحسنة - هنا - هو الجذب والرخاء ، بدليل الآية قبلها : « وما أرسلنا فى قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون - ٩٤» . والآية بعدها : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون - ٩٦» .

٦٩- « تلك القرى نقص عليك من أنباءها ، ولقد جاءتهم رسلكم بالبينات ، فما كانوا اليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين - الاعراف : ١٠١» . قالوا : هذه الآية دليل على أنه تعالى هو المانع من الايمان .

ولكن الآية قبلها تفند هذه المزعومة : « أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون - ١٠٠» . حيث كان هذا الطبع أثراً طبيعياً لتلكم الذنوب التى اقترفوها ، وقد أحاطت بهم خطيئتهم حجازاً مانعاً عن ادراك الحق فهم لا يسمعون .

وقد تقدم أن الطبع : قسوة فى القلب تحصل على أثر الاصرار على الذنب ، ومن ثم حرمان عن أطفاه تعالى الخاصة ، وخيبة عن فيوضه القدسية ، وخذلان فى

٧٠- « سأ صرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق - الاعراف : ١٤٦ » . انه صرف خذلان على أثر معاندة الحق والاصرار على اللجاج . بدليل ما بعدها : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا و كانوا عنها غافلين » .

٧١- « ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء - الاعراف : ١٥٥ » . الفتنة - هنا - امتحان واختبار . وبذلك يتضح مصير المهتدى عن الضلال ، فالذين اهتدوا زادهم الله من فضله . والذين غووا خذلهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . هذا هو معنى الآية الكريمة الظاهر ، فلا موضع فيها لتشبهت القوم .

٧٢- « من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون - الاعراف : ١٧٨ » . هذه هى الهداية بمعنى التوفيق والتسديد . كما أن الاضلال هنا الخيبة والخذلان ، بعد اتمام الحجّة عليهم بالتبليغ والسدعاء . وقد تقدم ذلك غير مرة .

٧٣- « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس - الاعراف : ١٧٩ » تقدم أن اللام هنا للعاقبة ، مثلها فى قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً - القصص : ٨ » .

٧٤- « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون واملى لهم ان كيدى متين - الاعراف : ١٨٢ » .

سنبحث عن معنى الاستدراج الذى هو خذلان للكافر المعاند ، على أثر لجواجه مع الحق وصموده على الفى والضلال .

٧٥- « من يضل الله فلاهأدى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون - الاعراف :
١٨٦ » . لان الذى خذله الله فلم يوفقه فى سبيل الهدى - على اثر جموحه عن قبول
الحق الصراح - لا يجد من يهديه الى السبيل أبدأ . « فما ذا بعد الحق الا الضلال -
يونس : ٣٢ » .

« وان يخذ لكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده - آل عمران : ١٦٠ » . « فان
الله لا يهدى من يضل (اى من استحق الضلال بسوء اختياره) وما لهم من ناصرين -
النحل : ٣٧ » .

٧٦- « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله - الاعراف : ١٨٨ » .
احتضنت الاشاعرة هذه الآية دليلاً على عدم قدرة العباد على خير أو شر ، لا يستطيعون
شيئاً ، وهم المغلوبون على أمرهم تحت ارادة الله الغالبة !
والجواب : أن النفع والضرر فى الآية عبارة عن الصحة والسقم والسلامة
عن الحداث والآفات ، فلا يملك أى انسان مصيره الحتم فى ثنايا ركب الحياة ،
إما الى سلامة أو ابتلاء . « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم - الاحقاف : ٩ » .

كانت العرب تزعم من لوازم النبوة هو العلم الذاتى بالغيب^١ . ومن ثم سألوا النبى
ﷺ عن الساعة أيا مرساها ؟ فجاءهم الردع عن هكذا اقتراح جاهلى : « قل
انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والارض ، لا
تأتىكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها (اى خبير بها) قل انما علمها عند الله

١- الانبياء العظام والائمة الكرام - صلوات الله عليهم اجمعين - انما يعلمون الغيب
بالافاضة من واهب الغيب « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول -
الجن : ٢٦ » .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون (هذا الاختصاص) . قل لا أملك لنفسي نفعاً (فى آجلها) ولا ضرراً ، إلا ما شاء الله (من صلاح كل انسان) ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء انأنا الانذير وبشير لقوم يؤمنون - الاعراف : ١٨٧-١٨٨ » .

٧٧- « وما النصر الا من عند الله - الانفال : ١٠ » أى النصر للمبدء الحق وغلبة الحجة الظاهرة ، لا يكون الا بتوفيقه تعالى وتسديده المخطى نحو الصواب .
والاية نزلت بشأن وقعة بدر اولى غزوة فى الاسلام ، حيث خشى المسلمون ضعف جانبهم تجاه قوة المشركين ، فاستجاب الله لهم بالامداد بألف من الملائكة مردفين . فكانت الغلبة مع المسلمين . وربما ظن بعضهم أن الملائكة باشرت القتال ، فى حين أنها نزلت لتبعث فى نفوس المسلمين القوة والاطمئنان ليقع النصر والظفر على يدهم هم . أما الملائكة فلم تكن سوى منبعث الثبات والاطمئنان النفسى للمسلمين . « اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سالتى فى قلوب الذين كفروا الرعب - الانفال : ١٢ »

اذن لم يكن الغرض من نزول الملائكة سوى بعث روح الايمان فى نفوس المسلمين وخلق البشرى فى قلوبهم « وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » أما واقع النصر فكان من عند الله بتقوية ايمانهم والقاء الروح فى نفوس المشركين « وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم - الانفال : ١٠ » .

والخلاصة : أن الذين باشروا القتال هم المسلمون ، وكاد الاحساس بالضعف يكسر من جانبهم ، لولا أن الله أيدهم بالوعد بالنصر ، وتقوية جانبهم بما ازدادوا ثباتاً وايماناً وثقة بالله ، الامر الذى ضمن لهم النصر والظفر ، تجاه المشركين ذوى النفوس المضطربة غير المعتمدة الى ركن وثيق . « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام - الانفال : ١١ » .

وعليه فحقيقة النصر من الله هو توفيقه وتسديده بخلق الثقة والاطمئنان وبعث

قوة الايمان ، ليقع النصر على يد المسلمين أنفسهم .

٧٨- وهكذا جاء قوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم . وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى - الانفال : ١٧ » .

حيث المسلمون بأنفسهم - لولا تأييده تعالى وتوفيقه بخلق الثقة في النفوس وتقوية الايمان - لم يستطيعوا المقاومة تجاه شوكة المشركين . فانما وقع النصر والظفر للمسلمين بحوله تعالى وقوته ، أو لأبشري بنزول النصر . ثانياً بالربط على القلوب وتثبيت الاقدام . ثالثاً بالقاء الرعب في قلوب الكفار .
وجاز اضافة الطاعة من العبد الى الله ، اذا وقعت بتيسيره تعالى وألطفه ورعايته الخاصة .

وقد روى أنّ النبي ﷺ ناول كفاً من الحصى ذلك اليوم فحشى بها وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه ، شاهت الوجوه » . فما بقي أحد من المشركين هناك الا امتلأت عينه من تلك الحصباء ، الامر الذي أوهى قلوبهم ووهن من عزائمهم فكان النصر حقاً للمسلمين باذن الله العزيز الحكيم .

فلم يكن ذات الرمي الذى رماه رسول الله ﷺ مما يوجب هزيمة المشركين ، لو لا تأييده تعالى بألطفه الخاصة . فقد صح اسناد الرمي المؤثر الى الله عز شأنه ، لانه تعالى هو الذى جعل فيه ذلك الأثر الباهر العظيم .

٧٩- « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون - الانفال : ٢٣ » . تعلقت الأشاعرة بهذه الآية دليلاً على أنه تعالى هو منع الكفار من الايمان !

والجواب : ان الآية تبدأ بقوله تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ... الخ .
هذا تشبيه لحالة المشركين التعنتية المتمردة ، المتوغلة في الغى والضلال ،

فلا ينفعهم نصح الناصحين . اذ خطيئاتهم قد أحاطت بهم ، فلا تدع مجالاً لتسرب وعظ أو ارشاد في قلوبهم القاسية .

ان حالتهم السلبية أسوأ من حالة الدواب . انهم جعلوا من أنفسهم الصم البكم فهم لا يعقلون شيئاً أبداً . انهم منذ بدء أمرهم أخذوا في اتجاه معاكس لمنهج الهدى والصلاح ، فحسروا عنايته تعالى وألطفه الخاصة بالمؤمنين المسترشدين . وخلاصة معنى الآية : إن هؤلاء الكفار الملحدين قد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقى والاستجابة فلم يفتح الله عليهم ما أغلقواهم من قلوبهم ، وما أفسدواهم من فطرتهم . ولو جعلهم الله بحيث يسمعون دعوة الحق ويعون حقيقة ما يدعون اليه ، ما فتحو قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا من حقيقته .

ولو علم الله فيهم خيراً (أى منفذاً للحق الذى يدعون اليه) لأسمعهم (أى للطف بهم بعنايته الخاصة) . ولو أسمعهم (أى ولو جعلهم بحيث يفهمون حقيقة الدعوة ، والحالة هذه ، لا رغبة لهم فى الهدى ، وتشمئز نفوسهم من ذكر الله ، بسبب إفساد استعداداتهم الفطرية) لتولوا وهم معرضون .

* * *

٨٠- « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه اليه تحشرون - الانفال : ٢٤ » .
هذه الآية الكريمة وقعت موضع نقاش حاد بين أهل الجبر (الاشاعرة) وفريق الاعتزال . وهى من جلائل الآيات القرآنية وأدقها تعبيراً عن موقف الدعوة الاسلامية الضافية ، تجاه الحياة البشرية المليئة بالأكدار .

هذه الآية تجعل من شريعة الله نبضة الحياة العليا السعيدة ، التى هى منشودة الانسانية الكريمة ، فى صميم واقعها الأصيل . وانها لهى الحياة الحقيقية اذا تقبلتها النفوس واستسلمت لقيادتها الحكيمة . أما معاكسة هذا الاتجاه فيهددها خطر الانعطاف الى تيه الجهل والضلال ، وسقوط فاضح عن مقام الانسانية الرفيعة .

غير أن الاشاعرة بالذات أعشى أعينهم بريق هذا المعنى اللامع فحاولوا تحريفه الى مايلتئم ومذهبهم في الجبر . الامر الذي جعل من الآية غريبة المفاد عما اكتنفها من صدر وذيل .

قال الفخر الرازى : يختلف تفسير الآية بحسب اختلاف الناس في الجبر والقدر . أما القائلون بالجبر ، فقال الواحدى - حكاية عن ابن عباس والضحاك - يحول بين المرء الكافر وطاعته ، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته . فالسعيد من أسعده الله ، والشقى من أضله . والقلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء . فاذا أراد الكافر ان يؤمن ، والله تعالى لا يريد ايمانه ، يحول بينه وبين قلبه . واذا أراد المؤمن أن يكفر ، والله لا يريد كفره ، حال بينه وبين قلبه .

قال الفخر - تعقياً على ذلك - : وقد دللنا بالبراهين العقلية على صحة أن الأمر كذلك . وذلك لأن الأحوال القلبية اما العقائد واما الارادات والدواعى - ثم أخذ في الاستدلال على أنها جميعاً خارجة عن اختيار العبد - وقال أخيراً : فتعين ان يكون فاعل الاعتقادات والارادات والدواعى هو الله تعالى . قال : فنص القرآن دلّ على أن أحوال القلوب من الله ، والدلائل العقلية دلت على ذلك ، فثبت أن الحق ما ذكرناه ^١ وبهذه السفسطة المفسوحة حاول اثبات مذهب الجبر الأشعرى .

ونحن سنبحث عن مسألة «السعادة والشقاء» في فصل قادم . وعمدة ما استند اليه الفخر استدلالاً في هذا المجال ، هو نظرية : «لااختيارية الارادة» . حسبما تقدم ^٢ منهم : أن الارادة وان كانت هي الملاك لاختيارية الأفعال الصادرة عن اختيار العباد ، غير أن الارادة بذاتها ليست باختيارية ، والالزم سبق ارادة اخرى فتتسلسل . وقد أجبنا عن ذلك بأن اختيارية الارادة كملوحة الملح ذاتية ، وأما غيرها فلا بد أن تنتهى اليها ، فراجع .

١- التفسير الكبير ج ١٥ ص ١٤٧ - ١٤٨

٢- في صفحة : ١٨١ - ١٨٢

هذا جل محاولة الاشاعرة ، وفي مقدمتهم مفلسفوهم ولاسيما امام المشككين
في التحريف بهذه الآية الكريمة . أما غيرهم ممن تخلوا عن تساويل الاشعري
بالذات ، أو كانوا في اتجاه معاكس معهم في الرأى والاختيار ، فلهم فى تفسير الآية
أنظار دقيقة ، وربما آراء ثمينة ، نذكر منها الأهم .

* * *

١- ان من سنة الله الحيلولة بين المرء وقلبه ، الذى هو مركز الوجدان والادراك ،
ذى السلطان على ارادته وعمله . وهذا أخوف ما يخاف منه المتقى على نفسه ، اذا
غفل عنها وفرط فى جنب ربه . كما أنه أرجى ما يرجوه المسرف عليها اذا لم ييأس
من روح الله فيها .

فهذه الجملة اعجب جمل القرآن . ولعلها أبلغها تعبيراً ، وأجمعها لحقائق
علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية ، التى تعرف
دقائقها بما تثمره من الخوف والرجاء .

فيينا زيد يسير على سبيل الهدى ، ويتقى طرق الضلالة الموصلة الى مهاوى
الردى ، اذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد ، يميل به عن الصراط المستقيم ،
من شبهة تزعزع الاعتقاد ، أو شهوة يغلب بها الغنى على الرشاد ، فيطبع هواه ويتخذ
إلهه من دون الله «أفرايت من اتخذ إلهه هوية أفأنت تكون عليه وكيلا » . على أنه
فيه مختار ، فلا جبر ولا اضطرار .

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه ، انه كان منهمكاً فى شهواته
ولهوه ، تاركاً لهداه وطاعة ربه . فنزل يوماً فى زورق مع خلان له فى نهر دجلة
للتنزه ، ومعهم النبيذ والمعازف فيبناهم يعزفون ويشربون ، اذ التقوا بزورق آخر
فيه تال للقرآن يرتل سورة « اذا الشمس كورت » فوعدت تلاوته من نفسه موقع
التأثير والعظة : فاستمع له وأنصت ، حتى اذا بلغ قوله : « واذا الصحف نشرت »
امتلاً قلبه خشية من الله وتدبراً ، لاطلاعاً على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فأخذ العود

من العازف فكسره وألقاه في دجلة ، وثنى بنبذ قناني النبيذ وكؤوسه فيها ، وصار يتردد الآية . وعاد الى منزله تائباً من كل معصية ، مجتهداً في طاعة ربه .
فتذكّر الله تعالى ايانا بهذا الشأن من شؤون الانسان ، وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى في الارادات والأعمال ، وأمره ايانا بأن نعلمها علم ايقان واذعان ، يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونهما الايمان ، احدهما : أن لا يامن الطائع من مكر الله فيغتر بطاعته ويعجب بنفسه . والثانية : ان لا يياس العاصي من روح الله ، فيسترسل في اتباع هواه ، حتى تحيط به خطاياه . فمن لم يامن عقاب الله ، ولم يياس من رحمة الله ، يكون جديراً بأن يراقب قلبه ، ويحاسب نفسه على خواطره مجتنباً الافراط والتفريط ، بين خوف يحجزه عن المعاصي ، ورجاء يحمله على الطاعات ^١ .

ويتلخص هذا المعنى في أن في القلب نقطة تحولات مفاجئة ، قد تشرق على تائه الطريق بغتة ، فتعطف به الى المحجة البيضاء بعد مرارة وشقاء . كما أنها قد تنطفئ على سالك الطريق فتنجرف به الى مزلق ردى وهلاك بعد سعادة وهناء . فلا ينبغي لسالك سبيل - مهما كانت من طاعة أو عصيان - أن يغفل من نفسه تلکم الحالات المفاجئة في حياته المغيرة للمسیر أحياناً . فلا يغتر مؤمن بايمانه ليأخذه العجب بنفسه فيزله عن الصراط بغتة . وان في قصة ذلك التحول النفسى الذى فاجأ بلعم باعورا ، لدرساً وعظة . وهكذا لا يياس العاصي بتوافر خطيئاته مهما كانت عظيمة ، ليأخذه القنوط من روح الله والشعور بالحرمان الأبدى ، ليسترسل فى طغيانه . بل العبد - سواء أكان مطيعاً أم عاصياً - فسانه دائماً بين خوف ورجاء ، لا يياس ولا اغترار

ولعل هذا هو المراد فى الحديث المأثور: «ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من اصابع الرحمن يصر فيها كيف شاء» . وفى لفظ آخر : « اذا شاء أزاغها واذا شاء أقامها » وقد روى أن النبى ﷺ كان يدعو : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك »

١ - الشيخ محمد عبده - فى تفسير المنارج ٩ ص ٦٣٤-٦٣٥

وفى سورة آل عمران ٨- : «ربنا لاتزع قلوبنا بعد اذهبتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب» . وقال يعقوب منبهاً لبنيه : «ولانياسوا من روح الله انه لايبأس من روح الله الا القوم الكافرون - سورة يوسف : ٨٧» وفى الحديث المستفيض « ان لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » . والآثار من هذا القبيل كثيرة جداً .

وهذا معنى لطيف ودقيق للغاية . غير ان تفسير الآية الكريمة بذلك ربما لايلتئم وكونها تهديداً بموقف المشركين ممن امتنعوا عن قبول الدعوة وعن اجابة الرسول .

* * *

٢- ان الاية كناية عن سلطانه تعالى فى عالم الوجود ، وانه المتصرف فيه كيف يشاء «لاراد لقضائه» . « والارض جميعاً قبضته - الزمر : ٦٧ » . فهو تعالى املك من كل انسان لقلبه ، الذى هو منبعث ارادته وقصوده فى كل مايعمل او يختار . فلايقتّر أحد بزعم استقلاله فى متصرفاته يزاولها حسبما يريد . بل دون تحقق الأهداف والبلوغ الى مآرب الحياة ، ارادة رب العالمين القاهرة ، لايقع شيء ولاينحقق أمر الا باذنه تعالى «وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله - البقرة : ١٠٢» . حسبما تقدم فى مسألة «الامر بين الامرين» .^١

فان كانت العصاة قد رفضوا الاستسلام لشريعة السماء رغبة فى مباحج هذه الحياة وزخارفها الخلابية ، وكانوا يرون من قبول الحق خسارة لذائد سفلى ومصالح وقتية زائلة ، فان العيش لايامن معه الهناء ، تجرى الرياح بما لاتشتهى السفن . فلاينبغى لأى انسان أن يامن صروف الزمان وتقلبات الاحوال ، وهى ترى على هذه الحياة المتنفصة بالأهوال والاكدار . الامر الذى جعل من نفوس غير مؤمنة وغير

١- صفحة : ١٧٣ فما بعد

معتمدة الى ركن وثيق في توتر نفسى وقلق دائم . « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم
بذكر الله تطمئن القلوب - الرعد : ٢٨ » .

وهذا المعنى يمثله قول الامام امير المؤمنين عليه السلام : «عرفت الله بفسخ العزائم
وحل العقود ، ونقض الهمم»^١ .

ورجح كثير تفسير الاية بهذا المعنى . قال الزمخشري : وقيل : معناه ان الله
قديمك على العبد قلبه فيفسخ عزائم ، ويغير نياته ومقاصده ، ويبدل بخوفه أمناً
وبأمنه خوفاً . وبالذكريسيانا والنسيان ذكراً ، وما أشبه مما هو جائز على الله .

لكن التعبير بالقلب عن مشتبهات النفس تأباه فصاحة القرآن . القلب عضو
شريف في الهيكل الانساني ، وقد جاء تعبيراً عن منبعث الادراكات الانسانية النبيلة
«ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - ق : ٣٧» . ومن
ثم فان المعرض عن ذكر الله قد ختم على قلبه ، فلا يكاد يفقه شيئاً .
نعم لو كان تعبير الآية هكذا «ان الله يحول بين المرء ونفسه» لاستقام هذا المعنى
وصح تفسيرها بذلك من غير ريب .

* * *

٣- ان الله يحول بين المرء والانتفاع بقلبه بسبب الموت . يعنى بادروا الى
التوبة والانابة قبل فوات الفرصة ، فان الأجل يحول دون الأمل . والحياة فرصة ثمينة
يتمكن العبد فيها من اخلاص قلبه ومعالجة أدوائه وعلله ، وردة سليماً كما ير بده الله .
فينبني اغتنامها واخلاص القلوب لطاعة الله ورسوله .

٤- كناية عن شدة قربه تعالى من واقع الانسان ، فلاتخفى عليه نزعات مافى
القلوب . يعلم سر كم وجهر كم وهو عليم بذات الصدور . فلا يخفى عليه اضمار
كفر أو نفاق وان كان في الظاهر قد آمن بلسانه . «ونحن أقرب اليه من جبل الوريد

٢- شرح النهج لابن ابي الحديد ج ١٩ ص ٨٤ .

٥- والذي نرجحه ونرتأيه هو معنى خامس يلتئم مع ظاهر الآية تماماً : انها كناية عن امارة القلب فلا يعى شيئاً بعد فقدان الحياة .

لا تعجب من الجهول حلتها فذاك ميت وثوبه الكفن^١
 الاسلام دعوة الى الحياة العليا السعيدة، وفي رفضها رفض للحياة وامارة للقلب
 الذى هو منبعث الادراكات الانسانية النبيلة . فاذا مات قلب انسان فقد افتقد نابض
 الحيوية الفعالة، وأصبح جماداً لا حراك له فى عالم الوجود الانسانى ولا فعالية، وانما
 هودابة صماء ، بدلا من أن يمشى على أربع ، يمشى على رجلين فى صورة انسان ،
 قال تعالى : « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة - المدثر : ٥٠ - ٥١ » . بعد قوله :
 « فما لهم عن التذكرة معرضين - ٤٩ » . وقال : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا
 به أول مرة - الانعام : ١١٠ » تطابقاً مع آية الانفال تماماً !

والذى أرشدنا الى هذا الاختيار هى دلائل وقرائن من نفس الآية : -
 أولاً : التعبير بالحياة عن الدعوة ، فيقابلها الموت فى رفضها . وما هو الاموت
 القلب بسلب ادراكاته الانسانية العليا التى فيها الحياة الحقيقية الكريمة . قال تعالى
 « انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين - النمل : ٨٠ » . فانك
 لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين - الروم : ٥٢ » . انما يستجيب
 الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون - الانعام : ٣٦ » . هذه الأخيرة
 تتفق فى نظمها مع آية الانفال شيئاً ما .

ثانياً : القلب عضو شريف فى الهيكل الانسانى البديع . ومن ثم يعبر به عن
 واقع الانسان الكريم تارة ، وعن حيويته النابضة بالفعالية والوجود اخرى . وعن
 منشأ ادراكاته النبيلة الشاعرة بالمسؤولية ثالثة ، وهكذا .

١- الحلة فاعل للفعل المنهى عنه والجهول مفعول به . ومعنى الميت : لا يفتقر الجاهل بجمال
 ثيابه فانها لاتعدو كفننا على جسد ميت لاروح فيه ولا حركة ولا ادراك .

ومن ثم فإن المخالف لفطرته قد جعل من قلبه في غشاء أو في غلاف ، أو مريضاً ومنحرفاً عن وضعه الاصيل أو مختوماً بطابع يحجز دون بلوغ الهدى الى مساره ، وهكذا يجعل القرآن القلب هو المركز الاول لقبول الهداية والتكليف ، ويجعل من رفضها كأنه لا قلب له ، قال تعالى : «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - ق : ٣٧» . «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها - سورة محمد : ٢٤» . «ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم - البقرة : ٢٢٥» . «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة - البقرة : ٧» . «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً - البقرة : ١٠» . «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون - التوبة : ٨٧» . الى غيرها من آيات جاء بنفس التعابير وهي كثيرة جداً . ولم نر القلب وقع تعبيراً عن مشتهيات نفسية إطلاقاً .

ثالثاً : انها تهديد لاذع باولئك الذين يرفضون قبول الدعوة ، فيعكسون حظهم في سعادة الحياة لتتحول الى موت ذريع لاجبوية فيه ولا احساس ولا شعور . ومن ثم فانها سقوط من ذروة انسانية شامخة الى حضيض حيوانية ضارية تكالباً على جيفة الحياة الدنيا الرذيلة ، مما يتناسب تهديداً مع رفض الدعوة في صدر الآية . وانسجاماً مع الرجوع الى حكمه تعالى يوم الاحكام الاحكامه في الذيل . وبذلك تلتئم جملات الآية بكاملتها في تشابك ووثام ووثيق . الامر الذي تستدعيه فصاحة كلامه تعالى البديع المعجز .

والخلاصة : ان الآية صدرأ وذيلاً ومضموناً تستدعي تفسير القلب هنا بمنشأ الادراكات النبيلة لتكون الحيلولة بين المرء وقلبه تعبيراً آخر عن عمهه في تيه الضلال . وهكذا ختم على قلبه فلا يكاد يفقه «فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً - النساء : ٧٨» . «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون - التوبة : ٨٧» . «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً - الانعام : ٢٥» . «والاسراء : ٤٦» . «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة - البقرة : ٧» . «ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون - الاعراف : ١٠٠» .

«رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت - سورة محمد : ٢٠» . الى غيرهن من آيات كلها تعابير عن معنى واحد : من يرد الله ان يضلّه يسلب عنه لبه فلا يكاد يفقه قولاً ، ولا كان يدرك صلاحاً عن فساد ، وبذلك خرج عن حريم الانسانية الكريمة ، ليدخل في إطار البهائم البكم الذين لا يعقلون .
وحصيلة البحث هي المقارنة التالية :-

«حال بينه وبين قلبه» ، «ختم على قلبه» ، «طبع على قلبه» ، «جعل قلبه في غلاف» ، «في غطاء» ، «في غشاء» ، «مرض قلبه» ، «زاع قلبه» ، «انحرف قلبه» ، «صرف الله قلوبهم» الى أمثالها من تعابير كلها تنم عن معنى واحد .

* * *

٦- ولسيدنا الطباطبائي - دام ظله - هنا محاولة اخرى في تعميم مفاد الآية الكريمة لتشمل غالبية المعاني المتقدمة^١ . فقد فسر الحيلولة بسيطرته تعالى على قلب كل انسان ، كما هو مسيطر على سائر أعضائه وجوارحه ، بل وعلى كل موجود في هذا العالم الفسيح . فهو تعالى يتصرف في ملكه كيف يشاء ، ويدع للانسان تصرفاته حسبما يشاء تعالى . فهو المتوسط الحائل بين الانسان وبين كل جزء من أجزاء وجوده وكل لازم من لوازم شخصيته . بينه وبين قلبه . بينه وبين سمعه . بينه وبين بصره . بينه وبين بدنه . بينه وبين نفسه . يتصرف فيها بالايجاد ، ويتصرف فيها بتمليك الانسان ما شاء منها كيف شاء ، فقد يعطيه ما يشاء وقد يحرمه ما يشاء . وهكذا يفعل تعالى في سائر القوى المودعة في هذا الكون .

فالله تعالى أقرب الى الانسان من كل شيء ، قلبه وسائر ما يحوى عليه من أعضاء وجوارح ، بل وما يرتبط به نوع ارتباط ، لانه تعالى هو الحائل المتوسط بينه وبين سائر الاشياء اطلاقاً ، فهو أقرب اليه منها جميعاً . والى هذا المعنى - أيضاً - أشار

١- وهكذا حاول ابو جعفر الطبري تعميم مفاد الآية . وفسر الحيلولة بانه تعالى أمك لقلوب

عباده منهم ... الخ فراجع : جامع البيان ج ٩ ص ١٤٣ س ٢٣ ، وستنقل كلامه في نهاية الفصل

قوله تعالى : «ونحن أقرب اليه من جبل الوريد - ق : ١٦» .

قال : والى هذه الحقيقة يشير قوله : «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه» فهو تعالى - لكونه مالكا لكل شيء ، ومن جملتها الانسان ، ملكاً حقيقياً ، لامالك حقيقة سواء - كان أقرب اليه حتى من نفسه ومن قوى نفسه التي يملكها الانسان ، لأنه تعالى هو الذى ملكه اياها ، فهو الحائل المتوسط بينه وبينها ، اذا شاء ملكه اياها واذا شاء منعه منها . ولذلك عقبها بقوله : «وأنه اليه تحشرون» حيث الملك الحق لله وحده لا شريك له انما يتجلى ذلك اليوم ، وعنده يبطل كل ملك ظاهرى وتنقش كل سلطنة صورية ، «لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار - المؤمن : ١٦» «يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والامر يومئذ لله - الانفطار : ١٩» .

قال : فكأنه تعالى يقول : واعلموا أن الله هو المالك حقيقة لقلوبكم ، وانه اقرب اليكم من كل شيء ، وستحشرون اليه فتبدو لكم حقيقة ملكه وسلطانه الشامل فلا يفتنى عنكم منه شيء . وبذلك لا يدع مجالاً لأى اعتذار عن رفض الدعوة ، وعدم الاستجابة لله ولرسوله اذ ادعاهم لما يحييهم . لانه تعالى أقرب اليه من قلبه المعترف فى صميمه بالله وحده لا شريك له . فان كان يشك فى شيء فانه فى واقع فطرته لا يشك فى الله الواحد الذى هو رب كل شيء . ولن يضل فى معرفة هذه الحقيقة وتمييز كلمة الحق .

فاذا مادعه داعى الحق الى قبول كلمة الحق فلا عذر له فى ترك الاستجابة ، مادام قلبه معترفاً بها ، من غير أن يختلط عليه حقيقة الأمر أو يرتاب فى صميم الواقع كلا انها اجابة الى داعية الفطرة ، المنطوى عليها الضمير . وان كل ما يختلج قلبه من وساوس وشكوك فالتة سبحانه هو المتوسط بينها وبين وجدانه الأصيل ، الامر الذى لا يجعل للانسان سبيلا الى الجهل به تعالى أو الشك فى توحده .

وعليه فليس لأى انسان - تجاه دعوة الحق - أن يضمرفى قلبه ما يخالف لسانه ، لانه تعالى يعلم ما فى نفسه ، وسيحشره اليه فينبؤه بما انطوت عليه جوانحه «يومهم

بارزون لا يخفى على الله منهم شيء - المؤمن : ١٦ . «ولا يكتُمون الله حديثاً - النساء :

٤٢ .»

قال : وأيضاً فإن الله تعالى لما كان هو المالك لقلب الانسان ، الحائل بينه وبين قلبه ، كان تعالى هو المتصرف في قلب الانسان بما يشاء . فكل ما يجده الانسان من حالات نفسية : ايمان أو شك خوف أو رجاء . طمأنينة أو اضطراب مما ينتسب الى اختياره أو اضطرابه فان لها انتساباً آخر اليه تعالى لتصرفه بالتوفيق أو الخذلان وسائر أنواع التربية الالهية ، وان كانت تبعاتها متوجهة الى الانسان ذاته «والله يحكم لامعقب لحكمه - الرعد : ٤١ .» « له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير - التغابن : ١ .»

فمن الجهل أن يثق الانسان بما يجده في قلبه من إيمان حق أو نية حسنة أو همة الى صلاح وتقوى ، بأن يرى استقلاله بملك قلبه وقدرته الخاصة على التصرف كيف يشاء . فان القلب بين اصبعين من أصابع الرحمان يصرفه كيف يشاء . وهو المالك له حقيقة والمحيط به احاطة «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة - الانعام : ١١٠ .»

فأجدر بهذا الانسان أن يؤمن بالحق ، ويعزم على الخير ، ويلتزم الرشد ، لكن على مخافة منه تعالى أن يصرف قلبه من سعادة الى شقاء ، أو يحوِّله من استقامة الى انحراف ، فلا يأمّن مكر الله ، اذ لا يأمّن مكر الله الا القوم الخاسرون .

قال : وكذلك اذا وجد انسان من نفسه الاشمئزاز والنفرة عن قبول كلمة الحق أو رفض الخير والاعمال الصالحة ، فعليه أن يبادر الى استجابة الله ورسوله في الدعوة الى ما يحيى القلوب ، لأنه بهذه الحالة آخذ في موت قلبه ، فلا ينسلم لقيادة اليأس والقنوط . انه تعالى قادر على أن يحول حاله الى أحسن الحال ، فان رحمة الله واسعة والأمر اليه «انه لا يأس من روح الله الا القوم الكافرون - يوسف : ٨٧ .» «ومن يقنط

قال : فالآية الكريمة - كما ترى - من أجمع الآيات القرآنية شمولاً لاصول معارف الهية حقيقية ، جمعتها مسألة «الحيلولة» . انها تقطع عذر المتكاسل عن معرفة الله جلّت براهينه ، من جذوره . وتقلع غرة النفاق من اصولها . وتنبير على المسلمين الذين هم في طريق الايمان الصادق ، دريهم الى فهم حقيقة الامر بين الامرين ، لا استقلال بالذات والالغاء . ومن ثم فهم واقعون بين خوف ورجاء ، فلا اعجاب ولا غرور ولا يأس ولا قنوط .

قال : وبذلك نستطيع الجمع بين أقوال المفسرين التي هي بحسب ظاهرها متخالفة في تفسير الآية الكريمة . لكنها في حقيقة الامر متوافقة ، اذا مادققنا النظر في فهم مسألة «الحيلولة» بالذات^١ .

* * *

٧- اختلفت الروايات المأثورة عن أئمة المفسرين السلف في تخريج الآية الكريمة وتأويلها الوجه ، وهي كثيرة نذكر منها نماذج :

أ- روى أبو جعفر الطبري باسناده عن ابن عباس : «يحول بين الكافر والايمن وبين المؤمن والكفر» . وهكذا عن الضحاك : «يحول بين الكافر وطاعة الله ، وبين المؤمن ومعصية الله» .

هذا النمط من الروايات تؤيد مذهب الجبر ، على ما أسلفنا من كلام الفخر الرازي .

وحيث لا اكراه في الدين والالغاء في التكليف ، بصريح الكتاب وضرورة العقل الرشيد ، فان أمثال هذه الروايات ساقطة ، ولا سيما وانها غير مستندة الى نص معصوم .

١- السيد محمد حسين الطباطبائي - في تفسير الميزان ج ٩ ص ٤٤ - ٤٨ .

ب- وروى باسناده عن مجاهد: «يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل». وهذا النمط يقرب من اختيارنا بالذات حسبما أسلفنا في خامس الوجوه . وهو أقرب المعانى الى ظاهر اللفظ ، وتناسباً مع دلائل وقرائن موجودة فى نفس الآية .

ج- وروى عن السدى : «يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع ايماناً ولا كفرةً الاباذنه تعالى» .

د- وروى عن قتادة: «انه قريب من قلبه فيما يضر ، فلا يخفى عليه سر ولا اظهار ونحن أقرب اليه من جبل الوريد» .

وحاول الطبرى نفسه تعميماً فى مفاد الاية بما يجمع بين المعانى كلها . قال : «والأولى بالصواب عندى فى ذلك أن يقال : ان ذلك خبر من الله عز وجل ، أنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها اذا شاء ، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئاً ، من ايمان أو كفر ، أو يعى به شيئاً أو يفهم الاباذنه ومشيئته . وذلك أن الحؤول بين شىء وشىء انما هو المحجز بينهما ، واذا حجز -جل ثناؤه - بين عبد وقلبه فى شىء أن يدركه أو يفهمه ، لم يكن للعبد الى ادراك ما قدمع الله قلبه سبيل . واذا كان ذلك معناه دخل فى ذلك قول من قال يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والايمان . وقول من قال : يحول بينه وبين عقله . وقول من قال : يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر الاباذنه . لأن الله -عز وجل - اذا حال بين عبد وقلبه لم يفهم العبد بقلبه الذى قد حيل بينه وبينه ما منع ادراكه به ، على ما بينت» .

قال : « غير أنه ينبغى أن يقال : أن الله عمّ بقوله : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » الاخبار عن أنه يحول بين العبد وقلبه ، ولم يخص من المعانى التى ذكرنا شيئاً دون شىء . والكلام محتمل لكل هذه المعانى . فالخبر على العموم

حتى يعلم بالتخصيص^١ .

* * *

٥- وروى على بن ابراهيم القمى فى تفسيره عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام قال : « يحول بين المؤمن و معصيته التى تقوده الى النار . و يحول بين الكافر وبين طاعته أن يستكمل به الايمان . واعلموا أن الاعمال بخواتيمها^٢ . هذا فى المؤمن توفيق و تسديد ، رحمة من الله و لطفاً به . و فى الكافر خذلان و حرمان عقوبة بشأنه .

ويمكن تفسير الحديث بوجه آخر يلتئم مع ظاهر الجملة الأخيرة ، بأن يقال انه تعالى قد يحول بين المؤمن - الذى أعجبتة نفسه و غره ايمانه - وبين المعصية التى لم يكن يرتكبها من ذى قبل فيرتكبها فى مؤخرة حياته رغم ارادته ، لشهوة غلبته أو هوى نفس قادته الى الارتكاب . فتقوده تلك المعصية شيئاً فشيئاً الى النار . كما أن الكافر غير الآيس من رحمة تعالى قد يحول تعالى بينه وبين طاعة لم يكن يريدتها من ذى قبل ، فيمتثلها رغم ارادته ، لظروف ساعدته على هذا التوفيق و بذلك ينجذب شيئاً فشيئاً الى ما يستكمل به ايمانه فى نهاية الأمر . و من ثم قال الامام عليه السلام : واعلموا أن الاعمال بخواتيمها .

و- وروى أبو النضر محمد بن مسعود العياشى فى تفسيره عن الامام أبى عبد الله الصادق عليه السلام قال : « هو أن يشتهى الشئ بسمعه و بصره و لسانه و يده . و اما انه لا يغشى شيئاً منها و ان كان يشتهيه فانه لا يأتيه الا و قلبه منكراً لا يقبل الذى يأتى ، يعرف أن الحق ليس فيه^٣ .

لفظ الحديث مشوش و لم أجد من شرحه ، و ان كثر من نقله كالمجلسى فى البحار ، و البحرانى فى البرهان ، و الطباطبائى فى الميزان ، و الفيض فى الصافى ،

١- تفسير الطبرى (جامع البيان) ج ٩ ص ١٤٢-١٤٣ .

٢- تفسير القمى (ط النجف) ج ١ ص ٢٧١ .

٣- تفسير العياشى ج ٢ ص ٥٢ برقم ٣٧ .

وغيرهم .

وظاهره : أن الانسان قد يرغب في شيء من لذائذ المسموعات ، كالاستماع الى نغمات موسيقائية . أو المبصرات كالنظر الى الأجنى ، أو الكلاميات كالغيبة والفحش ، أو الجارحيات كالضرب واللطم والبطش المحرم ، لكنه مع ذلك ومع شدة رغبته فيه لا يقدم على فعله ، بل يتعاس عنه تقاعس المتخاذل الممنوع .

وانما ذلك حؤول لاشعورى بينه وبين مشتهياته النفسية ، كان لطفاً منه تعالى بشأنه ، بدليل أن الذى دعاه الى الاقدام ورغبه فيه كانت نفسه الامارة بالسوء . أما قلبه فقد أنكره وثبط من عزمه ، اذ قد عرف أن الحق ليس فيه .
هذا ما هدانى الله بتوفيقه الى شرح هذا الحديث الشريف .

ز- وروى عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام قال : « هذا الشيء ، يشتهي الرجل بقلبه وسمعه وبصره ، لانتوق نفسه الى غير ذلك . فقد حيل بينه وبين قلبه الا ذلك الشيء . »

أى الذى يرغب فى شيء خاص ولا رغبة له فى سواه ، فهذا هو الذى قد حيل بينه وبين غير ذلك الشيء ، ومن ثم لا رغبة له فى سواه . وقد فسر القلب فى هذا الحديث بالارادات والرغبات .

ح- وروى عن الامام الصادق عليه السلام قال : « لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً . ولا يستيقن أن الباطل حق أبداً . »

أى يحول تعالى بين الانسان وأن يخطأ فى ادراك الحق وتمييزه عن الباطل ، فلا يكاد يشبه الحق بالباطل على أحد أبداً . وهذا من لطفه تعالى بعباده ، حيث هداهم النجدين وأوضح لهم السبيل الى حق أو باطل .

وقد تقدم - فى الجزء الاول من الكتاب (ص ٤٩) - حديث الامام الصادق عليه السلام قال : « أبى الله أن يعرف باطلاً حقاً . أبى الله أن يجعل الحق فى قلب المؤمن باطلاً

لاشك فيه. وأبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر المخالف حقاً لاشك فيه. ولو لم يجعل هذا هكذا ما عرف حق من باطل». وقال: «ليس من باطل يقوم بازاء الحق الاغلب الحق الباطل. وذلك قوله تعالى: بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق - الانبياء: ١٨» .

ط- وروى عنه عليه السلام قال: «يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق». وهاتان الروايتان تضيفان وجهاً سابعاً الى الوجوه الستة التي تقدمت .

ى- وروى ابن بابويه الصدوق عن الامام الصادق عليه السلام قال: «يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق». وقال: «ان الله تبارك وتعالى ينقل العبد من الشقاء الى السعادة ولا ينقله من السعادة الى الشقاء ٢» .

وهذا الأخير اشارة الى قوله تعالى: «اللهولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور». أما الذى يخرج الكافر من السعادة-التي مهدها الله لجمع عباده بالبلاغ والاداء- الى ظلمات الفى والضلال ، فهو الطاغوت « والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات-البقرة: ٢٥٧» .
انه تعالى خير وجميل، ولا يريد الاخيراً وجماًلاً. «الله نور السموات والارض» ومن ثم فسرنا اضلاله تعالى بالمخذلان والحرمان مما استوجبه العبد على نفسه «مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا ناراً - نوح: ٢٥» .

تلك نماذج عشرة من أحاديث السلف بشأن تفسير الآية الكريمة . والآية تحتمل الجميع ، لان القرآن حمال ذو وجوه ، ولكل آية منه سبعة بطون من المعانى يعلمها اولوا البصائر فى الدين. ومن ثم لا اختلاف ولا تعارض بعد أن كان اللفظ فى تعبيره العام

١- تفسير العياشى - ط العلمية الاسلامية - ج ٢ ص ٥٢ - ٥٣

٢- تفسير البرهان للسيد البحرانى (ط قم) ج ٢ ص ٧١ رقم ٦

يحتمل الجميع . وان كان بالنظر الى موقعية الآية الخاصة لا يحتمل سوى وجه واحد
حسبما رجحناه .

* * *

٨١- «ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً - الانفال: ٤٢» . قالوا : انه يدل على
أن كل عمل يرتكبه العبد فانما هو بقضائه تعالى وتقديره ، لا ارادة للعبد فى ذلك ولا
اختيار .

والجواب : أناسنبحث عن مسألة «القضاء والقدر» فى فصل قادم ان شاء الله .
وان ليس ذلك سوى علمه تعالى القديم المتعلق بالأشياء قبل وقوعها ، من غير ان يكون
ذات تأثير فى تحققها خارجياً .

ثم ان ذيل الآية يتنافى صريحاً مع ما أراده هؤلاء من الجبر على الاعمال ، قال
تعالى - بعد ذلك - : «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وان الله لسميع
عليم - ٤٢» .

أى ليكون ضلال من ضل ، باختياره بعد وضوح الحق لديه . وهكذا هداية
من اهتدى تكون عن اختياره ، لا جبر ولا اكراه ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
الرسال .

وهكذا ماجاء بعد عدة آيات : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام
للعبيد - ٥١» . صريح فى الاستطاعة والاختيار .

٨٢- «هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم - الانفال: ٦٢» .
هذا تأييد وتوفيق وليس بالمبتدأ به .

٨٣- «والله لا يهدى القوم الظالمين - براءة: ١٩» . «والله لا يهدى القوم الفاسقين
- ٢٤» . «والله لا يهدى القوم الكافرين - ٣٧» . تلك هداية توفيق وتسييد منحها
للمؤمنين ممن جاهدوا فى لقاء ربهم . ومنعها المردة العتاة ممن حرموا بأنفسهم تلقى

٨٤- «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا - براءة: ٤٠» .
هذه الآية الكريمة عبارة اخرى عن قولهم : «الحق يعلو ولا يعلى عليه» . قال الامام
الصادق عليه السلام : ليس من باطل يقوم بازاء الحق إلاّ اغلب الحق الباطل . ثم تلا : « بل
نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق - الانبياء : ١٨ » . وهذا من لطفه
تعالى بعباده ، لئلا يشبهه حق بباطل أبداً . وقد تقدم بعض الكلام في ذلك .

٨٥- «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم
- براءة : ٤٦ » .

هم المنافقون كذبوا في دعواهم الرغبة في الخروج مع الرسول عليه السلام وانما هو
تقاعس عن الجهاد ومراوغة خبيثة ، ومن ثم كان الأفضل أن لا يخرجوا ، لانهم لو
خرجوا ما زادوكم الاخبالا واضطراباً في صفوفكم ، قلم يوفقههم الله لهذه المكرمة ،
جزاء لنفاقهم ، ورحمة بالمؤمنين .

٨٦ - « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولينا وعلى الله فليتوكل المؤمنون
- براءة : ٥١ » . اي لن يصيبنا من الشدائد والبلايا والمصائب والآلام ، سوى ما قدره
الله تعالى لنا في هذه الحياة ، اختباراً وبلاء لانفسنا .

وليس المراد من ذلك هو سيئات اعمال اكتسبناها بايدينا - كما زعمه الاشعري -
وذلك بدليل الآية قبلها : « ان تصيبك حسنة تسؤهم وان تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا
أمرنا من قبل » اذ المقصود من الحسنة الظفر والغنيمة ، ومن المصيبة : الانكسار والهزيمة .
وللاية نظائر ، منها قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم
الا في كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا

١- راجع : محاسن البرقي - كتاب مصابيح الظلم - رقم ٣٩٥ ص ٢٢٢ .

تفرحوا بما آتاكم - الحديد : ٢٢-٢٣ . وقوله : «مأصاب من مصيبة الابدان الله .
ومن يؤمن بالله يهد قلبه - التغابن : ١١» .

٨٧- «فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم ، انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة
الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كفرون - براءة : ٥٥» .

هذا هو الاستدراج الذى سنبحث عنه . وهى عقوبة عاجلة ينالها المعاندون
مع الحق ، فلاتصيهم محنة ولا ألم فى هذه الحياة ، تلك المحنة التى كانت ابتلاء
للمؤمنين وامتحاناً لمبلغ صبرهم فى جنب الله . وذلك أنها لاتنفع هؤلاء الذين مروا
على العتو والطغيان ، ولا يثنيهم عن مسير الغى والجهالة شىء .
والخلاصة : انهم لسوء اختيارهم فى الحياة استوجبوا حرمان رحمة تعالى
ولطفه الخاص بالمؤمنين .

٨٨- «فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم الى يوم يلقونه - براءة : ٧٧» .
الضمير يعود الى سوء صنيعهم الذى جاء فى الآيات قبلها . قال تعالى : «ومنهم
من عاهد الله لئن آتينا من فضله (اى الثروة) لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما
آتيهم من فضله بخلوا به (فلم تطاوعهم نفوسهم فى الصرف فى سبيل الله وأداء الواجب
من الحق المفروض عليهم) وتولوا وهم معرضون (عن تذكير الله اياهم) ٧٥-٧٦» .
فأورثهم ذلك نفاقاً فى قلوبهم باظهار الاسلام وابطان الكفر بحدوده وتكاليفه .
ومن ثم جاء التعقيب بقوله : «بما أخلفوا الله ما وعده وبما كانوا يكذبون - ٧٧» .

٨٩- «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون - براءة : ٨٧» كناية عن حالة الجفاء
التي كانت قد عرضت نفوسهم على اثر الاعراض عن ذكر الله ، والصمود على الغى
والنفاق . وهو نظير قوله تعالى : «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - المطففين :
١٤» . الرين : الصدأ . كأنه صدأت قلوبهم وزال صقلها وصرافها على أثر الخطيئات
التي ارتكبوها .

٩٠- وهكذا قوله تعالى : « وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون - براءة : ٩٣ » .

٩١- « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون - براءة : ١٢٧ » . هذا هو الخذلان ، عقوبة عاجلة لمن أعرض عن ذكر الله وعاكس فطرته في اتجاه المسير « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - الصف : ٥٠ » . « وجزاء سيئة سيئة مثلها - الشورى : ٤٠ » .

ووجه آخر : ان هذه الجملة دعاء على المنافقين ازاء اعراضهم عن القرآن . نظير قوله تعالى : « قاتلهم الله انى يؤفكون - براءة : ٣٠ » وغيرها وهى كثير فى القرآن .

٩٢- « يفصل الآيات لقوم يعلمون - يونس : ٥٠ » . « لآيات لقوم يتقون - ٦ » وأمثال ذلك ، قد تقدم الكلام فيها عند قوله : « هدى للمتقين - البقرة : ٢ » . حيث المقصود : انهم هم الذين ينتفعون بها اعظم نفع .

٩٣- « فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون - يونس : ١١ » خذلان وعقوبة عاجلة ازاء صمودهم على النكران والعناد مع الحق الصراح .

٩٤- « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون - يونس : ١٢ » . زين لهم الشيطان « وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون - الانعام : ٤٣ » . بل سولت لهم أنفسهم من بعد ما تبين لهم الهدى فسول لهم الشيطان وأملى لهم ' ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا وما بأنفسهم - الرعد : ١١ » .

٩٥- « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون - يونس :

١- مقتبس من قوله تعالى : « ان الذين ارتدوا على اذارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم واملى لهم - سورة محمد : ٢٥ » .

١٩. «أى لولا أنه تعالى علم أن الصلاح فى التكليف هو الامهال وافساح المجال تجاه اختيار المكلفين ، لحكمة الاختبار والابتلاء ، لقضى عليهم بانزال العقوبة العاجلة.

٩٦- «هو الذى يسير كم فى البر والبحر - يونس : ٢٢» . أى جعلكم بحيث تستطيعون السير فى البر والبحر ، حسبما تقدم التحقيق فى اسناد الحوادث والمولدات اليه تعالى^١

٩٧- «والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم - يونس : ٢٥» . أى يزيد فى هداية من اهتدى توفيقاً وتسديداً الى الحق والصواب.

٩٨- «كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون - يونس : ٣٣» . هذا اخبار عن واقعية مرة ، أى ولقد صح هذا الاخبار عن حالة الفاسقين التعنتية ، والمقاومة العنيفة تجاه قبول الحق الصريح . وليس فى الآية أنه تعالى ألجأهم على الكفر والفسوق . اذ لا يلتم الالغاء مع توبيخهم على الجموح الذى جاء فى الآية قبلها : « فذلکم الله ربکم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تصرفون - يونس : ٣٢ » . فهو اخبار عن علم لا القضاء عليهم بالكفر . وستجىء نظيرتها برقم : ١٠٢ .

٩٩- «ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر اليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون - يونس : ٤٢ - ٤٣» .

أى انهم وان كانوا يصغون اليك بأذانهم ، إلا أنهم لا يعون شيئاً من كلام الحق ، كما أنهم وان كانوا ينظرون اليك بعيونهم ، إلا أنهم لا يبصرون شيئاً من آياته تعالى . اذ لا عبرة بالأذان والعيون اذ لم يكن ادراك بالقلب ، الأمر

١- راجع صفحة : ١٧٧ فما بعد . و صفحة : ١٨٣

الذى لا يملكه هؤلاء المنافقون . حيث الخطايا والآثام حالت بينهم وبين قلوبهم ،
فهم لا يفقهون .

١٠٠ - « ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين - يونس : ٨٥ » . أى سدّد خطانا
ووقفنا على مواكبة الحق فى طول المسير ، كى لانحرف ولانزلق الى مهاوى
الضلال ، فنكون عبرة للظالمين . فهذا طلب توفيق من الله ليؤيدهم على تجنب
الباطل ومخالفة الهوى طول الحياة .

١٠١ - « وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالاً فى الحياة
الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك - يونس : ٨٨ » . ليست اللام - هنا - للغاية ، وانما
هى لام العاقبة ، كما فى قوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً - القصص :
٨ » . اى ربنا انك أمليت لآل فرعون واستدرجتهم بالترفيه عليهم فى هذه الحياة ،
عقوبة عاجلة ازاء تمردهم عن منهج الهدى والصلاح ، لكنهم استغلوا هذا الامهال
والافساح فى اضلال عبادك ، والافساد فى الأرض . ومن ثم دعا عليهم بزوال تلك .
النعم وأخذهم اخذ عزيز مقتدر . « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم
فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم - ٨٨ » . أى انهم مع ذلك لا يؤمنون الا اذا عاينوا
الموت وأيقنوا بالهلاك .

وقد استجاب الله هذا الدعاء اتماماً للحجة عليهم ، وبالفعل قد تحقّق تنبؤ
موسى عليه السلام بعدم الفائدة . قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من
الثمرات لعلهم يذكرون - الاعراف : ١٣٠ » . وقال تعالى : « قد اجيبت دعوتكما
فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون . وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم
فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى اذا ادركه الفرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى
آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من
المفسدين - يونس : ٨٩ - ٩١ » . « فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا - غافر :

٨٥- «ولست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن - النساء : ١٨» .

١٠٢ - «ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون - يونس : ٩٦» . وقد تقدم الكلام فى نظيرتها برقم : ٩٨ . انها اخبار عن علم ، لاحكم بالقضاء . بدليل النهى عن التكذيب بآيات الله فى الآية قبلها : «ولاتكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين - ٩٥» .

١٠٣ - « ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً - يونس : ٩٩ » . تقدم أن المشيئة فى مثلها تكوينية ، أى لو شاء إلهائهم على الايمان لفعل ، لكنه تعالى أراد الاختبار فى التكليف ، ومن ثم أفسح لهم مجال الاختيار . واما الهداية التشريعية فقد شاءها الله لكافة الناس « وان من امة الا خلافيها نذير - فاطر : ٢٤ » .

١٠٤ - «وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله - يونس : ١٠٠» . تقدم (ص ١٨٢) ان الاذن تعبير عن ارادته تعالى الحادثة ، التابعة لارادة العباد، سنة الله التى جرت فى الخلق ، فما يريد العباد ايجاده فان الله يأذن فى تحققها وفق ما يريدون ، تحقيقاً لاختيارية الافعال ، وليصح التكليف والاختبار .

ومعنى الآية : ان ايمان المؤمن متوقف على مقدمات يمهداها الله تعالى بلطفه وتوفيقه ، ولولا توفيقه تعالى بدءاً وختماً ، لم يستطع أحد ان يبلغ الهداية الحقة ، أو يهتدى الى المحجة البيضاء بين محتلكات المسالك فى هذه الحياة «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله - الاعراف : ٤٣» .

١٠٥ - «ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون - هود : ٢٠» . قالت الاشاعرة : الآية تدل على أنه تعالى هو الذى لم يقدر الكافر على الايمان ، فلم يستطع

السمع ولا تمكن الابصار .

والجواب : أن هذه الآية توبيخ ولا توبيخ على العاجز . بل الذى حجز قلوبهم دون نفوذ الحق فيها ، هو القسوة والجفاء الذى اكتسبته قلوبهم على اثر الخطايا والذنوب ، فصددهم عن ذكر الله «الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً - الكهف : ١٠١» .

ذلك ان المؤمن - حيث رغبته فى الاهتداء - يستطيع ان يستمع الى دلائل الهدى والارشاد ، بسهولة ويسر . وأما الفاسق العاتى ، فان نفسه لاتطويعه للانصات الى دعوة الحق ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

١٠٦- «ولا ينفعكم نصحى إن اردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هوربكم واليه ترجعون - هود : ٣٤» .

الاغواء فى هذه الآية هو الخذلان وسلب التوفيق على اثر معاندتهم مع الحق ، ومتى بلغ الانسان هذه المرتبة من الجفاء العارم ، وسلب عنه التوفيق بما كسبت يداه ، فلاموضع فى قلبه لىفأذالنصح والارشاد . فمعنى «يريد أن يغويكم» : «لا يريد أن يهديكم» لعدم صلاحية فى المحل وعدم استعداده للتلقى والقبول .
والدليل على ذلك قولهم : «بانوح قد جدالنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين - ٣٢» . فهذا من التعنت واللجاج تجاه الحق بما يجعل تأثير الدعوة فيهم مستحيلا .

١٠٧- «فمنهم شقى وسعيد - هود : ١٠٥» . الشقاء والسعادة فى الآية بمعنى الضيق والسعة ، فالكافر ذاك اليوم مضيق عليه فى شدة وألم دائم . والمؤمن موسع عليه فى رفاة وسرور مستمر .

١٠٨- «ان ربك فعال لما يريد - هود : ١٠٧» . الارادة - هنا - تكوينية وهى لاتتخلف عن المراد ، حسب ما اسلفنا توضيحه سابقاً (ص ١٦٧) .

١٠٩- «ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة . ولايزالون مختلفين الامن
رحم ربك . ولذلك خلقهم . وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين-
هود : ١١٨ - ١١٩» .

أى «ولو شاء ربك»-بمشيئة تكوين-«لجعل الناس امة واحدة» برفع اختلاف
نزعاتهم وأهوائهم واتجاهاتهم . وذلك بالجائهم على طريقة واحدة مسيرين عليها
جبراً فى نظام رتيب كعيشة النمل والنحل .

وهذا كقوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم
أجمعين - النحل : ٩٠ . وقوله : «ألم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس
جميعاً - الرعد : ٣١» .

ولكنه تعالى لم يشأ ذلك بشأن الانسان الذى منحه العقل والكفاءة والعبرة
ليقوم هو بتكفل شخصيته وتكوين ذاته الكريمة المفضلة على سائر المخلوقين .
«و» من ثم «لايزالون مختلفين» فى الأهواء والنزعات، دارتنازع فى البقاء .

«الا من رحم ربك» من عباده المخلصين ساروا على نهج واحد مستقيم ، فى وحدة
متماسكة ، لاختلاف بينهم ولاتجاذب فى مطالب الحياة ، انهم عثروا على ناموس
السعادة وسر النجاة ، هداهم اليه ربهم برحمة منه وفضل «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل
لم يمسسهم سوء - آل عمران : ١٧٤» . «فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من
الحق باذنه - البقرة : ٢١٣» . «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً . والذى
اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا
فيه - الشورى : ١٣» . «وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق
بكم عن سبيله - الانعام : ١٥٣» .

«ولذلك خلقهم» أى لأن تسعهم رحمة الواسعة وفضله الشامل ، فى ظل حياة
سعيدة وهنيئة متماسكة ، لاتعب فيها ولا نصب ، لاتشاحن فيها ولا تطاحن ولا عطب .
«يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد - غافر : ٣٨» . «وأن لو استقاموا على الطريقة

لأسقيناهم ماء غدقاً - الجن : ١٦ .

ولكن تلك ارادته تعالى التشريعية تخلفت عن المراد ، انهم فسقوا عن أمره تعالى فاستحقوا نار جهنم « وتمت كلمة ربك » أى صدق علمه السابق بشأن عصيان الانسان «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» بسبب فسوقهم وعصيان أمر ربهم العزيز القهار .

١١٠- « واليه يرجع الأمر كله - هود : ١٢٣ » . أى هو منتهى كل مقصود وغاية كل مأمول . منه المبدأ واليه المعاد . «انا لله وانا اليه راجعون - البقرة : ١٥٦» . «ألا الى الله تصير الامور - الشورى : ٥٣» . «يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد - فاطر : ١٥» . الى غيرها من آيات كلها تهدف شيئاً واحداً : انه تعالى هو الغنى بالذات المفتقر اليه سائر الموجودات « كل ما بالغير لا بد أن ينتهى الى ما بالذات » وفق قانون احتياج الممكن الى الواجب ، وهو الله الواجب الوجود ، الامر الذى لاصلة بينه وبين سلب قدرة العباد على الايمان والعصيان ، كما يرومه الأشعري واذنابه وقد تقدم (ص ١٧٧) البحث عن وجه انتساب الافعال الاختيارية الى الله ، والى العباد انفسهم بالذات ، فى لحاظين وباعتبارين ، فراجع .

١١١- « كذلك لنصرف عنه السوء - يوسف : ٢٤ » بالتوفيق والتسديد ، وهو مزيد لطف وعناية يختص به عباده المكرمين ممن حاولوا الجهد فى سبيل هديه تعالى «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتيهم تقويمهم - سورة محمد : ١٧» .

١١٢- «والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن - يوسف : ٣٣» . ابتهاج الى الله ان يمن عليه برحمته الخاصة فيوفقه على اجتتاب معاصيه مزيداً من قوة ايمانه الراسخ «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن - ٣٤» حيث صدقه فى الطلب واخلاصه فى الاجتهاد الى رضوانه تعالى .

١١٣- «الامارحم ربي - يوسف : ٥٣» بشمول توفيقه ومزيد عنايته الخاصة

١١٤- «ان الحكم الله - يوسف : ٦٧» . تقدم نظيرها برقم : ١١٠ .

١١٥- «واذا أراد الله بقوم سوءاً فلأمرده - الرعد : ١١» . تلك ارادة تكوينية بنزول العقوبة بعدما سجلت عليهم اللعنة وسوء العذاب، وذلك بما أغلقوا هم على أنفسهم أبواب رحمة تعالى فلأمنفذ اليهم أبدأ . بدليل صدر الآية «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم» ، فلا تتغير حالة سعادة الى حالة شقاء الا اذا كانوا هم مهتدوا والسبيل الى احدهما بالذات .

١١٦- «ولله يسجد من فى السموات والارض طوعاً أو كرها - الرعد : ١٥» . السجود هنا هو الخضوع والاستسلام المحض لفرامينه تعالى . فكل ما بالوجود من جماد وذى حياة ، هورهن قوانين وأنظمة وأحكام ان طبيعية كانت - كما فى الجماد والنبات وأكثر الحيوان - أو تشريعية ، كما فى الانسان فيما يخص جانب تكاليفه ووظائفه الوضعية . والاستسلام طوعاً ينظر الى هذا النوع الأقل . وكرهاً الى النوع الاكثر . ولذلك جاء فى بقية الآية : «وظلالهم بالغدو والآصال» يعنى حتى الظلال خاضعة لنظمه تعالى صباحاً ومساءً . وجاء فى سورة النحل ٤٨- «أولم يروا الى ما خلق الله من شىء يتغيؤ ظلاله عن اليمين والشمال سجداً لله وهم دائرون» . والآية نظيرتها فى سورة الحج : ١٨- «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب» (الى هنا كان السجود قهرياً وطبيعياً على حد تعبيرنا) «وكثير من الناس» (وهو خضوع اختياري لم يقم به جميع بنى الانسان ومن ثم هذا التعبير) «وكثير» (من الناس) «حق عليه العذاب» (بسبب امتناعه عن الاستسلام لقيادته تعالى) .

١١٧- «قل الله خالق كل شيء - الرعد : ١٦». تقدم الكلام فيه بتفصيل^١.

١١٨- «لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً - الرعد : ٣١» تقدم الكلام فيه أيضاً

برقم : ١٠٣ و ١٠٩ .

١١٩- « لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم - ابراهيم : ١ » .

اذلايقع شيء في الوجود الا باذنه تعالى، حتى ولو كانت أفعالا اختيارية واقعة تحت ارادة فاعليها. فانها أيضاً لا تتحقق الا من بعد اذنه تعالى. وهى ارادته الحادثة المتعلقة بتحقيق الأشياء وفق سنن وعوامل أودعها الله فى طبيعة هذا الكون. وقد تقدم تحقيقه فى مسألة الأمر بين الأمرين وغيرها من مسائل مرتبطة بالموضوع . ونظيرها الآية : ١٦ من سورة المائدة . وقد تقدمت.

١٢٠- «يفضل الله من يشاء ويهدى من يشاء - ابراهيم : ٤». تقدم فى غير موضع

أن الهداية فى مثلها توفيق وتسديد . والاضلال خذلان وحرمان ، وفق ما استعدوا بأنفسهم من تلقى الدعوة ورفضها .

١٢١- «ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده - ابراهيم : ١١» وذلك باجتنابه

نبياً مرسل الى الناس ، لما وجد فيه من استعداد وصلاحية القيام بهذه المهمة العظمى . وليس اعتباراً فى الاختيار .

١٢٢- «ومالنا ان لانتوكل على الله وقد هدينا سبلنا - ابراهيم : ١٢» . هذه قولة

الشاعر لأنعم الله، الواعى لعظيم لطفه تعالى بعباده ، وأجدر بها من نعمة كبرى أن

١- راجع : مسألة التوحيد فى الأفعال ص ١٧٢ . ومسألة الأمر بين الأمرين ص ١٧٣

١٨١- . ومسألة ارادة الله الحادثة ص ١٨٢ . ومسألة انتساب الحوادث الى الله ص ١٨٣ .

واخيراً نفس الآية وما شاكلها ص ١٨٥- ١٨٧ . و ص ١٩٠- ١٩١ .

هداهم النجدين ، وهداهم السبيل . ولزم على نفسه المزيد من الطافه انهم أجابوا دعوته وأسلموه قيادتهم . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم - المائدة : ١٦ » .

١٢٣- « قالوا لو هدينا الله لهديناكم - ابراهيم : ٢١ » تلك قولة المستكبرين ، زعموا انه تعالى خذلهم واضلهم عن سواء السبيل، وذهب عنهم انهم هم كانوا السبب في هذا الحرمان والخيبة عن رضوانه تعالى . « انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون - الانعام : ٢٤ » .

ومن ثم كذبهم الشيطان في هذا الزعم الباطل « وقال الشيطان لما قضي الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى ، فلاتلومونى ولوما أنفستكم ما انا بمصرخكم وما اتم بمصرخى انى كفرت بسما أشركتمون من قبل - ابراهيم : ٢٢ » . وهكذا كذبهم الله فى آية اخرى نظيرتها : « وقالوا لوشاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم انهم الايخرون - الزخرف : ٢٠ » .

١٢٤- « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ويضل الله الظالمين - ابراهيم : ٢٧ » .

هذا هو التوفيق الربانى الذى يمنحه لعباده المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا « يهديهم ربهم بايمانهم - يونس : ٩ » . كما هو خذلان للذين سعوا فى آياته معاجزين « اولئك لهم عذاب من رجز اليم - سبأ : ٥ » .

١٢٥ - « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره - ابراهيم : ٣٢ » أى باذنه . وقد تقدم وجه انتساب الأفعال مطلقاً الى الله حتى ولو كانت اصطناعية واختيارية

صادرة عن ارادة العباد بالذات .^١

١٢٦- «واجبى وبنى ان نعبد الأصنام - ابراهيم: ٣٥» . ابتهال اليه تعالى أن يمنحه التوفيق والتسديد ، والمزيد من عناية أطفاه الخاصة بالمؤمنين .

١٢٧- وهكذا قوله : «رب اجعلنى مقيم الصلوة ومن ذريتى - ابراهيم : ٤٠» .
أى ثبتنى على القول الثابت فى الحياة الدنيا . فهو سؤال التوفيق وتأييده على الاستقامة والثبات . راجع الرقم ١٢٤ .

١٢٨- «وان من شىء الاعندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم - الحجر : ٢١» .
قالت الأشاعرة ومن على شاكلتهم من مجبرة الاسلام : ان هذه الآية تدل على أن المعاصى من عند الله .

والجواب : أن المراد بالآية هى رحمته تعالى وبركاته على الارض ، بدليل تمام الآية :

«والارض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ، ومن لستم له برازقين . وان من شىء الاعندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه ، وما انتم له بخازنين - الحجر : ١٩ - ٢٢» .

وأين هذا من أفعال العباد ، فضلاً عن الآثام التى يرتكبونها ، مما قد نهى الله ؟!
كيف يجبرهم على المعصية وهو ينهاهم عنها ويعاقبهم عليها ، انها نعمة لاتناسب بينها وبين فحوى الآية التى هى بصدد تعداد نعمه تعالى على الانسان .

١٢٩ - « قال رب بما أغويتنى لآزبن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين - الحجر : ٣٩» . تقدم الكلام فى نظيرتها من سورة الاعراف : ١٦ . وكأن الاغواء

١- راجع مسألة «انتساب الحوادث الى الله» ص ١٨٣

- انصح التعبير - بمعنى الخذلان وعدم المزيد من عنايته الخاصة . والافكيف التوفيق
بينه وبين ذمه تعالى لابليس في امتناعه عن السجود لآدم واستكباره عن أمر ربه !؟

١٣٠- «ونزعنا ما في صدورهم من غل، اخواناً على سرر متقابلين - الحجر :
٤٧ . تلك مثوبة رحمانية تطهر قلوبهم عن أدران منافسات دنيوية لامجال لها في دار
الآخرة ، «وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً - الانسان : ١٢» .

١٣١- «الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين - الحجر : ٦٠ . أى علمنا في
الازل أنها من الباقيين الهالكين ، فهو اخبار عن واقع قبل وقوعه ، وليس قضاء عليها
بالجبر رغم ارادتها ، بدليل آيات غيرها كان التعبير فيها مجرد اخبار عن واقعية
مرة «فأنجيناه وأهله الامرأته كانت من الغابرين - الأعراف : ٨٣» - «لننجينه
وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين - العنكبوت : ٣٢» - «اذنجيناه وأهله أجمعين
إلا عجوزاً في الغابرين - الصافات : ١٣٥» . نعم جاء التعبير في سورة النمل - ٥٧ -
بمثل التعبير في سورة الحجر .

١٣٢- «وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين - الحجر :
٦٦ . أى أعلمناه وأخبرناه به . ويطلق القضاء على الاخبار بالحثم ، لأنه في اللغة
بمعنى الفراغ من الشيء والبلوغ نهايته . فناسب اطلاقه على كل أمر قاطع للشك ،
كالخبر الحتم ، اورافع للنزاع ، كحكم القاضى العدل . ومن ثم يطلق على انقضاء
الأجل بالموت ايضاً . وقد جاء جميع هذه الاستعمالات في القرآن بكثير .

١٣٣- وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين - النحل :
٩ . هذه الآية الكريمة تعنى هدايته تعالى العامة ، الشاملة للخلق كلهم : «ان علينا
للهدى - الليل : ١٢» . «الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى - طه : ٥٠» .
«وهديناه النجدين - البلد : ١٠» . «انا هديناه السبيل اما شاكر أو اما كفوراً - الانسان :

٣ . الى غيرهن من آيات تدل على أنه تعالى تكفل لهذا الانسان هدايته الى طرق
الصلاح والفساد ، وان كان قد أمره باتباع طرق الخير والنجاح .
فعليه تعالى أن يهدى قاصد السبيل اطلاقاً ، غير أن منها جائز أنها عن اتباعها
وان كان قد أقدر على الاختيار لحكمة التكليف والاختيار .
اما الجملة الأخيرة « ولو شاء لهداكم اجمعين » فقد تقدمت وتقدم الكلام في
نظائرها . راجع الفقرة : ١٠٣ و ١٠٩ .

١٣٤- « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا
آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء - النحل : ٣٥ » .
احتج الأشعري بما حكاه تعالى عن المشركين ، فيما زعموا من الجائهم
على الكفر ، حسبما زعمه الأشعري أيضاً خلفاً عنهم . وقد تقدم نظير الآية برقم :
١٢٣ ص ٢٦٣ .

وقد كذبهم الله على هذه المزعومة في آية اخرى نظيرتها : « وقالوا لو شاء
الرحمان ماعبدنا هم مالهم بذلك من علم ان هم الايخرون - الزخرف :
٢٠ » . « انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون - الانعام : ٢٤ » .

١٣٥ - « ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً منهم أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت .
فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة - النحل : ٣٦ » .
أى فمنهم من استجاب لدعوة الحق فهداه الله الى سبل السلام . ومنهم من رفض
الدعوة وأعرض عن قبول الحق ، فخذلهم الله وتركهم في ظلمات النى يعمهون ، ومن
ثم تمكن الضلال من قلوبهم فأصمهم وأعمى أبصارهم فلا يفقهون شيئاً ولا يعقلون .

١٣٦- « ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل - النحل : ٣٧ » .
هذا تيسر للنبي - ﷺ - وأن هؤلاء قد حقت عليهم الضلالة وبذلك قد سدوا

على أنفسهم المنفذ الى الهدى. مما خطبنا بهم اغرقوا فادخلونا ناراً - نوح: ٢٥. ونظيرتها قوله تعالى: «انك لا تهدي من أحببت (ممن فصلته عنك خطيئته التي احاطت من كل الجوانب - انك لا تسمع الموتى - فلم يستعد بنفسه لقبول نصيح او ارشاد) ولكن الله يهدي (بتوفيقه وألطافه الخاصة) من يشاء - القصص: ٥٦» ممن استوجبوا لانفسهم التأييد والتسديد وجاهدوا في الله حق جهاده .

١٣٧- «وما بكم من نعمة فمن الله - النحل: ٥٣» . قالوا: وهذا يدل على أن الايمان - وهو من أكبر النعم - من عند الله .

قلنا: نعم ، ولكن لادلالة فيها على أنه كان بالالغاء . بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان - الحجرات: ١٧ . ولم يقل: انه ألجأهم على الايمان من غير أن يكونوا على اختيار في الرفض والقبول .

وقد تقدم الكلام عن مراحل الهداية ، منها مرحلتان تكوينيتان سبقتا مرحلة الهداية التشريعية الواقعة تحت اختيار المكلفين في القبول والامتناع . في حين انها بجميع مراحلها نعمة كبرى من عند الله العزيز الحكيم .

١٣٨- «ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء - النحل: ٧٥» . قالوا: وهذا - أيضاً - يدل على نفى الاستطاعة وأن لا قدرة للعباد على الاختيار .

قلنا: هذا نفى لقدرة تشريعية فيما لم يخوله مولاة . وليس نفياً لمطلق قدرته على شيء . فهلا كان العبد المملوك غير قادر على المشي والتكلم والاختيار والارادة فيما يخص من أفعاله الخاصة؟! .

نعم هو غير متمكن تشريعاً من تصرفات مالية وفيما يخص شؤون مولاة . الأمر الذي لانكره بشأن العبيد الحقيقيين تجاه المولى الحقيقي الكريم .

١٣٩- « ولو شاء لجعلكم امة واحدة . ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء

- النحل: ٩٣. تقدم نظيرها في عدة مواضع^١. انها مشيئة تكوينية لم بشأها الله بشأن المكلفين . لتنا فيها مع حكمة التكليف والاختبار .

ولكن يضل - بالخذلان - من يشاء - ممن استوجب لنفسه الحرمان - ويهدى - بالتوفيق والتسديد - من يشاء من استحقوا مزيد عنايته تعالى بفضل جهادهم في سبيل الله .

١٤٠- « ان الذين لا يؤمنون بآيات الله (باصرارهم على منابذة الحق) لا يهديهم الله (بتوفيقه والمزيد من ألطافه الخاصة) - النحل : ١٠٤ » . حيث لم يدعوا مجالاً لشمول عنايته تعالى اياهم ، وألقوا بأنفسهم الى التهلكة .

١٤١- « وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً - الاسراء : ٤ » .

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم ، حسب ما وقع في علمه الأزلي من مآلهم ، لأنه قضاء قهري عليهم تنشأ منه أفعالهم . فالله سبحانه لا يقضى بالافساد على أحد « قل ان الله لا يأمر بالفحشاء - الاعراف : ٢٨ » . وما سيكون فهو بالنسبة الى علمه تعالى كائن ، وان كان بالقياس الى علم البشر لم يكن بعد ولم يكشف عنه الستار . ومن ثم عبر بالقضاء وهو الابرام القاطع .

١٤٢- « بعثنا عليكم عباداً لنا اولى بأس - الاسراء : ٥ » . اى هم انبعثوا بارادتهم الخاصة . وأما النسبة الى الله فلائه مودع القوى المحركة في هذا الكون ، ولا يزال يفيض عليها بالامداد على طول البقاء . وقد تقدم الكلام في ذلك بتفصيل^٢ وقال بعضهم : انه تعالى خلى بينهم وبين القوم ولم يمنعهم من محاربتهم ، الأمر الذى يعبر عنه باذنه تعالى فى الامور ، ومن ثم جاز أن يقول : بعثنا . كما قال : انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا - سورة مريم : ٨٣^٣ .

١- راجع بالخصوص الفقرة ، ١٠٣ و ١٠٩ و ١١٨ .

٢- راجع صفحة : ١٨٣ .

٣- مشابهاً للقاضى ج ٢ ص ٤٥٧ نهاية الفقرة : ٤١٦ .

١٤٣- «وكل شيء فصلناه تفصيلاً - الاسراء : ١٢» قالوا : انه يدل على أنه تعالى هو الفاعل لكل شيء .

قلنا : انه تفصيل لآيات الكون ومظاهره الطبيعية ، وهي تجرى على سنن ونظم رتيب لا عوج فيه ولا اختلاف .

أما ما يرجع الى أفعال الانسان الاختيارية فهي الآية بعدها : «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً : ١٣ - ١٤» . فلولأنه المسؤول عن افعاله ، وانه مختار في فعل ما يريد وترك ما يكره ، لما كان لمثل هذا الكلام في مثل هذه اللهجة المهدة موضع صحيح .

ولاسيما وتعقيبها بآية هي اشد صراحة في مسؤولية الانسان ذاته عما يرتكبه من أعمال : «من اهتدى فانما يهتدى لنفسه . ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر اخرى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا - ١٥» .

* * *

١٤٤ - «واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً - الاسراء : ١٦» .

وقد قامت الاشاعة حول هذه الآية الكريمة وقعدت وطبلت وزمرت ، زاعمة صراحتها في أنه تعالى هو الذي يريد الكفر والفسوق ويأمر بهما لغرض هلاك من يريد اهلاكه ابتداء ومن غير ما سبب مبرر^١ .

والجواب : أولاً - وقوع هذه الآية أثر الآية المتقدمة الصريحة في اختيار العباد وتحملهم المسؤولية ، مما يحتم توجيه هذه الى ما يلتزم مع قرائنها والالوجد معارضوا القرآن الى اختلاف آياته سبيلاً .

١- سننقل نص كلامهم في تأويل الآية - وفق مذهبهم في الجبر - عن الرازي في تفسيره في التعليق الاتي .

قال الكعبي : ان سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يتبدىء بالتعذيب والهلاك ،

لقوله : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - الرعد : ١١» .

وقوله : «ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم و آمنتم - النساء : ١٤٧» . وقوله : «وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون - القصص : ٥٩» . فكل هذه الآيات تدلّ على أنه تعالى لا يتبدىء بالاضرار . وأيضاً ما قبل هذه الآية يدلّ على هذا المعنى ، وهو قوله : «من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر اخرى - الاسراء : ١٥» . ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض . فثبت أنّ الآيات التي تلونها محكمة ، وكذا هذه الآية ، فيجب حملها على تلك الآيات .

حملا للمتشابه على المحكم . التفسير الكبير ج ٢٠ ص ١٧٥ - ١٧٦ .

وثانياً - للآية تأويل صحيح ، وفي نفس الوقت منسجم مع ظاهر التعبير تمام

الانسجام :

وذلك أنّ الارادة في الآية ليست بمعنى أنه تعالى قدير يد بقوم سوءاً لا موجب له ، فيعمد - لتبريره - الى التماس حجج ومعاذير هو يتكلفها ويمهد أسبابها^١ . كلا ، بل الارادة - هنا - تعبير عن واقعية محضه عملت في تكوين ذاتها عند توفر شروط التحقق والعوامل المستدعية للتكوين . كقوله تعالى : « فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض - الكهف : ٧٧ » . حيث لا ارادة ولا قصد وانما هو اقتضاء

١ - قال الفخر الرازي - وهو اشعري - : احتج اصحابنا بهذه الاية على مذهبهم من

وجوه ، الاول : ان ظاهر الاية يدل على انه تعالى اراد افعال الضرر اليهم ابتداء ، ثم توسل الى اهلاكهم بهذا الطريق . الثاني : ان ظاهر الاية يدل على انه تعالى انما خص المترفين بذلك الامر ، لعلمه بأنهم يفسقون . وذلك يدل على انه تعالى اراد منهم القسق . الثالث : انه تعالى قال «فتح عليها القول» بالتعذيب والكفر ، ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الايمان منهم ، لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله الصادق كذباً ، وذلك محال ، والمفضى الى المحال محال .

واقع الامر . وهكذا فى الآيه الكريمة كانت الارادة بمعنى اقتضاء واقعهم السىء
للهلك والدمار .

وعليه فمعنى الآيه : انه متى ما حان وقت هلاك قوم ، فأراد الله ان ينزل
بهم العقاب حسب اقتضاء واقعهم المتفسخ المنهار، كان من علامة ذلك ان يقوم كبارؤهم
المنعمون وزعماءؤهم المتبعون ، بطغيان عارم واستهتار بالمعاصى والفجور ، فعند
ذلك تحق عليهم كلمة العذاب .

فقوله : « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » يعنى : كان من علامة ذلك انه كلما
أمرناهم بشىء خالفوا أمرنا واستعصوا عن الامتثال، وأخذوا فى معاكسة معالم الهدى
والصلاح^١ .

فاذا مارأيتم قوماً سيطرت عليهم الميوعة والاستهتار بمقدسات الشريعة ،
وتفشى بينهم الفساد والفحشاء ، فاعلموا أن البلايا قدوافتهم ، واقرب منهم الهلاك
والدمار .

وهذا كما قيل: اذا أرادت السماء أن تمطر تغيمت . أى اذا دنا وقت الامطار،
كان من علامة ذلك أن تتغيم السماء بالسحاب .

هذا ما فهمناه من ظاهر تعبير الآيه بعد تعمق ، وبلا تكلف فى التخريج ، الامر
الذى لا يكاد يخفى على من دقق النظر فى جوانب الآيه بامعان .

* * *

وهذا اختيار أكثر المفسرين السلف والخلف حيث أخذوا من الأمر متعلقاً
بالطاعة دون الفسق ، نظير قولهم : أمرته فخالف . ودعوته فأبى . قال أبو جعفر
الطبرى - بعد أن ذكر عدة روايات فى تأويل الآيه ، وصوب قراءة « أمرنا » بالقصر
والتحفيف ، لاجماع الحجة من القراءات على تصويبها - :

فأولى التأويلات به هو تأويل من تأوله « أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا

١- نظراً لان القسق هو الخروج عن الاطار المضروب حدأ للشىء .

فيها فحق عليهم القول». لأن الأغلب من معنى «أمرنا» الامر الذي هو خلاف النهى دون غيره . وتوجيه معانى كلامه -جل ثناؤه- الى الأشهر الأعراف من معانيه أولى ، ما وجد اليه سبيل ، من غيره . ومعنى قوله « ففسقوا فيها » : « فخالقوا أمر الله فيها وخرجوا عن طاعته ». « فحق عليها القول » يقول : « فوجب عليها بمعصيتهم الله وفسوقهم فيها ، وعيد الله الذى أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعد الاعذار والانذار بالرسول والحجج » . « فدمرناها تدميراً » يقول : « فخربناها عند ذلك تخريباً وأهلكنا من كان فيها من أهلها اهلاًكاً » ...^١ .

ولم يرتض الزمخشري هذا الوجه باطلاق ، وقال فى ذلك كلاماً دقيقاً نقله

بنصه :-

قال : فان قلت : هل ازعمت أن معناه : أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت : لا ، لأن حذف ما للدليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما للدليل قائم على نقيضه ! وذلك أن المأمور به انما حذف لأن «فسقوا» يدل عليه ، وهو كلام مستفيض ، يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقراً ، ولا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة . ولو ذهبت تقدّره غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب .

ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته فعصاني أو فلم يمتثل أمرى ، لأن ذلك مناف للامر مناقض له ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالاً ان يقصد أصلاً ، حتى يجعل دالاً على المأمور به ، فكان المأمور به فى هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوى ، لأن من يتكلم بهذا الكلام فانه لا ينوى لأمره مأموراً به ، وكأنه يقول : كان منى أمر فلم تكن منه طاعة^٢ .

١- جامع البيان للطبرى ج ١٥ ص ٤٣ .

٢- هذا هو بالذات مقصود من يقدر فى الكلام «الطاعة» اى امرته بشيء يستدعى طاعة ،

لكنه خالف وعصى . ولا يقصد «أمرته بنفس الطاعة» . اذ الامر بالطاعة يكون بلفظ «أطع» ←

كما أن من يقول : فلان يعطى ويمنع ، ويأمر وينهى ! غير قاصد الى مفعول .
فان قلت : هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وانما يأمر بالقصد والخير
دليلاً على أن المراد : أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت : لا يصح ذلك ، لأن قوله :
«فسقوا» يدافعه ، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعى اضمار خلافه، فكان صرف الامر
الى المجاز هو الوجه .

وأما الوجه الذى اختاره هو فهو ما أشار اليه أخيراً من صرف الأمر الى المجاز،
قال - فى قوله تعالى «واذا أردنا ..» - : واذا دنا وقت اهلاك قوم ولم يبق من زمان
امهالهم الا قليل ، أمرناهم «فسقوا» أى أمرناهم بالفسق ففعلوا ، والامر مجاز ، لأن
حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون ، فبقى أن يكون مجازاً .
ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً ، فجعلوها ذريعة الى المعاصى واتباع الشهوات
فكأنهم مأمورون بذلك ، لتسبب ايلاء النعمة فيه وانما خولهم اياها ليشكروا أو يعملوا
فيها الخير ، ويتمكّنوا من الاحسان والبر ، كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على
المخير والشر ، وطلب منهم إثارة الطاعة على المعصية فأثروا الفسوق . فلما فسقوا حق
عليهم القول ، وهو كلمة العذاب فدمّرهم ' .

* * *

وأحسن من تكلم فى الآية على وجه يوافق مذهب الاعتزال : القفال ، فانه ذكر
فى تأويلها وجهين :

الأول : أنه تعالى أخبر أنه لا يعذب أحداً بما يعلمه منه ما لم يعمل ، أى لا يجعل
علمه حجة على من علم أنه أمره عصاه ، بل يأمره ، فاذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ
يعاقبه . فقوله : «واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها» معناه : واذا أردنا امضاء

→ مسبوفاً بأمر آخر تعلق بشيء آخر . فالأمور به فى الآية لا مقدر ولا منوى ، وانما المقصود مجرد
توجه أمر اليهم بما يستدعى وجوب امتثالهم والقيام بمالقى اليهم من وظائف وتكاليف ، لكنهم لم
يمثلوها وقاموا فى مخالفتها ومعاكستها . كما فى «دعوتة فأبى» و«أمرته فصبى» .

١- راجع : الكشف ج ٢ ص ٦٥٤

ما سبق من القضاء باهلاك قوم، أمرنا المتنعمين المتعززين - الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا - بالايان بي والعمل بشرائع ديني ، على مابلغهم عنى رسولى ، ففسقوا . فحينئذ يحقّ عليهم القضاء السابق باهلاكهم ، لظهور معاصيهم . والحاصل : أن المعنى : واذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلاّ على المعصية ، لم نكتف فى تحقيق ذلك الاهلاك بمجرد ذلك العلم . بل أمرنا متر فيها ففسقوا ، فاذا ظهر منهم ذلك الفسق ، فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به .

الثانى : أن نقول : واذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصى من أهلها ، لم نعالجهم بالعذاب فى أول ظهور المعاصى منهم ، بل أمرنا متر فيها بالرجوع عن تلك المعاصى . وإنما خصّ المترفين بذلك الأمر ، لأنّ المترف هو المتنعّم . ومن كثرت نعم الله عليه ، كان قيامه بالشكر أوجب ، فاذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد اخرى ، مع انه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم ، بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وابتعادهم عن الرجوع من الباطل الى الحق ، فحينئذ يصبّ الله البلاء عليهم صبأ .

ثم قال القفال : وهذان التأويلان راجعان الى : أنّ الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة امة ظالمة حتى يعذر اليهم غاية الاعذار ، الذى يقع منه اليأس من ايمانهم ، كما قال فى قوم نوح : « ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً - نوح : ٢٧ » . وقال : « انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن - هود : ٣٦ » . وقال فى غيرهم : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل - الاعراف : ١٠١ » .

فأخبر تعالى أولاً أنه لا يظهر العذاب إلاّ بعد بعثة الرسول . ثم أخبر ثانياً فى هذه الآية أنه اذا بعث الرسول أيضاً فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب ، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ ، فان بقوا مصرين على الذنوب ، فهناك ينزل عليهم عذاب

١ - فى قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » قبل الآية المبحوث عنها.

الاستئصال .

قال الامام الرازى : وهذا التأويل الذى ذكره القفال فى تطبيق الآية على قول المعتزلة ، لم يتيسر لأحد من شيوخ المعتزلة مثله ^١ .

وقال الجبائى : ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد اهلاكم قبل أن يعصوا ويستحقوا ، وذلك لأنه ظلم وهو على الله محال . بل المراد من « الارادة » قرب تلك الحالة ، فكأن التقدير : واذا قرب وقت اهلاك قرية ، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، وهو كقول القائل : اذا اراد المريض ان يموت ازداد مرضه شدة ، واذا اراد الناجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة ، وليس المراد : أن المريض يريد أن يموت ، والتاجر يريد أن يفتقر ، وانما يعنون أنه سيصير كذلك ، فكذا هاهنا .

وهذا الوجه الذى ذكره الجبائى هو الذى اخترناه ، ومن ثم فان مراجعة اختيارنا تذهب بمواقع الابهام من هذا الكلام .

* * *

ولعل ما ذكره الشريف المرتضى بهذا الصدد أجمع وأوفى من الجميع ، فقد ذكر فى تأويل الآية وجوهاً أربعة . كل منها يبطل الشبه الداخلة على المبطلين فيها ، ممن عدلوا بتأويلها عن وجهه ، وصرفوه عن بابه - على حد تعبيره - واليك : -

أولها : أن الهلاك قد يكون حسناً وقد يكون قبيحاً ، فاذا كان مستحقاً أو على سبيل الامتحان كان حسناً . وانما يكون قبيحاً اذا كان ظلماً ، فتعلق الارادة به لا يقتضى تعلقها به على الوجه القبيح ، ولا ظاهر للاية يقتضى ذلك . واذا علمنا بالأدلة تنزه القديم تعالى عن القبائح ، علمنا ان الارادة لم تتعلق الا بالاهلاك الحسن . وقوله تعالى : « أمرنا مترفيها » المأمور به محذوف ، وليس يجب أن يكون

١ - التفسير الكبير ج ٢٠ ص ١٧٦

المأمور به هو الفسق ، وان وقع بعسده الفسق ، ويجرى هذا مجرى قول القائل : أمرته فعمسى ، ودعوته فأبى . والمراد : أننى أمرته بالطاعة ، ودعوته الى الاجابة والقبول .

قال : ويمكن أن يقال على هذا الوجه : ليس موضع الشبهة ما تكلمتم عليه ، وانما موضعها أن يقال : أى معنى لتقدم الارادة ؟ فان كانت متعلقة باهلاك مستحق بغير الفسق المذكور فى الآية ، فلا معنى لقوله تعالى : اذا أردنا أمرنا ، لأن أمره بما يأمر به لا يحسن ارادته للعقاب المستحق بما تقدم من الافعال . وان كانت الارادة متعلقة بالاهلاك المستحق بمخالفة الأمر المذكور فى الآية ، فهذا الذى تأبونه ، لانه يقتضى أنه تعالى مريد لا هلاك من لم يستحق العقاب !

والجواب عن ذلك : أنه تعالى لم يعلق الارادة الا بالاهلاك المستحق بما تقدم من الذنوب ، والذى حسن قوله تعالى : واذا أردنا أمرنا ... هو ان فى تكرار الأمر بالطاعة والايان اعداراً الى العصاة ، وانذاراً لهم ، وايجاباً واثباتاً للحجة عليهم حتى يكونوا متى خالفوا واقاموا على العصيان والطغيان بعد تكرار الوعيد والوعظ والانذار ، ممن بحق عليه القول ، وتجب عليه الحجة .

ويشهد بصحة هذا التأويل قوله تعالى - قبل هذه الآية - : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

والوجه الثانى : أن يكون قوله تعالى : « أمرنا متر فيها » من صفة القرية وصلتها ، ولا يكون جواباً لقوله تعالى : « واذا اردنا » ويكون تقدير الكلام : واذا أردنا ان نهلك قرية من صفتها أنا أمرنا متر فيها ففسقوا فيها . وتكون « اذا » على هذا الجواب لم يأت لها جواب ظاهر فى الآية ، للاستغناء عنه بما فى الكلام من الدلالة عليه . ونظير هذا قوله تعالى فى صفة الجنة : « حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله

الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين -
الزمر : ٧٣ - ٧٤ . ولم يأت لاذا جواب فى طول الكلام ، للاستغناء عنه ^١ .
ويشهد بصحة هذا الجواب قول الهذلى :

حتى اذا اسلكوهم فى قنائة شلا كما تطرد الجمالة الشردا ^٢
فحذف جواب « اذا » ولم يأت به ، لأن هذا البيت آخر القصيدة ^٣ .
والوجه الثالث : أن يكون ذكر الارادة فى الاية مجازاً أو اتساعاً ^٤ أو تنبيهاً على
المعلوم من حال القوم وعاقبة أمرهم ، وأنهم متى امروا فسقوا وخالفوا . وذكر
الارادة يجرى هاهنا مجرى قولهم : اذا اراد التاجر ان يفتقر أتته النوائب من كل
جهة ، وجاءه الخسران من كل طريق ، وقولهم : اذا أراد العليل أن يموت خلط فى

١- فى حاشية الامالى : « كان التقدير : اذا جمأؤها حضروها وفتحت. او هموا بدخولها .
وما اشبه ذلك، والله العالم » .

٢- هو لعبد مناف بن ربيع الهذلى فى آخر قصيدة أولها :

ماذا يغير ابنتى ربيع عويلهما لا ترقدان ولا يؤسى لمن رقدا

قنائة : موضع . والجمالة : اصحاب الجمال ، كالبغالة والحمار . وانتصاب «شلا»
على المصدر . ودل على فعل مضمحل يحصل بظهوره جواب « حتى اذا سلكوهم » المنتظر .
وتلخيصه : حتى اذا سلكوهم الى هذا الموضع سلوهم شلا مثل مطاردة الجمال اذا تزاومت
على الماء . انظر : ادب الكاتب ص ٤٢٤ .

٣- فى حاشية الامالى : « جواب الشرط جزء لا يتم المشروط دونه ، فاذا حذف
كان أهول للكلام ، كقوله تعالى : « ولوان قرآنا سيرت به الجبال - الرعد : ٣١ » ، وكقول
القائل : « لورأيت علياً بصفين » . وكقولهم : « لو ذات سوار لطمتنى » .

٤- هذا بعينه اختيار الزمخشري (ت ٥٢٨) الآنف ، ولعله اخذه من الشريف المرتضى
« ت ٤٣٦ » عليه الرحمة .

مأكله ، وتصرّح الى كل ماتتوق اليه نفسه . ومعلوم أنّ التاجر لم يرد في الحقيقة شيئاً ، ولا العليل ايضاً . لكن لما كان المعلوم من حال هذا الخبيران ، ومن حال هذا الهلاك ، حسن هذا الكلام ، واستعمل ذكر الارادة لهذا الوجه ^١ .

وكلام العرب وحي و اشارات واستعارات ومجازات ^٢ ، ولهذه الحال كان كلامهم في المرتبة العليا من الفصاحة ، فان الكلام متى خلا من الاستعارة ، وجرى كله على الحقيقة كان بعيداً من الفصاحة ، برياً من البلاغة ، وكلام الله تعالى أفصح الكلام .

والوجه الرابع : أن تحمل الآية على التقديم والتأخير ، فيكون تلخيصها : اذا أمرنا متر في قرية بالطاعة فعصوا واستحقوا العقاب أردنا اهلاكهم ، والتقديم والتأخير في الشعر وكلام العرب كثير .

ومما يمكن ان يكون شاهداً لصحة هذا التأويل من القرآن ، قوله تعالى : «يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم - المائدة : ٦» والطمّارة انما تجب قبل القيام الى الصلاة . وقوله تعالى : «واذا كنت فيهم فاقمت

١- في حاشية الامالي : «تصوير المجاز في الآية على أن التقدير : اذا قرب هلاك قرية أمرنا متر فيها فقسقوا . وكذلك قولهم : اذا اراد المريض ... التقدير : اذا قرب موت المريض خلط . وكذلك التاجر اذا قرب افتقاره أته النوائب . وهذا كقوله تعالى : « فوجدنا فيها جداراً يريد ان ينقض » اي يقرب ان ينقض . وانما كنى بالارادة عن القرب في هذه المواضع ، لان المريد للشيء ، المخلى بينه وبينه ، ولا مانع هناك ، ما أقرب ما يقع مراده . والله اعلم .

٢- في حاشية الامالي : «الارادة قد تستعمل في الجماد ، فضلاً عن العقلاء . كقوله تعالى : «جداراً يريد ان ينقض ، وكقول الراعي التميري .

في مهمه قلقت به هاماتها قلقت القؤوس اذا أردن نصولاً
المهمه : المفازة البعيدة المقفرة . والقلق : الاضطراب . وفأس اللجام : الحديدية القائمة في الحنك . والتصول : الخروج .

لهم الصلوة فلنقم طائفة منهم معك - النساء : ١٠٢ . وقيام الطائفة معه يجب أن يكون قبل اقامة الصلاة، لأن اقامتها هي الايتان بجمعها على الكمال^١.
 قال : وأما قراءة من قرأ الآية بالتشديد ، فقال : «أمرنا»^٢ ، وقراءة من قرأها بالمدّ والتخفيف ، فقال : «آمرنا»^٣ ، فلن يخرج معنى قراءة تيهما عن الوجوه التي ذكرناها^٤ . الا الوجه الاول ، فان معناه لا يليق الابأن يكون ماتضمنته الآية هو الأمر

١- وزاد شيخ الطائفة ابو جعفر الطوسي : « ومثله قوله : ما ان مفاتحه لتتوء بالعصبة
 اولى القوة - القصص : ٧٦ » . والتقدير : ما ان مفاتحه لتتوء بها العصبة اي يتقلون بها . ومثله
 قول الشاعر :

ذعرت القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

اراد : مقام الذئب اللعين . وقد فصلوا بين المضاف والمضاف اليه ، قال الشاعر :
 بين ذراعى وجبهة الاسد . اراد بين ذراعى الاسد وجبهته . (تفسير التبيان ج ٦ ص ٤٦٠) .
 ٢- بتشديد الميم من باب التفعيل ، هي قراءة ابي عثمان النهدي . وقراءة الليث عن ابي
 عمرو . وابان عن عاصم (القراءات الشاذة ، لابن خالويه ص ٧٥) .

٣- هي قراءة خارجة عن نافع (المصدر)

٤- قال الشيخ في التبيان : « امرنا » - بتشديد الميم - من التأمير بمعنى التسليط ، وقد يكون
 بمعنى اكثرنا . ويجوز ان يكون المعنى اكثرنا عددهم او مالهم . و « أمرنا » - ممدوداً - بمعنى
 اكثرنا مترفيها . وانما قيل في الكثرة : أمر القوم ، لانهم يحتاجون الى أمير يأمرهم وينهاهم
 فقد أمروا لذلك ، قال ليبيد :

ان يغطوا يهبطوا وان أمروا يوماً يصيروا للهلاك والكند

(التبيان ج ٦ ص ٤٦١) ، يعني : ان افتقروا بحيث تمنوا مثل حال غيرهم قل عددهم . واما
 اذا كثروا وازدادوا نعماً ، فانهم يصيرون الى الابداء وكفران النعم .

الذى يستدعى به الفعل^١ .

وقد نقل الشيخ أبو جعفر الطوسى - رحمه الله - (ت ٣٦٠) هذه الوجوه الأربعة فى تفسيره «التبيان» باختلاف يسير جداً، الأمر الذى يدل على استجواده لها بشأن الآية الكريمة . وهكذا الشيخ أبو على الطبرسى فى «مجمع البيان» على عادته فى اقتفاء أثر الشيخ فى التفسير . وهكذا تجد مقنضها فى «متشابهات القرآن ومختلفه» لابن شهر آشوب ج ١ ص ١٨٤ .

* * *

١٤٥- «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد - الإسراء : ١٨» لا يدلّ على أنه تعالى يريد - بارادته التشريعية - الفساد والقبايح . وإنما معنى الآية أنّ «من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك ليس لهم نصيب فى الآخرة - هود : ١٥» . فمن كانت همته الدنيا فحظه ما تمتع منها مشوباً بالأكدار ، ولاحظ له فى سعادة الحياة الخالصة الباقية .

١٤٦- «وقضى ربك أن لا تعبدوا الاياه وبالوالدين احسانا - الإسراء : ٢٣» .
القضاء - هنا - بمعنى الحكم التشريعى ، بدليل التخلف .

١٤٧- «واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً - الإسراء : ٤٥» . قالوا : انها تدل على أنه تعالى هو منع الكفار من الايمان .

قلنا : الآية الكريمة خصت اولئك الذين مردوا على الكفر والعصيان فلا يؤمنون أبداً، بهذا الحجاب، وهو حجاب القسوة والجفاء والتعامى عن معاينة الحق

١ - أمالى المرتضى (غرر القوائد ودرر القلائد) للشيخ على بن الحسين الموسوى

العلوى (علم الهدى) ج ١ ص ١٠٥ - المجلس الاول.

«فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية - المائدة : ١٣» .
 وأنماهم أوجدوا هذا الحجاب وعملوا في تغليظه والمزيد من تكائفه على أثر
 مبالغتهم في ارتكاب الخطايا والآثام، فأبعدتهم عن رحمة الله الواسعة. فقوله: «جعلنا...»
 أى كان بينك وبينهم حجاب . كما فى قوله - بعد هذه الآية-: «وجعلنا على قلوبهم
 أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم قرأ» وقوله - فى سورة فصلت : ٥- : «وقالوا قلوبنا
 فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا قرء» وانما ينسبته تعالى الى نفسه، لانه هو الذى
 منح القوى وجعل لهم الاختيار فى الرفض والايمان ، وأقدرهم على العمل، ان خيراً
 وان شراً ، حسبما تقدم .

١٤٨- «فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً - الاسراء : ٤٨» . قالوا : هذا صريح فى
 نفي استطاعة العبيد.

قلنا : عدم الاهتداء الى السبيل - فى الآية - مترتب على الضلال . فانهم بفعل
 خطيئتهم وعصيان تعاليم الرسول ﷺ ضلوا السبيل أولاً ، فلم يستطيعوا بعد ذلك
 من الاهتداء الى الطريق .

١٤٩- «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً - الاسراء : ٧٤» .
 تمسكت الأشاعرة بهذه الآية تدليلاً على ان ثبات المطيع على الطاعة انما هو
 بفعل الله ، ولولاه لم يكذب يثبت كما كان لم يؤمن .

قلنا: ثلاث آيات (٧٣ و٧٤ و٧٥) نزلن بشأن مشركى قريش ، عرضوا على
 النبى ﷺ مسالمة مع آلهتهم فلا يذكرهم بسوء ، فيتوافقوا معه ولا ينادوه فى
 دعوته . فنزلت الايات ردعاً لاذعاً لمثل هذا الاقتراح المنافق ، وتبيهاً قاطعاً لأمل
 المشركين ، فلا يطمعوا فى رسول الله ﷺ وهو داعية التوحيد الخالص ، ونبذ الشرك
 وعبادة الأصنام قطعاً فى جذورها . فلا يجامل فيما يناقض دعوته الى الله وحده لا

شريك له^١.

ذكر الشيخ ابو على الطبرسى وجوهاً فى سبب نزول الآيات ، منها : ان قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له : كف عن شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا^٢ واطرد هؤلاء العبيد والسقاط^٣ الذين راثحتهم رائحة الصنان^٤ حتى نجالسك ونسمع منك. فطمع النبي ﷺ فى اسلامهم ان وافقهم على بعض ما يقولون . فنزلت الآيات ردعاً له ﷺ فلا ينبغي لنبى ان يجامل فى دينه أو يدهان أحداً فى مقترحه المخالف لاصول التعليم الدينى الحنيف^٥ .

وهذا التشديد فى لحن الآيات يستهدف قطع أمل المشركين فى اى مساومة مع النبي ﷺ قطعاً صارماً . كما هو تهديد صريح بمن يهجم بمجاملة مع اعداء الدين أياً كان وأياً كانوا ، من باب « اياك أعنى واسمعى باجارة » كماورد فى حديث الامام على بن موسى الرضا عليه السلام مع المأمون - الخليفة العباسى - بشأن عصمة الانبياء عليهم السلام فذكر الآية ، وقال : هذا مما نزل باياك أعنى واسمعى باجارة ، خاطب الله تعالى بذلك نبيه والمراد به امته^٦ .

١- راجع الجزء الاول من كتابنا ص ١٥٩

٢- الاحلام: جمع الحلم - بكسر الحاء - وهو العقل.

٣- السقاط: جمع الساقط - كطلاب و طالب - بمعنى المبتذل الفاقد للشخصية

الاجتماعية .

٤- الصنان - كغراب - ذفر الابط ، والتتن عموماً .

٥- مجمع البيان ج ٦ ص ٤٣١ . وانما اخترنا هذا الوجه - وهو ثانى وجوه خمسة

ذكرها الطبرسى - لقوته وموافقته مع ظاهر القرآن . والثامه مع موقف النبى -ص- المعصوم من الخطأ والزلل لا فى عقيدته ولا فى سلوكه اطلاقاً .

٦- راجع تفسير الصافى ج ١ ص ٩٨٣ نقلاً عن العيون . وهكذا عن الكافى الشريف

وغيره .

١٥٠- « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً - الاسراء : ٨٢ » . هذه الآية كآية البقرة « هدى للمتقين » اختصاص من جانب القابل لا الفاعل . ان فى القرآن شفاء ورحمة لأولئك الذين خالطت قلوبهم بشاشة الايمان ، فأشرقت وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من روح وطمأنينة وامان . اما المنهمكون فى كبرياء الشقاق واللجاج ، فلايزيدون الا عتواً ونفوراً ، وعناداً مع الحق وشفاء مع الأبد .

قال تعالى : « واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون - براءة : ١٢٤-١٢٥ » .

١٥١- « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم - الكهف : ١٣-١٤ » . انه توفيق ومزيد من ألطاف وعنايات خاصة بالمؤمنين حقاً .

١٥٢- « من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجدله ولياً مرشداً - الكهف : ١٧ » .

هذا توفيق وعناية ربانية للذين استعدوا بأنفسهم لتلقى فيض رحمته الواسعة . كما هو خذلان وحرمان لمن أعرض عن ذكر ربه ونسى الآخرة .

١٥٣- « ولاتقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله - الكهف : ٢٣ - ٢٤ » . اى الا أن يأذن الله تعالى حسب ما تقدم تحقيقه ، اذ لولا اذنه تعالى لم يقع شيء ، وليس هذا دليلاً على أنه تعالى هو الفاعل لأفعال العباد ، نعم هو تعالى خالق لأفعالهم بمعنى أن سنته جرت فى ايجاد ما يريد العباد ايجاده ، بارادة حادثة اثر ارادة العباد . ومن ثم صحت نسبة الافعال إلى الله كما صحت نسبتها الى العباد

أنفسهم نسبة حقيقية لا استعارة ولا مجاز^١ .

١٥٤ - « ولا تطع من أغفلنا قلبه - الكهف : ٢٨ » . قالوا : هذا يدلّ على أنه تعالى هو يخلق في قلب العبد الجهل والغفلة ويمنعه من الايمان !
قلنا : لو كان كذلك لما صحّ توجيه الملامة اليه والاستنكار . والآية الكريمة
تويخ لأذع وطعن وتقييح .
والمراد : من تغافل عن قبول الهدى فخذله الله ، « فلمّا زاغوا أزاغ الله
قلوبهم » . ومن ثمّ كان تعقيب الآية : « واتبع هويّه وكان أمره فرطاً » أي سرفاً
وتضييعاً .

١٥٥ - « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمّن ومن شاء فليكفر -
الكهف : ٢٩ » . قالوا : هذا يدلّ على أنّ الكفر والايان كليهما من قبله تعالى .
قلنا : بل على العكس أدلّ . لأنّ صريح الآية : أن الله يهدى الى الحق ،
فمن شاء قبل ومن شاء رفض ، حيث لا اكراه في الدين ولا الجاء في التكليف . فدلالة
الاية على اختيارية الايمان والكفر أوضح .

١٥٦ - « انا جعلنا على قلوبهم أكنة - الكهف : ٥٧ » تقدّم الكلام عنها في
نظائرها في عدة مواضع سابقة . منها الأخير برقم : ١٤٧ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

١٥٧ - « الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً -
الكهف : ١٠١ » تقدّم الكلام في نظيرتها برقم : ١٤٨ ص ٢٨١ .

١٥٨ - « واجعله رب رضياً - مريم : ٦ » . طلب المزيد من عنايته

١- راجع مسألة التوحيد في الافعال ص ١٧٢ . ومسألة الامرين الامرين ص ١٧٣

فما بعد . ومسألة ارادة الله الحادثة ص ١٨٢ . وغيرهما من مسائل مرتبطة

١٥٩ - « وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً - مريم : ١٣ » . اخبار عن لطف خاص يجعله تعالى في محلّ قابل حسب علمه الأزلي .

١٦٠ - وهكذا قوله تعالى بشأن عيسى عليه السلام خطاباً لمريم - عليها السلام - :
« لآهب لك غلاماً زكياً - مريم : ١٩ » .

١٦١ - ونظيرهما قوله تعالى : « وجعلني مباركاً أين ما كنت و أوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبرا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً - مريم : ٣١ -
٣٢ » .

١٦٢ - « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً - مريم :
٨٣ » .

لا شكّ أن ليس المراد : ارسال الشياطين للاضلال كارسال الانبياء للهداية . اذ لو كان كذلك لكانت الشياطين رسل الله كالانبياء ، تعالى الله عن ذلك ، وحاشاه من رب رؤوف رحيم ! ! .

وذلك بدليل أنّه متى اريد من الارسال هو معناه المعهود (البعث للتبشير والانذار) تعدى بـ «الى» : «ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه - هود : ٢٥» . أو بـ «في» : «كما أرسلنا فيكم رسولاً - البقرة : ١٥١» . أو باللام : «وأرسلناك للناس رسولاً - النساء : ٧٩» . ولم يأت متعدياً به «على» . أما قوله : «فما أرسلناك عليهم حفيظاً - النساء : ٨٠» أو قوله : «وما أرسلناك عليهم وكيلاً - الاسراء : ٥٤» ، فـ «على» متعلقة بالوصف المتأخر .

أما إذا تعدى الارسال بـ «على» فانه يخرج عن معناه الحقيقي ، ويكون بمعنى مطلق التحريك واثارة الاسباب المؤاتية للشيء ، ان طبيعية كانت أم اصطناعية .

ولو مجازاً وبالناية . وأكثر استعماله فى القرآن حينئذ يكون فى مواضع ارادة الشر والنقمة المردية ^١ .

قال تعالى : « وفى عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم - الذاريات : ٤١ » .
« فارسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى ايام نحسات - فصلت : ١٦ » . « فارسلنا عليهم رجراً من السماء - الاعراف : ١٦٢ » . « فارسلنا عليهم سيل العرم - سبأ : ١٦ » . « وارسل عليهم طيراً اباييل - الفيل : ٢ » ، الى غيرها من آيات .

وهكذا « ارسلنا الشياطين على الكافرين - مريم : ٨٣ » عقوبة عاجلة وافتهم فى هذه الحياة ، اصطلاحنا عنها بالخذلان ، وحرمانهم عن أطفاه تعالى الخاصة بأهل الايمان .

ومعنى الآية - على ذلك - أنا خَلينا بين الشياطين وبين الكافرين يضلونهم ويمنونهم ويهدونهم الى سواء الجحيم ^٢ . جزاء متناسباً مع لجاجهم واصرارهم على منابذة الحق ، والسمى فى اطفاء نورالله عن وجه الارض .

١٦٣ - « ويزيد الله الذين اهدوا هدى - مريم : ٧٦ » هو توفيق ومزيد عناية وألطف .

١٦٤ - وقال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى - طه : ٢٥ - ٢٦ . سؤال وابتهاج الى الله أن يمنحه عنايته ولطفه الخاص الذى اختص به عباده المتقون

١- اما قوله : « وارسلنا السماء عليهم مدراراً - الانعام : ٦٦ » ف«على» متعلقة ب«مدراراً» .

٢- قال القاضى : والمراد عندنا : انه تعالى خلى بينهم وبين الكافرين . مع قدرته على

المنع والحيلولة من كل وجه . فقبل توسعاً : انه ارسلهم . كما يقال - فيمن يمكنه ان يمنع كلبه من الاقدام على الاضرار بالتير اذا تركه وذلك - : انه ارسل كلبه على الناس . وكما يقال - فى الملك اذا امكنه ضبط جنده وكفهم عن الناس فلم يفعل - : انه ارسلهم على الناس : (المتشابهات

ج ٢ ص ٤٨٦ - ٤٨٧) .

المجاهدون في سبيله ، فما هو الاطلب توفيق منه تعالى ، لا إكراه ولا إجراه على غير مقدور .

١٦٥ - « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - طه : ٥٠ » . القراءة الصحيحة المعروفة هي بسكون اللام في « خلقه » ليكون بمعنى « خلقته » أي صورته وشكله ووجوده ، مفعولاً ثانياً لأعطى . فمعنى الآية : ربنا الذي أفاض على الأشياء وجوداتها أولاً ، ثم هداها الى طرق معاشها . وهي هداية تكوينية جعلت في جبلة الأشياء - حسبما تقدم .

والمقصود من الأشياء - هنا - هي الموجودات العينية بقريته « ثم هدى » . الأمر الذي يتنافى وشمول « كل شيء » للأفعال الاختيارية ، كما زعمه الأشعري ضارباً على وتره .

١٦٦ - « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون - الانبياء : ٢٣ » . طال ما تشبَّت الأشعري بهذه الآية لنفي لزوم الحكمة فيما يفعله تعالى ، زاعماً دلالتها على عدم مسؤوليته تعالى تجاه أفعاله ، ان حسناً وان قبيحاً اذ لا حسن ولا قبح ذاتيين ، وانما هما بالوجوه والاعتبارات .

قالوا : القبيح منه تعالى حسن ، وإثما يقبح اذا كان من غيره .
والجواب : انه قد ثبت بالبرهان القاطع وبالضرورة من الدين ، أنه تعالى حكيم لا يفعل عبثاً ولا يخلق ما لا فائدة وراءه ولا غرض في الابدان : « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون - الانبياء ١٦ - ١٨ » .

اذن فإثما لا يسأل تعالى عما يفعل ، للقطع بأن جميع ما يفعله صواب وكان

وفق الحكمة والمصلحة الداعية الى الابداع ، فكُلّ ما يفعله تعالى حسن بلاريب .
وإنّما يسأل عن السبب الداعى ، اذا كان الفاعل ممّن يصدر عنه قبيح الى جنب
اعماله الحسنه . الامر الذى لا يحتمله أفعال الحكيم على الاطلاق .

وهذه الآية الكريمة كناية عن كمال عزّته تعالى «يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد» .
لكنها عزة مشفوعة بالحكمة والعدل ، ومن ثمّ فهو تعالى عزيز حكيم . عزيز لا يغلب على أمره
ولا يعجز عن تنفيذ ارادته . حكيم لا يفعل الا الصواب ولا يحكم الا بالحق ولا يهدى
الا الى سواء الطريق .

قال أهل العدل : لَمّا كان تعالى عالماً بقبح القبائح ، وكان غنياً عن فعل
القبيح اطلاقاً ، استحال أن يقع منه قبيح . فقد عرفنا - إجمالاً - بأنّ كل ما يفعله
تعالى حكمة وصواب . وبعد هذا العلم لاموضع للسؤال الكاشف عن جهل فى
نفس السائل . اللهم الاعن تفاصيل يريد أن يعرفها فى ذات المسؤول عنه .

وقال المفسّرون : السؤال عن الفعل هو قولنا لفاعله : « لم فعلت كذا ؟ » .
وهو سؤال عن جهة المصلحة فى الفعل اذا كانت مجهولة للسائل . أمّا الفعل المعلوم
مقارنته مع المصلحة ، فلامؤاخذة عليه عند العقلاء . والله تعالى لَمّا كان حكيماً على
الاطلاق - كما وصف به نفسه فى مواضع من كلامه - والحكيم هو الذى لا يفعل
فعلًا الا للمصلحة مرجحة ، لم يكن موضع للسؤال عن فعله ، وهذا على خلاف غير
الحكيم ، الذى يحتمل بشأنه العبث والصواب والصلاح والفساد ، فجاز فى حقه
ان يسأل عما يفعله ليؤخذ على عمله ان ذمًا أو عقاباً اذا لم يكن مقروناً بمصلحة .

وروى الصدوق فى كتاب «التوحيد» عن الامام محمد بن على الباقر عليه السلام
« سئل : كيف لا يسأل عمّا يفعل ؟ فقال : لأنّه لا يفعل إلا ما كان حكمة وصواباً » .

١- الجملة الاولى مقتبسة من قوله تعالى : «كذلك الله يفعل من يشاء - آل عمران : ٤٠»

والثانية من قوله تعالى : «ان الله يحكم ما يريد - المائدة : ٤١» .

٢- تفسير الصافى للحكيم الفيض ج ٢ ص ٨٨

قال الزمخشري: إذا كانت عادة الملوك الجبارة أن لا يسأل عن أفعالهم تهيباً
لجانبهم وإجلالاً لعزّتهم ، مع جواز الخطأ والزلل عليهم ، كان ملك الملوك ورب
الأرباب أولى بأن لا يسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقرّ في العقول أن ما يفعله تعالى
كلّه مقرون بدواعي الحكمة ، لا يجوز عليه خطأ ولا فعل قبيح^١ .

ومن الغريب جداً ما كتبه الشيخ محمد عليان المرزوقي تعليقاً على كلام
الزمخشري أخيراً «لا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح» . قال الشيخ عليان : «هذا
عند المعتزلة . أما عند أهل السنة - يعني الأشاعرة - فهو - تعالى - الفاعل للخير
والشر ، كما بين في علم التوحيد» .

قلت : فض الله تلکم الأفواه التي تستطيع التفوه بهكذا كلام قبيح تشويهاً
لساحة قدسه تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . « انكم - أيتها الأشاعرة الفتنه
الفاقة لشعورها - لتقولون قولاً عظيماً - الاسراء : ٤٠ » . « أم تقولون على الله
ما لا تعلمون ؟! - البقرة : ٨٠ » . وأخيراً «ولكم الويل مما تصفون - الانبياء : ١٨» .

١٦٧- «ونبلوكم بالشر والخير فتنة - الانبياء : ٣٥» . قالوا : وهذا دليل
على أن كلاماً من الخير والشر من فعله تعالى .

قلنا : الخير والشر - هنا - هما : الرخاء والجذب ، والرفاه والضيق . يعثوران
حياة الامم ابتلاء لهم ، واختباراً لمبلغ ثباتهم أمام البلايا والمحن ، أم كانوا
يعبدون الله على حرف ، فان أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا
على وجههم !؟ (سورة الحج : ١١) .

ونظير الاية قوله تعالى : «وبلونا هم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون -
الاعراف : ١٦٨» . أي اختبرناهم بالرفاه والتوسعة تارة ، وبالضيق والتشديد اخرى .
كقوله تعالى : «وأنه هو أضحك وأبكى - النجم : ٤٣» .

١- تفسير الكشاف ج ٣ ص ١١٠ ط بيروت

ومن ثم قال المفسرون : «ونبلوكم» : نختبركم « بالشر والخير » : بالبلايا والنعم «فتنة» : ابتلاء وامتحاناً «والينا ترجعون» فنجاز بكم حسبما أبديتم من ثبات أو انهيار .

١٦٨- «وكلا جعلنا صالحين - الانبياء : ٧٢» . أى وجدناهم على استعداد من مناشىء الصلاح فزدناهم هدى وشملتهم عنايتنا بالتوفيق والتسديد الى الصواب والصلاح طول الحياة .

١٦٩- «ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه - الانبياء : ٩٠» . لا يدل على أن كل صلاح من أفعال العباد فانما هو فعله تعالى . وذلك لأن الاصلاح فى الآية لا يرجع الى فعلها بالذات ، وانما هو اصلاح جسمها ، كانت لاتحيض فحاضت ' - كما فى تفسير القمى ج ٢ ص ٧٥ - أو اصلاح شأنها عن الغى والفساد ، توفيقاً وتسديداً، لا بالاكراه والالغاء .

١٧٠- « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم - الانبياء : ٩٨ » . أى وما تعبدونه من أصنام وأوثان ابتدعوها . وهذا لا يشمل من عبده من الانبياء والملائكة ، نظراً لمكان « ما » الموصولة الخاصة بغير ذوى العقول . على أنه لو كانت للشمول فيخصصها قوله فيما بعد : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون - الانبياء : ١٠١ » .

١٧١- «ان الله يفعل ما يريد - الحج : ١٤» .

١٧٢- «وان الله يهدى من يريد - سورة الحج : ١٦» .

١٧٣- «ان الله يفعل ما يشاء - الحج : ١٨» .

١- اى كانت عقيماً فأصبحت ولوداً . مجمع البيان ج ٧ ص ٦١

كلها نظائر ، وقد سبق برقم ١٦٦ : أنه تعالى لا يريد الا ما يتوافق مع حكمته
وعدله . ولا يهدى بتوفيقه وتسديده سوى من أناب اليه وسمى في لقاء وجهه الكريم .
وقد تعلقت الأشاعرة بأمثال هذه الايات تدليلاً على أنه تعالى هو الفاعل للأفعال
العباد اذ لا يقع فعل الا اذا أَرَادَهُ اللهُ ! واجاب المعتزلة بانه تعالى - وفق هذه الايات -
يفعل ما يريد هو ، ولادلالة فيها على أنه يفعل ما يريد غيره !

قلنا : انه تعالى بالنسبة الى أفعال نفسه هو الفاعل لها بلا كلام . وأما بالنسبة
الى افعال غيره ، فانه تعالى يأذن لها ويوجد لها بارادته الحادثة اثر ارادة العباد ،
وفق سنته التي جرت في الخلق ، فهي أيضاً من فعله تعالى لكن بهذا المعنى التبعية ،
الأمر الذي يصحح نسبتها الى فاعليها والى الله جميعاً ، حسبما تقدم (ص ١٧٧)
تحقيقه .

١٧٤ - « ولكل امة جعلنا منسكاً - الحج : ٣٤ » . أى بينا كيفية تعبدهم .
ولادلالة لها على أنه تعالى هو خالق العبادة . وهذا نظير قوله - فيما بعد - : « والبدن
جعلناها لكم من شعائر الله - ٣٦ » أى نحن فرضناها وبينها لكم .
ومن ثم فإن الآية بنفس التعبير جاءت في موضع آخر مع زيادة هي ضاربة على
ايدى المتطاولين لتحريف الكلم : « لكل امة جعلنا منسكاً هم ناسكوه - الحج : ٦٧ » .

١٧٥ - « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض - الحج : ٤٠ » . لا يدل على أنه
بالمباشرة والالغاء . وانما هو بتمهيد مقدماته من تشريع وترغيب وأخيراً توفيق
وتسديد لمن يريد الله غلبه ، وخذلان المغلوب وحرمانه عن ألطافه الكريمة .
وهكذا انتصر المؤمنون على الكافرين بفضلته تعالى ومنه .

١٧٦ - « ربّ فلا تجعلنى فى القوم الظالمين - المؤمنون : ٩٤ » . ابتهاج
الى الله أن يمنّ عليه بالطفاه الخاصة ويسدّد خطاه إلى الصواب أبداً . وهذا طلب

توفيق لا الجاء فيه البتة .

١٧٧- «ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكرو كانوا قوماً بوراً - الفرقان : ١٨». هذا خذلان واستدراج ، عقوبة عاجلة ومماثلة مع ذلك الاستكبار واللجاج مع الحق .

١٧٨- «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً - الفرقان : ٣١» . هذه الآية تسلية للنبي ﷺ اذ لم يكن بدءاً من الرسل ، فكما له أعداء ينادونه ويسدون في وجهه طرق الدعوة الى الله ، كذلك كان للانبياء السلف أعداء . وهذا إخبار عن واقعية مرة يجابهها كل قائم باصلاح .
أما نسبة ذلك الى الله - جل شأنه - فهي مجاز ، باعتبار أنه تعالى ختم على قلوبهم وأخزاهم وخذلهم وربّما أملى لهم ليزدادوا إثماً ، فعتوا واستكبروا واستكباراً جزاء متناسباً مع ذلك العناد المستمرّ مع الحقّ والطغيان العارم .
ولو كان ذلك على حقيقته لم يحسن توجيه اللائمة اليهم بالذات .

١٧٩- « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً - الفرقان : ٣٢ » . أى كان نزول القرآن تدريجياً أثبت لموقفك واطمينان قلبك ، حيث تواصل ذلك الارتباط مع المبدأ الأعلى ، فلا تزال تتصل بعالم الغيب بين آونة واخرى ، فيزيد من قوى هزمك ويؤكد نشاطك في دعوتك الى الاصطلاح . انه شعور مستمرّ بالحجة البالغة كلما فتحوا له باباً من الجدل أو اعترضوا له اعتراضاً .
وهذا - أيضاً - من توفيقه تعالى وتأيدته لنبية الكريمة ﷺ . وليس فيه من الالجاء على الايمان شيء ، كما زعمه الأشعري وأذنبه .

١٨٠- « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ! إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلاً - الفرقان : ٤٤ » .

استدلّ الأشعري بهذه الآية ونظائرها على نفي استطاعة العباد على الكفر
والإيمان .

قلنا : اذن كانت الآية اعداراً لهم ، فى حين أنّها استنكار وتوبيخ صريح .
ولا استنكار على غير المقدور كما لا مؤاخذه ولا عقاب .
انهم قد أماتوا قلوبهم باعراضهم عن ذكر الله ، واصرارهم على الخطايا
والآثام : « حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً - الفرقان : ١٨ » . « انك لاتسمع
الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولّوا مدبرين - النمل : ٨٠ » . وقد تقدّم الكلام
فى نظائر الآية ١ .

١٨١- « واجعلنا للمتّقين إماماً - الفرقان : ٧٣ » . مسألة وابتغال الى الله
أن يمنح بلطفه الخاصّ وتوفيقه فى تمهيد السبل نحو المطلوب الحقّ ، حسبما تقدم
نظير الآية برقم : ١١ .

١٨٢- « فوهب لى ربّى حكماً - الشعراء : ٢١ » . عناية خاصّة بعباده المؤمنين
حقاً ، « والذين اهدوا زادهم هدى وآتاهم تقويهم - سورة محمد : ١٧ » . « وأن
لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً - الجن : ١٦ » .

١٨٣- « وأزلفناهم الآخريّن - الشعراء : ٦٤ » أى تركنا فرعون وملأه
يقربون من الغرق والهلاك ، حيث صمودهم على منابذة الحق والرشاد . فقد
اخزاهم الله وخذلهم فأسرعوا الى عقاب عاجل وألقوا بأيديهم الى التهلكة .

١٨٤- « الذى خلقنى فهو يهدين - الشعراء : ٧٨ » هداية تشريعية عامّة .

١٨٥- « ربّ هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين - الشعراء : ٨٣ » . تقدّم

١- راجع صفحة : ٢١١ و ٢١٣ و ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٣٠ وغيرها .

١٨٦- « كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لايؤمنون به حتى يروا العذاب

الأليم - الشعراء : ٢٠٠-٢٠١ » .

أى إن هذا القرآن قد أخذ طريقه الى قلوب المجرمين أيضاً فسمعوه ووعوه ، وإن كانوا قد عارضوه ولم يؤمنوا به ، فقوله : « كذلك سلكناه » أى على انحراف قلوبهم واعوجاج مسالكها ومع علمنا بأنهم لا يؤمنون به ، ولكن اتماماً للحجة عليهم جعلنا من نفوذ القرآن ما يقهر كل الحواجز ولا يحول دون اشراق أنواره أى مانع ، لطفاً بالناس « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل - النساء : ١٦٥ » .

وعليه فالضمير فى « سلكناه » يعود الى القرآن . والكناية فى « كذلك » تشير الى المعلوم من حال المجرم أنه صمود على عناده ورفض الحق .

وربما اعاد بعضهم الضمير الى نفس التكذيب ، والكناية ترجع الى هيئة عدم الايمان بالقرآن ، فعلى هذه الهيئة نظمناه فى قلوب المجرمين وأجريناه ، فهو لا يجرى فيها الا مكذبا به ، ويظل على هيئته هذه حتى يروا العذاب الأليم . وبهذا الوجه تمسك الاشعري لاسناد كفر الكافر الى الله سبحانه فلا يستطيع الاهتداء الى الاسلام « ومن يضل الله فماله من هاد - الزمر : ٢٣ » .

وقد تقدمت الجواب عن أمثال هذه التشبثات المنحرفة ، حيث هذه التعابير فى الآيات الكريمة لا تعدو مسألة « الخذلان » الذى استوجبوه على أنفسهم بسبب اصرارهم على رفض الحق والاطاحة بحفظهم الى المهوى السحيق^١ .

١٨٧- وهكذا قوله تعالى : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لايؤمنون

به - الحجر : ١٢-١٣ » ، يحتمل التفسيرين . والاجابة على الوجه الثانى هى الاجابة

١- راجع صفحة : ٢١٠-٢١١ و ٢٢٠-٢٢١ وغيرها .

١٨٨- «وما آنزلا به الشفاطفن؁ وما فنبغى لهم وما فسطفبون؁ انهم عن السمع

لمعزولون - الشعراء : ٢١٠-٢١٢» .

أرجع الاشعرى ضمفر الجمع الى المجرمفن آدلفلا على عدم اسآاعآهم
على قبول الحق .

لكنه آحرف فظففع بكلامه آعالى؁ آفآ فعود الضمفر الى الشفاطفن؁
وانهم لا فسطفبون الآنزل بالقرآن؁ وانما نزل به الروح الامفن على قلبك

لآكون من المنآرفن . بلسان عربى مففن - الشعراء : ١٩٣-١٩٥ء .

كانآ العرب آزعم أن محمداً - ﷺ - كاهن؁ وأن ما فآنزل عفله هو
من آنس ما فآنزل به الشفاطفن على الكهنة؁ فنزلآ الآفاآ (١٩٢ - ٢١٢) من
سورة الشعراء؁ ففنفداً لهذه المزعومة .

قال آعالى « وانه لآنزل من رب العالمفن . نزل به الروح الامفن » الى قوله:

« وما آنزلآ به الشفاطفن » - « ما » ناففة - « وما فنبغى لهم » اى لفس من شأنهم
ذلك « وما فسطفبون » اى هم أعآز عن القفام بهذه المهمة الملكوآفة . « إنهم »
اى الشفاطفن « عن السمع » اى عن الاسآماع الى الملاء الأعلى « لمعزولون » اى
مرآومون بالشهب والقذائف « لا فسمعون الى الملاء الأعلى ففآذفون من كل
آانب - الصافات : ٨ » .

آم قال آعالى - آأكداف لرد المزعومة - : « هل انبشكم على من آنزل

الشفاطفن آنزل على كل أفاك أئفم - الشعراء : ٢٢١-٢٢٢ » لاعلى مثل محمدا الصادق الامفن!
إن الطفور على أشكالها آفع .

١٨٩ - « ان الذفن لا فؤمنون بالآخرة زفناهم أعمالهم - النمل : ٤ » .

تقدّم الكلام فى نظير الاية^١ وأنّ المراد : ان أنفسهم هى التى زينتها لهم ، وزينها لهم الشيطان . فقد أخزاهم الله وخذلهم مغبة صمودهم على نكران الحق ونسيان الآخرة . « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون - فاطر : ٨ » .

١٩٠- « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون - النمل : ٢٤ » ، لا يدل على الالغاء بحيث خرج الاهتداء الى سبيل الحق عن استطاعتهم . اذ لا سلطان للشيطان الا على الغاوين^٢ ، وليس سوى وساوس ودعوة الى الفساد . « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون - النحل : ٩٩-١٠٠ » .
« وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان ، الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إني كفرت بنسما أشركتمون من قبل ، ان الظالمين لهم عذاب أليم - سورة ابراهيم : ٢٢ » .

١٩١- « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون - النمل : ٥٠ » . تأمر قوم صالح على أن يبيتوه وأهله ويقتلوهم عن آخرهم ، ثم يقولوا لوليه : ماشهدنا مهلك أهله^٣ ! لكنهم قبل أن ينفذوها قد أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين^٤ « فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين - الصافات : ٩٨ » . فانظر كيف كان

١- وهى الاية ١٠٨ من سورة الانعام برقم ٥٤ ص ٢٢٥ . وراجع - ايضاً - الصفحة

٢١١-٢١٢ برقم : ٥ .

٢- سورة الحجر : ٤٢ .

٣- من الاية قبلها (٤٩) .

٤- من الاية ٧٨ من سورة الاعراف .

عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين - النمل : ٥١ .

وعليه فكان قوله تعالى : «ومكرنا مكرأ» من باب التشاكل في التعبير ، على سبيل الاستعارة . كما في قوله : «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك - المائدة : ١١٦» .

١٩٢- «انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء - النمل : ٨٠» . قد تقدم أنه كناية عن تلكم القسوة والجفاء التي انطوت عليها قلوبهم القاسية . ومن ثم عقبها بقوله : «اذا ولّوا مدبرين» . فلا يعدو مثل هذا التعبير استعارة وتشبيهاً ، وإلا كان اعذاراً لهم لاتوبيخاً واستنكاراً !

١٩٣- وهكذا الآية بعدها : «وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون - النمل : ٨١» .

انه عمى القلب حجز دون رسوخ الوعظ فيه ، وانما تؤثر دعوة النبي ﷺ في من لان قلبه واستسلم لقيادة الناصحين .

إن أمثال هذه التعابير تسلية للنبي ﷺ ورفع لمسؤوليته عن التأثير والاعتاظ . واخبار عن واقعية مرة كان أرباب الجحود والطغيان قدمهدوا هم من أسبابها وعملوا في تكوينها ، بما عرضوا عن ذكر الله ونسوا لقاء ربهم .

١٩٤- « لولا أن ربطنا على قلبها - القصص : ١٠ » تعبير كناية عن توفيقه تعالى وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين المتوكلين عليه . كما في قوله تعالى - بشأن أصحاب الكهف لم يهابوا سطورة ملكهم الجبار :- «انهم فنية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا اذا شططاً - الكهف : ١٣ - ١٤» .

١- برقم : ١٨٠ الآية ٤٤ من سورة الفرقان ص ٢٩٢-٢٩٣ .

وهكذا قوى من عزائم أم موسى ومنحها عنايته صبراً وثباتاً في موقفها ذلك الحرج ، فألقت بولدها وفلذة كبدها في البحر متوكلة على الله .
وعليه فلم يكن الربط على القلوب سوى تعبير مجازي عن تلك الثقة والایمان الراسخ بالله العظيم .

١٩٥- « فأخذناه وجنوده فبنذناهم في اليم - القصص : ٤٠ » . ليس ظاهر التعبير مقصوداً قطعاً ، وإنما هو كناية عن خذلانه تعالى لهم ، فتركهم يهرعون الى مهاوى الهلكة بسوء اختيارهم ولجاجهم في رفض الحق والهدى .

١٩٦- « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار - القصص : ٤١ » . أى بسبب مرودهم على الطغيان تركناهم وضلالتهم فأصبحوا دعاة الى الجحيم . وهذا هو وجه النسبة اليه تعالى . كما مرّ نظيره في قوله تعالى : « انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً - مريم : ٨٣ » أى خلينا بينهم وبين الكافرين . وإلا لو كان على حقيقته كان ذلك إغذاراً لهم ، ولم تتوجه اليهم لائمة ولا استنكار .

١٩٧- « انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء - القصص : ٥٦ » . أى الهداية المؤثرة النافذة . وهى ليست من فعله ﷻ لأن الذى عليه هو البلاغ ، ليس عليهم بمسيطر انما هو منذر . لكنه تعالى يهدى بتوفيقه وعنايته الخاصة من يشاء من عباده الذين سعوا في لقاءه الكريم . وقد تقدّم الكلام في أمثال الآية في عدة مواضع ^١ .

١٩٨- « وربك يخلق ما يشاء ويختار - القصص : ٦٨ » . تقدم تفصيل الكلام في نظائره ^٢ . وأنه تعالى لا يختار الا ما فيه حكمة وصلاح .

١- انظر الآية ٢٧٢ من سورة البقرة برقم : ١٦ ص ٢١٥

٢- انظر الآية ١٤١٦ و ١٨١ من سورة الحج برقم : ١٧١-١٧٣ ص ٢٩٠

١٩٩- «ولقد فتنا الذين من قبلهم - العنكبوت: ٣». قالوا: يدل على أنه تعالى حمل امماً على الكفر والمعصية.

قلنا: الفتنة هي الامتحان والاختبار بالمحن والمصائب والآلام. ومن ثم ابتدأت السورة بقوله تعالى: «الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» ثم قال - دفعا لتوهم اختصاص هذه الأمة بذلك - : «ولقد فتنا الذين من قبلهم» وتعقيباً على ذلك بين وجه الحكمة: «فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». وهذا اعلام بما سيصيب هذه الأمة من بلاء وامتحان. وبالفعل قد تحقق ذلك مدة بقاءهم في مكة وبعد ما هاجروا الى المدينة، على ما جاء في سورة براءة: ١٢٦: «أولا يرون أنهم يفتنون في كل مرة أو مرتين». «

٢٠٠- «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - العنكبوت: ٦٩». اختصاص بهدايته التي هي غاية ومزيد اللطاف يخصص بها عباده المخلصين. أما هدايته التي هي دلالة وارشاد الى معالم الحق والطريقة الوسطى فهي عامة شاملة لجميع المكلفين على ما سبق تحقيقه غير مرة^١.

٢٠١- «كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون - الروم: ٥٩». تقدم انه اخبار عن واقعية سوداء هم اكتسبوها بمرورهم على الطغيان والاستكبار عن قبول الحق. وجاء التعبير استعارة ومجازاً عن تلك الحالة القاسية التي انطوت عليها قلوبهم الجافة. وقد صرح بهذا التشبيه في قوله تعالى: «واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً، كأن لم يسمعها، كأن في اذنيه قرأ - لقمان: ٧». في حين أنه تعالى ذكر في كثير من الآيات: أنهم لا يسمعون، وفي آذانهم قر. فعلنا أن جميع ذلك من المجاز في التعبير، وسنبحث عن معنى الطبع والختم والوقر وما شاكل في فصل قادم ان

١- راجع - بالخصوص - : مسألة الهداية والتوفيق في مراحلها الخمس ص ١٩٨

فما بعد .

شاء الله . كما تقدّم وجه نسبة ذلك الى الله ^١ .

٢٠٢- «ولو شئنا لآتيناً كل نفس هديها - السجدة : ١٣» . أى هداية تكوينية بالالغاء على الهدى . الأمر الذى يتنافى مع دار التكليف والاختبار . وقد تقدّم ذلك ص ١٩٣ برقم : ٢٧ .

٢٠٣- كما تقدّم هناك أيضاً تأويل قوله تعالى - بعد ذلك :- «ولكن حق القول منى لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين - ١٣» . أى حقّ القول منى أن لا أكره أحداً على التكليف والطاعة ، بل أدعهم مختارين فى الاطاعة والعصيان ، تحقيقاً للحكمة التكليف الذى هو الاختبار ، ولا اختبار مع الالغاء . الأمر الذى يؤول فى نهاية المطاف الى دخول كثير من الجنة والناس النار بسوء اختيارهم وقبيح تصرفاتهم فى هذه الحياة ^٢ .

بدليل الآية قبلها : «ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً انا موقنون - ١٢» . هذا ابداء مرير لغاية الندم على ما فرطوا فى جنب الله . الامر الذى يكشف بوضوح أنه لم يكن الجاء على كفر ولا اكرهه على عصيان ، ولا أنه تعالى خلق أحداً ليدخل جهنم . وانما يدخلها من استحقتها بنفسه واكتسبها بجهدته وألقى بيده الى التهلكة .

وهكذا جاءت الآية بعدها : «فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون - ١٤» صريحاً فى القاء تبعات الأمر على عاتقهم فكانوا هم المسؤولين عن موقفهم هذا الفظيع !

٢٠٤- « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً

١- راجع الصفحة ٢١٠ - ٢١١

٢- راجع الصفحة ١٩٣

– الاحزاب : ٣٣ . يعنى مزيدعناية وألطف ، وهو تكريم خاص منحه الله لأهل بيت نبيه – صلى الله عليهم – حيث استعدادهم لتلقى هذا الفيض القدوسى الجليل . الامر الذى لا يرتبط ومسألة الجبر فى الهداية كما يرومه الاشعرى بالدات . والكلام عن هذه الآية الكريمة يستدعى استيفاء لايسعه هذا المجال .

٢٠٥ – « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة – الاحزاب : ٣٦ . القضاء فيها بمعنى الحكم التشريعى من ايجاب أو الزام تكليفى ونحو ذلك .

٢٠٦ – « ليخرجكم من الظلمات الى النور – الاحزاب : ٤٣ » . تقدم الكلام فى نظيرتها برقم : ١٤ ص ٢١٤ – ٢١٥ .

٢٠٧ – « و كان امر الله مفعولاً – الاحزاب : ٣٧ . أى قضاؤه المبرم فى التكوين الامر الذى لا يمس مسألة الهداية فى التشريع .

٢٠٨ – وهكذا قوله : « و كان امر الله قدراً مقدوراً – الاحزاب : ٣٨ » .

٢٠٩ – « فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء – فاطر : ٨ » . تقدم الكلام عن نظائرها فى عدة مواضع . وأن المقصود : خذلان من يستحقه ، والعناية بشأن من يستأهله .

٢١٠ – « ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ، ان أنت الا نذير – فاطر : ٢٣ – ٢٢ . تقدم الكلام فى نظائرها ، وأنها نفى لمسؤوليته ﷺ عن قبول الدعوة ، وانما عليه البلاغ . أمّا الذى أعرض عن ذكر ربه ونسى لقاء الآخرة وجعل على بصره غشاء التعمية فلا يكاد يفقه حديثاً فهو كميّت فى القبر « انك لاتسمع الموتى » .

لكنه تعالى يعلم من الناس المحل الصالح ، ممن استعدوا بانفسهم لتلقى فيوضاته
القدسية ، فيضع فيهم حكمته ويفتح عليهم ابواب بر كاته .

٢١١- «انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي الى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا
من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً . فاغشيناهم فهم لا يبصرون - يس : ٨ - ٩» .
هذا تشبيه لحالتهم التعمنية تجاه الحق ، بالمغلول الممنوع بالسد والحجب ،
من حيث لم ينتفع بما سمع ، واعرض عن الاستدلال . وقد تقدم الكلام عن مثله
برقم : ٥٥٤ ص ٢١٠-٢١١ .

٢١٢ - «أفمن حق عليه كلمة العذاب . أفأنت تنقذ من في النار - الزمر :

١٩» .

حق عليه كلمة العذاب ، بسبب صموده تجاه قبول الحق واصراره على
المعاصي والآثام ، فقد أحاطت به خطيئته وقادته الى الجحيم حيث موى الظالمين .
الامر الذي حال دون تأثير الدعوة فيه فلا يتعظ أبداً .
وهذا من تشبيه عاجله بأجله ، وتبئيس للنبي ﷺ فلا تذهب نفسه الكريم عليهم
حسرات .

٢١٣- « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - الزمر : ٢٢ »

تلك عناية ربانية وتوفيق إلهي خاص ، ينعم به اولئك الذين جاهدوا في الله وسعوا
في لقاء وجهه الكريم .

٢١٤- «ومن يضل الله فماله من هاد . ومن يهد الله فماله من مضل - الزمر :

٣٦-٣٧» . ذلك خذلان وحرمان وهذا توفيق وتسديد ، كل حسب استعداده والصلاحية
التي اكتسبها لنفسه .

٢١٥- «وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدعن السبيل - المؤمن : ٣٧» .
زينته له نفسه وصدته خطيئاته . وتقدم مثله برقم : ١٨٩-١٩٠ .

٢١٦- «وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا قر ومن بيننا وبينك حجاب - فصلت : ٥» هذا تشبيه وتمثيل ، واخبار عن واقعية سوداء مظلمة اكتسبها بما اقترفوه من خطايا وآثام ، فجعلتهم صخرة صماء فى غاية قسوة وجفاء . وقد صرح بهذا التشبيه فى آية اخرى : «واذا تنلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه قرأ - لقمان : ٧» . وتقدم الكلام فى نظائرها . وتقدمت هى بالذات فى صفحة ٢١٠ .

٢١٧- «وقبضنا لهم قرناء . فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحقّ عليهم القول - فصلت : ٢٥» .

أى خيلنا بينهم وبين أبالسة الجن ، هذاخذلان مرير استوجبوه لأنفسهم بما اقترفوا من آثام ووقفوا فى وجه الحق وكافحوه .
وقد تقدم الكلام فى نظائر الآية من سورة مريم ، آية : ٨٣ برقم : ١٦٢ ص ٢٨٥
وسورة النمل ، آية : ٢٤ برقم : ١٩٠ ص ٢٩٦ .

٢١٨- «والذين لا يؤمنون ، فى آذانهم قر ، وهو عليهم عمى - فصلت :
٤٤» . تقدم الكلام فى نظيرتها برقم : ٢١٦ .

٢١٩- «ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة - الشورى : ٨» . هى مشيئة إلهاء لم يشأها الله بشأن هذه الحياة التى هى دار تكليف واختبار . الامر الذى لا يتناسب مع سوى الاختيار .

٢٢٠- «لاحجة بيننا وبينكم - الشورى : ١٥» . قالوا : إنه يدلّ على ان

لاحجة على الذين كفروا ، وانماهم معذورون على الكفر والعصيان !

قلنا : هذا بطل من ضرورة الدين ، اذ الحجة تمت على الكفار والعصاة جميعاً
« قل فله الحجة البالغة - الانعام : ١٤٩ » . أما الحجة المنفية في الآية فقد فسرها
مجاهد بالمخومة . لأنها لازمها ، ففسر الشيء بلازمه .

والصحيح أن المقصود : أن الحجة قدمت حيث ظهر الحق بيننا وبينكم . ولم يبق
مالاتعلمونه لنحتج به عليكم ، سوى اللجاج والناد ، ومن ثم فانا نكف عنكم الآن
لنلتقى جميعاً على صعيد القيامة ، فيحكم الله بيننا وبينكم . والاية - بطولها - تدلّ
على هذا المعنى ، قال تعالى : « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب . وامرت لأعدل
بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لاحجة بيننا وبينكم . الله يجمع
بيننا واليه المصير . الذين يحاجون في الله من بعد ما استجب له ، حجتهم داحضة
عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد - الشورى : ١٥ - ١٦ » ومن ثم قال ابو على
الطبرسي : الآية غاية في التهديد .^١

٢٢١ - « ومن يضل الله فماله من ولي من بعده - الشورى : ٤٤ » أى من يخذله الله
على أثر معاندته مع الحق . وقد تقدّم ذلك في مسألة « الخذلان - ص ٢٠٤ » .

٢٢٢ - « ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وانك لتهدى الى
صراط مستقيم - الشورى : ٥٢ » .

الهداية من الله - في الآية - هي التوفيق والمزيد من أطفاه الخاصة يختص بها
المؤمنون من عباده الذين جاهدوا في سبيل لقاء ربهم . وأما التي يقوم بها النبي
ﷺ فهي هداية ارشاد ودلالة ، تعم جميع المكلفين ، على ما سبق تفصيله . راجع :
مسألة « الهداية والتوفيق - ص ١٩٨ » .

٢٢٣ - « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم - الزخرف : ٢٠ » . وقد ضمت

١ - راجع : مجمع البيان ج ٩ ص ٢٥

الإشاعة أصواتها إلى أصوات المشركين في مزعومة الجبر في التكليف .
لكنه تعالى رد عليهم بقوله : « ما لهم بذلك من علم انهم الا يخرصون - ٢٠ » .
وقد تقدمت الآية برقم ٣٥ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

٢٢٤ - « ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين - الزخرف :

٢٣٦ » . قد تقدم الكلام في نظير الآية برقم : ١٦٢ ص ٢٨٥

٢٢٥ - « أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ؟! - الزخرف : ٤٠ » . ايضاً تقدم

الكلام في نظائرها الكثيرة منها برقم ١٩٧ ص ٢٩٨ .

٢٢٦ - وهكذا قوله : « أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه واضله الله على علم وختم

على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة . فمن يهديه من بعد الله - الجاثية :

٢٢٣ . تقدم الكلام في الاضلال والختم والطبع وما شاكل في عدة مواضع .

٢٢٧ - « واذا صرفنا اليك نفرأ من الجن يستمعون القرآن - الاحقاف : ٢٩ » .

لا يدل على انه تعالى ارسلهم ليستمعوا ، وانما لطف بهم واعانهم بتمهيد السبل

ليحضروا هم باختيارهم عند النبي ﷺ ويستمعوا القرآن .

٢٢٨ - « اولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » انه خذلان استوجبوه

على انفسهم بالذات ، ومن ثم كان التعقيب : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب

أفقالها ؟! - سورة محمد : ٢٣ - ٢٤ » بصورة استنكار وتوبيخ !

٢٢٩ - « ام حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم -

سورة محمد : ٢٩ » .

نزلت بشأن المنافقين ، كانوا قد استسروا عداوة الرسول ﷺ وتواطؤوا

على النكايه به ، لكنّه تعالى فضحهم وأظهر ما حاولوا كتماناه من نفاق ومراوغه خبيثة .

٢٣٠- «وكفّ أيدى الناس عنكم - الفتح : ٢٠» .

٢٣١- «وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم - الفتح : ٢٤» .
اي مهدالاسباب التى يحصل معها الكف المذكور . فقد منع المسلمين من مقاتلة الكفار بالنهى والزجر . ومنع الكفار من منابذة المسلمين بالقاء الرعب فى قلوبهم ، وهكذا .

٢٣٢- «ولكن الله حبّب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان - الحجرات : ٧» .

حبب الايمان بنصب الدلائل على حسنه وصحّته ، كما وعد الثواب عليه والرضوان . وزينه بألطافه الخاصة وعناياته الكريمة . وكره الكفر بنصب الدلائل على قبحه وبالنهى عنه والوعيد عليه .

وهذا عامّ بالنسبة الى جميع الناس ، غير أن الذين استجابوا لهذه الدعوة هم الذين وعت نفوسهم وانصاعوا لنداء الفطرة الاولى وبقى المنحرفون يهيمون فى وادى الضلالة تائهين .

قال تعالى : «ولكن الله يمنّ عليكم أن هديكم للايمان - الحجرات : ٢٧» .

٢٣٣- «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ، ألحقنا بهم ذريتهم - الطور : ٢١» . قالوا : يدل على أن الابن يصبح مؤمناً بايمان الأب . الامر الذى يشف عن لاختيارية الايمان بعض الشيء .

قلنا : الآية بصدد تعداد النعم التى يفيضها الله فى دار الآخرة على المؤمنين . فمنها : أن الاولاد سوف يهدون الى آبائهم فى الجنة لتقرّ أعينهم . لكن بشرط أن

يكون الأولاد قد تبعوا الآباء في الإيمان . أى يكونوا مؤمنين كما كان آباؤهم مؤمنين .
الأمر الذى لا يدل على إلهاء أو خروج عن الاختيار .

نعم قد يكون عمل الآباء وحسن تصرفاتهم من العوامل التى دعت الى إيمان
الأولاد ، وهذا لاضير فيه ، ومن ثم فقد يعود ثواب الأولاد الى الآباء باعتبار كونهم
السبب ، وبهذا اللحاظ ربما صح إطلاق المتابعة ، وإثابة الآباء بإيمان الأولاد .

لكن من غير أن ينقص من ثواب الأولاد شىء . كما لا ينقص من ثواب المؤمنين
الذين استجابوا لله وللرسول ، مع أن الفضل فى إيمانهم يعود الى الرسول ، وهو
الذى يثاب على دعوتهم للإيمان . والى هذا المعنى ، واستدراكاً لما قد يتوهم
خلافه ، يشير قوله تعالى تعقيباً على ذلك : « وما ألتناهم من عملهم من شىء » ثم قال
- تأكيدياً :- « كل امرء بما كسب رهين » . فلا ينقص من ثواب الابناء ، ثواب إيمانهم
وثواب أعمالهم الصالحة ، شىء . اذ كل امرء بما كسب من خير أو شر رهين .

٢٣٤- « وأنه هو أضحك وأبكى - النجم : ٢٣ » أى ما يوجب السرور والحزن
من رخاء وجذب . وقد تقدم ذلك (ص ١٨٩) .

٢٣٥- « ليخرجكم من الظلمات الى النور - الحديد : ٩ » بهدائه التشريعية .

٢٣٦- « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة - الحديد : ٢٧ » . بتوفيقه
والمزيد من عنايته وألطافه .

٢٣٧- « لتلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرن على شىء من فضل الله - الحديد :

٢٩ » .

زعمت الأشاعرة دلالة الآية على نفى القدرة . أى ليعلم أهل الكتاب أنهم
غير قادرين على الاهتداء إلا أن يشاء الله .

قلنا : فسرت الآية على ثلاثة وجوه :

الأول : أن تكون « لا » زائدة وضمير الجمع في « أن لا يقدر » يعود على أهل الكتاب ، أي ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدر على احتجاز شيء من رحمته تعالى ، « وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » ممن استحقّه ومهدّ لذلك الأسباب .

وهذا كبح صارم لما كان أهل الكتاب يتشدّدون به من اختصاصهم بفضله تعالى : « قالوا كونوا هوداً أونصارى تهتدوا - البقرة : ١٣٥ » . « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أونصارى - البقرة : ١١١ » . فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، غير مقصور على قوم ولا محجور لطائفة ، ولا محدود ولا قليل « والله ذو الفضل العظيم - الحديد : ٢٩ » .

الثاني : أن يعود ضمير الجمع الى المؤمنين ، أي إنّما وعدنا المؤمنين كفلين من رحمتنا لئلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدر على شيء من فضل الله . وعليه « لا » أصلية . فمفاد الآية على ذلك هو إثبات قدرة المؤمنين على تحصيل فضله تعالى ورحمته بفعل الأسباب الموجبة لها .

الثالث : انه نفى لليأس والقنوط الذي كاد يعتور أهل الكتاب ممن لم يؤمنوا ، فحسبوا من أنفسهم الابتعاد عن رحمته تعالى حيث غضب عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبدا الطاهوت .

فجاءت الآية مسلية وباعثة في نفوسهم الرجاء والامل في فضله تعالى ، وان المجال امام الراغبين في شمول رضوانه تعالى واسع ، حيث الاسباب المؤاتية لذلك موفورة بالدخول في حوزة الاسلام والرضوخ لتكاليفه القيمة .

ويشهد لصحة هذا المعنى ، أن الآيات المتقدمة على هذه الآية جاءت ترغيباً للمؤمنين بالمسارعة الى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والارض . اعدت للذين آمنوا بالله ورسله - ٢١ - ثم تعرجت الى امم سالفة فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ٢٦ - ثم قفى على آثارهم بعيسى بن مريم ، وكان قد جعل الله في

قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية فما رعوها حق رعايتها ، « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون - ٢٨ » .

هذا تفصيل لبيان احوال أمم غابرة وحاضرة . ثم وجه ندائه العام الى من آمن و اتقى و وعدهم كفلين من رحمته ونوراً يهتدون به فى ظلمات الحياة . - ٢٩ - .

قال المفسرون : هذا الخطاب الأخير يعنى المؤمنين من أهل الكتاب خاصة الذين آمنوا بالله ورسوله : « يا أيها الذين آمنوا » بأنبياء سابقين ايماناً صادقاً « اتقوا الله و آمنوا برسوله » الحاضر محمد ﷺ « يؤتكم كفلين » أى نصيبين « من رحمته » نصيباً لا يمانكم السابق القديم ، ونصيباً لا يمانكم اللاحق الحديث .

وهذه الزيادة من عنايته تعالى بشأن هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب لدليل واضح على أن أبواب رحمته تعالى مفتحة للراغبين فى شمول رضوانه والدخول تحت فضله ولطفه ، مهما كانت جنسية الطالبين المجاهدين فى سبيل لقاءه تعالى .

اذن فكان هذا اللطف والعناية الخاصة « لئلا يعلم أهل الكتاب » ممن تخلفوا عن الايمان برسول الاسلام « أن لا يقدر على شىء من فضل الله » . فلا يذهب وهمهم انهم قد أسوا من رحمته ، أو أن لعنته تعالى شملتهم الى الأبد ، وحالت دون امكان التوبة والرجوع الى فضله تعالى ورحمته !! كلا .

فليأخذوا من ايمان اخوانهم الذين أسلموا دليلاً على امكان ايمانهم متى شاؤوا ووافقهم التوفيق .

« وأنّ الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء » من عباده المؤمنين فى أى وقت وأى مكان ومن أى جيل أو أمة طائفة . « والله ذو الفضل العظيم » فلا يقصره على قوم دون قوم ولا جيل دون جيل . وفى ذلك ترغيب جميل لمن شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً - الانسان : ٢٩ - وتزهد لطيف فى اليأس والقنوط عن رحمته تعالى

الواسعة .

وهذا المعنى الأخير هو اختيارنا بالذات ، ونراه الأصح والأوفق بسياق الآية ، فتدبر .

٢٣٨- « اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأبدهم بروح منه - المجادلة :

٢٢ » .

أى علم الله أنهم يؤمنون حقاً فأبدهم بروح منه ، وزاد فى عنايته لهم .

٢٣٩- « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم - الحشر :

٢ » أى مهد أسباب خروجهم ، بتأييد المسلمين ونصرهم ، وإلقاء الرعب فى قلوب أهل الكتاب من بنى النضير ، فانجلوا من أرض يثرب الى أذرعات الشام ، أخرجهم رسول الله ﷺ فى قصة طويلة .

٢٤٠- « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة

عذاب النار . ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب -

الحشر : ٣-٤ » .

أى علم منهم ذلك . وفى الحقيقة لولا انهم انجلوا ، وكانوا حاولوا البقاء ومخالفة

أمر الرسول ﷺ فى الخروج ، لأنزل عليهم العذاب بالقتل والاستئصال على أيدى

المسلمين ، كما فعل بيسى قريظة .

٢٤١- « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن - التغابن : ٢ » . لا يدل على

أنه تعالى خلقهم كفاراً أو مؤمنين . والالكان الواجب - حسب قواعد الأدب - النصب

« فمنكم كافرأ ومنكم مؤمناً » . قال أبو على : فلما ذكر تعالى بالرفع دل على أن

الكفر والايمان من فعلهم لامن خلق الله فيهم ، أى فمنكم من كفر ومنكم من آمن .

١- مشابهاة القاضى ج ٢ ص ٦٥٥ الفقرة : ٧٧٤

لأنَّ الرفع يدلُّ على فعلية النسبة حال التكلم اذا لم تقم قرينة قطعية على خلافها .

٢٤٢- «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين -التين : ٤-٥» ، أى بمخالفته لنظام الفطرة والشريعة أخذ في التسافل والانحطاط عن منزلة الانسان الكريمة . ومن ثمَّ قال تعالى على جهة الاستثناء : «الالذين آمنوا وعملوا الصالحات -٦» . وأما الاسناد الى الله فمن جهة أنه تعالى أقدره على اختيار السوء والفساد ، حسبما تقدّم غير مرّة .

٢٤٣- «لكم دينكم ولي دين -الكافرون : ٦» . لا يدلُّ على الترخيص ، وانما هو على سبيل اللوم والتوبيخ لهم على التمسك بما هم عليه من الباطل ، الأمر الذى يشفّ عن قدرتهم على الاقلاع والعدول عنه الى دين محمد ﷺ .

* * *

مسألة الاستدراج

الاستدراج مأخوذ من الدرج وهو المشى فى أناة خطوة خطوة ، يقال : درج الصبى أى مشى على حيطه وحذر فى خطى قصيرة . والأمُّ تستدرج ولدها : تجعله يمشى كذلك ، أى تواكبه فى المشى المذكور تدريجاً له .

وقد اصطلح استعماله فى امهال العصاة ليزدادوا غياً وجهالة . كأنَّ النعم المتوافرة عليهم تواكبهم فى مسيرهم الى الضلال فيحسبوا أنَّهم على هدى وأنَّهم يحسنون صنعاً . الأمر الذى يزيد فى ضلالهم والابتعاد عن الحق فلا ينفكفون الى طريق الرشد والصلاح أبداً . ومن ثمَّ فسره أهل اللغة بالخدعة . وهذا التفسير صحيح الى حدِّ ما ، اذا ما لاحظنا المبدأ القائل : «خذ الغايات ودع المبادئ» . فالله تبارك وتعالى انما يفعل بالكافر المعاند ما يستحقّه من عقوبة عاجلة . وكاد يشبه فعل المخادع الذى يحاول خداع غريمه . والكافر هو الذى ينخدع بوفرة النعمة عليه ، لفرط حمقه وجهالته

وليس الله بالذى حاول خدعه .

والاستدراج هو نوع خذلان استحققه العاصى المتمرد، واستوجه لنفسه على أثر صموده فى الغى والضلال، فلاتكاد تؤثر فيه الموعظة اطلاقاً، ومن ثم يتركه الله ونفسه فى غياهب هذه الحياة المغرية، المغررة بالمفتتن بها .

انّ المغتر بهذه الحياة الدنيا ، المعجب بلذائدها السفلى ، لايزال يزداد نهماً وانهماكاً فى مطالب مبتذلة وخسيسة الى حد بعيد. الأمر الذى يزيده ابتعاداً عن معالم الانسانية العليا ، وعن الاستقامة على الطريقة المثلى الكريمة .

وقديبلغ به التيه الى حيث لايرعوى وانبلغ به الجهد مبلغه فى العطب والعناء فقد تمكن الشيطان من نفسه وغلبه هواه وصرعته الخطايا والآثام، الأمر الذى افتقد معه جميع دلائل الحياة، فلافعالية له ولا ارادة ولا ادراك ولا احساس: «ان شر الدواب عندالله الصم البكم الذين لايعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم -والحال هذه - لتولوا وهم معرضون - الانفال: ٢٣» .

اذن فلافائدة فى التضييق على مثل هذا الهائم فى بقاء الضلال «انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولو امدين - النمل: ٨٠» فيوفر الله عليه نعمه فى هذه الحياة، فلايمدداً الى حاجة الاوقد نالها، ولاينطلق فى جهة الاوقد وافته الإمانى وأقبلت عليه الدنيا بكل زخارفها، فلايزداد الا اغتراراً وابتعاداً عن رضوانه تعالى فانقلبت نعم الله عليه نقماً وخذلاناً ، كما كانت البلايا بالنسبة الى المؤمن الصالح نعماً وأطافاً .

قال أبو عبد الله الامام الصادق عليه السلام : «إن الله اذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً

١- تقدم تفسيرنا لاية الحيلولة : ٢٤ من سورة الانفال ص ٢٤١ ، بهذا المعنى ، فقد حالت الخطايا بينهم وبين قلوبهم فلايكادون يفقهون شيئاً .

٢- لان فى التضييق قد يكون انقلاع عن المعصية ورجوع الى الله بالانابة اليه ، فهو لطف - أحياناً - وتوفيق ، يمنعه تعالى عن المتمرد العنود ، حيث العلم بعدم التأثير .

أتبعه بنعمة ويذكره الاستغفار . وإذا أراد بعدد شرّاً فأذنب ذنباً ، أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها ، وهو قول الله عز وجل : «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» . قال: بالنعم عند المعاصي .

وسئل عليه السلام عن الاستدراج ، فقال : «هو العبد يذنب الذنب فيملى له ويجدد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب ، فهو مستدرج من حيث لا يعلم» . وفي رواية اخرى : قال : «هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه . تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب» .

وقال : «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه ؟! او كم من مستدرج بستر الله عليه ؟! وكم من مفتون بثناء الناس عليه ؟!» .

* * *

واليك من الآيات الكريمة ما يخص مسألة « الاستدراج » إما بتصريح أو تلويح :-

١ - قال تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . واملئ لهم ان كيدى متين - الاعراف : ١٨٢-١٨٣ » .
الاملاء: الامهال . والكيد - في الآية - يعنى حصيلته ، تشبيهاً بمن يحاول الخداع .
وفي الآية تصريح بأن الاستدراج على المعاصي انما يخص اولئك الذين كذبوا بآياته تعالى وسعوا في آياته معاجزين .

٢- « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . واملئ لهم ان كيدى متين - القلم : ٤٤-٤٥ » . وهذه الاية - بملاحظة سياقها - اصرح في الاختصاص المذكور .

١- الاحاديث مستخرجة من الكافي الشريف (الاصول) ج ٢ ص ٤٥٢ .

٣- « ولا يحسبن الذين كفروا أن مانملى لهم خير لأنفسهم . انما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين - آل عمران : ١٧٨ » .
اللام فى « ليزدادوا » للعاقبة . أى كانت وفرة النعم عليهم وغفلتهم عن الآخرة مما تنتهى الى الازدياد من الاثم والاجرام .

٤- « ولقد استهزىء برسلى من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب - الرعد : ٣٢ » . الاملاء هو الاستدراج عقوبة عاجلة .

٥- « فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير - الحج : ٤٤ » .

٦- « وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير - الحج :

٤٨ » .

٧- « فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون - الانعام : ٤٤ » .

٨- « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهى أنفسهم وهم كافرون - براءة : ٨٥ » . هذه الارادة هى تكوينية ، اخبار عن واقعية سوداء اكتسبوها لانفسهم بسوء اختيارهم .

٩- « لا يغررك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأويهم جهنم وبش المهاد - آل عمران : ١٩٦-١٩٧ » .

١٠- « وامم ستمتهم ثم يمسه مناعذاب أليم - هود : ٤٨ » .

١١- « فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيعسبون أن مانمدهم به من مال وبنين ،

نسارع لهم في الخيرات؟! بل لا يشعرون - المؤمنون : ٥٤-٥٦ .»

١٢- «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون - الحجر : ٣٠» .

١٣- «كلوا وتمتعوا قليلاً انكم مجرمون - المرسلات : ٤٦» .

١٤- «انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً . فمهل الكافرين أمهلهم رويداً -

الطارق : ١٥- ١٧» .

١٥- «ولولا أن يكون الناس امة واحدة - (كافرة) - لجعلنا لمن يكفر

بالرحمن لبيوتهم سققاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . وليبوتهم ابواباً وسرراً عليها يتكثون ، وزخرفاً وان كل ذلك لما متاع الحيوّة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين - الزخرف : ٣٣- ٣٥» .

وذلك لأن أكثرية الناس ذووا ايمان ضعيف ، وانما تبهرهم زبارج هذه

الحياة وزخارفها ، فاذا ما وجدوها خاصة بالكافرين لهب أكثرهم الى الكفر ونسوا الآخرة .

والآيات من هذا القبيل في القرآن كثير ، ذكرنا منها نماذج عن البقية ، وهي

في مجموعها لا تتجاوز المائة آية .

الاستهزاء والخديعة

جاء في القرآن تعابير : «الاستهزاء» و «السخرية» و «الخديعة» و «المكر»

و «الكيد» . وانما هي أفعال تنم عن قبح وسفاهة لا يرتكبها الحكيم ، ومن ثم لما

قال بنو اسرائيل : «أتتخذنا هزواً؟! » قال موسى - مستنكراً لهذه النسبة - :

«أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين - البقرة : ٦٧» .

وقد تناول العلماء لذلك تأويلات لطيفة وتخريجات أدبية بدیعة! قال الامام جار الله

الزمخشري : والخدع : أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه . الامر
الذي لا يصح من الله ولا من المؤمنين . لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع .
والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع غيره . والمؤمنون وان جاز أن يخدعوا لم
يجز أن يخدعوا ، الأثرى الى قول الشاعر :

واستمطر وامن قريش كل منخدع
ان الكريم اذا خادعته انخدعا

فقد جاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع !

ثم أخذ في تأويل قوله تعالى : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون
الأنفسهم وما يشعرون - البقرة : ٩ » . وذكر وجوها ، منها : أن يقال : كانت صورة
صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالايان وهم كافرون ، صورة صنع الخادعين .
وصورة صنع الله معهم - حيث أمر باجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في
عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار - صورة صنع الخادع . وكذلك
صورة صنع المؤمنين معهم حيث امثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم .
قلت : في التعبير أولاً بـ « يخادعون » ، و بـ « يخدعون » ثانياً ، نكتة لطيفة
وهي : أنهم يحاولون خداع الله والمؤمنين ، لكنهم لا يخدعون فتصبح محاولاتهم
فاشلة ، أما حقيقة الخديعة فانها تقع بهم بالذات ، حيث انهم هم الذين يخدعون
بما يتوهمون من تأثير محاولاتهم الفاشلة .

انهم يدبرون المكائد بالمسلمين ويبطنون كفراً في ظاهر اسلام ، زاعمين
انهم بهذه الاساليب الجهنمية سوف يعبرون بأهدافهم على عقول المؤمنين . غير
أن الله يفضحهم بين آونة واخرى وتصبح مكائدهم تفشل واحدة تلو اخرى . أما
عيشتهم فعيشة قلق مضطربة ، « يحسبون كل صيحة عليهم - المنافقون : ٤ » . اما
المؤمنون ففي هناء من العيش آمنين مطمئنين . كما أن أحكام الاسلام برمتها تجري

١- تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٦-٥٧ ط بيروت .

على المنافقين وعلى المؤمنين على سواء ، في حين أنَّ المؤمنين يقومون بها عن يسر ورحابة صدر ، ويقوم المنافقون بها عن كراهية وعن مشقة شديدة حيث فقد العقيدة الميسرة للتكاليف . «واذا قاموا الى الصلوة قاموا كسالى - النساء : ١٤٢ . «ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون - براءة : ٥٤ .

والخلاصة : ان المنافق المراوغ يحاول الخداع بالمؤمنين ، ويقوم بأساليب هويلزها خداعة ، غير أنَّ الواقعية تعاكسه ويكون هو المنخدع بالذات :-

أولاً : لأنَّ دسائسه تفتضح على الملأ ويعود وبالها عليه في نهاية المطاف ، «ولا يحيق المكر السيء الا بأهله - فاطر : ٤٣ .»

وثانياً : لأنه متحمل صعوبة التكليف مع فقد العقيدة الميسرة .

وثالثاً : عيشته الفلقة لا يغمض جفنيه عن ارتياح نفسه أبداً ، خوف الفضح وانكشاف واقعه الخبيث .

* * *

وهكذا صحَّ التعبير بالاستهزاء لهم . انهم يحاولون الاستهزاء بالمؤمنين غير ان الله هو الذى يستهزى بهم باقرارهم على اسلامهم الظاهري فيحملهم تكاليف الاسلام الشاقَّة عليهم بالذات ، في حين ارعابهم بين حين وآخر بفضح دسائسهم ومكائدهم بين الاشهاد ، وجعلهم في اضطراب نفسى دائم ، وفي الآخرة لهم عذاب أشدَّ وأبقى .

فالتعبير بالاستهزاء من جانبه تعالى تعبير مجازي ، رعاية للمشكلة اللفظية التي هي من فنون البديع ، ولأنَّه تعالى يفعل بهم ما يشبه فعل المستهزئين ، حيث يدعهم يخبطون على غير هدى ، في طريق لا يعرفون غايته ، واليد الجبارة تلتفهم في نهايته . قال سيد قطب : كالفتران الهزيلة تتواثب في الفخ ، غافلة عن المقبض المكين . وهذا هو الاستهزاء الرعيب ، لا كاستهزائهم الهزيل الحقير .

« واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن . الله يستهزىء

بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون - البقرة: ١٤-١٥».

انها معاكسة طبيعية تجابهم في أشدّ وقعتها «خذ الغايات واترك المبادئ»
انه تعالى وان كان لا يخدع احداً ولا يستهزيء بأحد ، لكنه يردّ كيد الخائنين في
نحورهم ويجعل من الواقعة بحيث تعاكس أهدافهم وتخيب آمالهم الى ما يناقضها
في نهاية المطاف .

قال الزمخشري : معنى استهزاءه تعالى بهم انزال الهوان والحقارة بهم
لأنّ المستهزيء غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وادخال
الهوان والحقارة عليه وقد كثرت التهكم في كلامه تعالى بالكفرة ، والمراد به تحقير
شأنهم وازدراء أمرهم ، والدلالة على أنّ مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساحرون
ويضحك الضاحكون . وأيضاً فقد سمي جزاء الاستهزاء باسمه ، كقوله : « وجزاء
سيئة سيئة مثلها - الشورى : ٤٠ » وقوله : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما
اعتدى عليكم - البقرة : ١٩٤ » . فان قلت : كيف ابتدأ قوله : « الله يستهزيء بهم »
من غير عطف على كلام قبله ؟ قلت : هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة . وفيه
أن الله عز وجل هو الذي يستهزيء بهم الاستهزاء الأبلغ ، الذي ليس استهزأؤهم
اليه باستهزاء . ولا يؤبه له في مقابلته ، لما ينزل بهم النكال ويحلّ بهم من الهوان والذلّ .

* * *

ومن ثمّ جاء تفسير قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين - آل
عمران : ٥٤ » في آية اخرى يهدم بنيانهم من الأساس ، تجاه ما قاموا به من دسائس
وخيانات ، قال تعالى : « قدمكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد - النحل :
٢٦ » أي عاكستهم الواقعية ، اذ « وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون - الانعام : ١٢٣ » .
« ولا يحق المكر السيء الا بأهله - فاطر : ٤٣ » . وقال تعالى موضعاً لموقفه مع
المنافقين الماكرين : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا
يمكرون - الانعام : ١٢٣ » .

١ - الكشاف ج ١ ص ٦٦ - ٦٧

وأنت اذا قارنت بين قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد - النحل : ٢٦ » . وقوله : « وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً - الرعد : ٤٢ » عرفت - بوضوح - أن المقصود من مكره تعالى هي المعاملة بالمثل بما يناقض أهدافهم ويهدم أساس بنيانهم المنهار ، وكانت التسمية من باب التشاكل في التعبير لا غير .

وكذلك « كيدته تعالى » لا يعدو الجزاء بمماثلة أعمالهم « انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً - الطارق : ١٥-١٧ » انهم يدبرون المكائد المفضوحة العائذ وبالها على أنفسهم بالذات ، فربما كان تعالى يستدرجهم بالنعم والموفيقية في شيء من دسائسهم ، غير أن الله سوف يأخذهم أخذ عزيز مقتدر « أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون - الطور : ٤٢ » . « ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين - الانفال : ١٨ » . « وأملى لهم ان كيدى متين - الاعراف : ١٨٣ و القلم : ٤٥ » .

* * *

وقس على ذلك سائر الآيات التي جاء فيها ذكر الخداع والاستهزاء والسخرية والكيد والمكر ، منسوبة الى الله سبحانه . فانها تخرج جميعاً على نسق واحد حسبما تقدم . قال تعالى : « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم - النساء : ١٤٢ » أي يفعل بهم فعل الخداع حسبما تقدم في كلام الزمخشري .

وقال تعالى : « فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم - براءة : ٧٩ » . « قال ان تسخروا منافقاننا نسخر منكم كما تسخرون - هود : ٣٨ » . وهذه السخرية المماثلة يفسرها قوله تعالى : « فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن - الانبياء : ٤١ » . فقد كان الكفار يستهزؤن من المؤمنين ، قيامهم بتكاليف وأعمال عبثية - حسبما كانوا يرون - لكنهم أصبحوا موضع سخرية المؤمنين بما فاجأهم من العذاب المهين .

وقال تعالى : « كذلك كدنا ليوسف - يوسف : ٧٦ » . أى دبّرنا له أسباب النجاح والموفقية بما كان يخفى على اخوته ، وقد حاولوا أن يكيدوا به كيداً ، غير أنّ محاولتهم فشلت فأصبحوا من الصاغرين .

وقال تعالى : « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون - النمل : ٥٠ » . أى دبروا ووقدّروا ودبرنا ووقدرونا وهم لا يشعرون أنّ لهم الصفقة السفلى الخاسرة ، وأنّ يدالله هي العليا . « قل الله أسرع مكراً - يونس : ٢١ » . « ومكر اولئك هو يبور - فاطر : ١٠ » . « ولا يحق المكر السيء الا بأهله - فاطر : ٤٣ » .

وقوله تعالى : « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها - الانعام : ١٢٣ » . اللام فيها للعاقبة . أى إنّ المجتمعات البشرية غير المهذبة تجعل من الناس طبقة أكابر هم يستغلّون موارد طبقة الأصاغر بحيل وتدابير شيطانية ظالمة ، غير أنّ حياة الظلم بترأ ، لا يدوم معها عيش هنىء ويوشك أن يدور عليهم الرحى فينقلبوا هالكين . ومن ثمّ جاء تعقيب الآية بقوله : « وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون » ثمّ قال : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون - الانعام : ١٢٣ - ١٢٤ » .

وقد تقدمت الآية برقم : ٥٩ ضمن آيات الهداية والاضلال . ص ٢٢٦ .

وقوله تعالى : « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين - الانفال : ٣٠ » أى يدبّرون ويدبّر الله ، غير أنّ يدالله فوق أيديهم . « وقد مكروا مكراً وهم وعند الله مكراًهم - ابراهيم : ٤٦ » أى مكشوف لديه لاتخفى عليه خافية . أمّا تدابيره تعالى فانها خافية عليهم وسوف تفاجؤهم وهم لا يشعرون . « أفأمنوا مكر الله؟! فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون - الاعراف : ٩٩ » .

الختم والطبع

التعبير بالختم أو الطبع على القلوب ، أو ماشا كلهما من تعابير - وهي كثيرة ومتنوعة في القرآن - تعبير كئاثي ، تشبيها لتلك القلوب القاسية الجافة بصورة صلدة مظلمة جامدة. فلانصل إليها حقيقة هدى ولاينفذ فيها بصيص نور . كأن بينها وبين ذلك ضخامة حجاب .

١- قال تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة - البقرة : ٧٧ » .

٢- وقال : « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به - الانعام : ٤٦ » .

٣- وقال : « أفرايت من اتخذ الهه هويه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه - الجاثية : ٢٣ » .

قال الزمخشري : « لاختم ولانغشية ثم على الحقيقة ، وانما هو من باب المنجاز . ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه (أى نوعى المجاز) وهما الاستعارة والتمثيل . أما الاستعارة فان تجعل قلوبهم - لأن الحق لاينفذ فيها ولايخلص الى ضمائرها ، من قبل اعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ، واسماعهم لانها تمجّه وتنبوعن الاصغاء اليه ، وتعاف استماعه - كأنها مستوثق منها بالختم . وأبصارهم - لأنها لانجتلى آيات الله المعروضة ، ودلائله المنصوبة ، كما تجتليها عين الاعتبارين المستبصرين - كأنما غطى عليها وحجبت ، وحيل بينها وبين الإدراك . واما التمثيل ، فان تمثل حيث لم يستنفعوا بها فى الأغراض الدينية التى كلفوها ، وخلقوا من أجلها ، بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستفاح بها ، بالختم والتغطية .^١

١- الكشاف ج ١ ص ٤٨-٤٩ .

وقال البيضاوى : الختم الكتم ، سمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه ، لانه كتم له والبلوغ آخره ، نظراً الى أنه آخر فعل يفعل فى احرازه . والغشاوة فعالة من غشاه اذا غطاه ، بنيت لما يشتمل على الشيء ، كالعصابة والعمامة .

قال : ولاختم ولاتغشية على الحقيقة ، وانما المراد بهما : أن يحدث فى نفوسهم هيئة تمرّ بهم على استحباب الكفر والمعاصى واستقباح الايمان والطاعات ، بسبب غيهم وانهما كهم فى التقليد ، واعراضهم عن النظر الصحيح ، فتجعل قلوبهم بحيث لاينفذ فيها الحق ، واسماعهم تعاف استماعه ، فتصير كأنها مستوثق منها بالختم وابصارهم لاتجتلى الآيات المنصوبة لهم فى الانفس والآفاق ، كما تجتليها أعين المستبصرين ، فتصير كأنها غطّى عليها وحيل بينها وبين الابصار . وسماه - على الاستعارة - ختماً وتغشية . أو مثل قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها ، بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستفاح بها ، ختماً وتغطية .

قال : وقدعبر عن احداث هذه الهيئة بالطبع فى قوله تعالى : «اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم - النحل : ١٠٨» . وبالاغفال فى قوله تعالى : «ولانطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا - الكهف : ٢٨» . وبالاتساء فى قوله تعالى : «وجعلنا قلوبهم قاسية - المائدة : ١٣» .

وقال - فى وجه نسبة ذلك الى الله - : وهى من حيث أن الممكنات بأسرها مستندة الى الله تعالى ، واقعة بقدرته ، اسندت اليه . ومن حيث أنها مسببة مما اقترفوه - بدليل قوله تعالى : «بل طبع الله عليها بكفرهم - النساء : ١٥٥» . وقوله تعالى : «ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم - المنافقون : ٣» - وردت ناعية عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم .

* * *

وهكذا الآيات جاء فيها ذكر الطبع على القلوب ، تعبيراً آخر عن نفس تلك

الحالة الجافة الجافية، التي تعرض نفوس اولئك الجاحدين للحق المعاندين له ممن أصروا على منابذة طرق الهدى والصلاح، وصمدوا على العتو والاستكبار. انها حالة قسوة هم عملوا فى تكوينها وتربيتها فى نفوسهم العاتية، مما خطيئاتهم اغرقوا.

٤- قال تعالى : «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون - براءة : ٨٧» .

٥ - وقال : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون - المنافقون : ٣ » .

٦- وقال : «وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون - براءة : ٩٣» .

٧- وقال : « كذلك نطبع على قلوب المعتدين - يونس : ٧٤ » .

٨- وقال : « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين - الاعراف : ١٠١ » .

٩- وقال : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون - الروم : ٥٩ » .

١٠- وقال : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار - غافر : ٣٥ » .

١١- وقال : « اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم - النحل :

١٠٨ » .

١٢- وقال : « اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم - محمد :

١٦ » .

١٣- وقال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا - النساء : ١٥٥ » .

١٤- وقال : « ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون - الاعراف : ١٠٠ » .

تلك آيات الطبع ، وقد أسنده تعالى الى نفسه ، نظراً لأن الله تعالى هو الذى أقدروهم على ذلك ، وجعل لهم الاختيار فى الرضى والقبول، تحقيقاً لحكمة التكليف والاختبار ، حسبما تقدم تفصيله . وفى الحقيقة انه اخبار عن واقعية سوداء هم عملوا فى تكوينها وفى تمهيد اسباب وجودها ، بما عرضوا عن ذكر الله ونسوا الآخرة . وفى الآيات ما يشف عن هذا الجانب السلبي فى ذوات أنفسهم ، كان هو السبب

العامل لتكوين الحالة المذكورة .

* * *

وعلى نفس المنهج تعابير اخر ، كالرین على القلوب، والأكنة عليها، والحوؤل
دونها ، وتقليبها ، واغفالها ، وتعميتها ، وما أشبه من مثل كونها غلفاً أو مقفلة أو
محتجبة أو مريضة أو زائفة . . . الخ ، كلها تعابير عن تلكم القسوة والجفاء التي
انطوت عليها قلوب جاحدة ماتت حيويتها ووقفت نبضاتها عن الفعالية والادراك
الانسانى النبيل . ومن ثم جاء التعبير بالاموات وبالخشب المسندة من الجماد أيضاً
فضلا عن التعبير عنهم بالحيوانات البهم : « كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة
- المدثر : ٥١٥٥ » . وفيما يلي عرض نماذج من تلكم الآيات مضافة الى ما سبق :-

١٥- قال تعالى : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً - الانعام :

٢٥ » .

١٦- « والاسراء : ٤٦ » .

١٧- وقال : « انا جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً - الكهف :

٥٧ » .

والدليل على أنها تعابير كناية وإخبار عن واقعية سوداء هم اكتسبوها ، قوله

تعالى - حكاية عن أنفسهم :-

١٨- « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك

حجاب فاعمل اننا عاملون - فصلت : ٥ » . هذه الآية مسبوقة بقوله تعالى : « فأعرض

اكثرهم فهم لا يسمعون » ، وملحقة بقوله : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم

اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين - ٦ » . فلولا أنه من صنيع

أنفسهم بالذات لما صح تكليفهم ولاتوجيه الملامة والتوبيخ اليهم ، لو كانوا غير

١٩- وهكذا قوله تعالى . « وقالوا قلوبنا غلف » تعبير تعنتى ، تهكماً بمقام الانبياء العظام ، ومن ثم جابهم تعالى بقوله: « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون - البقرة : ٨٨ » .

٢٠- وقال : « فيما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف (تهكماً) بل طبع الله عليها بكفرهم، فلا يؤمنون الا قليلاً . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتنا عظيماً ، وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله... النساء : ١٥٥-١٥٧ » .

هذه الآية عدت كبائر آثام ارتكبوها، مضافة الى تهكّمهم اللثيم وعقيدتهم الكاذبة فى الجبر - كاخوانهم الاشاعرة - ومن ثم ردّ عليهم تعالى بأنها الخطيئات والاجرامات حالت بينهم وبين نفوذ دعوة الحق فى قلوبهم العاتية .

٢١- وقال تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه - الانفال : ٢٤ » . وقد تقدّم (ص ٢٣٥ - ٢٥١) الكلام فى هذه الآية بتفصيل . ونظيرتها الآية التالية :

٢٢- « وما يشعر كرم انها اذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم (اى نحول بينهم وبين ادراكاتهم الانسانية النبيلة ليتحوّلوا الى جمادات او حيوانات بهم) كما لم يؤمنوا به أول مرة (فكان اعراضهم عن الحق وعنادهم على الغى والضلال هو السبب لهذا الخذلان والحرمان عن رحمته تعالى ولطفه العميم) ونذرهم فى طغيانهم يعمهون - الانعام : ١٠٩ - ١١٠ » .

٢٣- وقوله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً - الكهف : ٢٨ » أيضاً خذلان وحرمان عن فيوض قدسه تعالى ، عقوبة عاجلة

استوجبوها لأنفسهم بما كسبت أيديهم من آثام و كبائر .

٢٤- وهكذا قوله تعالى : «ولكن تعمى القلوب التي في الصدور -الحج :

٤٦» تعبير آخر عن الاغفال المذكور . وفي الحقيقة اخبار عن غفلة مسببة عن جهل وعناد .

٢٥- وقال تعالى: «انهم كانوا قوماً عمين -الاعراف: ٦٤» نظيرة آية الحج

المتقدمة .

٢٦- وقال :«فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها -الانعام: ١٠٤» . دليلاً على

أن هذا العماء من فعل انفسهم واختيارهم بالذات . والآيات جاء فيها التعبير بعمى القلوب كثيرة : (المائدة : ٧١) . (فصلت : ١٧ -٤٤) ، (النمل : ٦٦) . (الاعراف : ٦٤) . (الاسراء : ٧٢) . (فاطر : ١٩) ، (البقرة : ١٨ و ١٧١) . (يونس : ٤٣) . (النمل : ٨١) . (الروم : ٥٣) . (الزخرف : ٤٠) وغيرهن من آيات .

٢٧- قال تعالى : «فاما الذين في قلوبهم زيغ - آل عمران : ٧» أي لهم ميل

في الانحراف ، كأنهم جبلوا على معاكسة الفطرة ، بسبب ما ألقوه من الفساد و ارتكاب الشرور . اذا ما أسرع ما تنقلب طبيعة الانسان عن فطرته الاولى الى طبيعة ثانية ، اذا ما استرسل بنفسه في أجواء مظلمة وانهمك في الاجرام والفساد في الارض . فيصبح وهو متخلق بأخلاق ربما كانت غريبة عن خلقه الاصيل الذي فطره الله عليه .

ويعبر عن هذا الانحراف الخلقى بمرض القلب ، تشبيهاً للانحراف الروحي

بالانحرافات الجسمانية ، كما تقدم .

٢٨- «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم -الصف : ٥» أي فلما أخذت نفوسهم في

الانحراف عن جادة الهدى والصلاح ، وكان ذلك على أثر لجاجهم مع الحق

وصمودهم على رفض الدعوة ، خذلهم الله وتركهم فى ظلمات غيهم يعمهون ، اذ لم يك ينفعهم نصح الناصحين .

٢٩- وعلى هذا النمط جاء قوله تعالى: «فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً -البقرة : ١٠» وهكذا الايات التالية .

٣٠- «فترى الذين فى قلوبهم مرض -المائدة : ٥٢» أى ذوى مرض روحى الذى هو تعبير عن ذلك الانحراف الخلقى ، المعاكس مع متجه الانسانية الكريمة.

٣١- «اذيقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم - الانفال : ٤٩» . هذا من عطف العام على الخاص ، أى من على شاكلتهم من ذوى الانحرافات الخلقية الرذيلة ، المنافية مع أصالة المجتمعات الانسانية الكريمة التى كانت وفق الفطرة الاولى النزيهة .

٣٢- «وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم -براءة : ١٢٥» اى ان هذا الانحراف الذى اكتسبوه لأنفسهم ليأخذ بهم من حالة سيئة الى أسوأ وهكذا الى غير نهاية فلايزالون يتخبطون فى مفاصد اخلاقية وفى أجواء مظلمة من فاسد الى أفسد ومن ظلام الى أظلم ، استمراراً مع الأبدية .

٣٣- «ليجعل مايلقى الشيطان فتنة (امتحاناً) للذين فى قلوبهم مرض (فيظهر الله أضغانهم) - الحجج : ٥٣» . وذلك لأنّ تسويلات الشيطان انما تؤثر فى عقول من كان على شاكلته ، إن الطيور على أشكالها تقع .

٣٤- «أفى قلوبهم مرض (قديم) أم ارتابوا (حالياً)؟ -النور : ٥٠» . اى هذا الانحراف الذى أبدوه كان عن منشأ قديم انطوت عليه قلوبهم القاسية ، أم كان شيئاً

عرض لهم لشكوك اعترضتهم أثناء المسير ؟

وهكذا بقيّة الآيات عبرت عن تلك الحالة النفسية المنحرفة الجافّة الجافية بالمرض ، في سورة الاحزاب : ١٢ و ٣٢ و ٦٠ . وسورة محمد : ٢٠ و ٢٩ . وسورة المدثر : ٣١ .

وكذا سائر الآيات التي عبرت بالرين (المطففين : ١٤) . او فاصل حجاب (فصلت : ٥) و(الاسراء : ٤٥) . أو على قلوب أفعالها (محمد : ٢٤) وماشابه . كلها تعابير كناية عن معنى واحد أوضحه قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة - البقرة : ٧٤ » . وقوله : « ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون - الانعام : ٤٣ » . وقوله : « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم - الحديد : ٦ » . اي طال امهالهم في التنعم بهذه الحياة السفلى . وغيرهنّ من آيات .

مسألة القضاء والقدر

من المسائل الكلامية العويصة هي مسألة « القضاء والقدر » . واختلفت فيها أنظار أرباب الكلام من ذوى المشارب المختلفة في الجبر والاختيار . وقد أخذت الأشاعرة - بالذات - في هذه المسألة طريقها الى الجبر المحض ، وزعموا من القضاء والقدر هو الحتم والالزام . ومن ثم أسندوا أفعال العباد كلّها خيرها وشرها ، صلاحها وفسادها حتى الايمان والكفر ، والاطاعة والعصيان ، الى الله سبحانه ، وأنه الفاعل لها حقيقة وان كان المباشر في الظاهرهم العباد أنفسهم . ولذلك صحّت تسميتهم بالقدرية انطباقاً عليهم بالحديث المأثور عن النبي ﷺ قال : « لعن الله القدرية على لسان سبعين نبياً ، قيل : من القدرية ، يا رسول الله ؟ قال : الذين يعصون الله تعالى ، ويقولون : كان ذلك بقضاء الله وقدره » .

١- راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص ٧٧٥

والايمان بالفدر بهذا المعنى الباطل ، هي عقيدة عربية جاهلية امتدت حتى مابعد ازدهار الاسلام، ورغم مكافحة النبي ﷺ والأئمة الهداة من بعده لهذه العقيدة الجاهلية الاولى . قال الامام الحسن بن على - عليهما السلام - : «بعث الله محمداً الى العرب وهم قدرية يحملون ذنوبهم على الله تعالى» . ودليلاً على ذلك قوله المشركين : «لوشاء الله ما أشر كنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء - الانعام: ١٤٨» . ومن ثم كذبهم الله في هذه العقيدة الفاسدة المخالفة لصريح الوجدان ، قال تعالى - تعقيباً على قولتهم تلك - : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرون » .

والغريب أن الأشاعرة استسلمت قيادتها - بكل جرأة وصراحة - لهذه العقيدة المنافية للفطرة ولتعاليم الاسلام النزيهة ! قال امامهم المتفلسف : «اعلم أن افعال العباد امور ممكنة الوجود . والممكن لا يترجح وجوده على عدمه الاسبب» . ثم أخذ في الاستدلال على وجوب كون هذا السبب ضروري الوجود، والا لزم المحال (التسلسل الباطل) . وبذلك حاول اثبات انتهاء افعال العباد في علل وجوداتها وفي سلسلة الحاجة ، الى ذاته المقدسة الواجب الوجود . وأخيراً قال : « فثبت أن أفعال العباد ، بقضاء الله تعالى وقدره ، وأن الانسان مضطر في اختياره ، وأنه ليس في الوجود الا الجبر » . هذانص عبارته في باب القضاء والقدر من كتابه « المباحث المشرقية »^٢ . وأما «تفسيره الكبير» فقد ملاءم باحكام قواعد الجبر على اصول مذهب أبي الحسن الأشعري وأتباعه الاشاعرة^٣ .

* * *

١- راجع : اللطائف الغيبية للمير احمد العلوي تلميذ المير محمد باقر داماد ص ٢٠١

٢- الفصل الخامس من المجلد الثاني ص ٥١٦ - ٥١٧

٣- وقد بالغ في ذلك حتى قال بشأن سورة الانعام : ان هذه السورة من اولها الى آخرها

تدل على صحة قولنا ومذهبنا (في الجبر) . التفسير الكبير ج ١٣ ص ٢٢٧

أما الفلاسفة الاسلاميون الكبار فقد فسروا مسألة «القضاء والقدر» بعلمه تعالى الازلى بالأشياء قبل وقوعها . قالوا : القضاء هو علمه الاجمالى بالأشياء وبالامور الجارية عبر الوجود . والقدر هو علمه التفصيلى بذلك ، أى علمه تعالى بتفاصيل ما يقع من الذوات والافعال ^١ .

قالوا : ولم يكن العلم القديم علّة لحدوث الأشياء ، لا الاجمالى منه ولا التفصيلى حسبما فصلوه وبينوه دفعا لشبهة الجبر .

وفسر بعضهم « القضاء » بعلمه تعالى بالأشياء ، على ما ينبغي أن يكون عليه الوجود ، حتى يكون على أحسن نظام وأبدع تشكيل . وهو المسمى عندهم بالعناية الربانية ، التى هى مبدء فيوضاته القدسية ، المفاضة على الموجودات من حيث جملتها على أحسن وجه وأكمل صورة . و«القدر» عبارة عن خروج تلك الاشياء الى عالم « الوجود العينى » بأسبابها وعللها ، وفق الوجه الذى قرره القضاء القديم ^٢ .

قال الفيلسوف الحكيم صدر الدين الشيرازى - بصدد تفصيل علمه تعالى بالأشياء فى مراتبه الثلاث ، وهى «العناية» و«القضاء» و«القدر» - : أما «العناية» فهى علمه تعالى بالأشياء فى مرتبة ذاته المقدّسة ، علماً مقدماً عن شوب الامكان والتركيب فهى عبارة عن وجوده ، بحيث ينكشف له الموجودات الواقعة فى عالم الامكان على نظام أتم ، مؤديا الى وجودها فى الخارج ، مطابقاً له أتمّ تأدية ، لاعلى وجه القصد والروية ، وهو علم بسيط ، واجب لذاته ، قائم بذاته . خلاق للعلوم التفصيلية العقلية والنفسية ، «على أنّها عنه ، لاعلى أنّها فيه !» ^٣ .

١- اللطائف الغيبية ص ١٩٧-١٩٨

٢- بقل العلامة المجلسى عن شرح المواقف . بحار الانوار ج ٥ ص ١٢٨

٣- فى هذه الجملة الاخيرة نكتة دقيقة . هى ردّ على مزعومة الاشعري فيما زعم ان علمه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته حالة فيها ومقترنة بها ، فلزمه القول بتعدد القدماء .

وأما «القضاء» ويقال له : أم الكتاب ، فهو عندهم عبارة عن وجود الصور العقلية لجميع الموجودات ، فائضة عنه تعالى - على سبيل الابداع - دفعة بلا زمان . قال : وأما عندنا فعبارة عن صور علمية لازمة لذاته المقدسة ، بلا جعل ولا تأثير ولا تأثر ، وهي صور قديمة بالذات باقية ببقاء الله .

وأما «القدر» - وهو : لوح المحو والاثبات - فهو عبارة عن وجود صور الموجودات في العالم النفسى السماوى ، على الوجه الجزئى ، اما انطباعاً - كما عليه المشائيون - او على سبيل المظهرية - كما عليه الاشراقيون - مطابقة لما فى موادها الخارجية الشخصية ، مستندة الى اسبابها وعللها ، واجبة بها ، لازمة لاقواتها المعينة وأمكنتها الخاصة .

قال : و«العناية» تشمل «القضاء» ، كما أن «القضاء» يشمل «القدر» .^١

* * *

وأما المتكلمون من أصحابنا الامامين - قدس الله أرواحهم - فقد أوضحوا من هذه المسألة احسن ايضاح ، وعرضوها على صعيد عقلى نزيه ، مستعينين بدلالة الكتاب المجيد والسنة القطعية ، وكلمات ائمة الهدى علماء أهل البيت - عليهم السلام - فجاءت المسألة مدللة فى أبداع صورتها اللامعة ، يتلقاها - بلا شك - أذهان متفتحة وعقول سليمة فى رحابة وارتياح ، واليك اجمالياً :-

* * *

القضاء - فى اللغة - جاء بمعنى الأمر الحتم والحكم الفصل ، النافذ نفوذاً قاطعاً يكون هو منتهى الشيء فلا تغلغل بعده . قال الزهرى : القضاء فى اللغة على وجوه مرجعها الى انقطاع الشيء وتمامه ، وكل ما أحكم عمله أو أتم أو ختم

١- راجع : كتاب «الاسفار الاربعة» ج ٦ ص ٢٩٠ - ٢٩٣ . وراجع ايضاً - فيما افاده - قدس سره - فى شرح عنايته تعالى ورحمته الواسعة لكل شىء بحسب القضاء الربانى والتقدير الالهى ، الفصل الاول من الموقف الثامن ج ٧ ص ٥٥ - ٥٧ .

أو أدى أداء أو أوجب أو أعلم أو أنفذ أو أمضى فقد قضى .

فالتكليف اذا كان الزاماً كان قضاء . ومنه قوله تعالى : « وقضى ربك أن

لاتعبدوا الاياه وبالوالدين احساناً - الاسراء : ٢٣ » .

وكذا حكم القاضى قضاء ، لكونه الفصل القاطع للدعوى . ومنه قوله تعالى

« ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً - النساء : ٦٥ » .

وهكذا الاخبار الحتمى والاعلام بشىء يقينى لامرد له - أيضاً - قضاء . ومنه

قوله تعالى : « وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض وتعلن علواً

كبيراً - الاسراء : ٤ » . وقوله : « وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين

- الحجر : ٦٦ » .

وكذلك انتهاء الأجل المضروب قضاء . ومنه قوله تعالى : « فلما قضى موسى

الأجل وسار بأهله - القصص : ٢٩ » وقوله : « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً

- الانعام : ٢ » أى عيناً أجلاً محدداً لا ينقص ولا يزيد .

ومن ذلك سمى الموت قضاء ، اذ به ينتهى أمد العمر انتهاء قاطعاً لامرد له .

ومنه قوله تعالى : « فو كزه موسى فقضى عليه - القصص : ١٥ » . وقوله : « فمنهم من

قضى نحبه ومنهم من ينتظر - الاحزاب : ٢٣ » . وقوله : « بامالك ليقض علينا ربك

- الزخرف : ٧٧ » اى بالموت .

وايضاً فكل أمر نافذ قطعى لاتعلل فيه ولا تريت هو قضاء ، وهكذا العمل المبرم

لا يقف فى وجهه شىء قضاء . ومنه قوله تعالى : « واذا قضى أمراً فانما يقول له كن

فيكون - البقرة : ١١٧ » . وقوله : « فقضيهن سبع سموات - فصلت : ١٢ » اى انفذ

ارادته فى جعلها سبعاً ، أو أتم خلقهن كذلك . وكذا الحكم النافذ تشريعاً كقوله

تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة

من أمرهم - الاحزاب : ٣٦ » .

ومنه قضاء الحاجة أى إنفاذاها ، كقوله تعالى : « إلا حاجة فى نفس يعقوب

قضيتها - يوسف : ٦٨ .

وكذلك الانتهاء من أمر الشيء فلم تعد لصاحبه حاجة فيه ، كقوله تعالى :
« فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها - الاحزاب : ٣٧ . ومنه قوله تعالى - أيضاً :
« فاذا قضيتم مناسككم - البقرة : ٢٠٠ . وقوله : « فاذا قضيتم الصلوة - النساء : ١٠٣ »
أى أتممتوها كمالاً وفرغتم منها .
ويتلخص معنى « القضاء » فى « نفاذ الامر والانهاء منه حتماً » .

أما القدر - بفتح الحين - فهو بمعنى تقدير الشيء والتعرفة الى كنهه وحدوده من
زمان ومكان وسائر الجهات المحددة لوجود الشيء . ومنه التعريف الى هندسة
الشيء والعلم بالظروف والاجواء المؤاتية له ، وشرائط وجوده كماً وكيفاً وجهة
وغيرها . الأمر الذى يقتضى احاطة بخصوصيات الشيء وجهاته المكتشف بها ، سواء
أكان عملاً يريد ايجاده ام كلاماً يريد النطق به أم حكماً يريد انعاذه أم تكليفاً يريد تشريعه
فاذا عرف جهاته وملابساته وموقعيته من زمان ومكان وسائر الاحوال ، فقد قدره
تقديراً صالحاً للنفاذ .

ومنه قوله تعالى : « وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام - فصلت : ١٠ » . وقوله :
« أنه فكرّ وقدّر - المدثر : ١٨ » . وقوله : « والذى قدرّ فهدى - الأعلى : ٣ » . أى
قدر الاشياء تقديراً فهداها على قدر استعدادها وحظها من عالم الوجود .

وقوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل - يس : ٣٩ » أى جعلنا له منازل على قدر
معلوم . وكذا قوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً - الفرقان : ٢ » أى جعله على
نمط خاص وعيّن شرائطه ومبلغ استعداده من حظّ الوجود . وهو الذى نعبر عنه
بالهندسة ، أى هندسه هندسة كاملة .

ومنه ليلة القدر التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، اذ فيها تقدرّ الاشياء التى ستجرى
طول ذلك العام . « والله يقدر الليل والنهار - المزمل : ٢٠ » فى تعاقبهما وطولهما
وقصرهما على مرّ الايام والدهور . وهكذا قوله : « قدرنا فيها السير - سبأ : ١٨ » أى

تعيّنت فيها مقادير السير ليل نهار .

وأما قوله تعالى : «الامرأته قدّرتنا انها لمن الغابرين - الحجر : ٦٠ » ، فقد

تقدّم أن المعنى : علمنا من شأنها أنها من الباقيين الهالكين .

ويتلخص معنى «القدر» في «تقدير الشيء وهندسته هندسة تامة» .

* * *

وعلى ضوء هذا البيان نستطيع تخلص القول في مسألة القضاء والقدر بما

يلي :

«انه تعالى اذا تعلّقت ارادته بخلق شيء وتكوينه او تشريع حكم ونفاذه ، فانه

يقدره أولاً تقديراً ، ثم يقضى بوجوده وينفذه تنفيذاً» . ومن ثم فكان الأجدر ان يقال

القدر والقضاء . لان القدر - على هذا البيان - متقدم على القضاء والنفاذ .

وعليه فقضاء الله بالنسبة الى أفعاله الخاصة ، هو خلقها وابدائها تكويناً : «اذا

قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون - آل عمران : ٤٧» . وبالنسبة الى افعال العباد

هو امره والزامه تكليفاً : «وقضى ربك أن لاتعبدوا الاياه - الاسراء : ٢٣ » أى أمر

تكليفاً ووجب ذلك . «وما كان لمؤمن ولأموئنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون

لهم الخيرة من أمرهم - الاحزاب : ٣٦» . اى حكم وشرع . فالؤمن تجاه احكام

الشريعة مستسلم لارأى له سوى الطاعة والامتثال . وهذا لايعنى سلب قدرته وانما هو

بعث على التسليم المحض .

وهكذا قدره تعالى هو تقديره لما يريد انفاذه من خلق أو تشريع . اى علمه

بما يحتوى عليه من صلاح أو فساد ، فيوجده تكوينياً أو يأمر به تكليفاً ، وفق ذلك الملاك

الواقعى الكامن وراء الاشياء والتكاليف .

قال الشيخ ابو عبد الله المفيد - عميد المذهب - : «والوجه عندنا فى القضاء

والقدر ، ان لله تعالى فى خلقه قضاء وقدرأ . وفى أفعالهم (افعال العباد) ايضاً قضاء

وقدراً معلوماً . ويكون المراد بذلك : انه قضى في افعالهم الحسنة بالأمر بها
 وفي افعالهم القبيحة بالنهي عنها، وفي انفسهم بالخلق لها ، وفيما فعله فيهم بالاجادله .
 والقدر منه - سبحانه - فيما فعله : ايقاعه في حقه وموضعه . وفي افعال عباده :
 ما قضاه فيها من الامر والنهي والثواب والعقاب ، لان ذلك كله واقع موقعه وموضوع
 في مكانه ، لم يقع عبثاً ولم يصنع باطلاً^١ .

وقال العلامة جمال الدين يوسف بن علي بن المطهر الحلي : « واعلم ان
 امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام قديين معنى القضاء والقدر ، وشرحهما شرحاً
 وافياً ، في حديث الاصباح بن نبأته عند منصرفه من صيفين ، قال : قام اليه شيخ ، فقال :
 اخبرنا يا امير المؤمنين عن مسيرنا الى الشام ، أكان بقضاء الله تعالى وقدره . فقال
 امير المؤمنين عليه السلام : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما وطننا موطناً ، ولا هبطنا
 وادياً ولا علونا تلعة ، الا بقضاءه وقدره !

الشيخ : أعتد الله أحتسب عثائي ؟ ما أرى لي من الأجر شيئاً ! .

الامام : مه ، ايها الشيخ ، بل عظم الله أجركم في مسيركم وانتم سائرون
 وفي منصرفكم وانتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا اليها
 مضطرين .

الشيخ : كيف ، والقضاء والقدر ساقانا ؟

الامام : ويحك ، لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حتماً ! لو كان كذلك
 لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد والأمر والنهي ، ولم تتأت لائمة
 من الله لمذنب ولا محمداً لمحسن ، ولم يكن المحسن اولى بالمدح من المسيء
 ولا المسيء اولى بالذم من المحسن ! تلك مقالة عبدة الأوثان^٢ وجنود الشيطان

١- تصحيح الاعتقاد (اشرح عقائد الصدوق) ص ٢٠ .

٢- اشارة ان الاعتقاد بالقضاء والقدر بالمعنى المذكور الباطل، هي عقيدة جاهلية اولى

قد رفضها الاسلام .

وشهود الزور ، واهل العمى عن الصواب^١ وهم قدرية هذه الامة ومجوسها . ثم قال الامام : ان الله أمر تخبيراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً ، ولم يرسل الرسل عبثاً ، ولم يخلق السماوات والارض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

الشيخ : فما القضاء والقدر الذى ذكرته ، يا امير المؤمنين ؟

الامام : هو الامر من الله تعالى والحكم . ثم تلا قوله تعالى : «وقضى ربك ان

لا تعبدوا الاياه» .

وفى رواية اخرى : الامر بالطاعة ، والنهى عن المعصية ، والتمكين من فعل الحسنة وترك المعصية ، والمعونة على القربة اليه ، والمخذلان لمن عصاه ، والوعيد والوعيد ، والترغيب والترهيب . كل ذلك قضاء الله فى افعالنا وقدره لاعمالنا . اما غير ذلك فلا تظنه ، فان الظن له محبط للاعمال .

قال الشيخ : فرجت عنى - يا امير المؤمنين - فرج الله عنك ثم نهض مسروراً

وأنشأ يقول :

انت الامام الذى نرجو بطاعته	يوم النجاة من الرحمان غفراناً
اوضحت من ديننا ما كان ملتبساً	جزاك ربك بالاحسان احساناً
فليس معذرة فى فعل فاحشة	قد كنت راكبها فسقاً وعصياناً
لا ، لا ، ولا قابلاً ناسيه اوقعه	فيها عبدت اذاً يا قوم شيطاناً
ولا احب ولا شاء الفسوق ولا	قتل الولى له ظلماً وعدواناً
انى يحب وقد صحت عزيمته	ذوالعرش اعلن ذاك الله اعلاناً ^٢

١- هذا الكلام المعجز ينطبق تماماً على مذهب الاشعري كما نبهنا سابقاً

٢- شرح تجريد الاعتقاد (ط بومباي) ص ١٧٥ - ١٧٦ . وكنز القوائد للكراچي

ص ١٧١ - ١٧٢ . والكافي - الاصول - ج ١ ص ١٥٥ . وشرح النهج لابن ابى الحديد

ج ١٨ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ . والاحتجاج للطبرسى ج ١ ص ٣١٠ - ٣١١ . وبحار الانوار ج ٥ ←

قال الشيخ المفيد - بعد ايراد الحديث - : هذا الحديث موضح عن قول امير المؤمنين عليه السلام في معنى العدل. ونفى الجبر، واثبات الحكمة في افعال الله تعالى ونفى العبث عنها .

وللسيد عبدالله شير في تفسير هذا الكلام الزاهي بيان وتحقيق ، راجع : «مصايح الانوار - في مشكلات الاخبار» ج ١ ص ١١٣ - ١٢٣ .

* * *

وخلاصة مذهبنا في القضاء والقدر: ان «القدر» عبارة عن علمه تعالى بمصالح الامور . وذلك يمثل حكمته تعالى في الخلق والتكليف . و«القضاء» عبارة عن نفاذ ارادته في تكوين شيء او تشريع تكليف . والذي يرتبط بافعال العباد هو القضاء بمعنى التشريع والالزام تكليفاً، فلا جبر ولا الجاء . وهو يمثل مبدأ الاختيار في التكليف . هذه كانت خلاصة ما استفدناه من كلام الامام امير المؤمنين عليه السلام ودلت عليه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وآله والائمة الهداة المرضيين - عليهم صلوات الله - وسنشير الى بعضها بعد عرض نماذج من آيات مرتبطة بالمقام .

* * *

١- قال تعالى : « وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله ، كتاباً مؤجلاً - آل عمران : ١٤٥ » . هذا من قضائه في التكوين .

٢- « ولكن ليضى الله امرأ كان مفعولاً - الانفال : ٤٢ » . ايضاً قضاء تكوين .

٣- « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا - براءة : ٥١ » اي قدر لنا . بمعنى

علمه تعالى بما هو صلاح لانفسنا ، فينفذه فينا ان شاء ، وفق حكمته تعالى .

٤- « و كان امر الله مفعولاً - الاحزاب : ٣٧ » .

٥- « و كان امر الله قدراً مقدوراً - الاحزاب : ٣٨ » . هو قضاؤه الحتم وقدره

ص ١٣ - ١٤ . ص ٩٥ - ٩٦ . ص ١٢٥ - ١٢٦ . والارشاد للشيخ المفيد ص ١٢٠ - ١٢١

وقد صححنا الحديث بمقابلة بعض المصادر مع البعض .

٦- «وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه ، وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره ، الا فى كتاب . ان ذلك على الله يسير - فاطر : ١١ » .
الكتاب فى الآيه عبارة اخرى عن علمه الأزلى ، وهو قدره تعالى بمعنى احاطته بمزايا الامور وخباياها قبل ان تتكون فى عالم الوجود . اذ ذلك بالنسبة الى علمه تعالى المحيط شىء ضئيل .

٧- «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم - فصلت : ٤٥ » اى لولا حكمه تعالى بالتأخير والامهال لعجل لهم العذاب .
٨- «ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم - الشورى : ٢١ » كذلك .
٩- «انا كل شىء خلقناه بقدر - القمر : ٤٩ » اى بتقدير سابق .
١٠- «وكل شىء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر - القمر : ٥٢ »
٥٣- . اى مقدر فى علمه تعالى بالحكم والمصالح .

١١- «ما اصاب من مصيبة فى الارض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير - الحديد : ٢٢ » : تقدم نظيرها برقم : ٦ . والكتاب هو علمه تعالى بالحكم والمصالح . و«نبرأها» اى نوجدها ونخلقها ، لأن التقدير قبل القضاء على ما سبق .

وقوله - بعد ذلك - : «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - الحديد : ٢٢ » يعنى اذ لو عرفتم من أحداث هذا الكون هى ذوات مصالح مدروسة من قبل ، لما فرحتم تجاه آلامها او فرحتم بحفظها ، اذ كل ذلك انما يجرى على حكم ومصالح ومقتضيات مدروسة من ذى قبل ، وليست مفاجأة اتفاقية كما يزعمها قاصروا النظر فى مظاهر هذه الحياة .

١٢- «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله - الحشر : ٥»
أي بأقداره وامتداده لكم ، ولولا أنها مصلحة لما أمدكم بالقوى ولكنتم اعجز من
فى الوجود . والآية نظيرة ما مر من قوله : «ومارميت اذرميت - الأنفال : ١٧» فراجع
(ص ٢٣٤) .

١٣- « ما أصاب من مصيبة الا باذن الله - التغابن : ١١ » تقدم نظيرها برقم :
١١ و ٦ .

١٤- «يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شىء قدير وان الله قد أحاط
بكل شىء علماً - الطلاق : ١٢- ١٢» أي علما بالحكم والمصالح ، وهذه اشارة الى
جانب تقديره تعالى للامور .

١٥- «فيمسك التى قضى عليها الموت - الزمر : ٤٢» أي نفذ فيه الحكم بالموت
والانتهاء من اجله المحتوم .

١٦- «اذ قضينا الى موسى الأمر - القصص : ٤٤» أي انفذناه نفاذاً حتماً . والأمر
فى الآية يراد به الشريعة التى انزلها الله على موسى عليه السلام .

١٧- «والله يقضى بالحق - غافر : ٢٠» أي يحكم بالحق او ينفذ ما قدره وفق
الحكمة .

١٨- «من قبل ان يقضى اليك وحيه - طه : ١١٤» أي ينتهى ويكتمل الى تمام
الآية .

١٩- «يا ليتها كانت القاضية - الحاقة : ٢٧» . أي قاطعة لحياتى فلم ابعث
بعدها .

٢٠- «وكان امرأ مقضياً - مريم : ٢١» . هذا تبييس لمريم - عليها السلام -
وان حملها بعبسى - عليه السلام - كان أمراً مدروساً من ذى قبل ذا حكمة ومصلحة
داعية الى الابداد ، وقد نفذ بشأنه حكم الله بالخلق والتكوين ، فلا مرد لقضائه تعالى .

٢١- وهكذا قوله تعالى : «ان منكم الاواردها (مشرف عليها فيوقف فيها او يمر عليها) كان على ربك حتما مقضياً - مريم : ٧١ . اي اذا مصلحة داعية الى ذلك ومن ثم اوجه تعالى على نفسه وفقاً لحكمته في ذلك .

* * *

والاحاديث المأثورة عن اهل بيت العصمة - عليهم السلام - بشأن مسألة «القضاء والقدر» مختلفة ، منها : الآمرة بها ، وان الناكر للقدر ليس بمسلم . ومنها : الناهية عن التعرض لمسألة القدر ، وانها سر من اسراره تعالى فلا تتكلفوه . ومنها : الشارحة لحدود المسألة اما اجمالياً او بتفصيل . وعليه فيمكننا تنويع هذه الأحاديث الى طوائف :

الاولى - الآمرة بالايان بمسألة القدر : -

١ - قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن باربعة : حتى يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له . واني رسول الله بعثني بالحق . وحتى يؤمن بالبعث بعد الموت . وحتى يؤمن بالقدر » .

انظر الى هذا الحديث ، يجعل من الايمان بالقدر ، في عداد أوليات اصول العقيدة الاسلامية : الشهادة بالتوحيد ، الشهادة بالرسالة ، الاعتقاد بالمعاد . الاعتقاد بالقدر .

وهذا - على التفسير الذي قدمنا للقدر - واضح ، اذ الايمان بالقدر - على ذلك - ايمان بسلطان الله القاهر وتدييره الشامل ، « الحمد لله رب العالمين » . « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا . بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء - المائدة : ٦٤ . قال رسول الله ﷺ : « ان الله عز وجل - قدر المقادير ودبر التدابير قبل ان يخلق آدم بألفي عام » ٢ .

١- الخصال للصدوق فصل الاربعة ص ١٨١ (ط نجف) والبحار ج ٥ ص ٨٧

٢- عيون اخبار الرضا ص ٨٠ . والبحار ج ٥ ص ٩٣ رقم ١٢ .

ويتخلص الايمان بالقدر فى «الاعتقاد بأن الله هو المدبر لشؤون هذا العالم والمنفذ لما يتكون فى الوجود». لكن بالملاحظة التى قدمنا بها لا يستلزم جبراً ولا الجاء فيما يخص افعال العباد الاختيارية ، فراجع مسألة الأمرين الأمرين (ص ١٧٥)
ومسألة انتساب الحوادث الى الله (ص ١٨٣).

٢- وقال أيضاً ﷺ : « اربعة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة : عاقى ، ومنان ، ومكذب بالقدر ، ومدمن خمر »^١ .

٣- وقال ﷺ : « ستة لعنهم الله ... الزائد فى كتاب الله ، المكذب بقدر الله ، التارك لسنتى ، المستحل من عترتى ، المتسلط بالجبروت ، المستأثر بفىء المسلمين »^٢ .

* * *

الطائفة الثانية : الأحاديث الناهية عن التعرض لمسألة القدر ، مخافة الزلة فيها . وذلك لان الايمان بالقدر كان من اصول العقائد الجاهلية بانحراف فى فحواها كانوا يعتقدون من تقديره تعالى لحوادث هذا الكون وتسييره لشؤون الخليقة جبراً للعباد فيما يزاولون من اعمال اختيارية . اذ لا يقع شىء فى عالم الوجود الا بتقدير الله ، فلاموقع لارادة العباد واختيارهم فى ذلك من شىء !

هذا فى حين ان مسألة القدر تعنى شيئاً آخر لاصلة بينه وبين الالغاء والاضطرار . اذ علمه تعالى الازلى بمصالح الاشياء ومفاسدها ، خيرها وشرها ، ليكون خلقه وايجادها للاشياء عن مصالح وملاكات كامنة وراء وجوداتها ، تحقيقاً لجانب حكمته تعالى وعدله ، لامساس له بمسألة الجبر واضطرار العباد على افعالهم الاختيارية .

ولعلك بمراجعة ما اثبتنا فى مسألة الامر بين الأمرين عرفت مدى دقة هذه المسألة المنطوية على سر الوجود على الاطلاق ، اذ معرفة ما بين وجود الموجودات

١- الخصال باب الاربعة ص ١٨٤ . والبحار ج ٥ ص ٨٧ رقم ٣ .

٢- الخصال باب الستة ص ٣٠٧ - ٣٠٨ . والبحار ج ٥ ص ٨٧ رقم ٤ .

طراً ، وتأثيره تعالى في ذلك ، من ادق المعارف الاسلامية العليا ، قد كابد العلماء
الأميرين حتى عثروا على حقيقتها ووقفوا على كنهها ، على ما نبهنا . وهذا هو السر
في النهي عن ولوجها ، ولكن نهياً موجهاً الى اولئك القاصري النظر من ذوى المعلومات
الهابطة او الضئيلة فسي مجالات العلوم الاسلامية الاصولية ذلك العهد . واليك
نماذج منها :

١/٤ - سأل رجل الامام امير المؤمنين عليه السلام عن القدر ، فقال : «بحر عميق
فلاتلجه» . فسأله ثانية ، فقال : «طريق مظلم فلاتسلكه» . فسأله ثالثة ، فقال : «سر الله
فلاتتكلفه»^١ .

٢/٥ - وفي نهج البلاغة : قال - وقد سئل عن القدر :- «طريق مظلم فلاتسلكوه
وبحر عميق فلاتلجوه ، وسر الله فلاتتكلفوه»^٢ .

٣/٦ - وقال - ايضاً - : «الان القدر سر من سر الله ، وحرز من حرز الله
مرفوع في حجاب الله ، مطوى عن خلق الله ، مختوم بخاتم الله ، سابق في علم الله
وضع الله عن العباد علمه ، ورفع فوق شهاداتهم ومبلغ عقولهم» .

هذا النهي الوارد في كلام الامام عليه السلام ينظر الى اولئك المستضعفين . ممن
تقصر افهامهم عن الخوض في مسائل الوجود ، وفي خلق اعمال العباد ، فانه ربما
افضى ذلك بهم الى القول بالجبر ، لما في ذلك من غموض ومزاتي ، تحتاج السلامة
منها الى دقة ومعرفة كاملة ، كان ابناء ذلك العهد يعوزونها البتة .

ومن ثم قال عليه السلام تعقيباً على كلامه المذكور : - « لانهم لا ينالونه بحقيقة
الربانية ، ولا بقدرة الصمدانية ، ولا بعظمة النورانية ، ولا بعزة الوجدانية . لانه بحر
زاخر موج ، خالص الله عز وجل ، عمقه ما بين السماء والارض ، عرضه ما بين المشرق

١ - كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٧٤ . والبحار ج ٥ ص ٩٧ و ١١٠ .

٢ - شرح النهج لابن ابي الحديد ج ١٩ ص ١٨١ رقم ٢٩٣ .

والمغرب ، اسود كالليل الدامس ، كثير الحيات والحيتان ، تعلق مسرة وتسفل
اخرى» .

ثم قال : «في قعره شمس تضيء ، لا ينبغي ان يطلع عليها الا الواحد الفرد»
اي الا الاوحدى من الناس ممن وقف على حقيقة الدين وعرف اسمه المحكمة .
وهذا دليل على ان النهى عن الولوج فيه انما كان لمعرفته بالحق قصور اهل
زمانه في ادراك امثال هذه الحقايق العليا .

وأخيراً ندد بالحق باولئك القاصرين ما لو حاولوا التكلف في مسألة القدر
فقال : « فمن تطلع عليها » اي حاول التطلع على تلك الشمس التي هي شمس
الحقيقة ، وهوليس من أهلها « فقد ضاد الله في حكمه ، ونازعه في سلطانه ، وكشف
عن سره وستره ، وباء بغضب من الله ، وماواه جهنم وبئس المصير »^١ .

٤/٧- وعن ابن اذينة قال : قلت للامام الصادق عليه السلام : جعلت فداك ، ماتقول
في القضاء والقدر ؟ قال : اقول : ان الله تعالى اذا جمع العباد يوم القيامة سألهم عما
عهد اليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم !^٢ .

٥/٨ - وقال الامام الصادق عليه السلام لزراعة بن اعين : يا زرارة اعطيك جملة
في القضاء والقدر ؟ قال : نعم ، جعلت فداك . قال : اذا كان يوم القيامة ، وجمع الله
الخلايق ، سألهم عما عهد اليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم^٣ .

هكذا كلام من الامام عليه السلام بالنسبة الى هذين العلمين الجليلين ، لعله من باب
«اياك اعنى واسمعى يا جارة» فيأمرهما الامام ان يكفا عن التعرض لمثل هذه المسألة

١- كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٩٢ . والاعتقادات ص ٧١ . والبحار ج ٥ ص ٩٧ .

٢- كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٧٣-٣٧٤ . والبحار ج ٥ ص ١١٢ رقم ٣٨ .

٣- كنز الفوائد للكراچكى ص ١٧١ . والبحار ج ٥ ص ٦٠ رقم ١١١ .

الدقيقة في الأوساط العامة ، ولا سيما والبحث والجدل في هكذا أمور عقائدية غامضة كان دارجاً ذلك العهد ، واكثرهم كان في تخطيط وتخليط .

وخلاصة هذا الكلام : ان على العوام ان يبحثوا عن التكاليف المعهودة اليهم ، ليتبينوا ماهى وظيفتهم في العمل ، اما البحث عن مسألة القضاء والقدر فهو بحث عن وظيفة الله في الخلق ، وليس مما يسأل العباد فهمه . فهو تدخل فيما لا يعنى .

* * *

الطائفة الثالثة : احاديث مفسرة لمسألة القضاء والقدر ، وشارحة لفتحها غير انها جاءت بتعابير وألسن متفاوتة ، ولعله حسب اختلاف مستوى الأوساط التي صدرت تلك الاحاديث اليها .

فمنها اشارات عابرة وفي تعابير اجمالية ، ومنها مفصلة وبعبارات توضيحية متلاحقة ، ولندكر من كلا النوعين نماذج : -

١/٩- قال الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام : « ان الله اذا اراد شيئاً قدره ، فاذا قدره قضاه ، واذا قضاه امضاه »^١ .

٢/١٠- وقال الامام ابو جعفر الباقر عليه السلام : « لا يكون شيء في الارض ولا في السماء الا بهذه الخصال السبع : بمشية ، واردة ، وقدر ، وقضاء ، واذن ، وكتاب واجل ... الخ »^٢ . وروى قريباً منه الصدوق في الخصال في باب السبعة^٣ .

٣/١١- وسئل امير المؤمنين عليه السلام عن القضاء والقدر . فقال : « لاتقولوا : وكلهم الله الى انفسهم فتوهنوه . لاتقولوا : اجبرهم على المعاصي فتظلموه .

١- محاسن البرقى ص ٢٤٣ . والبحار ج ٥ ص ١٢١ .

٢- نفس المصدر ص ٢٤٤

٣- راجع البحار ج ٥ ص ٨٨ برقم ٧ .

ولكن قولوا : الخير بتوفيق الله . والشر بخذلان الله . وكل سابق في علم الله
هذا الحديث الشريف من جلائل كلمات الامام امير المؤمنين عليه السلام يشرح
مسألة «الامر بين الامرين» ، ومسألة «القضاء والقدر» في افعال العباد الاختيارية بأوجز
كلام واوفى تعبير بليغ . يقول عليه السلام : ليست الامور موكولة الى العباد كاملة
لتكون خارجة عن سلطان الله ، وهذا هو التفويض الباطل في مذهبنا .

وهكذا ليس العباد مضطرين فيما يعملون ، لتكون افعالهم واقعة لاعن ارادتهم
ولاعن اختيارهم رأساً ، وهذا هو الجبر الباطل ايضاً . بل الامر بين الامرين ، لاجبر
ولاتفويض . فان الافعال وان كانت لاتنفع الا بايقاعه تعالى وايجاده ، لكنها انما تنفع
بارادة تبعية لارادة العباد . فيما يخص الافعال الاختيارية - تحقيقاً لمبدء الاختيار
وكان هذا هو المعبر عنه بالاذن منه تعالى ، الامر الذي لا ينبغي اشتباهه بمبدء الجبر
ولالتفويض . حسبما تقدم تفصيله .

نعم هناك في الاعمال الصالحة لا يعدم العباد توفيقه تعالى بالتسهيل والتسديد
كما لا يعدم القائمون بالشر خذلانه وحرمانه عن لطفه تعالى الخاصة .

هذا ما يستفاد من الحديث الشريف اجمالاً : فأجدر به من كلام بليغ بديع !
١٢/٤- وللإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام كلام تفصيلي عن مسألة القضاء
والقدر ، وصلتها بمسألة علمه تعالى الأزلي ومشيئته ، نذكره في تقاطيع متلاحقة
حسب الترتيب الطبيعي الذي رتبته الامام عليه السلام :-

قال : علم وشاء ، وأراد وقدر ، وقضى وأمضى !
فأمضى ما قضى ، وقضى ما قدر ، وقدر ما اراد !
فبعلمه كانت المشيئة ، وبمشيئته كانت الارادة ، وبارادته كان التقدير ،
وبتقديره كان القضاء ، وبقضاءه كان الامضاء .

فالعلم متقدم على المشيئة ، والمشيئة ثانية ، والارادة ثالثة ، والتقدير واقع

١- الاحتجاج للطبرسي ص ١١٠ . والبحار ج ٥ ص ٩٥ .

على القضاء .

فله تبارك وتعالى البدء فيما علم متى شاء ، وفيما أراد لتقدير الاشياء ، فاذا وقع القضاء بالامضاء فلا بداء .

فالعلم بالمعلوم قبل كونه ، والمشية في المشاء قبل عينه ، والارادة في المراد قبل قيامه ، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً وقياماً (ووقتا خـل) .

والقضاء بالامضاء هو المبرم من المفعولات ذوات الاجسام المدركات بالحواس من ذى لون وريح ، ووزن وكيـل ، وما دب ودرج ، من انس وجن ، وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس . فله تبارك وتعالى فيه البدء ، مما لعين له . فاذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء ، والله يفعل ما يشاء .

وبالعلم علم الأشياء قبل كونها ، وبالمشية عرف صفاتها وحدودها ، وأنشأها قبل اظهارها . وبالارادة ميز أنفسها في ألوانها وصفاتها وحدودها ، وبالتقدير قدر أقواتها ، وعرف^٢ أولها وآخرها ، وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلهم عليها ، وبالامضاء شرح عللها ، وأبان امرها . ذلك تقدير العزيز العليم^٣ .

ولعلنا في هذا التقطيع سهلنا على القارئ فهم فحوى الحديث بعض الشيء اما شرحه المستوفى فخارج عن نطاق الكتاب . وقد شرحه العلامة المجلسي - قدس سره - في موسوعته القيمة « بحار الانوار » ج ٥ ص ١٠٢ - ١٠٤ . ونقل عن بعض الافاضل هناك بياناً علمياً لا بأس به . وان شئت فراجع تجد فيه ما يروى الغليل ويشفى العليل .

١- لا يشبه هذا التعبير بمذهب الاشعري القائل بقيام مبدا الصفات بذاته تعالى . اذ مراد الامام - عليه السلام - بيان اثبات نفس الصفات من غير نظري الى مبادئها . كما يظهر من بقية الجمل .

٢- بالتشديد من باب التفعيل

٣- كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٤٥-٣٤٦ . والبحار ج ٥ ص ١٠٢

وللسيد عبدالله شبر-أيضا- مقال ضاف حول تفسير هذا الحديث ، تكلم فيه
بتفصيل وتحقيق في كتابه القيم الخالد «مصباح الانوار في حل مشكلات الاخبار»
ج ١ ص ٤٨-٥٨ .

٥/١٣- قال امير المؤمنين - عليه السلام :- «ماغلا أحد في القدر الا خرج من
الايمان»^١ .

الغلو في القدر هو الغلو بالجبر ، بجعل افعال العباد خارجة عن اختيارهم ،
واقعة تحت ارادته تعالى تقع حيثما يشاء لاشأن للعباد في ذلك رأساً . وهذا هو
مذهب العرب الجاهلي الذي كافحه الاسلام بشدة .

وللحديث تفسير آخر : يكون الغلو في عقيدة التفويض ، ليكون الله قد قدر
الاشياء وتركها تتحقق بذواتها وفق تقدير الله القديم . ولاشأن لاذنه تعالى في تحقق
الافعال والموجودات . وهذا مذهب اهل التفويض . جاءت تسميتهم في احاديث
اهل البيت بالقدرية .

ويدل على هذا المعنى الثاني ما رواه الصدوق عن الامام الصادق عليه السلام قال:
«ان القدرية مجوس هذه الامة ، وهم الذين ارادوا ان يصفوا الله بعدله فأخرجوه
من سلطانه»^٢ .

٦/١٤ - وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرقى^٣ يستشفى بها ، هل ترد من قدر الله؟
فقال : انها من قدر الله !^٤ .

١- ثواب الاعمال للصدوق ص ٢٠٥ . والبحار ج ٥ ص ١٢٠ رقم ٦٠ .

٢- كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٩٠ .

٣- الرقية : العوذة ، وهي دعاء يشد على المريض لاستشفائه من عند الله . على شريطة
ان تكون مأثورة بالاثر الصحيح .

٤- قرب الاسناد ص ٤٥ . والبحار ج ٥ ص ٨٧ رقم ١ .

وهذا كالدعاء والاستغفار يرد القضاء وقد ابرم ابراماً - كما فى الحديث - قال تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب - الرعد : ٣٩ » . فالتقدير الاول - مثلاً - ان يشتد مرض فلان على اثر عمله كذا . ثم اذا شرب الدواء الناجح او ابتهل الى الله فى شفاؤه ، فقد قدر شفاؤه لذلك . فكما ان الاول تقدير كذلك الثانى تقدير . وهذا واضح اذا ما رجعت تفسيرنا للقدر ، وهو العلم بالملاكات والمقتضيات هل تصادم مع الموانع ام لا ؟ .

٧/١٥- وعن ابن نباتة ، قال : ان امير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل الى حائط آخر ، فقيل له : يا امير المؤمنين ، تفر من قضاء الله ؟ قال : أفر من قضاء الله الى قدر الله عز وجل ^١ .

ولعل عمله عليه السلام ذلك كان امثالاً لدستور اسلامى « وجوب التحفظ على النفس » . قال الامام الصادق عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمسة لا يستجاب لهم أحدهم رجل مر بحائط مائل ، وهو يقبل اليه ، ولم يسرع المشى ، حتى سقط عليه » ^٢ .

اما بالنسبة الى علمه الخاص - فى مقام ولايته التكوينية - فجائز ان يعمل وفق علمه ، كما فى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام قال : ان امير المؤمنين عليه السلام جلس الى حائط مائل ، يقضى بين الناس . فقال بعضهم : لا تقعد تحت هذا الحائط فانه معور . فقال امير المؤمنين : حرس كل امرء أجله . فلما قام سقط الحائط . قال الامام الصادق عليه السلام : وكان امير المؤمنين عليه السلام يفعل هذا واشباهه . و هذا اليقين ^٣ .

١- كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٧٧ . والبحار ج ٥ ص ١١٤ رقم ٤١ .

٢- الخصال للصدوق باب الخمسة ص ٢٧٢ برقم ٧١ والبحار ج ٥ ص ١٠٥ .

٣- الكافى الشريف ج ٢ ص ٥٨ . والبحار ج ٥ ص ١٠٤-١٠٥ رقم ٣٠ .

وقال امير المؤمنين عليه السلام لسعيد بن قيس الهمداني عندما نصحه ليقى بنفسه عن غيلة الاعداء : «ياسعيد، انه ليس من عبد الاوله من الله - عز وجل - حافظ وواقية. معه ملكان يحفظانه من ان يسقط من رأس جبل، او يقع في بئر. فاذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شيء»^١.

وللعلامة المجلسي - هنا^٢ - بيان لطيف في توجيه موقف الامام امير المؤمنين من قضية الحائط المعور، حيث احتاط في مورد ولم يعبه به في مورد آخر . فراجع .

* * *

السعادة والشقاء

من المسائل المستعصية في الاصول هي مسألة «السعادة والشقاء» : هل السعيد من كتب له السعادة في الأزل ، والشقى من كتب له الشقاء في بطن امه وقبل ان يولد؟! اذن فما موقف السعيد من سعاده ، وموقف الشقى من شقاه ؟ اذا كانت السعادة والشقاء امرين خارجين عن اختيار المكلف ذاته ، وانما هما مفروضان عليه رغم ارادته ومساعيه في هذه الحياة؟!!

قلت : «السعادة» قد تطلق ويقصد بها معنى نفسى ، وهي حالة استقامة للنفس تجعلها ترغب - دائماً - في الخير وفي مناشيء الصلاح ، ولا تميل في ذاتها الى شر او فساد . وفي مقابلة ذلك «الشقاء» حالة نفسية منحرفة تميل بها الى الشر والفساد ولا ترغب في خير ولا في صلاح . وتسمى هذه الحالة بالخباثة النفسية ، وصاحبها «شقى» اى «خبث»^٣ . كما تسمى الحالة الاولى بطيب النفس ، وصاحبها «سعيد»

١- نفس المصدر ص ٥٨-٥٩ .

٢- بحار الانوار ج ٥ ص ١٠٥ تحت الرقم : ٣١ .

٣- كما في قوله تعالى : «ولم يجعلنى جباراً شقياً - مريم : ٣٢ . وقوله : «كذبت

ثمود بطغواها ، اذ انبعث اشقاها - الشمس : ١٢» .

وللسعادة والشقاء معنى آخر يرتبط وحالة الانسان الظاهرية مما يمس عيشته في هذه الحياة . اذ تكون السعادة حينذاك بمعنى الرفاه في العيش ، والشقاء بمعنى العناء اي الضيق والشدة في الحياة .

قال تعالى : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » اي لتضيق على نفسك بكثرة العبادة وبذلك اذ الحياة رأساً . وقال : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى - طه : ١١٧ » اي فتتعب وتقع في عناء العيش بعدهذا الرغد والمرفهية .

كما ورد في الحديث : « من سعادة المرء سعة داره ، ومن شقاءه ضيق داره » اي من قدر له الرفاه في هذه الحياة كان من دلائله ان ينعم بسعة في داره ، ومن قدر له الضيق في الحياة ، كان من دلائله ان يرزق بدار ضيقة . اذ ليست سعة الدار ولا ضيقها مما يرتبط ومسألة السعادة والشقاء بمعنى طيب النفس وخيبتها ، ومن ثم جاء في رواية اخرى : « من شقاء العيش ضيق المنزل » اي من سوء الحظ في الحياة ان تكون دار سكنى الانسان ضيقة^١ .

اذن فالسعيد - على هذا التفسير - هو صاحب الحظ الوفير في هذه الحياة

والشقى : المحروم التعيس .

ونحن قد فسرنا الحديث المأثور « السعيد من سعد في بطن امه ، والشقى من شقى في بطن امه^٢ » - في بعض المجالات - بهذا المعنى الثاني^٣ . اي من قدر له الرفاه في هذه الحياة فان دلائله تبدو من حين انعقاد نطفته ، فانه ينعم برفاه في نفسه وفي امه فتقضى دور حملها به في ارتياح ورغد من العيش الهنيء . اما التعيس المحروم

١- مكارم الاخلاق للطبرسي ، والوسائل ابواب احكام المساكن ج ٣ ص ٥٥٧-٥٦٠ .

٢- بحار الانوار ج ٥ ص ١٥٣ رقم ١ نقلا عن أمالي الصدوق .

٣- وللحديث تفسير آخر سيأتي في حديث ابن ابي عمير مع الامام موسى بن جعفر

فان تعاسته لتسرى الى حالة امه ، لتقضى دور حملها فى عناء وعطب وقلق نفسى واضطراب .

ولعل الاطلاق الاول من السعادة والشقاء ، استعارة من هذا المعنى ، تشبيها لغير المحسوس بالمحسوس ، فالسعيد الطيب النفس مرفه عليه نفسياً ، انه يعيش فى آفاق متسعة الأبعاد ، فى طمأنينة من الحياة وارتياح . « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم » والشقى الخبيث يعيش فى قلق وحرص واضطراب نفسى ، فى إطار ضيق من الحياة الدنيا الحالكة ، المليئة بالأكدار والأخطار .

اما السعادة والشقاء بالمعنى الاول ، فلم يقدر لأحد أن يكون شقياً خبيثاً لان الله تعالى لم يخلق أحد للنار ، وانما خلقهم ليكونوا مؤمنين مطيعين ، ولينعموا برضوانه فى جنة عدن محبوبين . وانما يخبت من يخبت بسوء اختياره وانهماكه فى شهوات دنيا ولذائذ وقتية سفلى ، ثم تحيط به خطيئاته ، وتحول دون نور عقله آثامه ، فيعمى قلبه ويعشى بصره ويصم اذنه ، واخيراً يفقد شخصيته الانسانية الكريمة . ومن ثم صح التعبير فى شأنه : قد غلبت عليه شقوته ، فأمسى من السافلين .

قال الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام فى قوله تعالى « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا - المؤمنون : ١٠٦ » قال : « بأعمالهم شقوا » . هذا الحديث الشريف يؤكد على ان الشقاء امر مكتسب من قبل العبد نفسه ، وليس امراً مفروضاً عليه من قبل الله سبحانه . حيث عدله وحكمته تأبى فرض الشر على أحد اطلاقاً .

وسأل ابن ابي عمير - المحدث العلامة العملاق - ابا الحسن الامام موسى ابن جعفر عليهما السلام عن تفسير قول رسول الله ﷺ « الشقى من شقى فى بطن امه ، والسعيد من سعد فى بطن امه » . فقال الامام عليه السلام : « الشقى من علم الله - وهو فى بطن امه - انه سيعمل اعمال الأشقياء . والسعيد من علم الله - وهو فى بطن امه - انه سيعمل

١- كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٦٦ . والبحار ج ٥ ص ١٥٧ رقم ١٠ .

فسأله ثانية : فما معنى قوله ﷺ : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^١ . فقال الامام : «ان الله - عزوجل - خلق الجن والانس ليعبدوه ، ولم يخلقهم ليعصوه . وذلك قوله - عزوجل - «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» . فيسر كلا لما خلق له فالويل لمن استحب العمى على الهدى»^٢ .

هذا من جلائل احاديث اهل البيت عليهم السلام - وهم أدري بما فى البيت - وهو يؤكد تماماً ما ذكرنا : ان احداً لم يقدر له أن يكون شقيماً او خبيثاً .

وقوله أخيراً : «فيسر كلاً لما خلق له» اشارة الى قوله تعالى : «ثم السبيل يسره - عبس : ٢٠» اى ان الله تبارك وتعالى انما خلق العباد ليعبدوه وليختاروا طاعته على معصيته ، ومن ثم أقدرهم على كلا الأمرين ويسر لهم طرق الامتثال لتكون اطاعتهم عن اختيار وعبادتهم عن رغبة وارادة ، وهكذا كانت منحة الاختيار لحكمة التكليف والاختبار ، الا ان من العباد من يستغل هذه المنحة الالهية فى اغراض مخالفة فيستعمل من قدرته وقواه ، فى اتجاه معاكس لغرضه تعالى . فويل له من هذه الاستفادة السيئة .

وقد جاء هذا المعنى فى احاديث كثيرة ، منها : مارواه البيهقي عن الامام

١- هذا الحديث رواه اهل السنة بعدة اسانيد ، منها مارواه البخارى فى جامعه باب قول الله تعالى : «ولقد يسرنا القرآن للذكر» عن عمران قال : قلت : يا رسول الله ، فيما يعمل العاملون ؟ قال : «كل ميسر لما خلق له» . وهكذا رووا عن على - ع - قال : «اعملوا فكل ميسر» . (صحيح البخارى ج ٩ ص ١٩٥) . وقد أخذت الاشارة - وهم جل اهل السنة - من هذه الاحاديث دليلاً على مذهبهم فى الجبر ، حسبما يأتى . ومن ثم فان الامام - ع - مع اقراره لاصل الحديث يخطؤهم فى فهم معناه وان له تفسيراً يتوافق مع عدله وحكمته تعالى على ما بينه الامام - ع - .

٢- كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٦٦ . والبحار ج ٥ ص ١٥٧ رقم ١٠ .

عليه السلام فيما نقله من الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، بمشيئتي كنت انت الذي تشاء (اي الاذن منه تعالى) وبنعمتي اديت الي فرائضي ، وبقدرتي قويت على معصيتي خلقتك سمياً بصيراً . انا اولي بحسناتك منك ، وانت اولي بسيئاتك مني ... الخ » .
 وفي حديث الزنديق ، سأل الامام ابا عبد الله الصادق عليه السلام فقال : اخبرني عن الله ، كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين ؟ قال : لو خلقهم مطيعين لم يكن ثواب ، لان الطاعة اذا لم تكن من فعلهم لم تكن جنة ولا نار . لكنه تعالى خلقهم فامرهم ونهاهم ، ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون .

الزنديق : أليس العمل الصالح والعمل الشر من فعل العبد ؟

الامام : العمل الصالح يفعله العبد والله أمره به ، والعمل الشر يفعله العبد والله نهاه عنه .

الزنديق : أليس فعل العبد بالآلة التي ركبها الله فيه ؟

الامام : نعم . ولكن بالآلة التي عمل بها الخير ، قدر بها على الشر الذي نهاه ... الخ ^٢ .

* * *

وبعد فاليك من آيات السعادة والشقاء نماذج :

١- قال تعالى : « يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه ، فمنهم شقى وسعيد - هود :

١٠٥ .

زعمت الاشاعرة - وهم جبرية خالصة على ما أسلفنا ^٢ - ان هذه الآية الكريمة تدل على مذهبهم في الجبر ، وان السعيد من كتب له السعادة فلا يستطيع غيرها والشقى من كتب له الشقاء فلا يستطيع غيره ، ومن ثم اخبر سبحانه بان من يدخل الجنة

١- قرب الاسناد ص ١٥١ . والبحار ج ٥ ص ٤-٥ رقم ٣ .

٢- الاحتجاج للطبرسي ص ١٨٦ . والبحار ج ٥ ص ١٨-١٩ رقم ٢٩ .

٣- راجع : ص ٦٨ ، فيما اثبتناه عن امي الحسن الأشعري في قوله بالجبر .

هم السعداء ، وان من يدخل النار هم الأشقياء !

قال مفسرهم وامامهم المتفلسف الفخر الرازى - بشأن دلالة الآية - : اعلم انه تعالى حكم الآن على بعض اهل القيامة بأنه سعيد ، وعلى بعضهم بأنه شقى ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الامر، امتنع كونه بخلافه. والالزم ان يصير خبر الله تعالى كذباً وعلمه جهلاً ، وذلك محال . فثبت ان السعيد لا ينقلب شقياً وان الشقى لا ينقلب سعيداً . قال : وتقرير هذا الدليل مر فى هذا الكتاب (يعنى تفسيره الكبير) مراراً لاتحصى .

قال : وروى عن عمر بن الخطاب انه قال : لما نزل قوله تعالى « فمنهم شقى وسعيد» قلت : يا رسول الله ، فعلى ماذا نعمل ؟ على شىء قد فرغ منه ، ام على شىء لم يفرغ منه ؟ فقال : «على شىء قد فرغ منه يا عمر ، وجفت به الأقلام ، وجرت به الأقدار ، ولكن كل ميسر لما خلق له»^١ .

ثم قال : وقالت المعتزلة : « نقل عن الحسن انه قال : فمنهم شقى بعمله وسعيد بعمله» .

واجاب بأن الدليل القاطع (الذى اقامه - فيما زعم - على اثبات الجبر) لا يدفع بهذه الروايات !

وقال - أخيراً - : وايضاً فلانزاع انه انما شقى بعمله ، وانما سعد بعمله ، ولكن لما كان ذلك العمل حاصلًا بقضاء الله وقدره ، كان الدليل الذى ذكرناه باقياً^٢ .

قلت : اما الرواية التى رووها عن ابن الخطاب فلانتمدها نحن بالذات أولاً - لضعف الاسناد ، لان فى طريقها سليمان بن سفيان عن عبد الله بن دينار . وقد

١- هذه الرواية رواها جميع ارباب التفسير وغيرهم من محدثى العامة . انظر : الطبرى

- التفسير - ج ١٢ ص ٧٠ .

٢- التفسير الكبير ج ١٨ ص ٦٠ - ٦١ .

ضعفه ائمة النقد والتمحيص^١ .

ثانياً - لمخالفتها لاصول العدل والحكمة في ذاته تعالى المقدسة .

ثالثاً - وعلى فرض تسليسها فلا بد من تفسيرها بما لا يتنافى مع مذهب العدل. قال الشيخ محمد عبده : ومعناه - الذى غفل عنه اوجهه الكثيرون على ظهوره :- ان الله يعلم الغيب ، وعلمه بان زيداً يدخل الجنة او النار ، ليس معناه انه يدخلها بغير عمل يستحقها به بحسب وعده وحكمته ، ولا انه لافرق فيما يعمله فى الجزاء وانما يعلم الله المستقبل كله بجميع اجزائه واطرافه ، ومنه عمل العاملين وما يترتب على كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده فى كتابه المنزل وكتابته للمقادير ولاتناقض ولا تعارض بينهما . ونحن لانعلم الغيب ، ولكن النبى ﷺ علمنا ما نعلم به ماسيكون فى الجملة ، وهو «ان الجزاء بالعمل» وان كل انسان يسرله ومسهل عليه ما خلقه الله لأجله من سعادة الجنة وشقاوة النار ، وان ما وهبه للانسان من العزم والارادة يكون له من التأثير فى تربية النفس ما يوجهها به الى ما يعتقد ان فيه سعادته^٢ .

وهذا المعنى الذى تنبه له الشيخ عبده هو الذى نقله اصحاب الاعتزال عن الحسن وانكره الرازى الاشعري .

وهكذا تقدم فى روايات اهل بيت العصمة - عليهم السلام -^٣ ما يتوافق ومذهب العدل ، تفسيراً لما روى عن النبى ﷺ بهذا الشأن .

ولسيدنا الطباطبائى رد لطيف على تليفقات الامام الرازى ، على اصول فلسفية حكيمة ، بين فيها اوجه المغالطة التى ارتكبها امام المشككين ، فراجع^٤ . من ذلك قوله - اخيراً - : كان العمل حاصلًا بقضاء الله ... الخ . اذ ليس

١- انظر : المعنى فى الضعفاء للذهبي ج ١ ص ٢٨٠ برقم ٢٥٩٠ .

٢- تفسير المنار ج ١٢ ص ١٥٩ .

٣- الصفحة : ٣٤٠-٣٤٩

٤- تفسير «الميزان» ج ١١ ص ١٨

هذا الكلام سوى تكرار لكلامه الاول ومصادرة على المطلوب ، لانا قد بينا ان ليس معنى القضاء والقدر سوى علمه تعالى بمقادير الأشياء وامضاء الوجود وفقها من غير ان يكون علمه تعالى علة في التأثير .

اذ لو لاحظنا من السعادة والشقاء امرين مفروضين على العباد، فان مسؤوليتهما تقع على الذي فرض عليهم - وهو الله تعالى حسب مزعومة الاشعري - وهذا بعينه الجبر. اما اذا اعتبرنا انهما من عمل العباد انفسهم، وانهم بالعمل يسعدون أو يشقون ، فمعناه ان المسؤولية ترجع اليهم بالذات لا الى الله ، كما عليه مذهب اهل العدل والتنزيه . اذن فارجاع الاعمال الى الله حينئذ ، ليكون الله هو المسؤول عن افعال العباد - كما يرومه القائل بالجبر - يكون ذلك عوداً الى القول الاول و سلب المسؤولية عن العباد تجاه اعمالهم وما يستتبعها من سعادة وشقاء ، لاشيء آخر !

و كم لامام المشككين وشيخه الاشعري امثال هذه المغالطات المفضوحة !! .

* * *

اما مدلول الآية الكريمة بالذات فان الشقاء والسعادة فيها يعينان سوء الحال وحسنه ذلك اليوم ، اى فمنهم التعميس المتضايق عليه بالعذاب وشدة المؤاخذة ومصيره الى النار ، ومنهم الفاره المنعم عليه بالثواب ورفق اللطف به ومآله الى الجنة . نظير قوله تعالى فى آية اخرى : « وتندر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته (وهم الذين استحقوا رحمته بايمانهم واعمالهم الصالحة) والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير . (وهم الاشقياء الأذلاء الذين استوجبوا الذل والهوان لأنفسهم ، بما عرضوا عن ذكر الله ونسوا لقاء يومهم هذا) - سورة الاعراف : ١٥ » .

اذن ليست السعادة والشقاء فى الآية من النوع المصطلح المبحوث عنه
وانما هما بالمعنى الثانى الذى قدمنا شرحه ، ولاصلة بينه وبين مسألة الجبر والاختيار
فى شىء .

ودليلا على ذلك ما جاء فى تعقيب الآية بالذات : « فأما الذين شقوا (اى
ساء حظهم ذلك اليوم) فى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت
السموات والارض ، الا ما شاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد . واما الذين سعدوا
(اى رجحت صفتهم وحظوا برحمته تعالى الخاصة) فى الجنة خالدين فيها
ما دامت السموات والارض ، الا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ هو د ١٠٦ - ١٠٨ » .

* * *

٢- « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين - المؤمنون : ١٠٦ » .
بعد قوله تعالى موبخاً اياهم : « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون
» . فكأنهم حاولوا بذلك ابداء الاستعداد ، اى بلى تليت علينا آياتك غير ان شقاءنا
النفسى المسيطر على وجودنا ومشاعرنا ، غلبنا ولم يدعنا نجيب دعوتك
فضللنا !! .

وربما تمسكت الأشاعرة بهذه الآية - ايضاً - دليلا على الجبر وعدم
استطاعة العباد على الايمان وعلى الاستقامة على طريق الهدى ، الا ان يكون حافز
من خارج ذاتهم ، حسبما كتبه رب العالمين من سعادة أو شقاء !

وروا عن مجاهد فى قوله « غلبت علينا شقوتنا » قال : التى كتبت علينا^١ .
قال اهل العدل والتنزيه : هذا الذى رامه اهل الجبر تحريف بظاهر الآية
وتأويل بمدلولها من غير ما سبب معقول . لأن ظاهر الآية الكريمة أن العصاة انما
قالوا ذلك اعترافاً منهم بعدم الحجج لهم وان لا عذر لهم فى الاعراض والتولى
بدليل انهم اضافوا الشقوة الى انفسهم « شقوتنا » الامر الذى يدل على ان لهم فى

١- رواها محمد بن جرير الطبرى بعدة أسانيد ، انظر التفسير ج ١٨ ص ٤٤

اكتسابها بدأ ، وانها كانت من صنيع اعمالهم السيئة التي ارتكبوها .
ولو كانت الشقوة مما سجلت عليهم فى الازل الزاماً و الجاءاً لكانت
عذراً لهم البتة ، ولكان لهم ان يقولوا : انها من صنيعك يا ربنا و لا حجة لك
علينا .

والخلاصة ان الآية - حسب اقرار كبار المفسرين وعلماء الادب والبيان
ظاهرة فى الاعتراف باتمام الحجة عليهم وانهم بسوء اختيارهم فعلوا ما فعلوا
ومن ثم هم نادمون على ما فرط منهم ، راجين منه تعالى ان يمن عليهم بالعودة
لاصلاح ما فسدوه من قبل ، واستدراك مافات . «ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون
- ١٠٧» .

قال سيدنا الطباطبائى - دام ظله - : هذا اعتراف منهم بتمام الحجة عليهم
وكانت الشقوة شقوة انفسهم اى شقوة لازمة لسوء اختيارهم وأثر سيئات اعمالهم
حيث اضافوها الى انفسهم . قال : ويشهد لذلك وقوع الآية بعد قوله : «الم
تكن آياتى تنلى عليكم فكنتم بها تكذبون» . وتعقيها بقوله : «ربنا اخرجنا ...
الخ» .

قال : وانما اعترفوا بالذنب والتقصير ليتوصلوا بذلك الى التخلص من
العذاب ، وللرجوع الى كسب السعادة ، فقد كانوا عاينوا من قبل ان اعترفوا
العاصى بالذنب والصغار كانت توبة له ومطهرة له من الذنب ، فكانت تنجيته من
العقاب .

قال : وهذا من قبيل ظهور الملكات ، كانوا يكذبون من قبل مع ظهور
الحق ومعانيته بشهود ، كذلك يكذبون ذلك اليوم تجاه رب العالمين . لاستقرار
ملكة الكذب فى نفوسهم «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون
انهم على شيء الا انهم هم الكاذبون - المجادلة : ١٨»^١ .

١- تفسير «الميزان» ج ١٥ ص ٧٤-٧٥

ومن ثم جاءهم الرد القاصف : « قال اخسؤا فيها ولا تكلمون - المؤمنون :
 ١٠٨ » . والدليل على انهم يكذبون ذلك اليوم بكل وقاحة وشراسة ، قوله تعالى :
 « ثم قيل لهم : اين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا (كذباً وزوراً) ضلوا عنا (اى
 نجعلهم ولا نعرف منهم شيئاً ثم بدا لهم ان ينفكروا عبادتهم للصنام رأساً انكاراً صريحاً
 ومن ثم قالوا) بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً - غافر : ٧٣ - ٧٤ » . انظر الى هذه
 الوقاحة تجاه رب العالمين الذى لا تخفى عليه خافية فى السماوات والارض !!

* * *

وقال الجبائى : « المراد ان طلبنا للسذات المحرمة وحرصنا على العمل
 القبيح ساقنا الى هذه الشقاوة ، فأطلق اسم المسبب على السبب . وليس هذا باعتذار
 منهم ، لعلمهم بان لا عذر لهم فيه ، ولكنه اعتراف بقيام حجة الله عليهم فى سوء
 صنيعهم » .

وقال القاضى : « فى الآية دلالة على انه لا عذر لهم الا الاعتراف (بالتقصير) .
 فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وباداته ، وعلموا ذلك ، لكانوا بأن يذكروا ذلك
 أجدر ، والى العذر اقرب » .

وقدرد عليهما الفخر الرازى - على مذهبه الاشعرى الجبرى - بأن طلبهم
 للسذات ان كان باختيارهم فذلك الاختيار محدث ، وكل محدث مفتقر الى علة
 خارجة عن ذاته ، وليست سوى ارادة الله القديمة . ثم اخذ فى الاستدلال على
 احتياج المحدثات الى علل وهى تتسلسل الى ذاته المقدسة ، حسب منهجه
 الخاص فى ارجاع علل الموجودات حتى الافعال الاختيارية الى ارادته تعالى
 الازلية .

وقد ابطل اهل العدل هكذا استدلالات هى اشبه بسفاسف سوفسطائية ، وان
 افعال العباد الاختيارية واقعة تحت اختيارهم بالذات ، متى ماشاءوا فعلوا ، ومتى
 لم يشاءوا تركوا ، حسبما اسلفنا فى مسألة « الامر بين الامرين » وغيرها من مسائل

مرتبطة .

واما الذى قاله الفخر فى تفسير الآية فهو: ان المناظرة مع الله تعالى غير جائزة بل لا يسأل عما يفعل ، فلا جرم قال لهم : « اخسؤوا فيها ولا تكلمون »^١ .
قلت : ولعله فى هذه المحاولة رجح الحجة مع العصاة ، وجعل من مقام قدسه تعالى حكومة ظالمة غير مسؤولة ولا متقيدة بنظام العقل والحكمة . تعالى الله العدل الحكيم عن ذلك علواً كبيراً .

* * *

٣ - « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى - طه :
١٢٣ » . هذا هو الشقاء المعنوى ، ومن ثم فسروه بالشقاء الاخرى . والآية دليل على انه أثر الضلال عن هداه تعالى والاعراض عن آياته البينة . وليس امراً مفروضاً محتملاً على الاشقياء .

وجاءت كلمة « تشقى » قبل الآية برقم ١١٧ بمعنى الشقاء الظاهرى «التعب والعناء» ، ولكنها فى هذه الآية (١٢٣) جاءت بمعنى الشقاء المعنوى «الخبائة» وهذا من التقابل - اثباتاً ونفيًا - فى كلمة واحدة بين معنيها المختلفين اعتباراً ، وهو من الفن البديع .

* * *

٤ - « ولم يجعلنى جباراً شقياً - مريم : ٣٢ » . هو من الشقاء بمعنى الخبث .

قال الامام الرازى : وهذا - ايضاً - يدل على قولنا (يعنى كون الشقاء والسعادة من فعله تعالى يضمهما حيث يشاء) لانه لما بين انه جعله براً وما جعله جباراً ، فهذا انما يحسن لو ان الله تعالى جعل غيره جباراً وغير بار بامه ، فان الله تعالى لو فعل ذلك بكل احد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك ، ومعلوم انه

١- انظر : التفسير الكبير ج ٢٣ ص ١٢٤-١٢٥ .

ﷺ انما ذكر ذلك في معرض التخصيص .

وقال الامام مالك : ما اشد هذه الآية على اهل القدر (يعني المعتزلة وسائر اهل العدل المنكرين للجبر) اخبر عيسى ﷺ بما قضى من أمره ، وبما هو كائن الى ان يموت ^٢ .

هكذا زعم اهل الجبر من متفلسفة وحشوية ان العباد مضطرون فيما يزاولون لا رأى لهم ولا ارادة ولا اختيار . وانما هم مسيروون وفق ما فرض عليهم وقدر لهم في الأزل .

واما اهل العدل والتنزيه فأجروا الآية الكريمة على سياق نظائرها من ارادة عنايته تعالى الخاصة بخلص اوليائه الصالحين ومزيد أطافه بشأنهم ، لما علم منهم الصلاح والثبات والاستقامة ، فأيدهم ووفقهم وجعلهم للمتقين اماما . قال الشيخ ابو علي الطبرسي - رحمه الله - : « والمعنى : انى بلطفه تعالى وتوفيقه كنت محسناً الى والدتي ، متواضعاً في نفسي ، حتى لم اكن من الجبابرة الأشقياء » ^٣ .

والدليل على صحة هذا المعنى هو سياق الآية وانسجامها مع آيات قبلها وبعدها ، قال تعالى حكاية عن عيسى ﷺ : « قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا اين ما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبرأ بوالدتي ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً - مريم : ٣٠-٣٣ » .

فمعنى «آتانى الكتاب وجعلنى نبياً» : انه تعالى اختارنى نبياً . وليس اختياره تعالى احداً لمقام رسالته الا اذا واجده صالحاً لذلك ، أميناً صادقاً وفياً . وليس تحميلاً في غير محل قابل ولا اعتباراً من غير حكمة وملاك .

١- التفسير الكبير ج ٢١ ص ٢١٥

٢- تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٠٣

٣- مجمع البيان ج ٦ ص ٥١٣ .

وهكذا «جعلنى مباركاً» اى زاد فى عنايته تعالى بشانى ، حيث النبى هو المعلم
النفاع ، فأينما يتوجه فان بشائر الخير والبركات تتقدمه .
و«أوصانى بالصلوة والزكوة» اى أمرنى بهما امر تكليف .

و«برأ بوالدى» اى جعلنى برأبها ، ومعنى جعلنى برأ ، وفقنى للقيام بخدمتها
حيث وجدنى راغباً فى اداء شكرها الواجب ، فحيث انه تعالى مهمله سبيل هذه المكرمة
لما وجده محلاً قابلاً لها ، نسبه الى الله ، حسبما مرفى الحديث «اناولى بحسناتك
منك» . راجع شرحنا لهذه الفقرة ١ .

وكذلك قوله : « ولم يجعلنى جباراً شقيماً » اى لم يخذلنى ولم يمننى أطفاه
الكريمة ، كى انخرط مع الجبابرة الاشقياء ، بل منحنى عناياته والمزيد من توفيقه
حيث وجدنى جاداً فى طلب السعادة ، فساعدنى برحمته ، وفق وعده الحتم «والذين
جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا» .

والخلاصة ، ان معنى «لم يجعلنى جباراً شقيماً» : انه تعالى علم منى الرغبة فى
التخضع والبلوغ الى عز السعادة ، فساعدنى على ذلك وزاد فى توفيقه حتى بلغتها
بعنايته تعالى .

والجعل وان كان بمعنى التكوين ، لكن حيث كانت اصل الهداية الى طرق
السعادة ، وكذا المعونة على الوصول اليها ، حاصلة بفعله تعالى « الحمد لله الذى
هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله » صحت نسبة تكوين شخصية الانسان
المهتدية السعيدة الى الله عز شأنه . فكان شخصيته الخاصة متكونة بفعله تعالى ، حيث
جميع اسباب تكوينها والاهتداء الى طرق تكوينها ، كانت ممهدة من جانبه تعالى ،
الامر الذى لا يستدعى جبراً ولا اكرهاً على هداية اوضلال .

هذا احد التأويلين فى الآية الكريمة .

وهناك تأويل آخر أشار اليه شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي - قدم سره الشريف - قال : «ولم يجعلني جباراً» اي لم يحكم علي بالتجبر والشقاء^١ .
وهذا كقولهم : جعله سارقاً اي حكم عليه بأنه سارق ، بمعنى انه علم منه ذلك او ثبت لديه انه سارق ومن ثم ابدى رأيه بشأنه ليكون معنى الآية على هذا التأويل :
انه تعالى لما علم منه الخير والصلاح في الآجل ، حكم عليه انه من السعداء الاتقياء .
اي ابدى علمه بشأنه .

وأخيراً فلو كانت السعادة والشقاء من فعله تعالى المباشري او التسببي^٢
من غير أن يكون لارادة العبد واختياره الخاص مدخل في تحصيلهما واكتسابهما
لم يكن موضع لمدح السعيد على سعاده ، ولامجال لتوجيه اللائمة الى الأشقياء .
في حين ان جميع ما قاله عيسى عليه السلام بهذا الصدد ، كله تحدّ وفخار ، في جوّ بتلائم
وتمدح النفس بلاشائبة اعجاب ، الامر الذي لا يخفى على النبيه الخبير .

* * *

٥- «وأدعو ربي عسى ان لا اكون بدعاء ربي شقياً - مريم : ٤٨» . اي خائباً
محروماً .

٦- «ولم أكن بدعاءك رب شقياً - مريم : ٤» كذلك .

٧- «اذابعث أشقيها - الشمس : ١٢» اي أخبثها .

٨- «لا يصليها الا الأشقى - الليل : ١٥» . اي الا الخبيث المحروم ، الممنوع

من فيض رحمته تعالى ، بسبب خطيئاته المتركمة المحيطة به من كل جانب .

٩- وهكذا قوله : «ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى - الاعلى :

١١-١٢» ضمير التأنيت يعود على الذكرى ، فالذي يعرض عنها هو الخبيث الشقى

١- تفسير التبيان ج ٧ ص ١١١

٢- حسبما قاله الفخر في آخر كلامه المتقدم

والتعيس المحروم .

١٠- «انه لذو حظ عظيم-القصص :٧٩» .اي سعيد منعم بلذائذ الحياة مرفه عليه

حسبما كان بنو اسرائيل يرونه بشأن قارون .

١١- «وما يلقونها الا ذو حظ عظيم -فصلت :٣٥» .اي سعيد منعم بكمال النفس

ذو عقل وفير وادراك انساني نبيل .

١٢- «يريد الله ان لا يجعل لهم حظاً في الآخرة -آل عمران : ١٧٦» اي نصيباً

وهو حكاية عن واقعة سوداء مرة .

١٣- «ونسوا حظاً مما ذكر وابه -المائدة : ١٣» اي اليهود اغفلوا نصيباً جزيلاً

كان يعود عليهم اذا ما هم لبوا دعوة الحق .

١٤- وهكذا قوله :«فنسوا حظاً مما ذكر وابه -المائدة : ١٤» بشأن النصاري

لم يستسلموا لقيادة الحق .

* * *

التمحيص والاختبار

في القرآن كثير من آيات انذرت بتمحيص هذه الأمة واختبارها شأن سائر

الأمم السالفة . وفي ذلك فائدتان كبيرتان : -

الأولى : ان البلايا والمحن تعمل في تكوين الانسان ثبات عزيمته واستقامته ربه

فلا يتزعزع تجاه الحوادث والكوارث ، مقداماً صبوراً ، قسوى الارادة ، حازماً

وقوراً ، والله تعالى يريد من هذه الامة أمة متريية ومرتقية كاملة ذات قدرة جبارة لبط

العدل في ارجاء العالم المعمور « وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على

الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً -البقرة : ١٤٣» . امة متريية تحت تربية الرسول

وتعليمه المباشر ، لتصبح هي مربية لسائر الامم ومعلمة للاجيال ، مكارم اخلاق الانسانية

العليا وآدابها المثلى .

الثانية : ابداء مافى الناس من قابليات وطاقات واستعدادات متفاوتة ، ومدى ما يبذله أنواع الطوائف والآحاد فى تجسيد مافى كمونهم من قوى وصلابيات « ليميز الله الخبيث من الطيب - الانفال : ٣٧ » أى ليمتاز أحدهما عن الآخر .

وذلك تمهيداً للفوز على مختلف درجات الآخرة ، فلا يستوى الأفراد فى البلوغ الى مدارج الكمال والقرب من رضوانه تعالى . فلو كان الله يثيب الناس على حسب استعداداتهم المتفاوتة من قريب وأقرب أو بعيد وأبعد، وفق ما يعلمه من اختلاف قابلياتهم فى التقرب والابتعاد ، لكانت صرخات الاعتراض تملو : لما ذا هذا الافتراق والتفاوت فى العناية والألطف ؟ !

اذن كان من الحكمة أن يعمّ امتحان شامل « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة - الانفال : ٤٢ » . ليتجلى للناس ماهم عليه من تفاوت واختلاف . « لثلا يكون للناس على الله حجة - النساء : ١٦٥ » .

* * *

١- قال تعالى : « ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يمسر الخبيث من الطيب - آل عمران : ١٧٩ » أى حتى يظهر للناس أنفسهم امتياز أحدهما عن الآخر .

٢- وقال : « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس (اى بالاقبال والادبار) ويعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وللمحصن الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين - آل عمران : ١٤٠ - ١٤٢ » .

قوله : « يعلم » - فى المواضع الثلاثة - أى ليبدو للناس ويتجلى علمه الأزلى بشأن مختلف الطبقات .

٣- « وليبلى الله مافى صدوركم وللمحصن مافى قلوبكم - آل عمران : ١٥٤ » اى ليمتحنكم ويبدى مافى سرائركم ، لاليعلم هو ، بل لتعلموا أنتم أيها الناس . ومن

ثم ختمت الآية بقوله: «والله عليم بذات الصدور». أى ليس هذا الابتلاء والتمحيص لأجل أن يعرفكم - بالتخفيف - بل ليعرفكم - بالتشديد - .

٥- «لتبلون في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور- آل عمران: ١٨٦». هذه الآية الكريمة تشير اشارة تامة الى الفائدة الأولى التي نبهنا عليها . حيث الابتلاء يوطد من أركان عزم الانسان وثباته في الامور .

٥- «وهو الذي جعلكم خلائف الارض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم - الانعام : ١٦٥ . أى لتبدو استعداداتكم ومدى صلاحياتكم تجاه منقلبات الامور والاحوال .

٦- «وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا - المائدة : ٧١ . أى ظنّ بنو اسرائيل ان لا يصيبهم بلاء وابتلاء فتاهت نفوسهم واضطربوا عند الامتحان .

٧- «واتقوا - (أى خذوا حذركم) - فتنة لا نصيبن الذين ظلموا منكم خاصة- الانفال : ٢٥ . حيث الابتلاء بالمحن والآلام يعم الجميع .

٨- «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة - الانفال : ٢٨ . أى بلاء واختبار لمقدار قابليتكم في القيام بوظيفتهما واداء حقهما الواجب .

٩- «ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله (اى يبدو علمه القديم بشأنكم) الذين جاهدوا منكم - براءة : ١٦ .

١٠- « أولايرون أنهم يفتنون في كلّ عام مرة أو مرتين - براءة : ١٢٦ . حيث تواصل الاختبار بتلاحق الفتن والبلايا ، لطفاً مستمراً بالمؤمنين ، وسخفاً هلى

١١- « ليلوكم أيكم أحسن عملاً - هود : ٧ » أى أشدّ ثباتاً وأصوب اتجاهاً .

١٢- « لنبلوهم أيهم أحسن عملاً - الكهف : ٧ » .

١٣- « وفتناك فتوناً - طه : ٤٠ » . أى اختبرناك اختبارات فى مواقف عديدة، توطيداً لثبات شخصيتك ، وتمهيداً لاستعدادك لمقام النبوة .

١٤- « فاناقد فتنا قومك من بعدك وأضلّهم السامرى - طه : ٨٥ » . حيث اضلال السامرى بذاته كانت فتنة وابتلاء زلّت فيها أقدام بنى اسرائيل .

١٥- « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة - الانبياء : ٣٥ » . اى بالجدب والرخص أو بالبلايا والنعم . حتى يبدو مبلغ استعداداتكم وطاقاتكم تجاه مختلف الأحوال .

١٦- « ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض - الحج : ٥٣ » . أى الأحداث المضلّة بعد وفاة الرسول اختبار لمبلغ ثبات المؤمنين به على الايمان غير أنّ غالبينهم ابدوا ما كانت نفوسهم المنحرفة منطوية عليه من الأضغان والأحقاد على هذا الدين . « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم - آل عمران : ١٤٤ » .

١٧- « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً - الفرقان : ٢٠ » . أى كانت البلايا التى تصيب بعضكم من بعض ، امتحاناً لكم ليبدو لكم بالذات مبلغ ثباتكم وصبركم على الايمان . أمّا الله تعالى فهو غنى عن اختباركم ، لانه بصير بكم وعليم بذات الصدور .

١٨- «بل أنتم قوم تفتنون - النمل : ٤٧» . أى وقعتم فى البلاء والابتلاء .
ولولا أن تتدارككم رحمته تعالى لهلكتم عن آخركم .

١٩- «أحسب الناس أن يتركوا - (بلا ابتلاء واختبار) - أن يقولوا آمنا وهم
لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين -
العنكبوت ٢-٣» أى حتى يمتاز الصادق عن الكاذب ، وتمّ الحجّة على الكاذبين .

٢٠- «هنالك - (فى وقعة الأحزاب) - ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً -
الأحزاب : ١١» فتبين المخلصون الثابتون على الإيمان عن الكاذبين المنافقين .

٢١- «إنّ هذا لهو البلاء المبين - الصافات : ١٠٦» . كانت قصة الذبح
اختباراً عظيماً لإبراهيم - عليه السلام - تبينت - خلالها - شخصيته الفذة الكبيرة
بوضوح .

٢٢- «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثمّ أناب - ص : ٣٤» . أى
بهذا الابتلاء نيهناه على ما فرط منه مما لا ينبغى من مثله ، لطفاً بشأنه من عبد مخلص
منيب .

٢٣- «فأدامسّ الانسان ضر دعانا ثم اذا حولناه نعمة منا قال انما اوتيته
على علم بل هى فتنة ، ولكن اكثر هم لا يعلمون - الزمر : ٤٩» . حيث وفرة
النعم قد تكون ابتلاء لمبلغ قيامه باداء الشكر الواجب .

٢٤- «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم -
سورة محمد : ٣١» . أى حتى يظهر علمنا السابق فيكم فيبدولكم بالذات .

قوله : «ونلوا أخباركم» أى نخبركم فيما يؤثرونكم من ادعاءات ونسجحات ، حتى يتبين لكم بالذات مدى صحتها ووقفها مع الحقيقة .

٢٥- «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً - الملك : ٢» تقدم نظيرها برقم ١١ .

* * *

الاحباط . التكفير . الموازنة

الاحباط ^١ : محق حسنة بسيئة لاحقة اطلاقاً ، سواء أكانتا متساويتين أم فضلت احدهما على الأخرى ، وسواء أكانت الفاضلة هي الحسنة ، أم هي السيئة المتأخرة ، حتى وإن سبّتها واحدة لاحقة لتبطل بها حسنات جسام .

التكفير ^٢ - عكس الاحباط - : « ان الحسنات يذهبن السيئات - هود :

١١٤ » .

الموازنة ^٣ : أن يسقط الأقل بالأكثر حجماً وقدرًا ، ليبقى مقدار الفضل بينهما يثاب عليه أو يعاقب محضاً .

وهي من المسائل - الكثيرة - التي اختلفنا فيها نحن - الامامية - مع أصحاب الاعتزال ، حيث أخذوا في اتجاه معاكس لمقتضى العدل والحكمة في أفعاله تعالى ،

١- مأخوذ من «الحبط» - بفتحين - وهو الفساد والهلاك . واصله من حبط البعير ، اذا اكثر من أكل «الحندقوق» حتى انتفخ بطنه وفسد عليه الاكل . واسم هذا الداء «الحباط» - بالضم . واستعمل في كل ما فسد وذهب اثره باطلا ، يقال : حبط دم القتل اذا هدر . او حبط عمله اذا ذهب سدى . وحبط ماء البئر اذا غار فلم يعد .

٢- مأخوذ من « الكفر » - بالفتح - وهو الستر والتغطية ، يقال : كفر درعه بثوبه ، اذا لبسه فوقها وغطاها به . ومنه اطلق اسم الكفر - بالضم - على ضد الايمان ، لان الكافر قد غطى فطرته بالانكار .

٣- بمعنى المقايسة ، فيقاس احدهما بالآخر ليعرف الاثقل من الاخف .

كما نقضوا مذهبهم في كون المجازاة استحقاقاً ، وما الى ذلك من توال فاسدة
حسبما نشير .

وقبل أن تنتقل الى صلب البحث لابد أن نتعرف - اجمالياً - الى مسائل
هي ذات صلة بالموضوع : -

الاولى : هل الجزاء على العمل استحقاق ام مواضعة ، أى مجرد مواعدة
(وعد بثواب ووعد بعقاب) ؟ .

الصحيح هو الأوّل، في صورة ما اذا كان العمل صادراً عن طلب من المولى
حتى ولو كان متفضلاً على عبده بالنعم الجسم ، لأنّ ذلك تفضّل محض ، ولا شيء
يوازى التفضّل ، خصوصاً اذا كان في التكليف مشقة ، فانه ليس للمتفضّل أن يكلف
المتفضّل عليه بما يوقعه في مشقة كثيرة بحجّة أنه منعم عليه ، لولا الالتزام على نفسه
بمقابلة الأجر والثواب .

هذا ولا سيما اذا قلنا بأنّ المثوبات ليست سوى تجسّدات ذاتية لنفس الأعمال
تتجسد الى درجات ودرجات ، والأعمال هي - بدورها - انعكاسات نفسية طيبة
او خبيثة تتمرن بالعمل ، وان كانت ذات مرونة وقابلة للانعطاف والتبديل ، بالتربية
والتدريب .^١

وعليه فالمحسن الممثل لأوامر مولاه ، انما يستحقّ أجراً لذاته ، ولم يكن
الوعد بالثواب سوى تأكيد ، وتعيين لمقداره لا لأصله .

وهكذا المسمى يستحق عقوبة لذاته وليس لمجرد الوعيد ، ولعل استحقاق المسيء
اجماعي ، حيث تمرده وكفرانه نعم المولى معاً .

* * *

الثانية : هل المثوبة والعقوبة تقتضيان الدوام والأبدية؟ فلا مثوبة إلا وهي دائمة
ولا عقوبة الا وهي خالدة؟!

١- وسوف نتكلم عن مسألة العقوبة في مجال التفسير ان شاء الله .

قالت المعتزلة : نعم ! ومن ثم جعلوا من الفاسق خالداً في النار .

ودليلهم على ذلك هو : قياس المثوبة والعقوبة بالمدح والذم ، فكما أنهما دائميان ، كذلك لازمهما من الثواب والعقاب . قالوا : ولأنه إذا انقطع عقاب العاصي ودخل الجنة كان ذلك تفضلاً عليه ، ولانفضل على المكلفين ، وانما هو خاص بالأطفال والمجانين ^١ .

وبهذه الطريقة حاولوا اثبات الاحباط ، لثلا يعود المعاقب على معصيته مثاباً على طاعته ، فينتقض دوام العقاب بشأنه ، كما يكون ثوابه المتأخر تفضلاً فيما زعموه . وهذا مما يتحاشونهما البتة ^٢ .

قلنا : لاخلود في النار الالكفار ^٣ ، أمّا العصاة من المؤمنين الذين احتفظوا بايمانهم حتى الممات فمرجون لأمر الله ، إما يعدّ بهم حسب استحقاقهم ، عذاباً يتناسب مع نوعية العصيان الذي ارتكبوه ، واما يتوب عليهم والله عليم حكيم ^٤ . قال تعالى - بشأن العصاة من المؤمنين - : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم - براءة : ١٠٢ » . قوله : « اعترفوا بذنوبهم » اعترافاً منبعثاً عن ايمانهم بالله ، حيث المؤمن هو الذى يرى من أعماله السيئة عصياناً له تعالى ، فهو دليل على احتفاظهم باصول الايمان ، وان كانوا قد ارتكبوا ما ارتكبوا من قبائح . الامر الذى وفر عليهم من شرائط الغفران .

واما قياس الثواب والعقاب بالمدح والذم ، ففي أصل الاستحقاق لا شك

١- راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص ٦٦٦-٦٦٧ .

٢- انظر نفس المصدر ص ٦٢٤ .

٣- قال تعالى : « والذين كفروا بآيات الله ولقاءه اولئك يسوا من رحمتى واولئك لهم

عذاب اليم - العنكبوت : ٢٣ » ونحن قد بحثنا عن جوانب مسألة الخلود في مجال التفسير .

٤- مقتبس من الآية الكريمة ١٠٦ من سورة براءة .

فيه . فمن استحقّ مدحاً على عمل استحقّ ثواباً عليه ، وكذا اللّمْ والعقاب . أما قياس دوام احدهما على دوام الآخر فلا موضع له ، بعد أن كانت مرحلة الاستحقاق بمعزل عن مرحلة الفعلية والوقوع . لان معنى دوام الاستحقاق ، هو جواز مدّمة العاصي في أيّ وقت من الأوقات ، ولا يختص ذلك بالآن المباشر لظرف عصابته . الامر الذي لا يعنى الاستدامة في مدمته ليل نهار على مر الدهور .

وهكذا العقاب ، يستحقّه العاصي فسي أي وقت من الأوقات ، فمتى ما أراد المولى عقابه صحّ ذلك منه . وهذا لا يعنى جواز الادامة من عقابه على مر الزمان مع الأبدية . لان ذلك عقاب فوق استحقاقه وظلم يتحا شاه عدله تعالى وحكمته المطلقة .

اما اختصاص تفضله تعالى بالصغار القصّر فلم نعرف له وجهاً ، ولا هم أقاموا على اثباته برهاناً . فضلا عن مخالفته الصريحة لنص الكتاب والسنة المتواترة ، فان فضله تعالى عظيم^١ ورحمته واسعة^٢ وقد وعد بغفران الذنوب جميعاً^٣ .

* * *

الثالثة : هل المغفرة خاصة بالتائبين ام هي عامة ؟

زعمت المعتزلة اختصاصها بمن يموت عن توبة وندم واستغفار .

لكن في نصوص الكتاب والسنة صراحة في عمومها لمن مات عن ايمان

١- «يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم - الأفعال : ٢٩ » .

٢- « قال عذابي اصيب به من شاء ورحمتي وسعت كل شيء - الاعراف : ١٥٦ » .

٣- « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم - الزمر : ٥٣ » .

فان كان تائباً فيموت مغفوراً له كمن لا ذنب له ، وغيره يموت مرجواً لأمره تعالى اما يعذبه على قدر استحقاقه ثم يغفر له ، أو يتفضل عليه بالغفران من اول امره بلا تعذيب . وان فى كثير من العبادات الواجبة ، والاعمال الصالحة ، لمطهرة للذنوب حتى الكبار ، فضلا عن الصغائر، فانها مغفورة بذاتها على شرط اجتناب الكبائر^١ .

قال تعالى : « وأقم الصلوة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين - هود: ١١٤ - ١١٥ » .

وقد شبه رسول الله ﷺ الصلوات الخمس بنهر على باب الدار يغتسل فيه صاحبها كل يوم خمس مرات ، فقال : « أكان يبقى فى جسده من الدرن شىء ؟ » . قال الامام ابو جعفر الباقر - عليه السلام - : « وهكذا مثل الصلاة مثل النهر الجارى كلما صلى صلاة كفرت ما بينهما من الذنوب »^٢ .

وقال عليه السلام : « اذا اتى العبد بسيئة ، قال الملك الموكل بحسناته لصاحب السيئات : لاتعجل ، عسى ان يتبعها بحسنة تمحوها . فان الله عز وجل يقول : ان الحسنات يذهبن السيئات »^٣ .

وقال تعالى : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم^٤ ان ربك واسع المغفرة - النجم : ٣١-٣٢ » .

وقال : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا

١- راجع : بحار الانوار ج ٨ ص ٣٥١ باب ٢٧ من كتاب العدل والمعاد .

٢- انظر : وسائل الشيعة ج ٣ ص ٧ باب ٢ من ابواب اعداد القرائض

٣- البرهان فى تفسير القرآن للبحراني ج ٢ ص ٢٣٦ حديث ٣

٤- اللمم : صغار الذنوب

كريمًا - النساء : ٣١».

والآيات والروايات المطلقة في هذا الباب كثيرة جداً كثرة تناسب مع سعة رحمته تعالى الشاملة . وقد تواترت الروايات^١ بشأن المستخلصين من النار الفائزين برحمته تعالى ، جزاء على ثبات ايمانهم . حيث الايمان من اكبر الطاعات والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . « وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم - البقرة : ١٤٣ » .

قال المحقق نصير الدين الطوسي - قدم سره - في تجريد الاعتقاد : « وعذاب صاحب الكبيرة ينقطع ، لاستحقاقه الثواب بايمانه ، ولقبحة عند العقلاء » . قال العلامة ابن المطهر الحلي - رحمه الله - في شرحه : « الحق ان عقاب اصحاب الكبائر منقطع ، والدليل عليه وجهان (الاول) : انه يستحق الثواب الدائم على ايمانه ، لقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . والايان اعظم افعال الخير فاذا استحق العقاب بالمعصية فاما ان يقدم الثواب على العقاب ، وهو باطل بالاجماع لان الثواب المستحق بالايان دائم . أو يقدم العقاب على الثواب - وهو المطلوب - أو يجمع بينهما - وهو محال - (الثاني) : يلزم في من عبد الله تعالى مدة عمره ثم يعصى بمعصية مع بقاء ايمانه ان يبقى مخلداً في النار كمن اشرك بالله مدة عمره ، وذلك محال لقبحة عند العقلاء »^٢ .

* * *

الرابعة : هل المراد بالاحباط تأثير العمل اللاحق في بطلان العمل السابق بمسنى انقلابه فاسداً من الأول ، بعد ان كان قد وقع صحيحاً ؟ أم المراد ابطال اثره في المستقبل من مثوبة وغيرها من آثار كانت مترتبة عليه لولا الاحباط ؟
لاشك ان المفروض الاول باطل ، اذ لا تأثير للمتأخر في المتقدم وجوداً

١- راجع : بحار الانوار ج ٨ ص ٣٥٥ حديث ٨ . وص ٣٦٠-٣٦٣ .

٢- شرح التجريد، المسألة الثامنة في انقطاع عذاب اصحاب الكبائر ص ٢٣٣

الا اذا كان بمعنى بطلان المتقدم واقعاً ، لما فى علم الله : ان شرطه المتأخر (وهو عدم وجود العمل اللاحق) لا يتحقق فى ظرفه . الامر الذى ليس من الانقلاب الحقيقى ، وانما هو انكشاف للواقعية التى كانت معلومة عندالله وخافية علينا .

مثلا اذا كانت الموافاة على الايمان شرطاً فى صحة الاعمال ، فالمرتدالذى يموت على الكفر ، فاقد لهذا الشرط فى ظرف الواقع ، ومن ثم فان اعماله جميعاً كانت باطلة من يومها الاول ، و ينكشف ذلك لنا عند ما يموت على الارتداد .

* * *

الخامسة : هل الفاسق مؤمن ام كافر اموسط بين الأمرين ؟

أثبتت المعتزلة للفاسق منزلة بين المنزلتين ، لا هو باق على ايمانه ولا هو مرتد الى الكفر والجحود . قالوا : صاحب الكبيرة لايسمى مؤمناً ولاكافراً،وانما يسمى فاسقاً . اما الاول ، فلان مرتكب الكبيرة يستحق الذم واللعن والاستخفاف والاهانة ، ولا شىء من ذلك يصلح لشأن المؤمن الذى يستحق المدح والتعظيم والموالاة . وقد سموا من خالفهم فى هذا الرأى بالمرجئة^١ . واما الثانى ، فلان الكافر هو من يستحق العقاب العظيم ، ويختص باحكام مخصوصة ، وله حالة جحود لنعم الله تعالى عليه ، الامر الذى لاينطبق على مرتكب الكبيرة . وخالفهم فى هذا الرأى الخوارج^٢ .

وهى -ايضاً- من المسائل التى اختلفنا فيها مع اصحاب الاعتزال ، لزعمهم ان من شرط الايمان هو العمل بالأركان^٣ . فأخذوا من فروع احكام الاسلام

١- راجع : شرح الاصول الخمسة لقاضى القضاة ص ٧٠١-٧١١ .

٢- راجع : نفس المصدر ص ٧١٢ .

٣- الايمان عند ابي على و ابي هاشم عبارة عن اداء الطاعات ، الفرائض دون النوافل ←

قيداً في ثبوت اصوله ، ومن ثم فان المشروط والمقيد بشيء ينتفى عند فقد شرطه وقيدته . قال القاضي : لأن الأمة اتفقت على ان ركعتي الفجر ^١ من الدين ، واذا ثبت انه من الدين ثبت انه من الايمان ، لان الدين والايمان واحد ^٢ !

قلت : الايمان عندنا عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان . اما فعل الطاعات واجتناب المعاصي ، فهو من آثار الايمان المترتبة عليه مع الالتفات اليه ويختلف حسب اختلاف درجة الايمان وقوته ، كالعقل حسب درجاته في الكمال يؤثر في اتزان الانسان في افعاله واجتناب القبائح . فكما لا يصح ان يقال لكل مرتكب قبيح : انه فاقد للعقل اطلاقاً ، كذلك لا يصح نفي الايمان عن مرتكب المعصية اذا لم يكن عن جهود .

ومن ثم فان الفاسق باق على ايمانه ، وهو الذي يدعوه الى التوبة والاستغفار ولولاه لم يتب ولم يكن يثوب . نعم اذا كان مرتكب الكبيرة جاهاً لحرمتها بما يرجع الى انكار قول الرسول وجحد رسالته - العياذ بالله - لكان مرتداً عن الايمان وداخلاً في حد الكفر ، وبذلك كان قد قطع حبل الله المتين ، الذي اعتمص به عباده المؤمنون ، فلا أصرة تربطه مع الله سوى الرجوع الى حظيرة الايمان .

اما استحقاؤه المذمة والاهانة على ارتكاب المعصية ، فلا يتنافى مع استحقاؤه الاجلال والتعظيم على ثباته على الايمان ، لانهما جهتان مترتبتان على عنوانين لا يمس احدهما الآخر ، فيذم على جهة ويمدح على اخرى ، كما يقبح انسان على

→ واجتناب المقبحات . وعند ابي الهذيل عبارة عن اداء الطاعات الفرائض منها و النوافل واجتناب المقبحات . وقد اختاره قاضي القضاة . انظر : شرح الاصول الخمسة ص ٧٠٧ -

. ٧٠٨

١ - يعنى نافلته حسب اختياره مذهب ابي الهذيل في كون النوافل من الايمان .

٢ - نفس المصدر ص ٧٠٨ .

فبيحة ارتكبتها ، ويستحسن فعله الآخر ، اذا كانا على جهتين وبعنوانين لاصلة بينهما .

واما التساوى بين الدين والايان فلا موضع له ، بعد ان كان الدين عبارة عن مجموعة قوانين وانظمة لتنظيم الحياة الفردية والاجتماعية فى اكمل نظام كافل لسعادة الدارين . فليس الدين سوى الطريقة المستقيمة التى شرعها الله تعالى ، ويجب على المكلفين السير عليها تأمينا لسعادتهم المنشودة .

اما الايمان فهو نفس الاعتقاد بالله وحده لا شريك له ، والتصديق برسوله فيما جاء به من عند الله . وغير خفى ان التصديق غير العمل ، وكان الدين هو العمل .

* * *

فرضية الاحباط فى خطوات :

و بعد فالصحيح عندنا فى مسألة الاحباط ومتفرعاتها هو التفصيل التالى :

١- صريح الكتاب العزيز : ان الموافاة على الايمان شرط فى قبول الاعمال الصالحة ، فلا مثوبة على حسنة مع الكفر . ولعل الحبط بشأن الكافر الذى يموت على الكفر اجماعى وفق نص الكتاب .

قال تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين و يقولون حجراً محجوراً . وقد منا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً - الفرقان : ٢٢-٢٣ » .

ولعل معترضاً يقول : هلا كان ذلك ظلماً وتضييعاً لصالح الاعمال ، ومخالفاً لقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ؟

قلنا : لا ظلم مع الاشتراط ، ويجوز عند العقل ان يكون استيفاء الأجر والمثوبة على الاعمال الحسنة ، مشروطاً بوجود علائق العبودية بين العبد ومولاه

ولا يقطعها بالكفر والارتداد والخروج ضد مولاه في طغيان عام .

اما قوله تعالى : « انا لا نضيع اجر من احسن عملا - الكهف : ٣٠ » .
وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » وغيرهما من آيات ، فالجواب عنهما من
وجهين :

الاول : تخصيص عموم هذه الآيات بغير من يموت على كفر ، فان آيات
الاجباط اخص نسبة من هذه الآيات ، والخاص يصلح مخصصاً للعام . فيصبح
الكافر فقط محروماً من الاجر اطلاقاً ، لا في هذه الحياة ، ولا في الآخرة .

الثاني : ان تبقى عمومات الأجر والجزاء على حالها في التعميم « الناس مجزيون
بأعمالهم ان خيراً فخير ، وان شراً فشر » . غير ان المثوبات الاخرية خاصة بالمؤمنين
فالكافر كالمؤمن يرى خيره عمله الحسن ، لكن في هذه الحياة فقط . « تلك الدار
الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين - القصص :
٨٣ » .

وهذا الوجه الثاني اوفق بعمومات الأجر وقانون العدل والانصاف . قال
تعالى : « ورحمتى وسعت كل شيء فسا كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين
هم بآياتنا يؤمنون - الاعراف : ١٥٦ » . فمن رحمته الواسعة هو عمومها للكافر والمؤمن
مقيدة بهذه الحياة الدنيا ، اما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين .

وقال : « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً - مريم : ٦٣ » .

وقال : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض
اعدت للذين آمنوا بالله ورسوله - الحديد : ٢١ » .

والخلاصة : الثابت - يقيناً - من حبط اعمال الكفار هو اندثارها هباء في دار
اخرى لاحظ لهم فيها ولا نصيب .

قال تعالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز من كان يريد
حرث الآخرة نزادله في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة

من نصيب - الشورى : ١٩ - ٢٠» .

وقال : «فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق (اى نصيب) . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب - البقرة : ٢٠٠-٢٠٢» .
والآيات من هذا القبيل كثيرة ، دالة على ان الكافر قد يكون موفراً عليه فى هذه الحياة ، وربما جزاء على اعمال حسنة يقوم بها ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، وانا لانضيق اجر من احسن عملاً . فتحقيقاً لهذا العموم فى الجزاء ، يجازى الكافر ايضاً على حسنات يعملها ، لكن بالنظر الى اختصاص ثوبات الحياة الاخرى بالمؤمنين ، تختص ثوباته بهذه الحياة الدنيا .
وهذا يتوافق مع قولنا بالاستحقاق ايضاً ، كما لا يخفى .

* * *

٢- ان السيئة مهما بلغت حجماً وعددأ فانها تسقط بالتوبة «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» . فالنادم على معصية اذا استغفر الله ، وقام بشرائط الانابة الى الله وتاب توبة نصوحاً ، غفر الله له جميع ذنوبه ، «قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم - الزمر : ٥٣» .
وهذا اجماع من الامة ، لصراحة الكتاب وتواتر السنة القطعية .
نعم اختلفوا فى ان التوبة بذاتها تسقط العقاب أم لمزية ثوابها على عقاب المعصية التى ارتكبتها ؟ . كما اختلفوا - ايضاً - فى ان سقوط العقاب بالتوبة تفضل ام ذاتى واجب ؟

لكن لاتأثير - عملياً - لامثال هذه المباحث ، بعد ثبوت اصل الاسقاط وان كان بحث عنها كبار ائمة علم الكلام امثال المحقق نصير الدين الطوسى^٢

١- الكافى الشريف ج ٢ ص ٤٣٥ برقم ١٠ باب التوبة .

٢- انظر تجريد الاعتقاد بشرح العلامة ابن المطهر الحلى ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

والقاضي عبد الجبار^١ وغيرهما من العلماء . وللبحث عن شروط التوبة وآدابها مجال آخر .

* * *

٣- الاحباط - بمعنى محق الحسنات بسيئة لاحقة - باطل عندنا^٢ اذ لا دليل عليه لامن العقل ولامن النقل ، فضلا عن مخالفته لعموم الكتاب والسنة ، ومنافاته لاصول العدل والحكمة في باب المجازاة :

اولاً : اذا كنا نقول في باب المجازاة بالاستحقاق - كما عليه العدلية - فما الذي دعا بسقوط ثوابات كان يستحقها المحسن ازاء اعماله الحسنة ، بمجرد سيئة ارتكبها ، لغلبة شهوة او شرائط آخر وافته في ذلك ، من غير ان يكون قد طفى على مولاه ولا قاطعاً لأواصر العبودية التي كانت تربطه مع مولاه ؟!

نعم لو كنا نقول بأن المؤمن اذا عصى خرج عن الايمان - كما يقوله المعتزلة ويثبتون له منزلة بين المنزلتين - لكان لهذا الاحتمال الباطل مجال ، لكننا رفضنا هذا الرأي ، وان الفاسق - عندنا - باق على ايمانه ما لم يجحد او ينكر الرسالة ومن ثم فهو كما يستحق مذمة وعقاباً على معصيته ، كذلك يستحق مدحاً وثواباً على ثباته على الايمان وسائر اعماله الصالحة . ولاتنافى بين الامرين - حسبما تقدم - فيعاقب عقاباً منقطعاً ثم يثاب على الحسنات ، اذالم يشمله الغفران من اول الامر .

ثانياً : معنى تقييد الثوابات واشتراطها بعدم لحوق سيئة أبداً ، هو اشتراط العصمة طول العمر كما في الانبياء والأئمة المعصومين ! وهل من العدل والحكمة

١- انظر شرح الاصول الخمسة لقاضي القضاة ص ٢٩٠ فما بعد .

٢- قال العلامة المجلسي : المشهور بين متكلمي الامامية بطلان الاحباط والتكفير

بل قالوا باشتراط الثواب والعقاب بالموافاة . قال : وذهبت المعتزلة الى ثبوتها . بحار الانوار ج ٥ ص ٣٣٢ .

ان يشترط المولى الكريم، على عباده - الذين خلقهم على درجات من ضعف وعجز تجاه نزعات ومشتهيات نفسية وغيرها من مغريات - ان لا يرتكبوا ذنباً طول حياتهم كي يفوزوا بثواب ما يعملون من الصالحات ؟ ! . وهل هذا ممكن ؟ ! وهل يمكن لأحد ان يتخرج من الايفاء بهذا الشرط بسلام ؟!

ثالثاً : منافاته لعموم الكتاب والسنة واطلاقهما من غير مامخصص او مقيد . قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . وهذا عام يشمل الاعمال الحسنة التي قام بها مرتكب السيئة المتأخرة ايضاً . وهكذا قوله : « ان الله لا يظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجراً عظيماً - النساء : ٤٠ » . والعقل يرى - في بدء نظره - من الظلم ان تمحق سيئة واحدة لاحقة حسنات تقدمتها ، والله لا يظلم من حسنات العباد حتى مثقال ذرة منها ، فكيف بالحسنات الجسام ؟ بل ومن فضله ولطفه بعباده ان يضاعف حسناتهم على الاطلاق ، سواء أكانت سابقة على السيئة ام لاحقة . هذا ما يفيد به اطلاق الآية ولا مقيد لها على ما سنذكر .

رابعاً : منافاته لقانون التعادل بين الذنب والعقاب ، وقد قال تعالى : « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون - الانعام : ١٦٠ » . وقال : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها - يونس : ٢٧ » . وقال : « من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها - غافر : ٤٠ » . وقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها - الشورى : ٤٠ » . فاذا كان الله - وهو العدل الحكيم - يقول : جزاء سيئة سيئة مثلها ، فما الموجب للقول بأن سيئة واحدة مهما كان قدرها تمحق حسنات جساماً كانت سبقتها ؟ او هل هذا الاظلم وجور وحيف ، واضاعة صريحة لمثوبات اعمال صالحة كانت خالصة لله وحده لا شريك له . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

عموم آيات التوفية

ان مراجعة عابرة لآيات التوفية فى القرآن - وهى كثيرة جداً - تجعلنا نطمئن بعموم الجزاء على الأعمال ان حسنة وان سيئة ، حسب الأثر الوارد : «الناس مجزيون باعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر» . ولا مخصص لها فيما فحصنا فيما عدا خصوص الكفار او من يرتد عن دينه فيموت كافراً . وقد تقدم بعضها ، واليك نماذج اخر :

قال تعالى : «من جاء بالحسنة فله عشر امثالها - الانعام : ١٦٠» .

وقال : «للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير - النحل :

٣٠» .

وقال : «من جاء بالحسنة فله خير منها - النمل : ٨٩ ، والقصاص : ٨٤» .

وقال : «للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة - الزمر : ١٠» .

وقال : «من يقترب حسنة نزدله فيها حسناً ، ان الله غفور شكور - الشورى :

٢٣» .

هذه الآيات كلها عامة شاملة لكلتا الصورتين سواء ألحقت الحسنة سيئة ام لم تلحقها ! وفى الآية الأخيرة صراحة فى هذا العموم ، حيث اشار الى جانب غفرانه تعالى ، فالحسنات اذا كانت خالصة لله فالله يشكر عليها ويقدرها ويغفر لصاحبها من ذنوبه سواء أتقدمتها ام تأخرت عنها !

وهكذا قوله تعالى : «انا لانضيق اجر من احسن عملا - الكهف : ٣٠» عام .

وقوله : «فاستجاب لهم ربهم أنى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى

بعضكم من بعض - آل عمران : ١٩٥» .

وقوله : «وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم - البقرة :

١٤٣ . فمقتضى رأفته تعالى ورحمته ان لا يضيع اجر الايمان حتى من العصاة
حيث الايمان من أفضل القربات .

وقوله تعالى : «ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون - آل عمران : ٢٥»
وقوله : «ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون - البقرة : ٢٨١ .
وآل عمران : ١٦١» .

وقوله : «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - البقرة : ٢٨٦» .

وقوله : «ليجزى الله كل نفس ما كسبت - ابراهيم : ٥١» .

وقوله : «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - غافر : ١٧» .

وقوله : «ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون - الجاثية : ٢٢» .

وقوله : «كل نفس بما كسبت رهينة - المدثر : ٣٨» .

الآيات كلها فى صياغة عموم ، بصورة تأبى عن التخصيص حسب ظاهر تعبيرها
حيث فرضت اعفاء اى حسنة من حسنات العبد ظلما به ، حتى ولو كانت ملحوقه
بسيئة ، اذ لا تجزى سيئة الا بمثلها ، اما محق جميع الحسنات فليس جزاء بالمثل
فضلا عن قبحة العقلى على ما هو معلوم .

وقال تعالى : «فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانه
كاتبون - الانبياء : ٩٤» وقد اسلفنا ان مرتكب المعصية لا يخرج من الايمان فبعموم
هذه الاية الكريمة تكون اعماله الصالحة جميعاً المتقدمة والمتأخرة مشكورة له
مشبته فى سجل حسناته محفوظة .

وقال : «وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه (على الاطلاق) سوف يرى -
النجم : ٣٩ - ٤٠» .

وقال : «لتجزى كل نفس بما تسعى - طه : ١٥» .

وقال تعالى : «اولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم

في اصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون - الأحقاف : ١٦ .
ولعلها أصرح آية في عموم التوفية ، وان لاحبط بشأن المؤمن حتى ولو كان
مرتكباً للذنوب ، فان ذنوبه سوف تغفر وتنداركه رحمة الله الواسعة التي كتبها
للذين يتقون .

فقد وعد تعالى - في هذه الآية الكريمة - ان يتقبل حسنات المؤمنين ولم
يشترط عليهم العصمة من الذنوب طول الحياة ، كما هو لازم القول بالاحباط على
مذهب اهل الاعتزال .

والآيات من هذا القبيل كثيرة في القرآن ، وهي حسب ظاهر تعبيرها آية عن
التخصيص فضلا عن تكاثرها وتظافرها ، الامر الذي بحاجة الى مخصص قوى
صريح ، والمفروض فقد هذا المخصص على ماسنين .

* * *

اختصاص آيات الحبط بالكفار

أما الآيات التي جاء فيها ذكر الاحباط فكلها خاصة بالكفار والمشركين ممن
يموت على الكفر والجحود :-

قال تعالى : « ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر
اولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون - براءة : ١٧ .

وقال تعالى - اشارة الى امم سابقة كفرت - : « اولئك حبطت اعمالهم في
الدنيا والآخرة واولئك هم الخاسرون - براءة : ٦٩ .

وقال : « اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت اعمالهم - الكهف :

١٠٥ .

وقال : « اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم - الاحزاب : ١٩ .

وقال : « ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم - سورة محمد : ٩ .

وقال : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم -
سورة محمد : ٢٨ » .

وقال : « ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين
لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم - سورة محمد : ٣٢ » .

وقال : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم
عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء - ابراهيم : ١٨ » .

وقال : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا - الى قوله - وقد منا الى ما عملوا من
عمل فجعلنا هباءً منثوراً - الفرقان : ٢١-٢٣ » .

الى نظائرهما من آيات تخص حبط اعمال الكافرين بالله الجاحد للنبوة المكذب
لرسالة نبينا محمد ﷺ ، ولا يملك القائل بعموم الحبط دليلاً صراحة من الكتاب
العزيم ، وبالتالي فان العمومات المتقدمة بموافاة كل انسان جزاء اعماله ان خيراً
فخيراً وان شراً فشر ، باقية على شمولها لاعمال مرتكب الذنب ايضاً . خرج منها
منكر الرسالة وبقي الباقي - اطلاقاً - تحت العموم . الامر الذى تقتضيه قواعد علم
الاصول والبيان .

* * *

هل فى آيات الحبط عموم ؟

قد يزعم البعض ^١ - احتمالاً - دلالة آى من الكتاب على عموم الحبط
وعدم اختصاصه بمن يموت كافراً . وهو وان لم يذكر من تلك الآيات شيئاً ولا اشار
اليها بالخصوص ، وانما ذكر ذلك تعبيراً عابراً ، ومن ثم فان كانت نظرتة الى آيات
الحبط المتقدمة فهى كانت خاصة بالكفار والمشركين ، وان كانت الى غيرها
فلم يبين ، ونحن فى عرضنا لآيات القرآن فى خصوص مسألة الاحباط عثرنا على

١- انظر : القول السديد فى شرح التجريد للسيد الشيرازى ص ٣٩٦ .

آيات لعلها ذات دلالة ظاهرية - في بدء النظر - على عموم الحبط ، نذكرها فيما يلي :-

١- قال تعالى : «فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا ، وماله في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب - البقرة : ٢٠٠-٢٠٢ .
فاذا ارجعنا الاشارة في قوله : « اولئك » الى خصوص الفئة الثانية ، كانت الآية - في بدء النظر - دالة على اختصاص توفية المثوبات بهم ، وان لاحظ للفئة الاولى فيما اكتسبوه من الحسنات . والآية - بظاها - عامة تشمل ما اذا كان من الفئة الاولى مؤمنون معتقدون بالله ومصدقون برسالة نبينا ﷺ !

قلنا : هذه الاستفادة من الآية خاطئة ، لانها نزلت تعريضاً بشأن المشركين كانوا اذا وقفوا بالموقف ذكروا آباءهم ونوهوا بأمجاد جاهلية تفاخروا على بعضهم واذا سألوا الله شيئاً لم يتجاوزوا مطالب سافلة ابلاو غنماً ورقيقاً وظفراً على اعداء ولا يسألونه الجنة والمغفرة والرضوان ، حيث فقد العقيدة بالبعث والنشور
« ان هي الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين - المؤمنون : ٣٧ . ومن ثم ذكر تعالى : «وماله في الآخرة من خلاق» .

ولاشك ان الذي لاخلاق له في الآخرة هو الكافر المحض - حسبما تقدم -
« وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » . اما الفئة الاخرى - وهم المؤمنون بيوم المعاد - فيسألون الله تعالى خير الدنيا والآخرة والمغفرة والنجاة من النار ، فهو لاء لهم نصيب في الآخرة : « يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وان الله لا يضيع اجر المؤمنين - آل عمران : ١٧١ » .

قال ابن عباس : كان قوم من الاعراب يجيئون الى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث و عام خصب و عام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً .

فأنزل الله فيهم « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا ، وماله في الآخرة من خلاق » . ويجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . فانزل الله فيهم « اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

وعن مجاهد : كان اهل الجاهلية اذا اجتمعوا بالموسم ذكروا فعل آباءهم في الجاهلية وأيامهم وانسابهم فتفاخروا ، فانزل الله ... الخ .
وعن ابن الزبير : كان الناس في الجاهلية اذا وقفوا بالمشعر الحرام دعوا فقال احدهم : اللهم ارزقني ابلا ، وقال الآخر : اللهم ارزقني غنما ، فانزل الله ... الخ .

وعن السدي : كانت العرب اذا قضت مناسكها واقامت بمنى ، لا يذكر الله الرجل منهم ، وانما يذكر اياه ، ويسأل ان يعطى في الدنيا ^١ .
وعن الامام ابي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام : انهم كانوا يجتمعون ، يتفاخرون بالآباء ، وبما آثرهم ، ويبالغون فيه ^٢ .

هذا فيما لو كانت الاشارة في « اولئك » الى خصوص الفئة الثانية ، اما لو ارجعناها الى كلتا الطائفتين ، كان المعنى : ان لكل نصيبه حسبما يبتغيه ان دنيا وان آخرة ، نظير قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له في الآخرة من نصيب - الشورى . ٢٠ » .

بل وحتى المؤمن اذا كان همه الدنيا كانت هي نصيبه من حظ الحياة ، ولا

١- الطبري - التفسير - ج ٢ ص ١٧٤ . والدر المنثور ج ١ ص ٢٣٢ . واسباب النزول

للواحدي ص ٣٤ .

٢- التبيان للشيخ الطوسي ج ٢ ص ١٧٠ . ومجمع البيان ج ٢ ص ٢٩٧ . والصابي

ج ١ ص ١٧٨ . والعياشي ج ١ ص ٩٨ .

حظ له فى الآخرة ، ذلك الحظ الاوفر . حيث قصور نظره وابتدال همته . كما روى فى قوله تعالى : « ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، اولئك لاخلاق لهم فى الآخرة - آل عمران : ٧٧ » انهازلت فيمن اخذ مالا بيمين فاجرة^١ . فهو لاء ، وان كانوا مؤمنين بحسب الظاهر ، لكنهم فى واقع باطنهم لا طمع لهم فى الآخرة . كما روى عن النبى ﷺ : « ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم^٢ » . يعنى المجاهدين فى سبيله لأطماع دنيوية لا عميدة لهم راسخة ، وربما كانوا متظاهرين بالاسلام . وكما روى - ايضاً - انه ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا فلاخلاق له فى الآخرة^٣ . يعنى ذلك الحظ الاوفر الذى يناله المؤمن المعتقد المحافظ .

وعليه فتوله : « اولئك لهم نصيب » اى النصيب الاوفر التام . واما غيرهم من المؤمنين القاصرين فان نصيبهم من الآخرة قليل .

* * *

٢- وقال تعالى : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللوم ، ان ربك واسع المغفرة - النجم : ٣١ - ٣٢ » .

ولعل متشبيهاً يتشبه بالتقييد الذى جاء فى الآية الكريمة « الذين يجتنبون... » قيداً لقوله : « ويجزى الذين احسنوا بالحسنى » . فلا ينال أحد أمثوبات أعماله الا اذا كان مجتنباً للكبائر ، الامر الذى ينطبق تماماً على مذهب الاحباط ، حيث السيئة اللاحقة تذهب بالحسنات أدرج الرياح !

١- تفسير البرهان ج ١ ص ٢٩٢ . والمجمع ج ٢ ص ٤٦٣ . والدر المثور ج ٢

ص ٤٤ .

٢- التفسير الكبير للامام الرازى ج ٥ ص ١٨٧ .

٣- مسند احمد بن حنبل ج ١ ص ٤٦ .

قلت : هذا بناء على اعتبار « الذين يجتنبون » بياناً من « الذين احسنوا »
فيكون قيداً له . لكن قد يستشكل : كيف يصلح الفعل المستقبل بياناً للفعل
الماضي ؟ ! ومن ثم رجح بعضهم كونه مستأنفاً به ، اى هم الذين يجتنبون . . .
الخ ، أو يكون الموصول مبتدأ محذوف الخبر ، مدلولاً عليه بقوله : « ان ربك
واسع المغفرة » .

وعلى كل تقدير ، ففى التحول من لفظ الماضى أولاً الى لفظ المضارع ثانياً
نكتة لطيفة ، هى ملاحظة ما لجانب الفعل المضارع من دلالاته على الدأب والاعتدال
الحاصل بالغلبة والأكثرية ، الامر الذى لا يثلمه الخروج عنه مرة أو مرتين مثلاً .
فمن كان من عادته المشى بعد الأكل عادة حاصلة بالأغلب ، يصح فى شأنه ان يقال :
انه يمشى بعد الأكل . ولا يضر بهذا الاطلاق ان لا يمشى بعد الأكل احياناً ، اذا لم
يخالف عادته رأساً .

فالمؤمن المعتقد هو الذى يلتزم على نفسه بأن يجتنب المعاصى ولا يقتر بها
ولا يضره الاقرار احياناً على خلاف المعتاد . وهذا يصدق بشأنه « انه يجتنب الذنوب »
اى يحاول بكل جهده اجتنابها وان كان قد تعاكسه الظروف رغم عادته .

ومن ثم قال تعالى - بشأن المؤمنين فيما يخص جانب تركهم للمعاصى - :
« والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، واذا ما غضبوا هم يغفرون - الشورى :
٣٧ » . ولم يقل : « اجتنبوا » لان الماضى يدل على تواصل الاجتناب فى الماضى ، ويثلمه
التخلف فى فترة او فترات . فمن ارتكب كبيرة مرة أو مرات طول حياته ، لا يصدق
بشأنه أنه اجتنبها بصيغة الماضى ، لكن يصدق بشأنه انه مجتنب أو يجتنب المعاصى
بصيغة اسم الفاعل او المضارع .

ولذلك لما جاء دور معصية خصوص الشرك ، عبر تعالى بصيغة الماضى :
« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها - الزمر : ١٧ » . لانها معصية غير مغفورة
وليست بالتى لاتضر بالايمان أن يقترفها المؤمن احياناً فى حياته !

والخلاصة : انه تعالى ذكر في الآية الكريمة أولاً جانب الايمان وفعل الطاعات وعبر عنه بصيغة الماضي ، دلالة على الاستمرار والتواصل « الذين احسنوا » . ثم ذكر جانب ترك المعاصي واجتناب المحرمات ، وعبر عنه بصيغة المضارع ، دلالة على اعتبار كون المؤمن بانياً على تركها وملتزماً على نفسه اجتنابها ، الامر الذي لا يضره الاقرار أحياناً . « ان الحسنات يذهبن السيئات - هود : ١١٤ » .

ففي هذا الاختلاف في التعبير - ماضياً ومضارعاً - دلالة واضحة على ان سيئة واحدة لاحقة ليست بالنى تمحق الحسنات السابقة بأسرها ، كما يرومه القائل بالحبط !

فلامساس للاية بمسألة الاحباط رأساً .

* * *

٣- وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى ، كالذى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شئ مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين - البقرة : ٢٦٤ » .

ربما يزعم البعض أن في الآية الكريمة دلالة على الحبط بشأن المؤمنين ايضاً . فان الامتنان والأذى معصية تمحق حسنة الصدقة السابقة ، ومن ثم قال تعالى في الآية قبلها : « الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى ، لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم - ٢٦٢ - ٢٦٣ » .

قلت : اذا كان من شرط الصدقة - وهي عبادة - قصد الخلوص والقربة الى الله لانها انفاق في سبيل الله ، فان المنة على المتصدق عليه مناقضة صريحة لماهية الصدقة وقلب لها من كونها قربة الى كونها رياء وسعة ، فضلاً عن كونها أذى وهتكاً لشخصية مسلمة كريمة .

فالصدقة مع المنة ليست بصدقة في حقيقتها ، ومن ثم فلا حسنة كى تمحقها

سيئة ، فلاموضوع فى الآيه لمسألة الاحباط !

وهذا نظير ماكان احد الصوفية يرتكبها ، كان يسرق ثم يتصدق به ، زاعماً ان الحسنه تقابل بالعشر والسيئه بواحدة . فقال له الامام عليه السلام : ويلك ، اما قرأت : «انما يتقبل الله من المتقين - المائدة : ٢٧» . وسيوافيك الحديث (ص ٣٩٤) فى بحث التكفير .

* * *

٤- وقال تعالى : «يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض . أن تحبط اعمالكم وأنتم لاتشعرون - الحجرات : ٢ » .

رجح سيدنا الطباطبائى دلالة الآيه الكريمة على الحبط ، قال : ظاهر الآيه ان رفع الصوت فوق صوت النبى عليه السلام والجهر له بالقول ، معصيتان موجبتان للحبط الامر الذى يدلنا على ان غير الكفر من المعاصى - ايضاً - يوجب الحبط .

قلت : لاشك ان اصحابنا الامامية متفقون على ان لاحبط فى غير الموت على الكفر ، لانه ظلم وقبيح - حسبما اسلفنا - ومن ثم ذهبوا جميعاً الى توجيه الحبط فى الايه الكريمة بما يلائم ومذهبهم فى العدل .

قال العلامة المجلسى - رحمه الله - : « اعلم ان المشهور بين متكلمى الامامية بطلان الاحباط والتكفير ، بل قالوا باشتراط الثواب والعقاب بالموافاة . بمعنى ان الثواب على الايمان مشروط بان يعلم الله منه انه يموت على الايمان ، والعقاب على الكفر والفسوق مشروط بان يعلم الله انه لايسلم ولايتوب . وبذلك أولوا الايات الدالة على الاحباط والتكفير » .

قال شيخ الطائفة - قدس سره - فى تفسير الآيه : «ثم أمرهم - ثانياً - بأن قال : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) على وجه الاستخفاف به عليه السلام . فان مجاهداً

١- تفسير الميزان ج ١٨ ص ٣٣٥

٢- بحار الانوار ج ٥ ص ٣٢٢

وقنادة قالا : جاء أعراب أجلاف من بنى تميم فجعلوا ينادون وراء الحجرات : يا محمد ، اخرج الينا . ولو أن انساناً رفع صوته على صوت النبي ﷺ على وجه التعظيم له والاجابة لقوله ، لم يكن مأثوماً . وقد فسر ذلك بقوله (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) فان العادة جارية ان من كلم غيره ورفع صوته فوق صوته ان ذلك على وجه الاستخفاف به ، فلذلك نهاهم عنه ' .

وبعد فلعل الاية بذاتها ظاهرة فيما نقوله ، وان الحبط فيها يمس جانب رذيلة الاستخفاف بمقام النبي الكريم ﷺ ، المفضى فى نهاية الامر الى الارتداد شيئاً فشيئاً ، وان كان صاحبه لا يشعر بذلك ، حيث التعود عليه تدريجياً .

ذلك ان الانسان اذا ارتكب رذيلة مما لم يرتكبها من قبل ، ندم عليها اشد الندم ، لكنه اذا ارتكبها مراراً فان خشيته تقل وخوفه يتضاءل ولا يندم كندمه فى البدء ، وربما أوجب التكرار عادة يعتادها الانسان من غير ان يحس بقبحها شيئاً فشيئاً . فعلى الانسان السائر فى طريق التهذيب والكمال ان يسد على نفسه ابواب المعاصى فى اوائل أمرها ، حيث الانقلاع فى بدء الامر هين وفى الغضون صعب . وربما ينتهى الامر الى ما لا يراه قبيحاً أو ذنباً مستنكراً .

وعليه فلا شك ان رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالكلام بما يشبه الصياح ، خلاف الادب ، واستهانة بمقامه الكريم ، وهى رذيلة قبيحة تؤدى بصاحبها تدريجياً - اذا أصبر عليها - الى الاستخفاف به ﷺ واستحقاره والتنزل بمقامه السامى الى درجة العبيد والارقاء - العياذ بالله - الامر الذى ينتهى فى نهاية المطاف الى استصغار مقام النبوة ، وربما الى انكارها ، واعتبار النبي كأحدهم من سائر الناس ، لامتزية له ولا منزلة شامخة ، وهو فى حد الكفر والارتداد وربما بلغه المرتكب لاعن شعوره .

يدل على ذلك شواهد من السورة نفسها :

١- تفسير التبيان ج ٩ ص ٣٣٨ .

أولاً - قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله - ١ » . كان احدهم يتقدم على رسول الله في المشى استكباراً بنفسه واستعظماً لزعامته على افراد قبيلته كان يحسبهم كثرة ذوى عزة ، تجاه قبيلة النبي ذات قلة فى نظرهم . وهى اهانة بمقام النبي العظيم بلاشك . ومن ثم حذرهم تعالى بقوله : « واتقوا الله » اى احذروا نكال هذه الرذيلة السيئة وهذا الذنب الخطير المؤدى الى الكفر والارتداد أحياناً .

ثانياً - قوله : « كجهر بعضكم لبعض - ٢ » يدل على انهم كانوا يحسبون من شموخ مقامه المنيع ﷺ متماثلاً معهم وفى مستواهم الهابط من الكرامة والفضيلة الامر الذى هو ازرأه بشأنه ﷺ .

ثالثاً - قوله : « ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى - ٣ » تعريض بان الذين يخالفون هذا الادب الاسلامى هم ذوو قلوب جافة قاسية لم ترضخ لشريعة الله ومن ثم فلم تتمرن على التقوى والخشية التى هى من لين القلوب ، فهم الى العتو والاستكبار اقرب منهم الى الخضوع والاستسلام .

رابعاً - قوله : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون - ٤ » . اى تمكن الجهل والعماء من قلوبهم فلم يستعدوا بأنفسهم للرضوخ الى تعاليم الاسلام القيمة .

واخيراً - فقوله : « ان تحبط أعمالكم وانتم لا تشعرون - ٥ » . يعنى ان سوء الادب بمقام النبوة سوف يؤدى الى الارتداد الفظيع ، من غير ان تشعرُوا بالسقوط تدريجياً الى مهواه السحيق .

التكفير بين العموم والخصوص !

اماتكفير الحسنات للسيئات - اجمالياً - فمما لا شك فيه، نظراً لصراحة القرآن المجيد والسنة المتواترة في ذلك . لكن هل هذا التكفير عام في جميع الحسنات وبالنسبة الى جميع السيئات اطلاقاً ، أم هناك شروط وقيود وتفصيل ؟

لاستطيع - ونحن نرى العدل والحكمة في ذاته المقدسة - ان نلتزم بعموم التكفير بصورة مطلقة، اذ أقل نتيجة لهذا الالتزام هو اجترأ اهل الكبائر على اقرار الذنوب والآثام من غير مامبالاة . فليتركب المذنب ما ترغب اليه نفسه الخبيثة بصورة مستمرة عبر الليالي والأيام ، بل على مر الساعات والآتات ، مقتنعاً بنفسه انه ملتزم بالصلاة والصدقات ، لقوله تعالى : «ان الحسنات يذهبن السيئات» !

ولعل عمر بن سعد - مع اعترافه بمآثم قتل ابن رسول الله ﷺ كان ممن يميل الى هذا المذهب المنحرف في قوله :

فان صدقوا فيما يقولون انني اتوب الى الرحمان من سنتين .^١

الامر الذي ينكره الوجدان الشريف ، ويرفضه دأب العقل الرشيد ، فضلاً عن منافاته لمقام عدله تعالى وحكمته في التكليف والبعث والزجر والوعيد . وفي حديث الامام ابي عبدالله الصادق عليه السلام مع أحد الصوفية دلالة واضحة على فساد هذا المذهب العامي :-

قال عليه السلام : «ان من اتبع هواه وأعجب برأيه كان كرجل سمعت غناء العامة تعظمه ، فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفني . فتبعته يوماً فمر بخباز فتغفله وسرق منه رغيفين . ثم مر بصاحب رمان فاخطف منه رمانتين ، فتعجبت وقلت في نفسي ما حاجته الى هذه السرقة ! ثم لم أزل أتبعه حتى مر بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين

١- اسرار الشهادة عن مقتل ابي مخنف ص ٢٣٢ . وتجد صدد الايات في كامل ابن

الاثير ج ٣ ص ٢٨٣ ومناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٩٨ .

يديه !

قال الامام: فتمرضت له وسألته عن صنيعه ذلك . فقال : لملك جعفر بن محمد! قلت : بلى . فقال : فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك ! قلت : وما الذى جهلت منه؟ قال : قول الله عز وجل: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسبئة فلا يجزى الأمثلها» . وانى لما سرقت الرغيفين كاننا سيئين ، ولما سرقت الرمانتين كاننا سيئين ، فهذه أربع سيئات . فلما تصدقت بكل واحدة منها كانت لى أربعون حسنة واذا نقصت منها اربعا بقيت ست وثلاثون حسنة !

قال الامام : قلت له : ثكلتك أمك ، أنت الجاهل بكتاب الله ، اما سمعت الله عز وجل يقول : « انما يتقبل الله من المتقين » . انك لما سرقت الرغيفين والرمانتين كانت اربع سيئات ، ولما دفعنها الى غير اصحابها بغير رضاهم كنت أضفت الى سيئاتك اربع سيئات اخر ، ولم تصف لك الأربعون ! قال : فجعل يلاحبنى^١ فانصرف وتركته .

قال الامام: «بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يضلون ويضلون» .

* * *

اذن فلا بد من تأويل ماورد فى الكتاب والسنة ما ظاهره عموم التكفير ، اما باختصاصه ببعض الذنوب كالصغائر مثلا ، أو بصورة ما اذا حصل من المرتكب ندم على ما فرط منه ، فاذا قام بحسنة كصلاة وصدقة فى سبيل الله ، كان ذلك من موجبات قبول توبته ، اما وقوع مطلق الحسنات كفارة لمطلق السيئات كبيرة وصغيرة ، سواء أندم عليها أم لم يندم ، كان بانياً على تركها ام مصراً على فعلها

١- لاحاه : شتمه وأبغضه .

٢- وسائل الشيعة ج ٦ ص ٣٢٧ . ومعانى الاخبار للصدوق ص ١٤ . والتفسير

المنسوب الى الامام العسكرى ص ١٦ واحتجاج الطبرسى ج ٢ ص ١٢٩-١٣٠ .

فهذا مما لانستطيع الموافقة عليه ، مادام مذهبنا يرى العدل والحكمة فى أفعاله تعالى .

واليك من الآيات ماتعرضت لظاهرة التكفير :

١- قال تعالى : « وأقم الصلوة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين - هود : ١١٤ » .

وربما تواترت الروايات بشأن الصلوات الخمس ، اذا قام المسلم فتوضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس ، تحات خطاياه كما يتحات الورق من الغصن اليابس^١ .

ولنتساءل : هل هذا عام يشمل النادم والمصر ؟ أو الكبائر كلها ؟ فليتركب اصحاب الجرائم والكبائر مابدا لهم من ذنوب وآثام ، ولا مبالاة ، فان صلاة واحدة من الصلوات الخمس تذهب بالسيئات كلها ، فليصلها ثم يعود الى جنائياته وهكذا يذنب الذنوب العظام ويعقبها بصلاة لتكون كفارة عن ذنوبه كلها ومطهرة له من الآثام ، حتى ولو كان بانياً على العود والاعتراف على الاستمرار ! ؟ .

فالصحيح فى تفسير الآية أحد وجهين :

الاول : اختصاص ذلك بالصغائر ، الامر الذى نلتزم فيه بالتكفير خاصاً به .
فالصغائر - وهى الذنوب المغفول عنها غالباً^٢ - مغفورة على شريطة الايفاء بالصلوات

١- انظر : مجمع البيان ج ٥ ص ٢٠١ . وتحات الورق من الشجر - بتشديد التاء - :

تتاثر وتساقط .

٢- اختلفوا فى تعيين الصغائر وتمييزها عن الكبائر ، فقيل : ما اوعده الله عليه النار او اوجب عليه حداً ، وقيل : كل ما نهى الله فهى كبيرة ، لان كبر الذنب انما هو بالقياس الى عظم شأن المولى . وقيل ليست فى الذنوب صغيرة الا بالقياس الى اكبر منها ، فبعضها اكبر وبعضها اصغر قياساً نسبياً لاحقياً . انظر : مجمع البيان ج ٣ ص ٣٨ .

الخمسة تامة كاملة . فقد وعد تعالى بغفران الصغائر ، لكن وعداً مشروطاً باجتناب الكبائر ' ومن الكبائر ترك الصلوات المفروضة او الاستهانة بها ، قال الامام الصادق عليه السلام : «لاتنال شفاعتنا مستخفاً بصلاته ^٢» والاستخفاف بالصلاة بذاته كبيرة موبقة . فمن شرط غفران الصغائر الاهتمام بالصلوة وحسن أداءها والمحافظة على حدودها والالتزام من ركوعها وسجودها ومالي ذلك من احكام وآداب مفروضة .

→ والصحيح ان هناك كبائر وصغائر . وفي بعض الروايات تعداد الكبائر بالخصوص وهي جميع الذنوب المعروفة ، وربما بلغت سبعين ذنباً تقريباً . وجاء في حديث شرايع الدين عن الامام الصادق ع - برواية الاعمش ، اشارة الى كثير منها . راجع : بحار الانوار ج ١٠ ص ٢٢٢ - ٢٢٩ .

قال الامام الصادق ع - «الذنوب كلها شديدة، وأشدها ما نبت عليه اللحم والدم» . الكافي الشريف ج ٢ ص ٢٧٠ . والبحار ج ٧٣ ص ٣١٧ . وراجع الكافي باب الكبائر ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٨٧ . وباب استصغار الذنوب ص ٢٨٧ . وباب الاصرار على الذنب ص ٢٨٨ . وغيرها من ابواب مناسبة .

وعليه فالصغيرة عندنا هي الذنوب التي ترتكب عفواً وربما لاهن قصد وشعور . لكن لا بمثابة تكون عذراً . وذلك اكثر ما يتلى به الناس في حياتهم اليومية ، من دون مامبالاة بالتحفظ على حقوق معاشره الاخوان بتلك الدقة التي عينها الاسلام ، وما شبه ذلك . ولعلنا في مجال آخر مناسب نتعرض لهذه المسألة بتفصيل وتوضيح اكثر .

قال الامام الصادق ع - عليه السلام :- «لاصغيرة مع الاصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار» الكافي الشريف ج ٢ ص ٢٨٨ . اذ الصغيرة انما تقع من المؤمن المحافظ عفواً مرة او مرتين . اما مع الاصرار فهي خطيئة كبيرة وربما ذهبت بالايمان . راجع الكافي ج ٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

١ - في قوله تعالى : «ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - النساء : ٣١» .

٢ - انظر : وسائل الشيعة ج ٣ ص ١٥ - ١٨ باب تحريم الاستخفاف بالصلوة والتهاون بها ، ٦ من اعداد الفرائض ونوافلها .

الثانى : ان تفسر الحسنات بالتوبة والاستغفار . كما فى قوله تعالى : «الامن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فانى غفور رحيم - النمل : ١١» . اى تاب بعد معصية . قال السيد شير : توبة بعد ذنب ، فى غير المعصوم . وفى المعصوم : بعد ترك اولى^١ . ولاخلاف فى ان التوبة تذهب بالسيئات ، اى تسقط عقابها ، حسبما وعد الله تعالى فى الذكر الحكيم . قال تعالى : «وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى - طه : ٨٢» . «ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم - النحل ١١٩» . وغيرهما من آيات وهى كثيرة .

قال شيخ الطائفة - قدس الله روحه - : وقوله تعالى : «ان الحسنات يذهبن السيئات» قيل فيه وجهان : احدهما - تذهب به على وجه التكفير ، اذا كانت المعصية صغيرة . والآخر - ان المراد بالحسنات التوبة ، تذهب بالسيئة اى تسقط عقابها . لانه لاخلاف فى سقوط العقاب بالتوبة . قال : وقد قيل : ان الدوام على فعل الحسنات يدعو الى ترك السيئات ، فكأنها ذهبت بها^٢ .

وهذا الذى ذكره الشيخ أخيراً يصلح وجهاً ثالثاً لتفسير الآية الكريمة ليصير معنى الآية - والله العالم - : ان المواظبة على الاعمال الصالحة واتبان الخيرات والرغبة فى الحسنات ، لما يزيد فى التوفيق ويبعث على ترك السيئات واجتناب الشرور والمفاسد طبعاً ، اذ كلما ازدادت رغبة الانسان فى جهة ازداد بعداً عن جهة اخرى مخالفة لها . والتفنى البشرية سريعة التعود على الوضع الذى أنست به ، والطريقة التى سلكته فى الحياة اما صلاحاً أو فساداً .

فالانسان الذى يزاول أعماله فى جو صالح تراه لا يفكر الا فى خير ، ولا يستطيع ارتكاب شرور حسبما ألفه من صلاح . وهكذا العكس ، الذى يزاول أعماله فى جو

١ - تفسير شير (طالقاهرة) ص ٣٦٣

٢ - تفسير التبيان ج ٦ ص ٨٠ (طنجف) .

فاسد لا يفكر الا فى شرور وآثام. وهى طبيعة ثانوية للانسان تحصل على اثر المرونة والالف .

وعليه فقوله تعالى : «ان الحسنات يذهبن السيئات» يعنى : ان مرتكب الحسنات المتعود عليها ، لتبلغ به عادته تلك الحسنه ، الى حيث تذهب عن حياته السيئات فلا يرتكبها بحسب ذاته واعتياده على الصلاح ، فيالها من عادة حسنة ونعمت!

قلت : وان فى الصلاة - خصوصها - لآثاراً تربوياً نفسياً ليس فى سائر العبادات . انها تجسّد لمقام العبودية تجاه المعبود العظيم . ان العبد اذا وقف بين يدى مولاه فى الصلاة ، ليشعر بضئالة موقفه تجاه رب العالمين ، يرى من نفسه ذلك المحتاج الفقير العاجز المحقير ، واقفاً بين يدى مولاه الغنى المقتدر العظيم ، ضارعاً اليه خاشعاً متواضعاً ، سائلاً راعياً ، طالباً عناية ورأفته ورحمته .

ومن أمعن النظر فى مقاطع سورة الفاتحة وسائر افعال الصلاة وأذكارها ليتجلى له هذا الموقف الخطير وتلك الصلة الوثيقة التى تربط العبد المؤمن الى مولاه الكريم . ومن ثم كانت الصلاة معراج المؤمن .

والعبد المؤمن اذا كان يعاهد مولاه كل يوم خمس مرات فى تلك الخشية والخضوع ، والرغبة والرهبه ، والمسألة والطلب وابداء الحاجة والافتقار ، اعترافاً بمقام ربه العظيم وسطوته القاهرة . . . لينقلع بنفسه عن ارتكاب القبائح واقتراح الذنوب ، استحياء من ربه وخجلاً ان يعود الى ربه ناقصاً عهده نابذاً اعترافه واقتراره على نفسه بالصغار والهوان !

ومن ثم قال تعالى : «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذکر الله اكبر - العنكبوت : ٤٥» . يعنى تلك الصلاة التى اقيمت بحدودها وشرائطها ، مع الالتفات الى جوانب فحوى اذكارها وأفعالها ، ذات التأثير العميق فى الروح وفى تربية التقوى فى النفس .

اذن فالحسنات يذهبن السيئات ، اى لا يذهبن مجالاً لارتكابها ، اذا كان المحسن

(المصلى) مخلصاً في احسانه (في صلاته) تجاه رب العالمين .

* * *

٢- وقال تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم و ندخلكم مدخلا كريماً - النساء : ٣١ » .
اي الصغائر مغفورة على شريطة اجتناب الكبائر .

٣- وقال : « يا ايها الذين آمنوا ان تنقوا الله يجعل لكم فرقاناً و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم والله ذو الفضل العظيم - الانفال : ٢٩ » .
اذا كان المؤمن محافظاً على دينه متقياً ربه في السر والعلن ، جعل الله له نوراً يستضيء به درب الحياة ، وبصيرة في قلبه يلمس بها حقيقة الأمور . وهذا بطبعه يجتنب الكبائر من الذنوب ولا يقترفها قط ، فتصبح صغائره مغفورة له ، ويدخل على ربه في كرامة و تبجيل .

٤- وقال : « والذين آمنوا و عملوا الصالحات (اي و اطبوا عليها) لنكفرن عنهم سيئاتهم (الصغائر) ولنجزينهم احسن الذي كانوا يعملون - العنكبوت : ٧ » .
لان مرتكب الآثام والجرائم الكبار لا يطلق عليه عنوان « عامل الصالحات » . اللهم الا اذا عمل سيئة ثم تاب عنها و ندم عليها ، حيث لا خلاف في غفران ذنبه .

٥- « والذى جاء بالصدق و صدق به اولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين . ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا (من شرك و ذنوب قبل اسلامهم) و يجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون - الزمر : ٣٣ - ٣٥ » . ولو اخذنا باطلاق الآية فالمراد : اذا تابوا عنها . ولا شك ان الذين يصفهم

١- هذا التفسير ينظر اليه ما بين هذه الآية و سابقتها من تقابل الشرك و الاسلام و ما يترتب

عليهما من آثار و نتائج .

القرآن بهذا الوصف الحسن ويثنى عليهم بهذا الثناء الجميل ، هم ممن اذا فعلوا فاحشة ندموا عليها واستغفروا الله، فوجدوا الله تواباً رحيماً .

٦- وهكذا قوله : «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل اعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم ، كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم - سورة محمد : ١-٢» .

٧- وقوله : « ومن يتق الله (فى الكبائر) يكفر عنه سيئاته - الطلاق : ٥ » .

٨- وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته - التغابن :

٩ » .

٩- وقوله : « ويكفر عنهم سيئاتهم - الفتح : ٥ » .

١٠- وقوله : « عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم - التحريم : ٨ » اى اذا

اجتنبتم الكبائر .

وهكذا سائر الايات مما يدل على تكفير السيئات ، يكون مشروطاً بالتوبة

أو اذا كان مرتكبها مجتنباً للكبائر . جمعاً بينها وبين ما دل على الاشتراط المذكور ، وان الذنب مما يستحق فاعله العقاب اذا لم يندم ولم يعمل ما يكفر عنه .

* * *

١١- وقال تعالى : «الامن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، فاولئك يبدل الله سيئاتهم

حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً - الفرقان : ٧٠ » .

هذا التبديل بالأعمال هو أثر طبيعى لتبديل الشخص بالتوبة ، من كافر ملحد

كانت اعماله واتجاهاته فى الحياة معاكسة للفطرة ، وفى مضادة ارادة الله

وتشريعه الحكيم . . الى مؤمن صادق ، صارت اعماله واتجاهاته موافقة للفطرة

وعلى النهج المستقيم الذى اراده الله وشرعه على يد انبياء العظام ، ومن موجود

طالح كان يبغي الفساد فى الارض ، الى شخصية سالحة ببناء تزدهر بوجوده

الحياة العامة .

فربما كانت نفس الاعمال التي كان يقوم بها حال كفره ، وكان ملؤها الفساد والهدم والتخريب ، انقلبت ببركة الاسلام الى اعمال سالحة يعمر بها وجه الارض ، كبطل كان يضرب بالسيف قتلا ونهباً في سبيل محاربة الحق ونقض العدالة ، وقد أصبح - بعد اعتناقه الاسلام - ذلك الضرب بالسيف والقتل والنهب الذي كان سيئة كبيرة ، الى حسنة وجهاد في سبيل الله وفي سبيل اعلاء كلمة الحق ، وبسط العدالة على وجه الارض .

وهكذا الانفاق في سبيل الصد عن سبيل الله ، ليكون عليهم حسرة (الانفال : ٣٦) ينقلب بعد الاسلام فينشق في سبيل اعلاء كلمة الله ، لتصبح تجارة رابحة لن تبور (فاطر : ٢٩) .

وقد ذكروا في تفسير الآية وجوهاً اخر ، ذكرها الامام الرازي (التفسير الكبير ج ٢٤ ص ١١٢) والشيخ ابو على الطبرسي (مجمع البيان ج ٧ ص ١٨٠) وغيرهما من كبار المفسرين ، انشئت فراجع .

* * *

وهناك روايات ناصة على أن اتباع السيئة بالحسنة يمحقها ويذهب بأثرها . ولا بد من تأويلها - كما في الآيات السالفة - بما اذا كانت السيئة صغيرة او كانت الحسنة مصحوبة بتوبة عن الذنب السابق . فاذا اقترف انسان خطيئة وندم عليها فأراد التوبة والاستغفار ، فان من آداب التوبة ان يقوم بحسنة يقدمها الى الله ، ثم يتضرع اليه ان يفرله ما فرط منه من ذنب . ولعل أكثرية الأحاديث الواردة بهذا الشأن ناظرة الى هذا المعنى ، واليك منها :

١- قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيث كنت ، وخالق الناس بخلق حسن

وإذا عملت سيئة فاعمل حسنة تمحوها^١ .

٢- وقال - أيضاً - : «فإذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحوها سريعاً . وعليك بصنائع الخير ، فإنها تدفع مصارع سوء^٢» .

٣ - وقال الامام الباقر عليه السلام : «ما أحسن الحسنات بعد السيئات ، وما أقبح السيئات بعد الحسنات^٣» .

٤- وقال - أيضاً - : «انى لم أر شيئاً قط أشد طلباً ، ولا أسرع دركاً ، من حسنة محدثة لذنب قديم^٤» .

٥- وقال الامام الصادق عليه السلام : «من عمل سيئة فى السر فليعمل حسنة فى السر ومن عمل سيئة فى العلانية فليعمل حسنة فى العلانية^٥» .

* * *

الموازنة او المحاطة

أما الموازنة التى ذهب إليها أبوهاشم^٦ - فقال بمقابلة الحسنات مع السيئات ليستقل الأقل بالأكثر مقداراً ويبقى الفاضل من أحدهما يثاب عليه أو يعاقب محضاً

١- أمالى الطومى ج ١ ص ١٨٩ . والبحار ج ٧١ ص ٢٤٢ برقم ٣

٢- بحار الانوار ج ٧١ ص ٢٤٢ برقم ٢ عن تفسير على بن ابراهيم

٣- أمالى الصدوق ص ١٥٣ . والبحار ج ٧١ ص ٢٤٢ برقم ١

٤- علل الشرائع للصدوق ج ٢ ص ٢٨٠

٥- معانى الاخبار للصدوق ص ٢٥٥ (ط نجف)

٦- انظر : شرح الاصول الخمسة للقاضى ص ٦٢٨

فمما لادليل عليه في الشريعة ولاشاهد عليه في الكتاب والسنة ، فضلاً عن مخالفته لقانون المجازاة على ذوات الاعمال من غير ماصلة بين عمل وآخر في ترتب المثوبة والعقاب . وقد تقدّم اطلاق مدل على أن كل عمل بذاته يستحق فاعله جزاء متمائلاً لما ارتكبه من خير أو شر .

وعمدة ما يبطل هذا المذهب : أن فرضية التحاط بحاجة الى ثبوت السنخية والمناسبة الذاتية بين المتقابلين ، ليوافق أحدهما بالآخر ويسقط الأقل ، كما في باب التهاثر في الديون ، فإذا كان له على صاحبه عشرة دراهم ، وكان صاحبه يطلبه أيضاً دراهم ، فإنه يحصل التهاثر اماقهرأ او بالمواضعة ، لأن كلا من الحقين مفروض كونهما نقدين ، لا اذا كان احدهما نقداً والآخر عرضاً . او أحدهما مال والآخر حق . وهنا في مسألة الموازنة هل يتحاط نفس العمليين ، احدهما خير والآخر شر؟ او يتحاط جزاؤهما من مثوبة وعقوبة؟ أمثلاً اذا قام المكلف بسيئة هي من مقولة الاعمال كالزنا وشرب الخمر ، أو تجاوزاً بحقوق الآخرين كالغصب وضرب اليتيم ، ثم أتى بحسنة هي من قبيل الأذكار كالنسيبحات الأربع ، أو مزيجاً من الافعال والاذكار كنافلة الليل ، مما لاتناسب بينها وبين السيئات التي قام بها ... فماذا يتقابل العملان؟ هل لفاحشة الزنا قدر يتقدر عليه التسبيح والتقديس؟ أم هل للصلاة مقياس ودرجات يقاس عليها الغصب وضرب اليتيم؟

ولئن زعم الزاعم ان الموازنة سوف تلاحظ بين مثوبات الاعمال وعقوباتها! قلنا: لو فرض ان عقوبة آكل مال اليتيم عشرة من الحيات ، ينهشنه كل يوم عشر مرات وكانت مثوبة تسبيحة واحدة سبعين من الحور العين يتلاعبن معه كل صباح سبعين دوراً . فهل يسقط من سبعين حوراً عشرة على قدر الحيات ، وينقص من ادوار التلاعب معهن ايضاً عشرة على قدر النهشات التي استحققهن آكل مال اليتيم؟! وان كانت الدقة في المحاسبة تقتضى سقوط مقدار أقل!

ثم هل الملحوظ حقيقة عند التقابل والموازنة ، جانب كم القضية أم كيفها؟

وهل يقاس حجم السيئة مع الحسنه ام عددهما ام جانب تأثيرهما ، نفسياً واجتماعياً
وما الى ذلك؟! ام ذلك موكول الى علمه تعالى حسبما يراه من ترجيح ومقايسة؟!
كل ذلك مما لم يرد بشأنه دليل لافي الكتاب ولا في السنة الصحيحة . حتى ولو
فرضنا ان الفرضية أمر ممكن بالذات . لكن ليس كل ممكن واقعاً ، ولا جاز الاعتقاد به
مادام لم ينطق به الشرع المبين . والا كانت بدعة خاطئة في اصول عقائد الدين !
والعجب من بعض ارباب الفضيلة ، أنه حاول تقوية مذهب ابي هاشم في
الموازنة ، لمجرد انها نظرية ذات امكان^١ ! .

نعم هناك رواية رواها ابو الفتح محمد بن علي الكراچكى عن شيخه ابي عبد الله
المفيد باسناد متصل الى الامام امير المؤمنين عليه السلام ، قال : « يوقف العبد بين يدي الله
تعالى ، فيقول : قيسوا بين نعمى عليه وبين عمله ، فتستغرق النعم العمل . فيقولون :
قد استغرق النعم العمل ! فيقول : هبوا له النعم ، وقيسوا بين الخير والشر منه ، فان
استوى العملان اذهب الله الشر بالخير وأدخله الجنة ، وان كان فضل أعطاه الله بفضله
وان كان عليه فضل ، وهو من أهل التقوى ولم يشرك بالله تعالى واتقى الشرك به ، فهو
من اهل المغفرة ، يغفر الله له برحمته ان شاء ، ويتفضل عليه بعفوه^٢ .

لكن الرواية من جهة الاسناد غير نقية ، اذ المفيد يرويها عن احمد عن ابيه
الحسن بن الوليد عن الصفار عن علي بن محمد القاساني - وهو مختلف فيه اضعيف -
عن القاسم بن محمد الاصبهاني - لم يوثق وقد غمز فيه بعضهم - عن سليمان بن خالد
المنقري - هذا العنوان مختلط ، لان المنقري هو سليمان بن داود لا ابن خالد - عن
سفيان بن عيينة - وهو عامي عليه ملامح سفاهة - عن حميد بن زياد - ايضاً عامي ضعيف -
عن عطاء بن يسار مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وآله ولم يوثق صريحاً - عن امير المؤمنين
- عليه السلام - .

١- انظر : القول السديد ص ٣٩٧

٢- بحار الانوار ج ٥ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ نقل عن كنز القوائد للكراچكى

هذا مع الغض عن كونه خيراً واحداً لا يوجب علماً ولا عملاً .
وأخيراً فإن هذا الحديث الى ما يخالف مذهب الحبط والموازنة أقرب من
أن يوافق . لانه ينظر الى جانب فضله تعالى ورحمته الواسعة ، «فان استوى العملان
أذهب الله الشر بالخير» هذا يخالف فرضية الموازنة تماماً . « وان كان عليه فضل
وهو من اهل التقوى ... يغفر الله له برحمته ان شاء » . هذا يخالف مسألة الاحباط
كاملاً . الى غيرهما من شواهد .

* * *

سينات تمحق الايمان

ورد بشأن كثير من المعاصى انها تمحق الايمان محققاً ، ومن ثمّ فهي تذهب
بالحسنات ، حيث كان من شرط المثوبة هي الموافاة على الايمان . وعليه فربما
يكون مرتكبها مسلماً في ظاهره ، لكنه في قرارة نفسه كافر بالله العظيم ، ومن ثم
فان اعماله بمعرض الهباء والاندثار .

فقد ورد بشأن المتكبر انه لا يدخل الجنة ، ومعناه ان سيئة التكبر أذهبت حسناته
كلها ومنها ثواب ايمانه ، الامر الذي يتنافى ومذهب الامامية ان لا يحبط في غير الكفر
ومن ثم استغرب محمد بن مسلم لما سمع ذلك من الامام ، قال **عَلَيْهِ السَّلَامُ** : «لا يدخل الجنة
من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر » . فاسترجع محمد بن مسلم . قال
الامام : مالك تسترجع؟! قال : لما سمعت منك ! فقال الامام : «ليس حيث تذهب

١- المعتبر في باب اصول العقائد هو العلم القطعي ، فلاحجية لاخبار الاحاد في ذلك
الباب ، لانها لا توجب علماً .

وكذا المعتبر في باب القروع الفقهية ان تكون الرواية ذات صلة مباشرة بمثل المكلفين ،
لان الفقه بحث عن العملان واجباً وان حراماً . فلاحجية لروايات لا تعلق لها باعمال المكلفين
في هذه الحياة . لانها لا توجب عملاً .

انما أعنى الجحود ، انما هو الجحود»^١ .

ففسر عنه الكبر الموجب للاحباط ، بالتكبر على الله والجحود ولولبعض أحكامه ، وهو الكفر محضاً . فقد عرفنا ان ليس مطلق التكبر ماحقاً للحسنات والايان وانما هو التكبر تجاه رب العالمين .

سئل الامام الصادق عليه السلام عن أدنى الالحاد ، فقال : «ان الكبر أدناه» .

وقال الامام الباقر - عليه السلام - : «الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله

رداءه»^٢ .

* * *

وهكذا ورد بشأن الغضب انه يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل^٣ . لان الذى لا يملك نفسه عند الغضب قد يقوم باعمال هى تناقض الايمان وتمحقه محقاً ، قال الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام : «الغضب ممحقه لقلب الحكيم» . وقال : «من لم يملك غضبه لم يملك عقله»^٤ .

* * *

ونظيره ماورد بشأن الحسد . قال الامام الصادق عليه السلام : «آفة الدين الحسد والعجب والفخر»^٥ . وقال : «ان الحسد يأكل الايمان كما تأكل النار الحطب»^٦ . والحديث التالى يكشف عن هذا السر ، قال الامام الصادق عليه السلام : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله - عز وجل - لموسى بن عمران عليه السلام : يا ابن عمران

١- الكافى الشريف ج ٢ ص ٣١٠ برقم ٧

٢- نفس المصدر ص ٣٠٩ برقم ٢٥١ .

٣- المصدر ص ٣٠٢ برقم ١ من باب الغضب .

٤- المصدر ص ٣٠٥ برقم ١٣

٥- المصدر ص ٣٠٧ باب الحسد برقم ٥ .

٦- المصدر ص ٣٠٦ برقم ٢ .

لاتحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلى ، ولا تمدن عينيك الى ذلك ، ولا تتبعه نفسك فان الحاسد ساخط لنعمى ، صاد لقسمى الذى قسمت بين عبادى ، ومن بك كذلك فلست منه وليس منى» .

قال الامام الصادق : « المؤمن يغط ولا يحسد . والمنافق يحسد ولا يغط »^١ .

* * *

وقال الامام الصادق عليه السلام بشأن التهمة : « اذا اتهم المؤمن أخاه ، انما اتهمه الايمان من قلبه كما ينماث الملح فى الماء »^٢ .
وقال بشأن الغيبة : « الغيبة أسرع فى دين الرجل المسلم من الآكلة فى جوفه »^٣ .

وقال الامام الباقر عليه السلام بشأن الكذب : « ان الكذب خراب الايمان »^٤ .
وقال الامام الصادق عليه السلام بشأن سوء الخلق : « ان سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل » . وقال : « ان سوء الخلق ليفسد الايمان كما يفسد الخل العسل »^٥ .

* * *

والأحاديث من هذا القبيل كثيرة ومتنوعة فى التعبير ، كلها تنم عن فحوى واحد ، هو أنّ من المعاصى ما يكشف عن شرك خفى كان صاحبه يظنه فأظهرته تلك المعصية ، والعمدة هو المنكشف لا الكاشف . كما ورد بشأن قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً

١- المصدر ص ٣٠٧ برقم ٧٩٦ .

٢- المصدر ص ٣٦١ باب التهمة وسوء الظن برقم ١ .

٣- المصدر ص ٣٥٧ باب النسيمة والبهت برقم ١ .

٤- المصدر ص ٣٣٩ باب الكذب برقم ٤ .

٥- المصدر ص ٣٢١ باب سوء الخلق برقم ٣٩١ .

عظيماً - النساء : ٩٣ . قال المفسرون : ذلك اذا كان قتله لايمانه ، الكاشف عن كفر باطنى أظهره بقتل المؤمن ، معاداة مع الله ومحاربة للايمان . فقد روى العياشى عن الامام الصادق عليه السلام قال : «من قتل مؤمناً على دينه ، فذلك التعمد . . . قيل : والرجل يقع بينه وبين صاحبه شيء فيقتله؟ قال : ليس ذلك التعمد الذى قال الله عز وجل فجزاؤه جهنم»^١ .

ولذلك كان التعبير بالكفر أو بعدم الايمان بشأن بعض المعاصى التى لا توجب شركاً ولا كفراً بالله ، مجازياً يراد به غير ظاهره من فقدته بعض درجات الايمان لأصله .

فى حديث الاصبغ بن نباتة ، قال : جاء رجل الى أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - فقال : يا امير المؤمنين ، ان اناساً زعموا أن العبد لا يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ، ولا يأكل الربا وهو مؤمن ، ولا يسفك الدم الحرام وهو مؤمن ! فقد ثقل على هذا ، وخرج منه صدرى ، حين أزعم أن هذا العبد يصلى بصلاتى ، ويدعو دعائى ، ويناكحنى وأنا كحه ، ويوارثنى واوارثه ، وقد خرج من الايمان من أجل ذنب يسير اصابه !

فقال أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - : صدقت - ثم قسم الناس على طبقات ومنازل ، وبين أنواع الارواح المودعة فى مختلف الناس ، وان المؤمن لا يرتكب قبيحاً الا وقد سلب منه روح من تلك الارواح ، يعنى به درجة من درجات ايمانه ، وليس بالذى يدخل فى الكفر رأساً .

وقد أجمل الكلام عن ذلك الامام الباقر عليه السلام قال - فى قول رسول الله صلى الله عليه وآله «اذانى الرجل فارقه روح الايمان» - : هو قوله تعالى : «وأيدهم بروح منه» . ذلك الذى يفارقه^٢ .

١- تفسير العياشى ج ١ ص ٣٦٧ برقم ٢٣٦ . والشافى ج ١ ص ٣٨٢ .

٢- الكافى الشريف ج ٢ ص ٣٨٠-٣٨١ برقم ١٦ و ١١٥ .

وعن مسعدة بن صدقة قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يعدد الكبائر ، فقليل له :
أرأيت المرتكب للكبيرة يموت عليها ، أتمخرجه من الايمان ، وان عذب بها يكون
عذابه كعذاب المشركين أوله انقطاع ؟

قال عليه السلام : يخرج من الاسلام اذ اعلم انها حلال ، ولذلك يعذب أشد العذاب .
واما ان كان معترفاً بانها كبيرة فان عذابه اهون ، وانما يخرج من الايمان ولا يخرج
من الاسلام ' .

والخلاصة : ان جميع ماورد بشأن بعض المعاصي أنها تمحق الحسنات
او تذهب بالايمان ، لا بد من تأويلها الى كونها من المعاصي التي تقطع رابطة العبد
مع مولاه ، وتجعله في حالة جحود معربه ، ولوفى باطن أمره .

أوتكون معصية يكون عدها شرطاً في صحة العمل السابق كالرياء والسمعة
والايداء والامتنان ، اذا وجدت ذهبت بأثر العمل هباء .

وأما ما عدا ذلك فانه مخالف صريح لقانون التماثل في العقاب ومتناف مع
حكيمته تعالى وعده ، ولقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

* * *

تنزيه الانبياء

مسألة عصمة الأنبياء جميعاً مما اتفقت عليه كلمة المسلمين ، فقالوا : يجب
أن يكون النبي المرسل من عند الله معصوماً عن الخطأ والزلل ، والا لزلت الثقة به
عند الناس وهان أمره ولم تكن له كرامة ! لكنهم اختلفوا من ذلك في موضعين :
الاول : في خصوص الصفات ، فقال جمهور اهل السنة : يجوز ان يرتكب
النبي صفات الذنوب ، ولوفى حال نبوته ، ما لم يكشف عن خسة في نفسه او ان يمس
كرامته المنيعة .

١- المصدر ص ٣٨٠ برقم ١٠ .

الثانى : فى الكبائر قبل الوحى عليه . فقالت الاشاعرة : يجوز أن يرتكب
النبي - قبل ان يبعث - الذنوب والكبائر كلها ماعدا الكفر والشرك بالله العظيم^١ .
اما المعتزلة فقالوا بامتناع ذلك عليه اطلاقاً^٢ .

أما الامامية فقالوا بوجوب عصمة كل نبي عن الذنوب كلها ، صغيرها وكبيرها
اطلاقاً ، قبل البعثة أم بعدها^٣ .

ويتلخص الاستدلال على ذلك فى أن ارتكاب الآثام يوجب تنفيراً فى طباع
الناس ، فضلاً عن زوال الثقة عن من جازبشأنه ارتكاب الذنوب والخطايا كالكذب
وسائر القبائح . فلا يحصل له من العامة ذلك الانقياد والاستسلام التام اذا عرفوا منه
ذلك . ولان النبي يجب ان يتبع فى جميع أفعاله وأقواله ، وهل اذا فعل فاحشة
- فرضاً - يتابعوه فيها او يمانعوه ، والاول نقض لغرض الرسالة ، والثانى استصغار
بشأنه وقلب لموقفه من كونه منكراً على الناس قبائحهم ، فأصبح هو منكراً عليه .
ومن القبيح جداً أن يكون الأمر بالمعروف تاركاً له ، والناهى عن المنكر فاعلاله
«أثمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون - البقرة :
٤٤» أى أفلا تشعرون بقبح هذا الموقف المتناقض فى نظر العقلاء .

قالت الامامية : جل هذا الاستدلال يعم حالته قبل البعثة وبعدها . من غير فرق
بين الخطايا أن تكون كبيرة أو صغيرة ، بعد أن كانت كلها مما يسلب الثقة به وموجباً
لتنفير طباع الناس عنه .

ولسنا الآن بصدد البحث عن مسألة العصمة وجوانبها المترامية . لانه خارج
عن موضوع كتابنا ، وانما يهمنا جانب شبهات ربما تعلق بها أصحاب الحشو

١- راجع : شرح العقائد النسفية لسعود بن عمر الفتازانى ص ١٠٢ (ط كابل)

٢- راجع : شرح الاصول الخمسة لقاضى القضاة ص ٥٧٤ - ٥٧٥ (ط القاهرة)

٣- راجع : شرح تجريد الكلام للعلامة ابن المطهر الحلى ص ١٩٥ (ط بمباى)

من المسلمين ، وغيرهم من الملحدين . فجوزوا على الانبياء ارتكاب الذنوب والخطايا اطلاقاً حتى على عهد بعثتهم الى الناس . وتمسكوا بآيات زعموها ظاهرة فى ذلك ، وأضافوا اليها باطيل حاكها أقاصيص اسرائيلية روجها العهد الأموى الغاشم فادخلها فى التفسير بقوة المال والسيف !

* * *

ولنستعرض الآيات قبل كل شيء ، وتنبعها بتأويلاتها السليمة أو المأثورة بأسانيد صحيحة عن مهابط وحى الله - عليهم السلام - وهم أدري بما أراد الله تعالى فى كتابه العزيز الحميد . وستكون مترتبة حسب ترتيب النبوات ، من لدن آدم عليه السلام الى نبينا ﷺ خاتم الانبياء . ونحاول - مبلغ جهدنا - الاقتصار والاختصار ' فى ايجاز واف ان شاء الله وبحوله وقوته :

خطيئة آدم

قال تعالى : « ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه - البقرة : ٣٥-٣٦ » .

وقال : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه - البقرة : ٣٧ » .

وقال : « ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان لبيدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهيكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين . فدلبيهما بفرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناديهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة و اقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالاربنا

١- ولقد كانا مؤنة التفصيل ما ذكره الشريف المرتضى - قدس سره - واثبته فى كتابه القيم « تنزيه الانبياء » . فقد اودع فيه من غردا للكلام ومحكم البرهان ما يبنى عن البيان . جزاه الله من بطل مدافع عن الاسلام خير جزاء .

ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين - الاعراف : ١٩-٢٣ .
وقال : «يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبوكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما - الاعراف : ٢٧ » .

وقال : «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً - طه : ١١٥ » .
وقال : «فقلنا يا آدم ان هذا عدوك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى - طه : ١١٧ » .

وقال : «فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخسفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى - طه : ١٢٠ - ١٢١ » .

* * *

هذه آيات الخطيئة تذكر من شأن آدم عليه السلام أنه أصبح ظالماً باقترابه الشجرة وقد قال تعالى : «لا ينال عهدى الظالمين - البقرة : ١٢٤ » .

وتذكر أن وسوسة ابليس أثرت فيه فأزله فغوى ، وقد قال تعالى : «ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين - الحجر : ٤٢ » .

وتذكر انه عصى ربه فخالف نهيه فشقى وغوى . وقد قال تعالى : «فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض - هود : ١٠٦-١٠٧ » . وقال : «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً وله عذاب مهين - النساء : ١٤ » .

والخلاصة : ان التعابير الواردة بشأن خطيئة آدم كلها تشف من مزلة موبقة ارتكبها آدم ، واستوجب بذلك لنفسه الدم والشقاء الدائم، وسقوطاً عن تلك المرتبة المنيعة التي كان يستأهل بها مقام النبوة الشامخ ، الامر الذى يتلخص فى قوله تعالى : «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً - طه : ١١٥ » .

* * *

والجواب : ان التعابير التي جاءت بشأن خطيئة آدم لاتعد وظواهر ذوات احتمال
فهى تحتل معانى آخر غير ظاهرها المألوف ، فلو تجردنا بأنفسنا ولاحظنا اصول
المعانى التى وضعت لها هذه الالفاظ ، والوجوه المستعملة فيها بحسب المقامات
ثم أخذنا بالمقارنة مع شواهد وقرائن داخلية وخارجية، لزال عنا كثير من هذه الشبهات
وارتفع الابهام من وجه الايات نهائياً .

والالفاظ التى وقعت تعبيراً عن خطيئة آدم هى :-

- ١- «فتكونا من الظالمين» .
- ٢- «قالاربنا ظلمنا انفسنا» .
- ٣- «فأزلهما الشيطان» .
- ٤- «فوسوس لهما الشيطان» .
- ٥- «فدليهما بغرور» .
- ٦- «لايفتنكم الشيطان» .
- ٧- «ألم انهكما عن تلكما الشجرة» .
- ٨- «فنى ولم نجدله عزماً» .
- ٩- «فلايخرجنكما من الجنة فتشقى» .
- ١٠- «وعصى آدم ربه فغوى» .

تلك تعابير عشرة تنم- فى ظاهرها - عن خطيئة ارتكبتها آدم فى عصيان عارم
وشقاء .

لكن الدقة فى فحوى هذه التعابير ومقارنة بعضها مع البعض تشف عن معنى
آخر غير هذا .

أولاً : ماهى حقيقة الظلم الموجب ابتعاداً عن مقام قربه تعالى ، وشقاء نفسياً
مستتبعاً للهلاك والانهايار ؟

ذلك ظلم بالنسبة الى ساحة قدسه تعالى ، وهتك لحريمه وتجاوز لحدوده

«ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون - البقرة : ٢٢٩» . ولا ينافى أن يكون ظلماً بنفسه أيضاً «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه - الطلاق : ١» . لان الظالم بحقوق مولاه ، تعيس معاكس لحظ نفسه في نهاية المطاف .

وهذا الظلم القبيح مترتب على تكليف من المولى يمس جوانب مولوته حيث يشرعه الزاماً بالمكلفين ان يمثلوه ، اعجبهم ام لم يعجبهم ، رغم الأنوف والا فالعقاب والنكال .

واما الظلم الذى جاء التعبير به بشأن آدم ، فليس من هذا القبيل ، انه ظلم بالنفس محضاً ، «قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين - الاعراف : ٥٢٣» .

وذلك انه لم يكن تكليف مولوى ، وانما كان مجرد ارشاد الى مصلحة شخصية كانت تمسها بالذات ، فعاكسا حظهما من سعادة الحياة ورغدها الى شقاء ونصب . اذن لم يكن ظلمهما بأنفسهما مما يؤثر ابتعاداً عن ساحة قدسه تعالى ، اذ لم يمس جانبه تعالى ، فلم يوجب سقوطهما عن منزلتهما المعنوية الشامخة : «خلافة الله في أرضه» .

ثانياً : النهى عن أكل الشجرة كان نهى ارشاد الى مصلحته بالذات ، ولم يكن نهياً مولوياً بتكليف والزام . ومن ثم قال : «فتشقى» اى تقع فى التعب والنصب كما فى قوله تعالى : «طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى» اى لتوقع نفسك فى المشقة وحرمان لذائذ الحياة .

وذلك لأن الأكل من تلك الشجرة كان يوجب فضلات وأنجاساً كانت الجنة التى سكنها آدم وزوجه تابها ، لظهارتها وقد استهقربا الى العلى الأعلى ، ومن ثم نهى آدم عن أكلها خوفاً للتلويث او يضطر الى الخروج منها .

ثالثاً : العصيان هو مخالفة الأمر ، وهو يتنوع حسب نوعية الأمر الموجه اليه . فان كان الأمر تكليفاً مولوياً كانت مخالفته عصياناً محرماً وخروجاً عن مرسوم العبودية

تجاه اوامر المولى الحكيم . فهو تمرد وطغيان على المولى ، ويستحق مرتكبه الذم والعقاب .

واما ان كان الامر ارشاداً الى مصلحة شخصية تمس شخص المأمور ، من غير ماساس بجوانب الأمر بتاتا ، كما فى اوامر الطبيب بالنسبة الى المريض المتداوى عنده ، فان مخالفته أيضاً عصيان وربما يقبحه العقلاء ويذموناه ، لكن من غير ما خروج عن مرسوم العبودية ولا طغيان على المولى الكريم ، ومن ثم لم يجز عقابه ولا مؤاخذته بالشدة والعذاب .

وبما ان عصيان آدم كان من النوع الأخير، فلم يوجب ابتعاده عن ساحة قدسه تعالى ، حيث لم يطغ على مولاه ولم يخرج عن اطار عبوديته تجاه رب العالمين .

رابعاً : اما وسوسة ابليس فلم تعد ان دلاهما بغرور ، من غير ان تكون له سلطة عليهما ، فضلا عن أن آية الحجر انما تنفى تأثيره على الانبياء فيما يخص اغواءهم بشأن معصية الله ، اما خلق العراقل فى طريقهم وإيقاعهم فى النصب والعناء ، فهذا شىء لاتنفيه الآية ، كما فى قوله : «واذ كر عبدنا ايوب اذ نادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب - ص : ٤١» .

خامساً : قوله تعالى : «فنىسى ولم نجد له عزماً» اى غفل وصيتنا وعهدنا اليه بان لا يقرب تلك الشجرة . و«عزماً» اى ثباتاً على العهد .
وقوله : «فتشقى» اى تقع فى تعب العمل وكد الاكتساب ، بعد هذا الرغدمن العيش القاره .

وقوله : «فغوى» اى خاب حظه وحرّم عن العيش الرغيد الهنىء . كما فى قول الشاعر :

فمن يلتق خيراً يحمد الناس امره ومن يغو لا يعدم على الفى لائماً .

وقوله : «ظلمنا انفسنا» اى بخسناها وحرمانها حظها .

وقوله : « فتاب عليه » اى اعاد عليه بعنايته وألطافه الاولى التى كاد ان يحرمها بتركه الاولى .

واما اخراجه من الجنة ، فلعله لمصلحة كان يراها تعالى موجبة لهذا الاخراج لانه انما خلقه ليكون خليفته فى الارض ، وقد تمهدت أسبابه على يد عدوه ابليس اللعين .

* * *

وقد تلخص البحث فى أن النهى لم يكن نهى تحريم ، وانما كان نهى ارشادالى « مصلحة تأمين الرغد فى العيش ، لاكثر . وبالتالى لم تكن مخالفته عدوانا على المولى وانما كان ظلما بالنفس بسلب راحتها . واخيراً كانت غوايته خيبة وحرماناً ، وشقاؤه عطباً وعناء فى الحياة .

فلانهى تحريمياً ، ولاعصيان للمولى ، ولاظلم ولاعدوان بشأنه ، كما لا شقاء ولاخبث ، ولاغواية ولاضلال ، بمعانيها المعهودة^١ .

وأما كيف حصلت الخطيئة ، والطريقة التى سلكها ابليس فى سبيل اغواءهما فهذا شئ فصلنا الكلام فيه فى تفسيرنا الوسيط . واعادته هنا خروج عن موضوع كتابنا هذا .

* * *

دعوة نوح

قال تعالى : « وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً - نوح :

٢٦ » .

١- كان مستقانا فى هذا العرض هى الروايات الخاصة المأثورة عن أئمة اهل البيت عليهم السلام- ذكرها العلامة المجلسى فى بحار الانوار ج ١١ ص ١٥٥ - ٢٠٣ . فراجع .

قيل : انه تسرع فى الدعاء على قومه ، وكان كلما اراد الدعاء على قومه وافته الملائكة يستميحونه بشأنهم . فتؤجل الدعوة ثلاثمائة سنة . حتى تيقن باليأس . لكنها مزعومة لاساس لها ، وان ذكرها بعض كبار المفسرين ، ذلك انها مخالفة لصريح القرآن ، حيث جاء فى سورة هود ، ان قومه كانوا يجادلونه ويستعجلون عليه بالعذاب الموعود ، لكنه ﷺ كان هو يرأف بهم ولا يستعجل بطلب العذاب ، رحمة منه عليهم . حتى وافاه الوحي باليأس والقنوط بشأنهم : «وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قدامن فلاتبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا انهم مغرقون - هود : ٣٦-٣٧ . الامر الذى يدل على انه ﷺ كان يستمهل ربه فى تأخير العذاب حتى جاءه التيسيس .

* * *

وقال تعالى : «ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين . قال : يانوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلاتسئلن ما ليس لك به علم ، انى اعظك ان تكون من الجاهلين . قال : رب انى اعوذبك ان اسألك ما ليس لى به علم ، والاتغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين - هود : ٤٥-٤٧ .»

كيف يكذب تعالى نبيه نوحاً فى دعواه المذكورة ؟
والجواب : انه تعالى وعد نوحاً بنجاة اهله فى قوله : «احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول» . وكان الاستثناء مجملاً . وعندما نادى نوح ابنه وكان فى معزل «يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين» قال له ذلك اشفاقاً بشأنه . ولما أيس منه دعا ربه ليهديه بلطفه . فقال : «رب ان ابني من أهلى وان وعدك الحق» اشارة الى ما فى الآية السابقة : «وأهلك» .
ففيه الله تعالى بخطاه فى التشخيص ، وانه من المستثنى ، وانه ليس من ذلك

الأهل الموعود نجاتهم . ولم يكن نفياً لبنوته رأساً ، وذلك لانه تعالى أقره في قوله :
«ونادى نوح ابنه» . فلولا انه ابنه الحقيقي لما صح هذا التعبير بشأنه . ولكان من
حق التعبير ان يقول :«ونادى نوح من كان يزعم انه ابنه» !

* * *

تورية ابراهيم

١ - قال تعالى : «فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما
أفل قال لا احب الآفلين - الى قوله - قال يا قوم انى برىء مما تشركون - الانعام :
٧٦-٧٨» .

وهذا من باب تجاهل العارف ، وتربية عملية لقومه يعلمهم كيف يسرون في
طريق الاهتداء الى الحق واستجلاء الحقيقة .

٢ - وقال تعالى : «قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ، ان كانوا ينطقون -
الانبياء : ٦٣» .

جملة « فاسألوهم » معترضة . والشرط قيد - فى واقعه - لقوله : « بل فعله
كبيرهم » . وهذا من لطيف التورية فى الكلام . حيث ظاهر الكلام ان الشرط قيد
لجملة الامر بالسؤال ، لكنه انما قصده قيداً لجوابه عن سؤال قومه .
وفى هذه التورية فائدة تنبيه ضمائرهم على ان معبودهم الذى اصطنعوه
لايستطيع عملاً ولاينطق كلاماً ، وهو تعبير لطيف وتوبيخ .

٣ - وقال تعالى : « فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم - الصافات : ٨٩» .
وهذه مجاملة مع قومه من غير مداهنة ودجل ، حيث كانت النظرة فى النجوم والتنبؤ
بهاراتجة على عهده ﷺ فاراد مماشاتهم فى ذلك استجلاباً لنظرهم ، فى حين ان النظر

في النجوم والتدبر في آياته تعالى مرغوب اليه في الشريعة .

واراد بقوله : «سقيم» تأثره النفسى من جموح قومه عن الاستسلام لقيادة الله ورفضهم الدعوة اليه . وبهذا التعبير الموهم خلص بنفسه من مصاحبة قومه ، فتركه وحده وذهبوا للاجتماع بعيدهم خارج البلد . ومن ثم وجد ابراهيم فرصته لكسر الاصنام .

٤- وقال تعالى : «واذ قال ابراهيم رب انى كيف تحبى الموتى - البقرة : ٢٦٠» . اراد ﷺ ان يصير علم يقينه عين يقين ، اذ هما كان البرهان قاطعاً فانه لا يبلغ شهود عين .

استغفار ابراهيم لابيه

٥- وقال تعالى : «وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ، ان ابراهيم لأواه حلیم - براءة : ١١٤» .

هذه الآية اعتذار عن موقف ابراهيم ﷺ كان واعد أباه (زوج امه وعمه) انه ان آمن بالله ان يستغفر له ، فأظهر له الايمان على سبيل النفاق حتى ظن به الخير فاستغفر له ، فلما تبين له انه مقيم على كفره رجع عن استغفاره له وتبرأ منه ، وقد عذره الله في قوله : ان استغفاره انما كان لأجل المواعدة ، وانه لما تبين له انه مقيم على العداوة لله تبرأ منه .

وتلك المواعدة جاء ذكرها في سورة مريم - ٤٧ : «قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، انه كان بى حفيأ» .

وقال تعالى في سورة الممتحنة - بشأن الاقتداء بسيرة ابراهيم وكيفية مقابلته مع المشركين ، مستثنياً جانب هذا الاستغفار - : «الاقول ابراهيم لابيه لا استغفرن لك - الممتحنة : ٤» .

واما صيغة الاستغفار فقد جاءت في سورة الشعراء « واغفر لأبي انه كان من الضالين» الآية رقم ٨٦.

مجادلة ابراهيم ربه

٦- وقال تعالى : «فلما ذهب عن ابراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط ، ان ابراهيم لحليم اواه منيب - هود : ٧٤- ٧٥».

قيل : كيف يجادل ربه وهو ذلك النبي العظيم !؟

والجواب: ان المجادلة كانت بمعنى تكرار السؤال استرحاماً بشأن قوم لوط نظراً الى جانب سعة رحمته تعالى ، فطمع ابراهيم في ان يعطف الله عليهم برأفته ويمهلهم ريثما يتذكرون ويرجعون الى رشدهم . لكنه تعالى رفض طلبه ، لاجفاء وتحقيراً بموقف ابراهيم - كلا - بل لعلمه تعالى انهم لا يرجعون ابداً ، وانهم ما بقوا يزدا دون عتواً وفساداً في الارض . ومن ثم تراه تعالى يصف ابراهيم خليله تعقيباً على ذلك - بقوله : « ان ابراهيم لحليم » ذوا صطبار على سوء أدب القوم، «أواه» كثير العطف والحنان، «منيب» كثير التضرع لدينا يدعونا مرة بعد اخرى . ففي هذا الوصف الجميل الذي يمثل حنان ابراهيم وعطفه ورأفته العظيمة لدليل على ان توصيفه بالمجادلة كان ايضاً مدحاً وثناء عليه تمهيداً لوصفه بذلك.

تبروة يوسف

قال تعالى : «ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه - يوسف :

٢٤» .

قيل : كيف يهم بها وهو نبي عظيم ومن عباد الله المخلصين ! كما جاء في ذيل الآية : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين» .

والجواب : انه معلق على شيء لم يقع ، اى لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، فيما انه رأى برهان ربه فانه لم يهجم بها قط . كما فى قولك : لولا على لهلك عمر . ومعناه انه لم يهلك عمر لوجود على .

فالكلام من جهة امرأة العزيز مطلق غير مقيد ، فقد همت به قطعياً . اما من جهة يوسف فلولا انه من عباد الله المخلصين ، وكان نور الايمان مشعاً من قلبه المبارك ، لكان أيضاً هم بها ، لانه شاب وله من شهوة الرجال مالهم ، ولا سيما وهى تقبل عليه بذلك الاقبال العارم ، فكانت مقتضيات الهم موجودة فيه **لولا** قوة المانع فى وجوده ، وهو ايمانه الراسخ المسيطر على جميع مشاعره وأحاسيسه ، فلم تكن لتطفى عليه شهوته وهو عبد خالص لله . وقد شهدت زليخا بشأه العصمة ، قالت « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم - يوسف : ٣٢ » . فضلاً عن شهادة الله بحقه : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، انه ربه احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون - يوسف : ٢٣ » .

وهذا هو البرهان الذى رآه ، اى ايمانه الراسخ الذى تجلى له حينذاك بالخصوص فعال سدأ مئيدون أن يهجم بالمعصية أصلاً .

حاجة الى مخلوق !

قالوا - فى قوله تعالى : « وقال للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين - يوسف : ٤٢ » - : ان الشيطان انسى يوسف ذكر ربه فتوسل الى مخلوق لخلص نفسه ! لكن الضمير رجع الى الموصول « الذي ظن انه ناج »^(١) . وأما عمل يوسف - عليه السلام - فكان وفقاً لوظيفة شرعية : السعي وراء خلاص مؤمن ورفع التهم

١ - راجع : الميزان ج ١١ ص ١٩٩ .

عنه . غير ان لاولياء الله شأناً آخر وراء هذا الظاهر ، فسلا يرفعون حاجة الى غيره تعالى مهما بلغت ، كما صمد ابراهيم الخليل - عليه السلام - عند القائد في النار، قائلاً : الذي خلقني فهو يراني ! . فالذي كان من يوسف - عليه السلام - لا يعدو تركاً للأولى لا غير .

ابتلاء ايوب

قال تعالى : «واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب - ص : ٤١» .

قيل : كيف يمسسه الشيطان وهو لا يملك الاستحواذ على عباد الله المخلصين؟ وما هذا النصب والعذاب الذى اصيب به نبي الله ايوب وهو معصوم ؟ .

والجواب : لاشك ان ابليس لا يستطيع الاستحواذ على عباد الله المخلصين ولا سيما الانبياء العظام . لكنه يستطيع عرقلة الطريق امامهم وتكدير الحياة عليهم بدسائسه الخبيثة .

انه لم يتسلط على ايوب عليه السلام ولم يملك قلبه الكريم الذى هو مهبط وحى الله ودار كرامته الخاصة به ، فلا موضع لابليس فيه ولا مطمع أبدياً . نعم استطاع ايقاع الأذى به تسبباً بوساوسه على اقربائه وحاشيته . فاوقعه عليه السلام فى نصب أى عناء وجهد، وعذاب اى ألم ودمعة ، ومن ثم جاء التعبير بالضر فى آية اخرى : «وايوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين - الانبياء : ٨٣-٨٤» .

قال الامام الصادق عليه السلام : «ان الله عز وجل يبتلى المؤمن بكل بلية ويميته بكل ميتة ، ولا يبتليه بذهاب عقله . اما ترى ايوب كيف سلط ابليس على ماله وعلى ولده وعلى أهله وعلى كل شيء منه ، ولم يسلطه على عقله ، تركه له ليوحده الله به» .

تعرقل في السبيل

جاء في قصة موسى وفتاه ، اذ نسيا حوتهما فاتخذ في البحر سرباً ، قوله :
« وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره - الكهف : ٦٣ » .

كيف يتسلط ابليس على مشاعر ولي من أولياء الله ، وقد قال تعالى : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان - الحجر : ٤٢ » !

لكنه ليس استحرزاً على عقل ، حساشا من مقام كريم ، وانما هو تعرقل في سبيل تكدير الحياة على أوليائه تعالى ، وتمهيد لأسباب قد توجب صرف نفوسهم الكريمة عن جهة الى اخرى ، لتكون الاولى مغفولا عنها احياناً .

مخاطرة موسى بنفسه

قال تعالى : «ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فوكره موسى فقتل عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضل مبين ، قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم - القصص : ١٥ - ١٦ » .

لاشك ان الذي فعله موسى ذلك الحين و هو الرجل المطالب من قبل السلطات ، و كان خطر الموت يرفرف على رأسه كانت مجازفة و تغريراً بنفسه الكريمة بتسليمها الى العدو اللدود .

وهي بادرة غريبة بدرت منه ، ولعلها من غير تفكير في عاقبتها ، حيث كان ^{تعالى} سريع الغضب في الله و من ثم لم يكن ينبغي ذلك منه وهو في طريقه الى صرح النبوة الشامخ . الامر الذي نسهه الى عمل الشيطان نظراً لان سورة الغضب هي

١- بحار الانوار ج ١٧ ص ٣٤١ . والكافي الشريف ج ٢ ص ٢٥٦ رقم ٢٢ .

احدى جبايل الشيطان يستولى بها على مشاعر الانسان والحؤول دون رشده .

و هذا ليس من الاعواء الموبق، حيث لم يكن قتل القبطى معصية ، ليكون اغراء ابليس بذلك اغراء لموسى الى معصية الله . بل كان اغراء بما يوجب التفرير بنفسه الكريمة و تعريضها للهلاك ، فقد هيج ابليس من غضب موسى ليقدم على قتل القبطى ، و بالتالى يقع هوفى قبضة السلطات فيقتلونه ، و بذلك قد نصب ابليس فخاً للقضاء على موسى - عليه السلام - اذن لم يكن ذلك من الاستيلاء الذى ننكره بشأن عباد الله المخلصين .

ووجه آخر لعله اسلم من الاشكال ، وهوان المشار اليه فى قوله : « هذا من عمل الشيطان » هو السبب الداعى لوقوع القتل ، اى لولا اضلاله للاقباط و امستيلاؤه على مشاعر المصريين فى تأليههم فرعون و الاستسلام لقيادته الفاسدة ، لم تنهياً موجبات هذا القتل و امثاله مما ابتلى به بنو اسرائيل ، و كانت بعثة موسى لاستخلاصهم من نير الذل و الهوان .

و يترجح هذا الوجه بملاحظة وضوح المناسبة بينه و بين التعقيب بقوله « انه عدو مضل مبين » . اى ظاهر العداوة للانسان . و لاشك ان موسى - ع - لم يرد اضلال نفسه بل اضلال غيره ، و لعلهم هم القبط .

و اما قوله : « رب انى ظلمت نفسى » فيعنى تلك المخاطرة بها و تفريرها للهلاك على ايدى اعداء الله . و لاشك انها كانت بادرة غريبة منه ، لم تكن تنبغى من مثله و هو على مدارج الصعود الى مرتبة النبوة السامية . الامر الذى يكون من ترك الاولى بالنسبة الى مثله ، فكان ينبغى الاستغفار منه ، و من ثم اجابه تعالى على الفور . حيث كانت تلك البادرة - مهما كانت - فانها فى سبيل الغضب لله تعالى .

محااجة موسى مع فرعون

« قال - فرعون مخاطباً لموسى عليه السلام - : ألم نربك فينا وليداً و لبثت

فينا من عمرك سنين و فعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين قال -موسى-
 فعلتها اذاً وأنا من الضالين - الشعراء ١٨-٢٠ .
 ما هذا الكفر الذى ينسبه فرعون الى موسى ؟
 و ما هذا الضلال الذى يراه موسى لنفسه ؟

الجواب : اما الكفر فهو كفران النعم التي زعم فرعون انه أنعمها على
 موسى و على بنى اسرائيل . و من ثم رد عليه موسى بقوله : « و تلك نعمة تمنها
 على ان عبدت بنى اسرائيل ؟ ! » الآية رقم ٢٢ .
 واما الضلال فانما يقصد به حالته قبل نزول الوحي عليه بالنبوة ، و هو
 ضلال نسبي يعم كل نبي قبل أن يوحى اليه ، لا يكون عارفاً بتفاصيل الشريعة التي
 ستنزل عليه ، الا اذا علمه الله تعالى .
 وقد فسروا الضلال هنا بتفسير آخر ، تجدها في مجمع البيان للطبرسي
 ج ٧ ص ١٨٧ . وتنزيه الانبياء للشريف المرتضى ص ٧٠ .

استعفاء موسى

قال تعالى : « واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم
 فرعون الايتقون . قال رب انى اخاف ان يكذبون . و يضيق صدرى و لا ينطق
 لسانى ، فأرسل الى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا ،
 فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون - الشعراء : ١٠ - ١٥ .
 وهل ينبغي لمشرح لمقام النبوة وقد اختاره الله و اجتبه من خلقه ان يستعفى
 منها ، ثم يدل على غيره ؟ !

والجواب : ان مقارنة هذه الآية مع آية طه ترفع الاعتراض رأساً . انه
 ﷺ لم يستعف ، و انما سأل ربه أن يمدده بمساعد موثوق به من أهله ، وأبدى عجزه

عن الاستقلال بعبء الرسالة ، فاجابه تعالى الى مسؤوله واستجاب دعاه .
قال تعالى : « اذهب الى فرعون انه طغى . قال رب اشرح لى صدرى ،
ويسرلى امرى ، واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من
اهلى ، هارون أخى ، اشدد به ازرى ، واشركه فى امرى ، كى نسبحك كثيراً ،
ونذكرك كثيراً ، انك كنت بنا بصيراً ، قال : قد اوتيت سؤالك يا موسى . طه : ٢٤ - ٣٦ .
هذه الآية تفسر تماماً آية الشعراء وترفع الاشكال عن مواضع ابهامها رأساً .
مثلاً قوله : « فأرسل الى هارون » ليس معناه : اعفنى عن حمل الرسالة واجعل
مكانى هارون !

بل المعنى : فأرسل الى هارون ايضاً كى يشاركنى فى أمرى ويؤازرنى عليه .
وقوله : « اخاف ان يكذبون » . وقوله : « فأخاف ان يقتلون » ليس معناه
عدم الثقة بنجاح رسالته ، وانما اراد بذلك طلب المزيد من عنايته تعالى والتيسير
لأمره « ويسرلى امرى » .

كما انه اراد بقوله : « ولا ينطق لسانى » ان يمن عليه بانطلاق لسانه « واحلل
عقدة من لساني » . وبقوله : « ويضيق صدرى » ان يشرح صدره « رب اشرح لى
صدرى » . وبقوله : « فأرسل الى هارون » ان يجعله وزيراً له « واجعل لى وزيراً من
اهلى هارون أخى اشدد به ازرى وأشركه فى أمرى » لا يكالها اليه رأساً واعفاء
نفسه عنها .

وقوله تعالى : « كلا » طمأنينة لنفس موسى انهم لن يصلوا اليهما بسوء ،
وانه سوف يوفق فى رسالته وتكون له الغلبة فى نهاية المطاف . اى كلاً لا يستطيعون
قتلك ولا الوقوف دون تبليغك الرسالة .

قال تعالى - فى سورة القصص - : « قال رب انى قتلت منهم نفساً فأخاف
ان يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردهاً يصدقنى ، انى
أخاف ان يكذبون . قال - تعالى مستجيباً لطلبه - : سنشد عضدك باخيك ونجعل

لكما سلطانا فلا يصلون اليكما ، بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون : ٣٣-٣٥ .
 وقد أوضح قوله : « فأرسله معي » في هذه الآية ماجاء في سورة الشعراء من قوله :
 « فأرسل الى هارون » توضيحاً يرفع كل ابهام وايهام .
 وقوله : « ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما » تفسير لقوله : « كلا » في
 تلك الآية .

ويجمع الكل قوله تعالى : « قد اوتيت سؤلك يا موسى » . فانه استجابة لجميع
 ما التمسه موسى ﷺ من ربه من الموقفية والتسديد في اداء الرسالة .

خيفة موسى

قال تعالى : « فأوجس في نفسه خيفة موسى - طه : ٦٧ » مم كانت خيفته ، وقد
 أمنه تعالى من قبل « يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدى المرسلون - النمل : ١٠ » ؟
 والجواب : ان خيفته هذه لم تكن كخيفته الاولى عند الشجرة عندما ألقى
 عصاه فاذا هي حية تسمى ، قال : خذها ولا تخف سعيدها سيرتها الاولى « طه : ٢٠ -
 ٢١ » . بل كانت خشية التمويه على العامة والتباس الحق عليهم بالباطل ، عند
 ما رأى من عجب فعل السحرة « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى -
 طه : ٦٦ » . « فلما ألقوا السحر وأعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم - الاعراف :
 ١١٦ » .

فأشفق ﷺ ان يلتبس الامر على العوام ولا يميزوا بين سحر السحرة واعجازه
 حيث رأى من قوة التلبيس والتخييل ، فخاف من وقوع الشبهة على من لم يمعن
 النظر . فأمنه الله تعالى من ذلك وبين له ان حجته ستضح للقوم ، بقوله : « لا تخف
 انك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلفف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر
 ولا يفلح الساحر حيث أتى - طه : ٦٨-٦٩ » . الامر الذي كانت نتيجته اخضاع
 السحرة : « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ،

وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون - الاعراف :
١١٨-١٢٢ .

* * *

وقال تعالى : « فلما أخذتهم الرجفة قال - موسى - : رب لو شئت أهلكتهم
من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هي الافتنتك تضل بها من تشاء
وتهدى مسن تشاء ، انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين - الاعراف :
١٥٥ .

ليس يستشم من ذلك رائحة الاعتراض !؟

وهكذا قوله تعالى : « وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملاءه زينة
وأموالاً في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك - يونس : ٨٨ .

الجواب : كلا ، بل هو استرحام واستعطاف ، وسؤال عن مصلحة
كادت تخفى على نبي الله موسى ﷺ . وأخيراً اعترافه بأن وراء هذه الظواهر حكمة
بالغة وفوائد تربوية جلية ، تخضع لها نفوس مستسلمة سليمة فتهدى الى معالم
الحق ، وان كان قد يزيد في ضلال من زاغ قلبه واعمى بصره .

قوله : « ان هي الافتنتك » اي ابتلاؤك وامتحانك للناس ليهلك من هلك عن
بينه ويحيى من حي عن بينة .

وقوله : « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » استرحام وطلب للعفو عما فرط منهم
في جنب السفهاء ، حيث واكبوهم في سفاهتهم وداوهم في غفلتهم . ولم يقصد
موسى ﷺ نفسه ، وانما عنى الرجال السبعين الذين اختارهم للميقات ، أهلكتهم
الرجفة بمجاملتهم مع سفهاء القوم .

واللام في قوله : « ليضلوا عن سبيلك » هي لام العاقبة مثلها في قوله : « فالتقطه

آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً» .

وهذا تمهيد للدعاء عليهم بالهلاك والدمار ، حيث كفروا بنعم الله عليهم ولم يقدروها ، بل وأخذوا يستغلونها في سبيل اضلال العباد والصد عن سبيل الله .

* * *

وقال تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب ارني انظر

اليك - الاعراف : ١٤٣ » .

أليس هذا من طلب المستحيل ؟

وقد تقدم الجواب عن ذلك ، بانه من باب تجاهل العارف ، على اثر ضغط

من قومه الجاهلين . فقد ورد ان لسانه لم يطق النطق به ، فأوحى الله اليه : يا موسى سلني ما سألوك فلأؤاخذة عليك بجهلهم ، فعند ذلك تجرأ موسى على أن ينطق به .^١

* * *

وقال تعالى : « ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفاً ، قال : بشما خلفتموني

من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال :

ابن ام ، ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلاتشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت ارحم الراحمين -

الاعراف : ١٥٠-١٥١ » .

وقال - ايضاً - : « فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً ، قال : يا قوم ألم يعدكم

ربكم وعداً حسناً ، أظال عليكم العهد أم أردتم أن يحد عليكم غضب من ربكم

فأخلفتم موعدي - الى قوله - قال : يا هارون مامنك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ،

أفصبيت أمرى ؟ قال : يا ابن أم ، لاتأخذ بلحيتي ولا برأسي ، اني خشيت ان تقول

فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي - طه : ٨٦-٩٤ » .

١- راجع الصفحة : ٩٨-٩٩ .

أليس هذا من ثوران الغضب والتسرع الى أمر ربما كان لا يحمد عقباه؟! والجواب: ان في ذلك الارتداد المفاجيء الغريب الذى حصل فى بنى اسرائيل فى غيبة نبيهم اربعين صباحاً لمثاراً لأكثر من ذلك الغضب ، ولا سيما فى مثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك الرجل القيور فى الله ، فقد وجد ان اتعابه كلها ذهبت أدراج الرياح بفترة قصيرة . ومن ثم اخذ اليأس مأخذه من نفسه الكريمة واخذته الحمية الالهية الى الانتقام السريع من قومه الالداء . فأخذ يفتش عن العوامل التى دعت الى ذلك التحول العظيم ، غير المترقب ، والأيادى التى عملت فى اضلال القوم وارتدادهم الى عبادة العجل .

فلاول وهلة وقبل كل شيء توجه الى أخيه الذى استخلفه على قومه ، وجعله رقيباً عليهم ومسؤولاً عن قيادتهم الحكيمة . «وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين - الاعراف : ١٤٢» .

فحسب ان هارون هو الذى تهاون بشأن القوم ولم يرقبهم تلك المراقبة الشديدة فضلوا ، شأن كل زعيم اذا احس بضعفة فى بعض جوانب قيادته ، ان يستنطق المسؤول الذى عينه فى تلك الجهة ويبادر الى محاكمته ان كان رأى من موقفه التساهل والتقايس عن وظيفته .

الامر الذى دعى بموسى ان يوجه ملامته أولاً وبالذات الى أخيه المسؤول عن قومه . فأخذ برأسه ولحيته وجره اليه بعنف ، استنكاراً على تساهله بأمر القوم . وهارون وان كان قد أبدى عذره عن سكوته تجاه ضلال القوم وعبادتهم للعجل لكنه لم يكن بتلك المثابة التى تبرأ موقفه نهائياً ، ومن ثم استغفر موسى لنفسه ولأخيه ان هارون حسب من قيامه فى وجه القوم حدوث انشقاق فى صفوفهم وربما وقوع فساد وسفك دماء ، فسكت ريثما يعود موسى وهو أعرف بموقفه مع القوم . الامر الذى ان كان يصلح عذراً فى الجملة ، فليس من العذر المقبول كلياً . ومن ثم لم يكن موقف موسى مع أخيه حينذاك ظلماً بشأنه ذلك الظلم الذى حسبوه ، كما لا يخفى

على من امن النظر في جوانب القضية ودرسها بعمق. وهذا الكتاب موضع اختصار.

* * *

اختبار داود

قال تعالى : «وهل أتاك نبؤ الخصم اذ تسوروا المحراب . اذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لاتخف ، خصمان بنى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط . ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال : اكفلنيها وعزني في الخطاب ، قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيراً من الخلطاء ليبنى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم . وظن داود انما افتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . ففغرنا له ذلك ، وان له عندنا لزلفى وحسن مأب - ص : ٢١-٢٥» .

قوله : «تسوروا المحراب» اى تسلقوا حائطه وصعدوا عليه ، ودخلوا على داود فى محراب عبادته بهذه الطريقة غير المألوفة ولعله ارباباً له ، ومن ثم فزع منهم .

قوله : «ولانشطط» اى لاتجر فى الحكم وهو امر له بالعدل فى القضاء ، وهو ايضاً غريب ، اذ لم يعهد من متحاكمين ان يتجاسرا على القاضى بهذه اللهجة التى تبدو عليها أمارات التحكم عليه والزامه بما هو وظيفته ، ولا سيما فى مثل نبى الله داود الامر الذى زاد من فزعه منهم .

قوله : «وعزني فى الخطاب» اى غلبني فى المحاججة . و«الخلطاء» هم الشركاء فى التعايش .

أليس يستشتم من الآيات ان هناك امراً كان قد فرط من داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فنبه الله عليه بتلك الطريقة المفزعة !؟

قلت : نعم ، ولكن لابتلك المثابة التى يرويها مفسروا العامة ، فانها لاتعدو

اسرائيليات مفضوحة لاشأن لها سوى الحط من كرامة انبياء الله العظام .

وقد شطب ائمة اهل البيت - عليهم السلام - على القصة التي يرويها القصاصون^١ بشأن امرأة اوريا في تلك الفظاعة المستبشعة ، التي لا يقدم عليها مؤمن زيور فضلا عن مثل نبي الله داود عليه السلام . قال امير المؤمنين - صلوات الله عليه - : «لا أوتى برجل يزعم ان داود تزوج امرأة أوريا الا جلده حتى يحد للنبوة وحد للاسلام»^٢ . وهكذا روى عن الامام جعفر بن محمد عليه السلام^٣ .

وليس في لفظ القرآن ما يدعو الى التصديق بثبوت القصة المزعومة ، سوى ما جاء في لفظ التوراة المحرفة في حياكتها الفظيعة^٤ التي يرفضها العقل السليم وحاشا داود من نبي كريم !

وكل ما يدل عليه ظاهر القرآن أنه تعالى اراد ان يمتحن عبده داود في القضاء العدل ويُدربه عليه تدريبا ، حتى في أشد الحالات عليه ، فجعل من الملكين في صورة خصمين يهجمان عليه المحراب ، وهو منذهل بخلوته معربه ، ومن ثم افزعه تلك المباغته الغريبة ، وتسرع في الحكم قبل أن يتأكد من توفر شروطه أجمع ، حتى ولو كان بصورة فرض ، لانه كان بمحضر المدعى عليه ، وربما أوجب انفعالا في نفسه فيتقاعس عن الدفاع عن نفسه ، لظنه ان الحكم حتم لخصمه فلا فائدة في الدفاع . هذا ولا سيما وقد القيت الدعوى بصورة تستجلب الحكم للمدعى في بادىء النظر ، خصوصا والمدعى عليه ساكت لا يتكلم .

والخلاصة : ان بواعث التسرع بأخذ جانب المدعى حينذاك كانت متوفرة

١- انظر : الطبرى - جامع البيان ج ٢٣ ص ٩٣

٢- انظر : الطبرسى - مجمع البيان ج ٨ ص ٤٧٢

٣- بحار الانوار ج ١٤ ص ٢٩ رقم ٦

٤- انظر : المعهد القديم - صموئيل الثانى - الاصحاح الحادي عشر والاصحاح الثانى

عشر . (الكتاب المقدس ص ٤٩٧ - ٥٠٠) .

أولاً : هجوم الخصمين عليه بتلك الصورة المفزعة، وهي تحول دون رجوع العقل الى رشده، ولا يملك اى انسان وعيه اذا ماملكه الفزع وفاجاه رعب مهول . وربما يتخذ تدبيراً هو بمعزل عن رشد العقل ، ومن ثم كان من آداب الحكم ان لا يكون القاضى منشغل الذهن بهواجس ولا مرتاعاً فى امره .

ثانياً: القاء الدعوى بتلك الصورة المغرية ، انه يملك نعجة واحدة ، وخصمه يملك تسعاً وتسعين نعجة ، وطلب اليه ان يضم نعجته الى نعاجه ، من غير ماسبب معقول ، سوى انه يملك اكثر بتلك النسبة العالية .

ولاشك ان الدعوى اذا كانت بتلك الصورة كان الحق مائة بالمائة مع المدعى ، ويكون المدعى عليه ظالماً له .

ولعل القاء الدعوة بتلك الصورة كان - ايضاً - لأجل اختبار داود ، هل تغلبه صورة الدعوى المغرية ؟ وهل تثير من عواطفه الرقيقة ضد المحكوم ؟ فاذا كان الامر كذلك كان بعد لم تنضج صلاحيته للقضاء العدل الذى يريده الله .

ثالثاً : سكوت المدعى عليه محضاً تجاه الغوغاء التى اثارها خصمه ، وهو لا ينس بينت شفة ، كل ذلك كانت بواعت للحكم ضده فى بادىء الأمر .

لكن داود عليه السلام بعد ان تسرع الى الحكم - فرضياً - رجع الى رشده على فوره ورآى بنور الله انه لم يكن ينبغى منه ذلك التسرع ، ولا بد ان يستمع الى الخصم ، ولعلمه ذو حجة قاطعة ، ومن ثم استغفر الله على بادرته تلك ، وان لم تكن معصية حيث لم يحكم حكم قضاء ، وانما ابدى رأيه الشخصى ازاء تلك الدعوى على فرض صحتها تقديراً .

فلم تكن تلك الظاهرة سوى رحمة من الله عليه وعناية خاصة به ، تمهيداً لاستخلافه فى الارض ، الذى جاء ذكره تعقيماً على الآيات المذكورة « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله - ص ٢٦٠ » .

نعم ، قديكون في التمثيل بالنعاج ، خصوصاً في تلك النسبة المرتفعة ، تنبيه آخر لداود ، روى انه خطب امرأة وكان قد خطبها ايضاً آخرون ، فاراد اهلها ان يزوجها من داود اجلالاً لمقامه الكريم ، وهو لا يدري بالأمر ، فنبهه الله عليه كي لا تدخل عليه شئعة من الناس فيحسبوه متدخلين في سوم الآخرين^١ .

* * *

فتنة سليمان

قال تعالى : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب - ص : ٣٤ » . ذكروا انه قال لاصحابه يوماً : سأطوف الليلة على نسائي لتلك كل واحدة غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ، قال ذلك قاطعاً بالأمر ، فقد تمنى ما لم يكن باستطاعته الا ان يشاء الله . فأراد الله تنبيهه على بادرتة تلك ، وان كانت نظرتة نصرة الحق محضاً . فطاف عليهن كلهن فلم تحمل منهن سوى واحدة و جاءت بسقط ميت^٢

هذا هو الصحيح الذي اختاره اصحابنا الامامية في تفسير الآية . واما ما ذكره بعض المفسرين من امور تمس بكرامة الأنبياء و تهين من مقامهم الجليل فهي - فضلاً عن مخالفتها لاصول العقيدة ولظاهر القرآن - روايات لأصل لها ولا سند متصل الى معصوم .

* * *

وقال تعالى : « اذ عرض عليه بالمشى الصافنات الجياد ، فقال انى احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردها على فطفق مسحاً بالسوق والأهناق... قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى انك انت الوهاب ص : ٣١ - ٣٢ - ٣٥ » .

١- انظر : مجمع البيان - الوجه الاول - ج ٨ ص ٤٧٢

٢- مجمع البيان ج ٨ ص ٤٧٥

فى هذه الآيات موضعان للسؤال .

الاول : كيف يؤثر مثل سليمان ، حب الخيل على ذكر ربه ؟

الثانى : كيف يطلب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، أليس فى هذا الطلب شيء

من شائبة البخل ؟

والجواب - اولاً - : ان مارووه بشأنه عليه السلام انه كان مغرماً بحب الخيول المسومة الجياد فكان يوم عرضها عليه ففاته فريضة العصر ، كله باطل و قبيح ينم عن وقاحة واضعه و جهله بمنزلة الانبياء .

والصحيح : انه كان يوم استعراض الخيل لغرض انتخاب جيادهن لغرض الجهاد فى سبيل الله . وكان الوقت وقت عشى ، فاشتغل سليمان بملاحظتهن وفاته تسبيحه المعتاد ذلك الوقت « فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشياً - مريم : ١١ . » واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار - آل عمران : ٤١ . »

وهذا وان كان اشتغلاً بعبادة عن أخرى ، لكن نبي الله سليمان فرض ذلك على نفسه ذنباً فاستغفر الله منه . قوله : « انى احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب » قال ذلك اغتماماً لما فاته من ورده المعتاد^١ .

وقوله : « ردها على » اى الخيل لعرضها ثانية لغرض التأكد من سلامتھن

و صلاحيتهن للجهاد .

و ثانياً - ان المذموم هو الحرص و الضن بما يخص هذه الحياة الدنيا . اما ما اريد به وجه الله والدار الآخرة فالطمع البالغ فيه غير مذموم . و من ثم نرى نبينا الكريم طلب من امته الصلاة عليه على مر الايام والدهور . وهل يستغنى أحد من رحمة ربه الواسعة ؟ ! أم هل للقناعة والاقتصاد فى تلك المرحلة مفهوم معقول ؟ !

١ - تنزيه الانبياء للشريف المرتضى ص ٩٤ (ط نجف)

ونبي الله سليمان انما طلب منحة الهية اختصاصية يمتاز بها بين سائر الانبياء حيث كل واحد منهم كان يمتاز بجهة هي غالبية على سائر الجهات من شؤون نبوته الكريمة . آدم بسجود الملائكة له . نوح بكونه نجى الله . ابراهيم بخلته . موسى بتكليمه . داود بلبين الحديد و تسبيح الجبال معه . عيسى بكونه كلمة الله و روحاً منه . محمد خاتم الانبياء و سيد المرسلين .

فأراد سليمان ﷺ ان يكون امتيازه وطابعه الربانى هو سيطرته على الانس والجن والطير والوحش ليكون مظهر قدرته تعالى على جميع صنوف الخلائق من غير ان يكون له مطمع فى دنيا او حب فى رئاسة هي زائلة لامحالة .

* * *

استعجال يونس

قال تعالى : « وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم و كذلك ننجى المؤمنين - الانبياء : ٨٧ - ٨٨ » .

مم كان مغاضباً ؟ و كيف ظن ان لن يقدر الله عليه ؟ وبماذا اعترف على نفسه بالظلم ؟

الجواب : انه كان مغاضباً لقومه بسبب اصرارهم على الضلال والمعاندة مع الحق ، وقد مكث بين اظهرهم يدعوهم الى الله وهم لا يستجيبونه حتى ايس منهم ، وأحس بالعقاب يرفرف على رؤوسهم ، فأخذ بمغادرتهم لأن العذاب لا ينزل بساحة قوم وفيهم نبي « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم - الانفال : ٣٣ » . فمن وظيفة الانبياء ان يغادروا مهبط العذاب . فبناء على هذا القانون السماوى غادرهم يونس ولكن من غير ما استيذان خاص من الله فى ذلك ، علماً منه بان ذلك من وظيفته المتعينة عموماً ولا حاجة الى مراجعة اخرى خاصة !

هذا هو الذى أخذه الله عليه وحسبه ترك اولى منه لم يكن ينبغى صدوره من مثله و هو نبى كريم .

وهذا معنى قوله تعالى : « فظن ان لن نقدر عليه » اى كان على يقين من ان ذلك من وظيفته الخاصة فلا نؤاخذه عليها ولا نتضايق بشأنه من أجلها .
لكنه لما علم بخطأ ظنه وانه قد ترك الاولى بشأنه اغتم اغتماماً بالغاً واخذ فى الاستغفار والضراعة الى الله تعالى ان يغفر له تلك البادرة التى فرطت منه .
قال تعالى - مناصحاً لنبيه ان لا يستعجل فى مغادرة قومه من مكة - « ولا تكن كصاحب الحوت - حيث استعجل الخروج - اذ نادى ربه وهو مكظوم - مختنق من الغم على اثر بادرته تلك - القلم : ٤٨ » .
وعليه فلم يكن هناك عصيان ولا مخالفة أمر صريح ولا اساءة ظن بالله العظيم !

* * *

عيسى بن مريم

قال تعالى : « واذ قال الله : يا عيسى بن مريم ، أنت قلت للناس اتخذوني و امى الهين من دون الله - المائدة : ١١٦ » .
كيف يجوز توجيه هكذا سؤال الى مثل عيسى ، وهو كلمة الله وروحه ، اكان يصح توجيه هكذا سؤال الى من لا يحتمل بشأنه ذلك ؟ !

الجواب : انه من باب « اياك اعنى و اسمعى يا جارة » تقريباً بالمنتحلين اليه كذباً ، و استنكاراً لعقيدتهم بالتثليث ، هم ابتدعوه ما انزل الله به من سلطان ولا كان المسيح أمرهم به . فليس سوى تعريض صريح بموقفهم الفاسد المنهار ، الذى لا

١- راجع مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٤١

اساس له فى شريعة الانبياء اطلاقاً .

* * *

خاتم النبیین

حاول اعداء الاسلام إصاق تهم و افتراءات بساحة قدس رسول الله - صلى الله عليه وآله - والتمسوا لذلك شبهات واهية و فى نفس الوقت مفضوحة لا يتلوث بها ذيله الطاهرأ بدياً . منها اسطورة «الغرائيق» التى بحثنا عنها فى الجزء الاول (ص ٥٩ - ٧٠) و ذكرنا اوجه تنفيذها بتفصيل . و بقيت آيتان كانوا تشبثوا بهما دليلاً على الاسطورة ، لم نتكلم عنهما هناك بالذات :

١- الاولى - قوله تعالى : « و ان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفتري علينا غيره ، و اذاً لا تخذوك خليلاً . و لولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً ، اذاً لاذقناك ضعف الحبوة و ضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيراً - الاسراء ، ٧٣ - ٧٥ .

زعموها نزلت بشأن قصة الغرائيق !

ولكن الآية ترمى شيئاً آخر لاساس له بتلك القصة ، و ذلك ان قريشاً بعد ما أيست من التغلب على دعوة الحق ، و رأيت ان الدعوة تتقدم بسرعة مع الليالى و الايام ، حاولت الاصطلاح مع رسول الله - ص - ليجاملهم بعض الشئ ، فلا يذكر آلهتهم بسوء و لا يسهه أحلامهم علانية ، و شرطوا عليه إن كان يرغب فى موادتهم و مرادتهم ان يجتنب مجالسة العبيد و السفلة الاذلاء و يطردهم عن حاشيته و بالتالى يداهنهم فى سيرته التزيهة التى تمثل منهج العدل و الحكمة ، فيحولها الى سلوك اهل الكبرياء و اصحاب الترف فى الحياة .

و قد تخرج النبى - ص - تجاه اقتراحهم هذا الثقيل ، فمن جهة كان يرغب

شديداً فى ايمان قومه ، فكان يرى لوجاملهم بعض الشيء لاستطاع اخضا عهم
للاسلام ، و من جهة اخرى كان عليه صعباً جداً ان يحول من سيرته العادلة الى سيرة
جبارة ، و لم يكن يستطيع ذلك أبداً .

فنزلت الآيات تبيها لمطمع اهل الشرك والفسوق ، وترويحاً بنفسه الكريمة
ليتخلص عن المأزق الذى وقع فيه . فليكن على قاطع من أمره أنه يسير على
المنهج الحق ، وان لامطمع فى ايمان هؤلاء الاندال حتى ولو جا ملهم فى الامر .
« كذلك سلكناه فى قلوب المعر مين ، لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم - الشعراء :
٢٠٠ - ٢٠١ » .

قال تعالى : « وان كادوا ليفتنونك » اى حاولوا خداعك . « عن الذى
أوحينا اليك » أى عن المنهج الحق الذى ادبناك عليه « لتفتري علينا غيره » اى لتحو له
الى طريقة اهل الترف والبغى ، فيحسبوا طريقة الشرع بسبب انتسابها اليك .
« اذن لاتخذوك خليلاً » صحبوك وجالسوك . « ولولا ان ثبتناك » بالعصمة الربانية
صموداً واستقامة على الحق ، « لقد كدت تركزن اليهم شيئاً قليلاً » اى لداهنتهم فى
بعض ما طلبوه ، ولو طمعاً فى اسلامهم ، لكن من الواجب على نبي الله ان لا يدهن
على باطل ، ولا يسلك مسالك التقية أبداً ، نظراً لانه المؤسس والمشرع وربما
اشتهت معالم الدين الاصيله .

و بقية الآيات تعريض بأولئك الذين يحاولون المداهنة فى دين الله اطلاقاً
على مر الاجيال .

* * *

٢- والآية الثانية - قوله تعالى : « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا
تمنى ألقى الشيطان فى امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته
والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض و القاسية
قلوبهم ، و ان الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين اتوا العلم انه الحق من

ربك ، فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم ، وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط
مستقيم - الحج : ٥٢ - ٥٤ .

قالوا - ايضاً - : انها نزلت بشأن قصة الغرائق !

والصحيح : أن الآية تعنى تسويلات ابليس المضلة التي يعرقل بها طرق الهداية
التي يدعو اليها الأنبياء . فقد كان رسول الله ﷺ يرجو تطبيق الاسلام لوجه الارض
كلها واخضاع الامم له جميعاً ، ويسير سيره الى الخلود والأبدية ، ومن ثم قوم من
دعائمه ورضن من أسسه وقواعده الحكيمة ، وكان يخشى من دسائس المنافقين
حواله سوف يعكرون عليه صفوا الجو ويقومون في وجه دعوته السائرة الى الانتشار
والازدهار ، لانه قد تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن .

لكنه تعالى وعده بالنصر والظفر والانتشار والخلود وانه سوف يطبق دينه
الارض كلها ، رغم محاولات الأعداء والمناوئين ، وان محاولاتهم سوف تفشل
وتذهب هباء أدراج الرياح ، الحق يعلو ولا يعلى عليه ، « انا لننصر رسلنا والذين
آمنوا في الحياة الدنيا - غافر : ٥١ » . « كتب الله لأغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز
- المجادلة : ٢١ » .

وان دسائس اهل الباطل سوف تذهب سدى ويستمر الحق في طريقه الى الازدهار
والخلود « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق - الانبياء : ١٨ » . « له
دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء
ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، ومادعاء الكافرين الا في ضلال - الرعد : ١٤ » . « انزل من
السماء ماء فسال أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في
النار ، ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد
فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال -
الرعد : ١٧ » .

كل هذه الآيات تبشر بعاقبة الاسلام المجيدة سوف تزدهر معالمه وتطبق ارجاء

العالم المعمور ، وان كل محاولة في سبيل مكافحته فاشلة لامحالة .
 وآية الحج - أيضاً - ترمى نفس المرمى ، وتعنى تغلب الاسلام على جميع
 الموانع والحواجز التي سوف تعرقل طريقه الى الازدهار والانتشار :-
 قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى » انتشار دينه
 وازدهار شريعته مع الخلود « ألقى الشيطان في أمنيه » حاول عرقله الطريق امام انتشار
 دعوته « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » يذهب بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق
 « ثم يحكم الله آياته » يجعل من الحق واضحاً منتشراً في الآفاق قائماً على قدم وساق .
 « ليجعل ما يلقى الشيطان » أى دسائسه وشبهات يثيرها « فتنة للذين في قلوبهم مرض »
 امتحاناً لهم - « ام حسب الذين في قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم - سورة
 محمد : ٢٩ » .

* * *

وهناك آيات اخر تشبث بها الخصوم للتشويه من سمعة الرسول الطيبة والازراء
 بكرامته المجيدة . لكنها - أيضاً - محاولات فاشلة ومفضوحة الى حد بعيد :
 ٣- منها قوله تعالى : « واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك
 زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق ان تخشيه .
 فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج
 أديئاتهم اذ اقضوا منهن وطراً . وكان امر الله مفعولاً . ما كان على النبي من حرج
 فيما فرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان امر الله قدراً مقدوراً - الاحزاب :
 ٣٧-٣٨ » .

رووا بشأن نزول الآية أباطيل كاذبة ، قالوا : انها نزلت عتاباً للنبي ﷺ
 في اضمماره حب زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ
 كان ﷺ دخل بيتها ففاجته ريح فرفعت الستار واذا بها حاسرة ، فاعجبه جمالها ووقع
 حبها في قلبه الشريف . ولما علم الله بذلك كرهها في نفس زيد ليطلقها ويتزوجها

النبي ﷺ فلما جاء زيد ليطلقها ، قال له النبي : أمسك عليك زوجك ، قال ذلك وهو يحب ان تكون قد بانت منه لينكحها . فآظهر الله ما كان يخفيه النبي في قلبه الشريف ، الخ^١ .

هذا امتهان بشأن الرسول وقلب للواقعية البيضاء التي كان يسير عليها برامح الدين الحنيف .

والصحيح - وفق مذهب أهل البيت - عليهم السلام - : ان هذه الآيات نزلت لمحق عادة جاهلية ، كانت العرب لاتجيز التزويج بأزواج الأدعياء قياساً على ازواج الابناء الحقيقيين . فكانت مكافحة هذه السنة الجاهلية بحاجة الى توضيحية ممن يعرض بنفسه للشناعة الراهنة ويتحملها ، ومن ثم تحملها الرسول بنفسه كسراً لشوكتها ، وان شخصيته الكبيرة لتحول دون توجيه أي شناعة اليه !

فأوحى الله اليه أن زيدا سوف يطلق زوجته ، ولا بد ان تتزوجها انت محقاً لشريعة جاهلية . فلما ان وقع بين زيد وزوجته زينب تشاجر وكرهية و اراد طلاقها نصحه النبي ﷺ : « أمسك عليك زوجك واتق الله » . وهي وظيفة دينية اصلاً بين الزوجين مهما امكن . « وتخفى في نفسك ما الله مبديه » اي كنت تعلم ان من وراء الستار امر مدبر هو على شرف الوقوع وانه سيطلقها وتتزوجها انت كما اخبر الله . « وتخشى الناس » تعبيرهم « والله احق ان تخشيه » اي احق ان ترعاه في تطبيق شريعته ومكافحة شرائع جاهلية^٢ . وبقية الآية ظاهرة .

* * *

٤ - ومنها قوله تعالى : « يا ايها النبي ، اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان عليماً حكيماً . واتبع ما يوحى اليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيراً - الاحزاب : ١-٢ » .

١- انظر : الطبري - جامع البيان - ج ٢٢ ص ١٠ .

٢- انظر : مجمع البيان ج ٨ ص ٣٦٠ . والصابي ج ٢ ص ٣٥٥

هذه الآية كآية الاسراء (٧٣) المتقدمة - وكم لها من نظائر في القرآن - تبيس لمطمع المشركين والمنافقين في الاصطلاح مع النبي ﷺ وان لا منفذ لخداعهم الخبيث في نفسه الكريمة «ودوا لو تدهن فيدهنون - القلم: ٩». فقد ورد أن اباسفيان ابن حرب وعكرمة بن ابي جهل و ابا الأعرور السلمي قدموا المدينة ، ونزلوا على عبد الله ابن ابي ، بعد غزوة احد ، بأمان من رسول الله ﷺ ليكلموه . فقاموا وقام معهم عبد الله ابن ابي وعبد الله بن سعد بن ابي سرح وطعمة بن ابيرق ، فدخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة . وقل : ان لها شفاعة لمن عبدها ، وندعك وربك . فشق ذلك على النبي ﷺ ثم أمر باخراجهم من المدينة ونزلت الآية ١ .

* * *

٥ - ومنها قوله تعالى : « لا تجعل مع الله الهاً آخر فتقع مذموماً مخذولاً - الاسراء : ٢٢ » . وللاية نظائر كثيرة ، كلها نزلت تعريضاً بغيره ﷺ من غير ان يكون هو مقصوداً بالذات . من باب « اياك اعنى واسمعى باجارة » . كما فى قوله تعالى : « ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين - الزمر : ٦٥-٦٦ » . وغيرها من آيات هى نظائر ، كلها ترمى غيره ﷺ . ومن ثم حملها بعضهم على ارادة الخطاب مع كل سامع او قارىء ، اى ايها السامع لهذا الخطاب او ايها القارىء لهذا الكلام او ايها الانسان بصورة عامة ٢ .

* * *

٦ - و منها قوله تعالى : « عبس وتولى ان جاءه الاعمى . و ما يدريك لعله يزكى . او يذكر فتنغه الذكرى . اما من استغنى فأنت له تصدى . و ما عليك ان لا يزكى . و اما من جاءك يسمى . و هو يخشى . فأنت عنه تلهى - عبس : ١-١٠ » .

١- مجمع البيان ج ٨ ص ٣٣٥

٢- انظر مجمع البيان ج ٦ ص ٤٠٧

رووا بشأن النبي ﷺ انه كان يتكلم مع عظماء قريش اذ جاء ابن ام مكتوم - وهو فقير اعمى - يسترشده ، فلم يلتفت اليه النبي ﷺ و امتعض و اعرض بوجهه عنه ، قائلاً في نفسه ، ان هؤلاء الصناديد سوف يقولون : انما اتبعه السفلة السقاط !^١ .

قال اعداء الاسلام والمشنعون بمقام سيد المرسلين : هل هذا من خلق المرسلين؟ و هلا يتنافى ما في هذه السورة مع قوله تعالى : «وانك لعلى خلق عظيم - القلم ٣٠» ؟!^٢ .

قال الشريف المرتضى - قدس سره الشريف - : «اما ظاهر الآية فغير دال على توجهها الى النبي -ص- و لافيها ما يدل على انه خطاب له ﷺ بل هي خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه، وفيها ما يدل عند التأمل على ان المعنى بها غير النبي -صلى الله عليه و آله - لانه وصفه بالعبوس ، و ليس هذا من صفات النبي -ص- في قرآن و لا خبر مع الاعداء المنابذين^٣ فضلا عن المؤمنين المسترشدين .

ثم وصفه بأنه يتصدى للاغنياء و يتلهى عن الفقراء ، و هذا مما لا يصف به نبينا ﷺ من يعرفه . فليس هذا مشبهاً لاخلاقه ﷺ الواسعة ، و تحننه على قومه و تعطفه » .

«و كيف يقول : وما عليك ان لا يزكى !؟ وهو ﷺ مبعوث للدعاء والتنبية و كيف لا يكون ذلك عليه ، و كان هذا القول اغراء بترك الحرص على ايمان قومه » .

«و قد قيل : ان هذه السورة نزلت في رجل من اصحاب رسول الله - صلى

١- الطبرى - جامع البيان - ج ٣٠ ص ٣٢ - ٣٤ .

٢- انظر : الهدى الى دين المصطفى للحجة البلاغى ج ١ ص ١٥٨ .

٣- قال تعالى : «فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من

حولك - آل عمران : ١٥٩ » .

الله عليه وآله - كان منه هذا الفعل المنعوت فيها . ونحن ان شككنا فى عين من نزلت فيه ^١ فلا يبنى ان نشك فى انها لم يعن بها النبى ﷺ .
 «وأى تنفير ابلغ من العبوس فى وجوه المؤمنين ، والتلهى عنهم . والاقبال على الاغنياء الكافرين ، والتصدى لهم . وقد نزه الله تعالى النبى -ص- عمادون هذا فى التنفير بكثير» ^٢ .

وقال سيدنا الطباطبائى - دام ظله - : «وقد عظم الله خلق النبى ﷺ اذ قال : وانك لعلى خلق عظيم ، فى سورة القلم النازلة فى بدء البعثة ، لانها نزلت بعد سورة العلق باتفاق روايات الترتيب . فكيف يعقل ان يعظم الله خلق نبيه فى بدء بعثته بصورة مطلقة ، ثم يعود فيعاتبه بالعبوس فى وجه الفقراء والتصدى للاغنياء؟!» .
 «وقد أمره تعالى بخفض الجناح للمؤمنين «واخفض جناحك - سورة الحجر : ٨٨ المكية ، كما أمره بالاعراض عن المشركين «واعرض عن المشركين - ايضاً فى سورة الحجر : ٩٤» فكيف يخالف ﷺ أمر ربه فى الموضوعين . وقد قال تعالى : «ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجاً منهم ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين - الحجر المكية : ٨٨» ؟! :

«على ان تفضيل الغنى على الفقير ، لالشيء سوى ان ذلك ذوجه وهذا فقير قبيح عقلا ، فضلاً عما اذا كان صاحب الغنى جاهلاً ، وكان الفقير صاحب كمال . الامر الذى يكون قبحه ذاتياً عند كل انسان ، من غير حاجة الى نهى ودستور!» ^٣ .

* * *

١- عن الصادق -عليه السلام- : «نزلت فى رجل من اثرياء بنى امية كان هند النبى -ص- فجاء ابن ام مكتوم ، فلما رآه تقدر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بسوجه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه» مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧ .

٢- كتاب تنزيه الانبياء ص ١١٩ (طنجف) وراجع ايضاً الهدى الى دين المصطفى ج ١

ص ١٥٧-١٥٨

٣- انظر : تفسير الميزان ج ٢٠ ص ٣٠٨-٣٠٩ .

٧- ومنها قوله تعالى : «ووجدك ضالاً فهدى - الضحى : ٧» .

هذه الآية ونظائرها الكثيرة في القرآن ، تعنى جانب انحصار الهداية فى الله عزوجل ، فلاهدى الاهديه: «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله - الاعراف : ٤٣» .

وكل مهتد فى هذا الوجود فانما هدايته مكتسبة ومفاضة عليه من جانبه تعالى نبياً كان فمن دونه . ولاهداية ذاتية الا فى الحق تعالى عز شأنه . «انى ذاهب الى ربي سيهدين - الصافات : ٩٩» . «الذى فطرنى فانه سيهدين - الزخرف : ٢٧» . «الذى خلقنى فهو يهدين - الشعراء : ٧٨» .

قال ابراهيم : «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين - الانعام : ٧٧» . وقال تعالى عن انبياء اجتباهم وهداهم : «واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم - الانعام : ٨٧» .

وقال موسى : «فعلتها اذاً وانا من الضالين - الشعراء : ٢٠» .

وقال تعالى بشأن نبينا محمد ﷺ : «وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وانك لنهتدى الى صراط مستقيم - الشورى : ٥٢» .

وقال : «وانزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً - النساء : ١١٣» .

وقال هو ﷺ فيما أمره تعالى أن يقول : «وان اهتديت فيما يوحى الى ربي ، انه سميع قريب - سبأ : ٥٠» .

هذا هو معنى ضلاله ﷺ وحاجته الذاتية الى هدى ربه ، ولولا هديه تعالى لكان من الضالين .

والى هذا المعنى ينظر قوله تعالى - فى مفتتح سورة يوسف - «نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وان كنت من قبله لمن الغافلين» .

حيث علمه ﷺ مستمد من فيض قدسه تعالى ، وانه انما يعلم ما علمه الله .
والغفلة في هذه الآية هو الضلال في سائر الآيات ، وهو عدم المعرفة بالشئ
ذاتياً . ولعل في التعبير بالغفلة مناسبة مع المبدأ القائل بان العلم تذكر ، فتنبه !

* * *

٨- ومنها قوله تعالى : «انافتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك
وماتأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً - الفتح : ١-٢» .
ما هذا الذنب الذي تشير اليه الآية الكريمة ؟

قلنا : ان من شأن كل قائم باصلاح ، وخارج على مساوى عادات قوم هي
مألوفة عندهم ، ان يعرض بنفسه لتعبير هم والتشجيع به ، ويرون من عمله ذلك
خطيئة كبيرة خالف بها مقومات وجودهم الموروثة عبر الأجيال ، فكأنه يحاول
تحطيم كيانهم والانهيار بقوميتهم ، ولاسيما الكبراء زعماء القوم ، يخشون على
مصالحهم في البلاد ، فينظرون اليه كمنذب عارم وقبيح .

لكنه ريثما يتغلب على الموانع ويرفع الحواجز عن طريقه ويبلغ قمة الفوز
والنجاح ، وتزدهر معالم اصلاحاته العامة اذاهم يستبشرون به كفاتح عظيم
و مبشر بسعادة الاجيال . فتقلب سيئاته حسنات ، و تغفر جميع ذنوبه التي كانوا
يرونها ذنوباً ، بعد ما لمسوا من حقيقة قيامه الاصلاحى و اخلاصه فى نهضته
منذ البدء .

قال الامام ابو الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام « لم يكن أحد عندهم شركى
اهل مكة اعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله لانهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين
صنماً ، فلما جاءهم بالدعوة الى كلمة الاخلاص ، كبر ذلك عليهم وعظم ، وقالوا :
أجعل الآلهة الها واحداً - الى قوله - الاختلاق . فلما فتح الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله
مكة ، قال تعالى : يا محمد ، انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك
وماتأخر ، عند مشركى اهل مكة ، بدعاءك الى توحيد الله فيما تقدم و ماتأخر ، لان

مشركى مكة اسلم بعضهم ، وخرج بعضهم من مكة ، ومن بقى منهم لم يقدر على انكار التوحيد عليه ، اذ دعا الناس اليه . فصار ذنبه مغفوراً بظهوره عليهم^١ .
 وقوله : «وماتاخر» اى حتى الاعمال التى يرتكبها ذلك المصلح فى مستقبل امره يفضون عنها حتى ولو كانت على خلاف مصالحهم الخاصة .

* * *

٩- ومنها قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذى انقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك. فان مع العسر يسراً. ان مع العسر يسراً- الانشراح: ١-٦» .
 ماهذا الوزر الذى وضعه الله تعالى عن نبيه ﷺ ؟

الجواب : الوزر - كحبر - فى أصل اللغة^٢ : الحمل الثقيل . والجمع أوزار ، كما فى قوله تعالى : «ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم - طه : ٨٧» واستعير استعماله فى الاثم لكونه حملاً ثقيلاً قاصماً للظهر . اما فى الآية فان المراد بها حمل عبء الرسالة والصدع بها ، الذى كان ﷺ يخشى صعوبة ادائه ، فى ذلك الجو الملىء بالعصية والشقاق . لكنه تعالى وقفه على الانتهاض بدعوته فى يسرولين . كما شرح صدره الذى كاد يضيق من خطورة موقفه مع قومه فخفف عليه ذلك وهان .

قال تعالى : « السم نشرح لك صدرك» لهذه الدعوة ؟ ويسرنا لك أمرها ؟
 «ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك» اى خففنا عليك عبثك الذى كان اثقل ظهرك .
 وان فى بقية الايات لدليلاً واضحاً على صحة هذا التفسير .

* * *

١٠- ومنها قوله تعالى: «فاصبر ان وعد الله حق ، واستغفر لذنبك - غافر : ٥٥» .
 وقوله : «فاعلم انه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات - سورة محمد : ١٩» .

ماهذا الذنب الذى امر النبي ﷺ بالاستغفار منه ؟

١- عيون اخبار الرضا للصدوق (ط نجف) ص ١٦٠ - ١٦١

٢- ابن فارس - معجم مقاييس اللغة - ج ٦ ص ١٠٨

قال الحجة البلاغى : ولعل الآيتين من سنخ آية الفتح - التى تقدمت برقم ٨- ويمكن ان يكون تعليماً للامة وان كان الخطاب للرسول ﷺ كما فى آيات من سورة بنى اسرائيل: ٢٣- ٢٩ و ٣٦- ٣٩ .^١

قال المفسرون : وهذا من أدب العبودية يؤدب الله به نبيه، وليتأدب عليه المسلمون وقد قال رسول الله ﷺ لحذيفة : «اين انت من الاستغفار ، انى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة»^٢ .

وذلك ان العبد مهما بالغ فى الخضوع والانقياد لله رب العالمين ، واجتهد فى عبادته والقيام بمرضاته ، فانه مع ذلك قاصر لامحالة ، ولاسيما عباد الله المخلصين الذين أدر كوا من عظمة الله وجليل نعمه على عباده ، فان شعورهم بالقصور عن اداء شكره الواجب اشد . ومن ثم فان خشيتهم تجاه رب العباد اكثر، «انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور - فاطر : ٢٨» .

وهكذا بقية الآيات التى جاء فيها ذكر الاستغفار ، خطاباً الى النبى ﷺ بصورة خاصة أو عموماً .

وبقيت آيات اخر كان فيها بعض العتاب الموجه الى النبى ﷺ أغمضنا عنها ، لوضوح حالها قياساً على ما أسلفنا ، انها اما عتاب وداد او تعريض بغيره فى مناسبة خاصة ، او الى امته بشكل عام ، ولكمال ظهورها طوبينا عنها البحث .

١- الهدى الى دين المصطفى ج ١ ص ١٦٤ (ط نجف)

٢- مجمع البيان للطبرسى ج ٩ ص ١٠٢

انتهى ما أردنا نثبته في هذا المختصر ، ولعله بقيت من آيات متشابهة ما لم نتعرض لها
فقد أجلناها الى مجال التفسير ، حيث لم نقصد الاستقصاء وانما كان الغرض عرض نماذج
أوفيناها بتوفيقه تعالى . وله الحمد و اصبأ على تسديده للصواب والكمال .
وكان الفراغ مساء يوم ميلاد الامام الثامن على بن موسى الرضا ، عليه آلاف
التحية والثناء . الحادي عشر من ذى قعدة الحرام ، سنة الف وثلاثمائة وثمان وتسعين
هجرية ، على هاجرها وآله صلوات رب العالمين .

١١ / ذق / ١٣٩٨ هـ قم المقدسة - محمد هادي معرفة

فهرس الايات القرآنية

التي جاءت في هذا العرض اما بحثاً عن مدلولها اولغرض الاستدلال

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١- سورة الفاتحة		
٦	اهدنا الصراط المستقيم	٢٠٤، ٢١٠
٢- سورة البقرة		
٢	هدى للمتقين	٢١٠، ٢٥٥
٦	سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم ...	٢١١
٧	ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ...	٢١١، ٢٢٢، ٢٤٣
٩	يخادعون الله والذين آمنوا - الى قوله - وما يشعرون	٣١٧
١٠	في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ...	٢١٢، ٢٤٣، ٢٢٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٣	واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا ...	٢٠٦
١٤	واذا خلوا الى شياطينهم - الى قوله - يعمهون	٣١٨، ٣١٩
١٥	الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم	٢١٤
١٦	اولئك الذين اشترى والضلالة بالهدى ...	٢١٤
١٧	كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ...	٢٠٧
١٨	صم بكم عمى فهم لا يرجعون	٢١٤
٢١	يا ايها الناس اعبدوا ربكم ...	١٦٧
٢٥	وأتوا به متشابهاً ...	١٠٦
٢٦	يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ...	٢١٤
٢٦	فاما الدين آمنوا فيعلمون انه الحق ...	١٧، ٤٠
٢٩	ثم استوى الى السماء	١٢٧، ١٣٢
٣٠	واذ قال ربك انى جاعل فى الأرض خليفة	٢٠
٣١	وعلم آدم الاسماء كلها ...	٩
٣٥	ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين	٤١٣
٣٦	فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه	٤١٣
٣٧	فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه	٤١٣
٤٨	الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم	١٠٦، ١٠٧
٥٥	واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله	
	جهرة - الى قوله - وانتم تنظرون	١٠٠
٦٧	اعوذ بالله ان أكون من الجاهلين	٣١٦
٧٤	ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة	٢١١، ٣٢٩
٨٠	ام تقولون على الله ما لا تعلمون	٢٩٠

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٨٨	وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم	٣٢٦، ٢١١
٩٣	واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم	٢١٤
١٠٢	وما هم بضارين به من احد الا باذن الله	٢٤٠، ٢١٥، ١٧٩
١١١	وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى	٣٠٩
١١٥	ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله	١٤٨، ١٤٣، ١٣٦، ١٢٢
١١٧	واذا قضى امرأ فانما يقول له كن فيكون	٢٣٣
١٢٤	قال لاينال عهدي الظالمين	٣١٤
١٢٨	ربنا واجعلنا مسلمين لك ...	٢١٥، ١٩٠، ١٥٨
١٢٩	ربنا وابعث فيهم رسولا منهم	١٩٠
١٣٠	ومن يرغب عن ملة ابراهيم	١٩٠
١٣٥	قالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا	٣٠٩
١٤٢	سيقول السفهاء - الى قوله - قل لله المشرق	
	والمغرب	١٤٨
١٤٢	يهدى من يشاء الى صراط مستقيم	٢١٥
١٤٣	وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء	
	- الى قوله - عليكم شهيداً	٢٦٥
١٤٣	وما جعلنا القبلة التي - الى قوله - هدى الله	١٤٨
١٤٣	وما كان الله ليضيع ايمانكم	٣٨٣، ٣٧٥
١٥١	كما ارسلنا فيكم رسولا	٢٨٦
١٥٦	انا لله وانا اليه راجعون	٢٦١، ١٠٦
١٧٠	واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله - الى قوله -	
	ولا يهتدون	١٤١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٨٥	شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس	٢١٠
١٨٥	يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر	١٦٨
١٩٤	فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى	٣١٩
٢٠٠	فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق	٢٨٦، ٣٨٠، ٣٣٤
٢٠١-	ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة	٣٨٦
٢٠٢	اولئك لهم نصيب مما كسبوا ...	٣٨٦
٢٠٨	كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم	١٦٤
٢١٠	هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام	١٣٢، ١١٨، ١١٤
٢١٣	فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه	٢٦٠
٢٢٥	ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم	٢٤٣
٢٢٩	ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون	٤١٦
٢٥٣	ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد	٢١٥، ١٦٠
٢٥٥	ولا يحيطون بشيء من علمه	٨٥
٢٥٥	وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما	١٢٤، ١٢٣
٢٥٦	لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي	١٦٥
٢٥٧	الله ولى الذين آمنوا - الى قوله - من الظلمات الى النور	٢١٥، ٢٠٥
٢٥٧	والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت - الى قوله - الى الظلمات	٢٠٥

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٢٥٨	والله لا يهدى القوم الظالمين	٢١٦
٢٦٠	واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحى الموتى	٤٢١
٢٦٢	الذين ينفقون فى سبيل الله ولا يتبعون ما انفقوا	
	مناً ولا اذى	٣٩
٢٦٤	لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى - الى قوله-	
	لا يقدرن على شىء مما كسبوا	٣٩١
٢٧٢	ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء	٢١٦
٢٨١	ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون	٢٨٤
٢٨٦	لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها	
	ما اكتسبت	١٦٤

٣- سورة آل عمران

٣	نزل عليك الكتاب - الى قوله - وانزل الفرقان	١١٧
٧	هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات	
	هن ام الكتاب - الى قوله - كل من عند ربنا	١٤ ، ١٧ ، ٣٢٧
٨	ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا	٢٤٠ ، ٣١٦
٨	وهب لنا من لدنك رحمة	٢١٧
١٣	والله يؤيد بنصره من يشاء	٢١٧
١٤	زين للناس حب الشهوات ...	٢١٧
٢٥	ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون	٢٨٤
٢٦	قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء	١٥١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٨	لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء - الى قوله -	
٢٣٠	الا ان تتقوا منهم تقاة	
٣٢	اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم	١٦٧
٤٠	كذلك يفعل الله ما يشاء	٢٨٩
٤١	واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار	٤٣٧
٤٥	ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين	٣١٩
٤٧	اذ قضى امرأ فانما يقول له كن فيكون	٣٣٥
٥٥	ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا	١٣٠
٥٥	ثم الى مرجعكم ...	١٣٠
٧٣	قل ان الهدى هدى الله	٢١٧
٧٣	قل ان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء	٢١٧، ١٥١
٧٧	ان الذين يشترون بمهد الله - الى قوله - لاخلق	
	لهم	٢٨٩
٨٣	افغير دين الله يبغون - الى قوله - يرجعون	٢١٧
٨٦	كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم	٢١٨، ٢٠١
١٠٨	وما الله يريد ظلماً للعالمين	١٦٠
١١٩	واذا خلوا عضوا عليكم الانامل ...	٢٢٤
١٢٦	وما النصر الا من عند الله	٢١٨
١٢٨	ليس لك من الامر شيء	٢١٨
١٣٢	واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون	١٦٧
١٣٨	هذا بيان للناس ...	١٤
١٤٠	ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح	٢٥٦، ٢١٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٤١	وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين	٣٦٦
١٤٢	ام حسبتم ان تدخلوا الجنة - الى قوله - ويعلم الصابرين	٣٦٦
١٤٥	وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتاباً	٣٣٨
	مؤجلاً	
١٥٢	ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ..	٢١٩
١٥٣	فأتابكم غمأ بغم ...	٢١٩
١٥٤	قل ان الامر كله لله	٢١٩
١٥٤	وليبتلى الله ما فى صدوركم	٣٦٦
١٥٩	فبما رحمة من الله لنت لهم - الى قوله - من حولك	٤٤٦
١٦٠	وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم	٢٣٣
١٦١	ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون	٢٨٤
١٦٩	أحياء عند ربهم يرزقون	١٣٠
١٧١	يستبشرون بنعمة من الله وفضل	٢٨٧
١٧٤	فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء	٢٦٠
١٧٦	ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر - الى قوله - يريد الله ان لا يجعل لهم حظاً فى الآخرة	٣٦٥، ٢١٩
١٧٨	ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير	٣١٥، ٢٢٠
١٧٩	ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب	٣٦٦، ١٧٢
١٨١	لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير	١٥٠
١٨٦	لتبطلون فى اموالكم وانفسكم ...	٣٦٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٩٥	انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر واثى	٣٨٣
١٩٧	لا يغيرنك تقلب الدين كفروا فى البلاد	٣١٥
٤- سورة النساء		
١٤	ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها	٤١٤
١٨	وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا ...	٢٥٨
٢٦	يريد الله ليبين لكم ويهديكم	١٦٨
٢٨	يريد الله ان يخفف عنكم	١٦٨
٣١	ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم	٣٧٤
٣٢	للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن	١٦٤
٣٦	واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً	١٦٧
٣٩	وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر	١٦٥
٤٠	ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها	٣٨٢
٤٢	ولا يكتمون الله حديثاً	٢٤٦
٤٩	ألم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكى من يشاء	٢٢٠
٦٥	ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجاً مما قضيت	٣٣٣
٧٨	وان تصبهم حسنة - الى قوله - قل كل من عند الله	١٩٥، ١٦٠

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٧٨	فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون...	٢٤٣
٧٩	ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك	١٩٦، ١٦٠
٧٩	وارسلناك للناس رسولا	٢٨٦
٨٢	ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً...	١٦
٨٨	أتريدون ان تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجدله سبيلا	٢٢٠
٩٠	ولو شاء الله لسلبهم عليكم	٢٢١
٩٣	ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها	٤١٠، ٤٠٩
١٠٢	واذا كنت فيهم فاقمت الصلاة فلتقم طائفة منهم معك	٢٧٩
١٠٣	فاذا قضيتم الصلاة	٣٣٤
١١٠	ومن يعمل سوءا او يظلم نفسه - الى قوله - تواباً رحيماً	١٦٤
١١٣	وعلمك ما لم تكن تعلم	٤٤٨
١٢٣	من يعمل سوءا يجز به	١٦٤
١٢٥	ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله	١٤٩
١٢٦	وكان الله بكل شى محيظاً	١٢٢
١٣٧	ان الذين آمنوا ثم كفروا - الى قوله - سبيلا	٢٢١
١٤٢	ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم	٣٢٤، ٣٢٠
١٤٢	واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى	٣١٨

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
١٤٥	ان المنافقين فى الدرك الاسفل	١٠٨
١٤٧	ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم و آمنتم	٢٧١
١٥٣	يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم ...	١٠٠
١٥٥	فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم - الى قوله - الا قليلا	٣٢٦، ٢٢١
١٥٥	بل طبع الله عليها بكفرهم	٢٢٣
١٥٨	بل رفعه الله اليه	١٣٠، ١١٣
١٦٥	لثلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل	٣٦٦، ٢٩٥، ٢١٣
١٦٦	لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه	٨٥
١٧٤	فاما الذين آمنوا بالله و اعتصموا به - الى قوله - مستقيماً	٢٠٧

٥- سورة المائدة

٦	اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم و ايديكم	٢٧٩
٦	ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج	٢٢١، ١٦٨
١٣	فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم و جعلنا قلوبهم قاسية	٣٢٣، ٢٨٢، ٢٢١
١٣	و نسوا حظاً مما ذكروا به	٣٦٥
١٤	ومن الذين قالوا انا نصارى - الى قوله - يوم القيامة	٢٢٢
١٤	فنسوا حظاً مما ذكروا به	٣٦٥
١٦	قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين	٢٦٤، ٤٠١
٢٧	انما يتقبل الله من المتقين	٣٩٢
٤١	ومن يرد الله فنته فلن تملك له من الله شيئاً	٢٢٢

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٤٨	ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة - الى قوله -	
	تختلفون	٢٢٣
٥٢	فترى الذين فى قلوبهم مرض . . .	٣٢٨
٦٠	قل هل أنبؤكم بشر من ذلك - الى قوله - سواء	
	السييل	٢٢٣
٦٤	وقالت اليهود يدالله مغلولة - الى قوله - بل يدها	
	مبسوطتان ينفق كيف يشاء	٣٤١، ١٥٠، ١٤٢، ٢٤
٧١	وحسبوا ان لا تكون فتنه	٣٦٧
١١٠	واذخلق من الطين كهيئة الطير باذن	١٩٢، ١٧٩، ١٦٠
١١٦	ءأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين	٤٣٩
١١٦	تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك	٢٩٨
٦- سورة الانعام		
٢	هو الذى خلقكم من طين ثم قضى اجلا	٣٢٣
٦	وارسلنا السماء عليهم مدرارا	٢٨٧
١٦	ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الامثلها وهم لا يظلمون	٣٨٢
٢٤	انظر كيف كذبوا على انفسهم . . .	٢٦٧، ٢٦٤
٢٥	وجعلنا على قلوبهم اكنة - الى قوله -	
	لا يؤمنوا بها	٣٢٥، ٢٤٣، ٢٢٤
٢٦	وهم ينهون عنه وينأون عنه . . .	٢٢٤
٢٨	بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل - الى قوله -	
	لكاذبون	١٣٣

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٢٩	قالوا ان هى الاحياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين	١٣٣
٣٠	ولوترى اذوقفوا على ربهم - الى قوله - تكفرون	١٣٣، ١١٤
٣١	قد خسر الذين كذبوا بقاء الله	١٣٣، ١٠٦
٣٥	ولو شاء الله لجمعهم على الهدى	٢٢٤
٣٦	انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى	
	يبعثهم الله	٢٤٢
٣٨	ما فرطنا فى الكتاب من شىء	١٨٧
٣٩	والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم . . .	٢٢٤
٤٣	فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا - الى قوله -	
	يعلمون	٣٢٩، ١٩٦
٤٣	ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ما كانوا	
	يعملون	٢٥٤، ٢١١
٤٤	فلما نسوا ما ذكروا به - الى قوله - مبلسون	٣١٥
٤٦	قل ارايتم ان اخذ الله سمعكم . . .	٣٢٢، ٢٢٥
٥٣	وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا . . .	٢٢٥
٦٢	ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الاله الحكيم	١٣٣، ١٢٦، ١١٤
٦٥	قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم	١٤٣
٧٣	وله الملك يوم ينفخ فى الصور	١٢٦، ١٠٧
٧٧	لئن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين	٤٤٨
٧٨	فلما جن عليه الليل رأى كوكباً - الى قوله -	
	يرى مما تشرقون	٤٢٠
٨٠	ولا اخاف مما تشركون به الا ان يشاء ربي شيئا	٢٢٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٨٤-٩٠	كلاهدينا - الى قوله - فبهدهم اقتده	٢٠٣، ٢٠١
٨٧	واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم	٤٤٨، ٢٢٦
٨٨	ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده	٢٢٦
١٠٠-١٠٤	بديع السماوات - الى قوله - وما انا عليكم بحفيظ	١٨٧، ١١١
١٠١	وخلق كل شيء	٢٢٦
١٠٢	ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء	١٦٦
١٠٣	لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار	١١١، ٩٨، ٩٤، ١٨
١٠٤	فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها	٣٢٧
١٠٤	وما انا عليكم بحفيظ	١١١
١٠٧	ولو شاء الله ما اشر كوا	٢٢٦، ١٦٠
١٠٨	وكذلك زيننا لكل امة عملهم	٢٢٦
١٠٩	وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون	٣٢٦
١١٠	ونقلب افئدتهم وابصارهم	٣٢٦، ٢٤٦، ٢٤٢، ٢٢٦
١١١	ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله	٢٢٦، ١٩٤، ١٥٩
١١٢	وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا	٢٢٧
١١٣	ولو شاء ربك ما فعلوه	٢٢٧
١٢٣	جعلنا في كل قرية اكابرة مجرميها ليمكروا فيها	٣٢١، ٢٢٧
١٢٣	وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون	٣٢١، ٣١٩
١٢٤	سيصيب الذين اجرموا صغار عند الله	٣٢١، ٣١٩، ٢٢٧
١٢٥	فمن يرده الله ان يهديه يشرح صدره	٢٢٧، ٩
١٣٣	وربك الغنى ذو الرحمة	١٤٦

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
١٣٧	ولو شاء الله ما فعلوه	٢٢٨
١٤٢	ذلك جزينا هم ببغيهم وانا الصادقون	١٦٤
١٤٨	سيقول الذين اشر كوا لو شاء الله ما اشر كنا	٣٣٠، ١٦٦
١٤٩	قل فله المحجة البالغة	٣٠٥
١٤٩	فلو شاء لهداكم اجمعين	٢٢٨، ٢٠٣، ١٦٦
١٥٣	وان هذا صراطى مستقيما - الى قوله - عن سبيله	٢٦٠
١٥٧	سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب	١٦٤
١٥٨	اوبأتى ربك	١٣٢
١٦٠	من جاء بالحسنة فله عشر امثالها - الى قوله - فلا يجزى الامثلها	٢٨٢، ١٠٣
١٦٥	وهو الذى جعلكم خلائف - الى قوله - ليلوكم	٣٦٧

٧ - سورة الاعراف

١١	كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين	٣٢٤
١٦	قال فيما اغويتنى لاقعدن لهم صراطك	٢٢٨
١٩	ولا تقر با هذه الشجرة فتكونا من الظالمين	٤١٣
٢٠	فوسوس لهما الشيطان - الى قوله - الخاسرين	٤١٣
٢١	وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين	٤١٣
٢٢	فدلاهما بغرور - الى قوله - ألم انهكما . . .	٤١٣
٢٣	قالا ربنا ظلمنا انفسنا . . .	٤١٦، ٤١٤
٢٨	قل ان الله لا يأمر بالفحشاء	٢٦٩
٣٠	فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة	٢٢٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٠	ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط	١٠٣
٤٣	ونزعا ما في صدورهم من غل	٢٢٩
٤٣	الحمد لله الذي هدانا - الى قوله - ان هدانا الله	(١٨) ٤٤٨، ٣٣٠،
٤٦	انهم كانوا قوماً عمين	٣٢٧
٥١	فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا	١٠٧
٥٤	ان ربكم الله - الى قوله - له الخلق والامر	٢٢٩، ١٥٨، ١٢٥، ٨٨
٥٨	والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه	١٧٩
٦٤	انهم كانوا قوماً عمين	٣٢٧
٨٣	فانجيناه واهله الامراته كانت من الغابرين	٢٦٦
٨٩	وما كان لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله	٢٢٩
٩٤	الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون	٢٣١
٩٥	ثم بدلهم مكان السيئة الحسنة	٢٣١
٩٦	ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم	
	- الى قوله - فأخذناهم بما كانوا يكسبون	٢٣١، ١٩٦
٩٩	أفأمنوا مكر الله فلا يامن مكر الله الا القوم	
	الخاسرون	٣٢١
١٠٠	ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون	٢٤٣، ٢٣١
١٠١	فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل	٢٧٥، ٢٣١
١١٦	سحروا اعين الناس واسترهبوهم	٤٢٩
١١٧	تلقف ما يافكون	١٨٦
١١٨-١٢٢	فوقع الحق - الى قوله - رب موسى وهارون	٤٣٠، ٤٢٩

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
١٣٠	ولقد اخذنا آل فرعون - الى قوله - يذكرون	٢٥٧
١٣١	فاذا جاءتهم الحسنة - الى قوله - يطبروا	
	بموسى . . .	١٩٦
١٤٢	وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى ...	٤٣٢
١٤٣	رب ارنى انظر اليك - الى قوله - فسوف ترانى	٤٣١، ٩٩، ٩٢
١٤٦	سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض	٢٣٢، ٢٠٦
١٤٦	وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها - الى قوله - غافلين	٢٣٢
١٤٧	والذين كذبوا - الى قوله - حبطت اعمالهم	١٠٧
١٥١	واخذ برأس أخيه يجره اليه	٤٣٢
١٥٥	واختار موسى قومه سبعين رجلا - الى قوله - وانت خير الغافرين	٢٣٢، ٢٢٣، ١٠١، ١٠٠
		٤٣٠
١٥٥	قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى	٤٣٠
١٥٥	انهى الافتنتك تضل بها من تشاء وتهدى . . .	٤٣٠، ٢٣٢، ٢٢٣
١٥٦	ورحمتى وسعت كل شىء فساكتبها للذين يتقون	٢٧٩، ١٠٧
١٥٧	انت ولينا فاغفر لنا - الى قوله - اناهدنا اليك	١٠١
١٦٢	فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء	٢٨٧
١٦٨	وبلونا هم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون	٢٩٠، ١٩٦
١٧٨	من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل ...	٢٣٢
١٧٩	ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس	٢٣٢، ١٩٣، ١٥٩
١٨١	ومن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون	٢٠٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٨٢	والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون	٣١٤، ٢٣٢
١٨٣	واملى لهم ان كيدى متين	٣٢٠
١٨٦	من يضل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم	٢٣٣
١٨٧	قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو	٢٣٣، ١٠٢
١٨٨	قل لا املك لنفسى نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله	٢٣٣
١٩٥	ألهم ارجل يمشون بها ام لهم أيد يبطشون بها	١٥٤، ١٤٤

٨- سورة الانفال

١٠	وما النصر الا من عند الله	٢٣٤
١١	وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام	٢٣٤
١٢	اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا ...	٢٣٤
١٧	فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى	٣٤٠، ٢٣٥، ١٠
١٨	ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين	٣٢٠
٢٠	اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون	١٦٧
٢٢	ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون	٢٣٥، ٣١٣
٢٣	ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ...	٢٣٥
٢٤	واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه	٢٣٦، ٢٣٦
٢٨	واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة	٢٦٧
٢٩	ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم	٤٠١
٣٠	ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين	٢٢١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٣	وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم	٤٣٨
٣٦	فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة	٤٠٣
٣٧	ليميز الله الخبيث من الطيب	٣٦٦، ١٧٢
٤٢	ليقضى الله امراً كان مفعولاً	٣٣٨، ٢٥٢
٤٢	ليهلك من هلك عن بينة	٣٦٦، ٢٥٢، ١٩٤
٤٨	واذرين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٣
٤٩	اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض... .	٣٢٨
٥١	ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد	٢٥٢
٥٢	هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين ...	٢٥٢
١٢٥	واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	٣٦٧

٩- سورة براءة

٩	قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ...	٣٢٨
١٦	ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا	٣٦٧
١٧	ما كان للمشركين - الى قوله - حبطت اعمالهم	٣٨٥
١٩	والله لا يهدى القوم الظالمين	٢٥٢
٢٤	والله لا يهدى القوم الفاسقين	٢٥٢
٣٠	قاتلهم الله انى يؤفكون	٢٥٥
٣٢	ويايى الله الان يتم نوره ...	٢٥
٣٧	والله لا يهدى القوم الكافرين	٢٥٢
٤٠	وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى	
	العليا	٢٥٢

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٤٦	ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره	
٢٥٢	الله انبعاثهم فنبطهم ...	
٥٠	وان تصبك حسنة تسؤهم ...	٢٥٢
٥١	قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ...	٢٥٢
٥٤	ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ...	٣١٨
٥٥	فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله	
٢٥٤	ان يعذبهم بها	
٦٩	اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة	٣٨٥
٧٥-٧٦	ومنهم من عاهد الله - الى قوله - وهم معرضون	٢٥٤
٧٧	فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه بما	
٢٥٤، ١٠٦	اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون	
٧٩	سخر الله منهم ولهم عذاب اليم	٣٢٠
٨٥	ولا تعجبك اموالهم - الى قوله - كافرون	٣١٥
٨٧	وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون	٢٥٤، ٢٤٣
٩٣	وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون	٢٢٤، ٢٥٥
١٠٢	وآخرون اعترفوا بذنوبهم - الى قوله -	
٣٧٠	غفور رحيم	
١١٤	وما كان استغفار ابراهيم لايه الا عن موعدة ...	٤٢١
١٢٤	واذا ما انزلت سورة - الى قوله - وهم كافرون	٢٨٤
١٢٥	واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى	
٣٢٨	رجسهم	
١٢٦	اولايرون انهم يفتنون في كل عام مرة او مرتين	٣٠٠

١٢٧ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم . . . ٢٥٤

١٠ - سورة يونس

١٢٥	ثم استوى على العرش يدبر الامر	٣
١٣٢	الى الله مرجعكم جميعاً . . .	٤
٢٥٥	ينصل الآيات لقوم يعلمون	٥
٢٥٥	لايات لقوم يتقون	٦
٢٦٤	يهدىهم ربهم بايمانهم . . .	٩
٢٥٥	فندر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون	١١
٢٥٥	كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون	١٢
٢٥٥	ولولا كلمة سبقت من ربك لفضى بينهم ...	١٩
٢٢١	قل الله اسرع مكرأ . . .	٢١
٢٥٦	هو الذى يسير كم فى البر والبحر	٢٢
٢٥٦	والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء ...	٢٥
١٠٣،٩٥،٩٣	للذين احسنوا الحسنى وزيادة ...	٢٦
٢٨٢،١٠٣	جزاء سيئة بمثلها ...	٢٧
٢٣٣	فماذا بعد الحق الا الضلال	٣٢
	كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم	٣٣
٢٥٦	لا يؤمنون	
٢٥٦	٤٣-٤٢ ومنهم من يستمعون اليك - الى قوله - لا يبصرون	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦١	وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة . . .	١١١
٧٤	كذلك نطبع على قلوب المعتمدين	٢٢٤
٨٥	ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين	٢٥٧
٨٨	ربنا انك آتيت فرعون وملاءه زينة ...	٤٢٠، ٢٥٧
٨٨	ربنا اطمس على اموالهم - الى قوله - العذاب الاليم	٢٦٧
٨٩-٩١	قد اجيبت دعوتكما - الى قوله - من المفسدين	٢٥٧
٩٥	ولاتكونن من الذين كذبوا بآيات الله	٢٥٨
٩٦	ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون	٢٥٨
٩٩	ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً	٢٥٨، ١٧٢
١٠٠	وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله	٢٥٨
١٠٨	فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه . . .	٢٠٧

١١ - سورة هود

٧	وكان عرشه على الماء	١٢٦
٧	ليبلوكم ايكم احسن عملا	٢٦٨
١٤	فاعلموا انما انزل بعلم الله	٨٥
١٥	من كان يريد الحيوه الدنيا وزينتها ...	٢٨١
٢٠	ما كانوا يستطيعون السمع ...	٢٥٨
٢٥	ولقد ارسلنا نوحاً الى قومه	٢٨٦
٢٨	فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون	١٦٨
٢٩	انهم ملاقوا ربهم	١٢٤

	لا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله	٣٣
١٦٨	يريد ان يغويكم	
٤١٩، ٢٧٥	انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن	٣٦
١٤٩	واصنع الفلك بأعيننا ووحينا	٣٧
٤١٩	ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرورون	٣٧
٣٢٠	قالوا ان تسخروا منا فاننا نسخر منكم	٣٨
٤١٩	يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين	٤٢
	٤٥-٤٧ رب ان ابني من اهلي - الى قوله - أكن	
٤١٩	من الخاسرين	
٣١٥	وامم ستمتعهم ثم يمسهم منعذاب اليم	٤٨
٤٢٢	يجادلنا في قوم لوط	٧٤
٣٥٤، ٢٥٩	يوم لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد	١٠٥
٤١٤	فاما الذين شقوا ففي النار	١٠٦
٢٥٩، ١٨٨، ١٥٨	ان ربك فعال لما يريد	١٧
٣٩٧، ٣٩٥، ٣٧٤	ان الحسنات يذهبن السيئات	١١٤
٤٠٠، ٣٩٩		
	ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة - الى قوله -	١١٨
٢٦٠	وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم	
٢٦١	واليه يرجع الامر كله	١٢٣
	١٢ - سورة يوسف	
٤٤٨	وان كنت من قبله لمن الغافلين	٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٣	وراودته التي هوفى بيتها - الى قوله - معاذالله	٤٢٣
٢٤	ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه	٤٢٢
٢٤	كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء	٤٢٢، ٢٦١
٣٢	ولقد راودته عن نفسه فاستعصم	٤٢٣
٣٣	وان لاتصرف عنى كيدهن ...	٢٦١
٣٤	فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن	٢٦١
٥٣	الامارحم ربي	٢٦١
٦٧	ان الحكم الا الله	٢٦٢
٦٨	الاحاجة فى نفس يعقوب قضاها	٣٣٤
٧٦	كذلك كدنا ليوسف	٣٢١
٨٧	ولاتياسوا من روح الله ، انه لايبأس من روح الله	٣٤٠
	الالقوم الكافرون	

١٣ - سورة الرعد

٢	ثم استوى على العرش - الى قوله - يدبر الأمر	١٢٥
٧	انما انت منذر ولكل قوم هاد	٢١٨
١١	ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم	٢٧١، ٢٦٢
١١	واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له	٢٦٢، ١٦٨
١٤	وما دعاء الكافرين الا فى ضلال	٤٤٢
١٥	ولله يسجد - الى قوله - طوعاً او كرهاً	٢٦٢
١٦	ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ...	١٩١، ١٥٩

٢٦٣، ١٥٧	قل الله خالق كل شيء	١٦
	اما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث	١٧
٤٤٢	في الارض	
٢٠٦	قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من اناب	٢٧
	الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله تطمئن	٢٨
٢٤١	القلوب	
	أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس	٣١
٢٦٣، ٢٦٠، ٢٠٣	جميعاً	
٣١٥	ولقد استهزىء برسلك من قبلك فأمليت ...	٣٢
٢٤٩	يمحو الله ما يشاء ويثبت وعندهام الكتاب	٣٩
٢٤٦	والله يحكم لامعقب لحكمه	٤١
٣٢٠	فله المكر جميعاً	٤٢

١٤ - سورة ابراهيم

٢٦٣	لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم	١
٢٦٣، ٢٠٢	فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء	٤
١٩٦	لئن شكرتم لأزيدنكم	٧
١٦٧	ان تكفروا - الى قوله - فان الله لغنى حميد	٨
٢٦٣	ولكن الله يمن على من يشاء من عباده	١١
٢٦٣	ومالنا أن لانتوكل على الله وقد هدانا سبيلنا	١٢
٣٨٦	مثل الذين كفروا اعمالهم كرماد اشتدت به الريح	١٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢١	قالوا لو هدانا الله لهديناكم	٢٦٤
٢٢	وقال الشيطان لما قضى الامر - الى قوله - عذاب اليم	٢٦٤، ٢٩٧
٢٥	كشجرة طيبة - الى قوله - باذن ربها	١٧٩
٢٧	يثبت الله الذين آمنوا - الى قوله - الظالمين	٢٦٤، ٢٠٦
٣٢	وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره	٢٦٤
٣٥	واجنبنى وبنى ان نعبد الأصنام	٢٦٥
٤٠	رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى	٢٦٥
٥١	لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت	٢٨٤

١٥ - سورة الحجر

٣	ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل	٣١٦
٦	ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون	٢٤٧
١٢-١٣	كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به	٢٩٥
١٩-٢٢	والارض مددناها - الى قوله - بخازنين	٢٦٥
٢١	وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم	٢٦٤، ١٤٠، ١٣٠، ١٢٩
٣٩	قال رب بما اغويتنى لازينن لهم - الى قوله - اجمعين	٢٦٤
٤٢	ان عبادى ليس لك عليهم سلطان	٤١٣
٤٧	ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين	٢٦٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٠	الامرأته قدرنا انها لمن الغابرين	٢٣٥، ٢٦٦
٦٦	وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع	٢٣٣، ٢٦٦
٨٥	وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق	١٨٨
٨٨	واخفض جناحك للمؤمنين	٤٤٧
٩٤	واعرض عن المشركين	٤٤٧

١٦ - سورة النحل

٩	وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولو شاء لهداكم اجمعين	٢٦٦، ٢٦٠
١٧	افمن يخلق كمن لا يخلق	١٨٨
٢٠	والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً	١٥٨
٢٦	قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد	٣١٩
٣٠	للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير	٢٨٣
٣٣	اوبأتى امر ربك ...	١٣٢
٣٥	وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه	٢٦٧
٣٦	ولقد بعثنا فى كل امة رسولا - الى قوله - حققت عليه الضلالة	٢٦٧
٣٧	ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل	٢٦٧، ٢٣٣
٤٠	انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن ...	١٦٩
٤٣	فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون	١٣٧
٤٥	افأمن الذين مكروا السيئات	١٣١

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٤٩	اولم يروا الى ما خلق الله من شيء - الى قوله -	
	داخرون	٢٦٢
٥٠	يخافون ربهم من فوقهم	١١٤، ١٣١
٥٣	وما بكم من نعمة فمن الله	٢٦٨
٦٣	فزين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٢
٧٥	ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء	٢٦٨
٨١	والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ...	١٨٤
٨٩	تبياناً لكل شيء	١٨٧
٩٣	ولو شاء لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء	٢٦٨
٩٦	ولنجزين الذين صبروا اجرهم ...	١٦٤
٩٩-١٠٠	انه ليس له سلطان على الذين آمنوا - الى قوله -	
	مشركون	٢٧٠
١٠٢	قل نزله روح القدس من ربك	١١٧
١٠٤	ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله	٢٠١، ٢٦٩
١٠٨	اولئك الذين طبع الله على قلوبهم ...	٢٢٣، ٢٢٤
١١٩	ثم ان ربك للذين عملوا السوء - الى قوله - لغفور	
	رحيم	٣٩٩

١٧- سورة الاسراء

٤	وقضينا الى بنى اسرائيل - الى قوله - علواً كبيراً	٢٦٩، ٢٣٣
٥	بعثنا عليكم عبداً لنا اولى بأس	٢٦٩
٩	ان هذا القرآن يهدى للتي هي اقوم	٢٠١

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
١٢	وكل شيء فصلناه تفصيلاً	٢٧٠
١٣-١٤	وكل انسان الزمان طائرته في عنقه	٢٧٠
١٥	من اهتدى فانما يهتدى لنفسه	٢٧٠
١٦	واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ...	٢٧٠
١٨	من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ...	٢٨١
١٩	ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها ...	٢٠٢، ١٦٣
٢٣	وقضى ربك ان لاتعبدوا الاياه	٢٣٥، ٢٢٢، ٢٨١
٢٢	لاتجعل مع الله الهاً آخر	٤٤٥
٤٠	انكم لتقولون قولا عظيماً	٢٩٠
٤٥	واذا قرأت القرآن جعلنا بينك	٢٨١
٤٦	انا جعلنا على قلوبهم اكنة ...	٢٢٥، ٢٤٣
٤٨	فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً	٢٨٢
٥٤	وما ارسلناك عليهم وكيلاً	٢٨٦
٦٩	ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك	١٥٠
٧٣	وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك ...	٤٤٠
٧٤	ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم ...	٢٨٢
٨٢	ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين	٢٨٤
٩٤	وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى	٢١٢، ١٦٥
١٠٥	اولئك الذين كفروا - الى قوله - فحبطت	
	اعمالهم	٢٨٥

١٨ - سورة الكهف

١١٧	الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب	١
٣٦٨	ليبلوهم ايهم احسن عملا	٧
	١٣-١٤ انهم فنية آمنوا بربههم وزدناهم هدى وربطنا على	
	قلوبهم	
٢٨٤، ٢٢٦		
٢٨٤	من يهد الله فهو المهتدى ...	١٧
٢٨٤، ٢٣١	ولانقولن لشيء انى فاعل ذلك فداً الا ان يشاء الله	٢٣
٢٨٥، ١٤٣	واصبر نفسك - الى قوله - يريدون وجهه	٢٨
٣٢٦، ٣٢٣، ٢١٢	ولانطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه	٢٨
٢٨ ٥، ١٩٤، ١٦٥	فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر	٢٩
٢٨٣، ٣ ٧٩	انا لانضيع اجر من احسن عملا	٣٠
١٨٤	جعلنا لأحدهما جنتين من اعناب	٣٢
١٢٦	هنالك الولاية لله الحق	٤٤
١٢٥	ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة	٤٧
١٣٤، ١١٤	وعرضوا على ربك صفاً	٤٨
٢٨٥	انا جعلنا على قلوبهم اكنة ...	٥٧
٢٧١	فوجدنا فيها جداراً يريد ان ينقض	٧٧
٢٨٥، ٢٥٩	الذين كانت اعينهم فى غطاء عن ذكرى	١٠١
٤٨٦، ١٠٧	الذين كفروا - الى قوله - فحبطت اعمالهم	١٠٥

١٩ - سورة مريم

٣٦٤	ولم اكن بدعائك رب شقياً	٤
٢٨٥	واجعله رب رضياً	٦
٢٨٦	وحنانا من لداوز كوة وكان تقياً	١٣
٢٨٦	لاهب لك غلاماً زكياً	١٩
٢٤٠	وكان امرأ مقضياً	٢١
٢٦٢	آتاني الكتاب وجعلني نبياً	٣٠
٢٦٢، ٢٨٦	وجعلني مباركاً اينما كنت	٣١
٢٦٢، ٢٦٢، ٢٦١	وبرأبوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً	٣٢
٢٦٢، ٢٦٢	والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ...	٣٣
٤٢١	سلام عليك ساستغفر لك ربي	٤٧
١٣٠	ورفعناه مكاناً علياً	٥٧
٣٧٩	تلك الجنة التي نورث من هبادنا من كان تقياً	٦٣
١١٧	وما ننزل الا بامر ربك	٦٤
٢٤١	ان منكم الاواردها كان على ربك حتماً مقضياً	٧١
٢٨٧، ٢٢٨، ٢١٠، ٢٠١	ويزيد الله الذين اهدوا هدى	٧٦
٢٩٩، ٢٨٧، ٢٨٦، ٢٦٩	ألم قرانا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا	٨٣

٢٠- سورة طه

١	طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى	٤١٦، ٣٥١
٥	الرحمن على العرش استوى	١٣٠، ١٢٣، ١١٣
٨	الله لاله الا هو له الاسماء الحسنی	١٢٥
١٥	لتجزى كل نفس بما تسعی	٣٨٤، ١٦٤
٢١	قال خذها ولا تخف صنعیدها سيرتها الاولى	٤٢٨
٢٢-٢٥	اذهب الى فرعون - الى قوله - قداوتيت سؤلك	
	ياموسى	٤٢٧، ٢٨٧
٣٩	والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عینی	١٤٩
٤٠	وفتناك فتوناً	٣٦٨
٤٦	اننى معكما اسمع وارى	٩٤
٥٠	ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى	٢٨٨، ٢٦٦، ٢٠٣، ١٩٩
٦٦	فاذا حبالهم وحصيهم يخيل اليه من سحرهم	
	انها تسعی	٤٢٩
٦٧	فأوجس فى نفسه خيفة موسى	٤٢٩
٦٩	تلقف ما صنعوا	١٨٦
٦٨-٦٩	قلنا لا تخف انك انت الاعلى - الى قوله - ولا يفلح	
	الساحر حيث اتى	٤٢٩
٨٢	وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً	٣٩٩
٨٥	فانا قدفتنا قومك من بعدك ...	٣٦٨
٨٧	ولكن حملنا اوزاراً من زينة القوم	٤٥٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩٠	وان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا امرى	١٦٧
٩٢	قال ياهارون مامنك اذ رأيتهم ضلوا ان لاتتبعن	٤٣١
١١٤	من قبل ان يقضى اليك وحيه	٣٤٠
١١٥	ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ...	٤١٤
١١٧	قلنا يا آدم ان هذا عدوك - الى قوله - فتشقى	٤١٤، ٣٥١
١١٩	قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك	
	لايلى	٤١٤
١٢٠	وعصى آدم ربه فغوى	٤١٤
١٢٤-١٢٧	ومن اعرض عن ذكرى - الى قوله - اشدوا بى	٢٠٢

٢١- سورة الانبياء

١٦-١٨	وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاهبين	
	- الى قوله - تصفون	٢٨٨
١٨	بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه	٤٤٢، ٢٥٣، ٢٥١
١٨	ولكم الويل مما تصفون	٢٩٠
٢٣	لايسأل عما يفعل وهم يسألون	٢٨٨
٣٥	ونبلوكم بالشر والخير فتنة	٣٦٨، ٢٩٠
٦٣	بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ...	٤٢٠
٧٢	وكلا جعلنا صالحين	٢٩١
٧٣	وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا	٢٠٠
٨٣	وايوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر	٤٢٤
٨٧	وذا النون اذ ذهب مغاضباً ...	٤٣٨
٩٠	ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه	٢٩١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩٤	فمن يعمل - الى قوله - فلا كفران لسعيه	٣٨٤، ١٦٤
٩٨	انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم	٢٩١
١٠١	ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها	
	مبعدون	٢٩١
٢٢- سورة الحج		
٨-١٠	ومن الناس من يجادل في الله بغير علم - الى	
	قوله - بظلام للعبيد	١٩٨
١١	ومن الناس من يعبد الله على حرف ...	٢٩٠
١٤	ان الله يفعل ما يريد	٢٩١
١٦	وان الله يهدى من يريد	٢٩١
١٨	ان الله يفعل ما يشاء	٢٩١
٣٤	ولكل امة جعلنا منسكاً ليزكروا الله	٢٩٢
٣٦	والبدن جعلناها لكم من شعائر الله	٢٩٢
٤٠	ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض	٢٩٢
٤٤	فاملت للكافرين	٣١٥
٤٦	فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمي القلوب	
	التي في الصدور	٣٢٧، ١٦٨، ١٣٧
٤٨	وكأين من قرية املت لها ...	٣١٥
٥٢	وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى	
	لقى الشيطان في امنيته ...	٤٤٢، ٤٤٣
٥٣	ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة	٣٦٨، ٣٢٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٦	الملك يومئذ الله يحكم بينهم	١٠٧
٦٧	لكل امة جعلنا منسكاً هم ناسكوه	٢٩٢

٢٣- سورة المؤمنون

١٤	فتبارك الله احسن الخالقين	١٩٢، ١٦٠
٢٧	فاوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننا ووحينا	١٤٩
٣٧	ان هي الاحياتنا الدنيا نموت ونحىي ومانحن	
	بمبعوثين	٣٨٧
٥٤-٥٦	فذرهم في غمرتهم - الى قوله - بل لا يشعرون	٣١٥، ١٥
٥٥	فذرهم في غمرتهم حتى حين	٣١٥
٨٨	وهو يجبر ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون	١٥١
٩٤	رب فلا تجعلني في القوم الظالمين	٢٩٢
١٠١	فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون	١٠٧
١٠٥	ألم تكن آياتي تتلى عليكم...	٣٥٩، ٣٥٨
١٠٦	قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا	٣٥٨، ٣٥٢
١٠٨	قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون	٣٦٠

٢٤- سورة النور

١	سورة انزلناها وفرضناها - الى قوله - بينات	١١٧
٢٥	ويعلمون ان الله هو الحق المبين . . .	١٠٧
٣٥	الله نور السموات والأرض	١١٥ ، ١٣٤
٤٣	الم تر ان الله يزجى سحاباً...	١٨٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٠	افى قلوبهم مرض ام ارتابوا ...	٣٢٨
٢٥- سورة الفرقان		
٢	وخلق كل شىء فقدره تقديرا . . .	٣٣٤، ١٥٧
١٨	ولكن متعتهم وآبائهم حتى نسوا الذكر وكانوا	
	قوماً بوراً ...	٢٩٣
١٨	حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ..	٢٩٤
٢٠	وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون	٣٦٨
٢٣	وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا	٣٨٦، ٣٧٨
٣١	وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً - الى قوله -	
	ونصيراً	٢٩٣
٣٢	كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ...	٢٩٣
٤٤	ام تحسب ان اكثرهم يسمعون- الى قوله - اضل	
	سبيلاً	٢٩٣
٥٩	ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وما	
	بينهما	١٥٨
٥٩	خلق السموات والارض وما بينهما ...	١٨٨
٥٩	ثم استوى على العرش الرحمن	١٨٨، ١٢٥، ١١٤
٧٠	فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات	٤٠٢
٧٤	واجعلنا للمتقين اماماً ...	٢٩٤

٢٦- سورة الشعراء

١٠-١٥ واذا نادى ربك موسى الى قوله انا معكم مستمعون ٤٢٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٩	وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين	٤٢٧
٢٠	قال فعلتها اذاً وانامن الضالين	٤٤٨، ٤٢٧
٢١	فوهب لى ربي حكماً	٢٩٤
٢٢	وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل	٤٢٧
٢٤	رب السموات والارض وما بينهما	١٨٨
٦٢	وازلفنائم الاخرين	٢٩٤
٧٨	الذى خلقتى فهو يهدين	٤٤٨، ٢٩٤
٨٣	رب هب لى حكماً والحقنى بالصالحين	٢٩٤
٨٦	واغفر لى ابى انه كان من الضالين	٤٢٢
١٠٦-١١١	اذقال لهم اخوهم نوح الاتقون- الى قوله-	
	الأردلون	٢٠٦
١٢٥	واخفض جناحك	٤٤٧
١٩٣	نزل به الروح الأمين على قلبك	١١٧
٢٠٠-٢٠١	كذلك سلكتاه فى قلوب المجرمين- الى قوله-	
	الأييم	٢٩٥
٢١٠-٢١٢	وما تنزلت به الشياطين- الى قوله- لمعزولون	٢٩٦
٢٢١-٢٢٢	هل انبوكم على من تنزل- الى قوله- افالك ائيم	٢٩٦
٢٧-سورة النمل		
٤	ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زيناهم اعمالهم	٢٩٦، ٢١٣
١٠	انى لا يخاف لدى المرسلون	٤٢٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١	الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء	٣٩٩
١٨	ما انت بهاد العمى عن ضلالتهم - الى قوله - مسلمون	٣٩٨
٢٤	وزين لهم الشيطان اعمالهم - الى قوله - لا يهتدون	٢٩٧، ٢١٣
٣٥	فناظرة بم يرجع المرسلون	٩٢
٤٠	فان ربي غنى كريم	١٤٦
٤٧	بل انتم قوم تفتنون	٣٦٩
٥٠	و مكر و امكراً و مكرنا مكرأ و هم لا يشعرون	٣٢١، ٢٩٧
٥١	فانظر كيف كان عاقبة مكرهم - الى قوله - اجمعين	٢٩٧
٨٠	انك لاتسمع الموتى و لاتسمع الصم الدعاء - الى قوله - و لوا مدبرين	٢٩٤، ٢٤٢، ٢١٤
		٣١٣، ٢٩٨
٨٩	من جاء بالحسنة فله خير منها	٣٨٣
٢٨ - سورة القصص		
٨	فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً و حزناً ...	٢٢٧، ٢٢٠، ١٩٣
		٢٥٧، ٢٣٢
١٠	لولا ان ربطنا على قلبها ...	٢٩٨
١٥	فوكزه موسى فقضى عليه ...	٣٣٣
١٥	قال هذا من عمل الشيطان ...	٤٢٤
١٦	قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له	٤٢٤

رقم الآية	رقم الصفحة
٢٩	٣٣٣
٣٣-٣٥	٤٢٨، ٤٢٩
٤٠	٢٩٩
٤١	٢٩٩٩
٤٤	٣٤٠
٥٦	٢٩٩، ٢٠١
٥٧	١٨٧
٥٩	٢٧١
٦٨	٢٩٩
٧٠	١٣٣
٧٩	٣٦٥
٨٤	٣٨٣
٨٨	١٤٧، ١٤٢، ١٣٣

٢٩ - سورة العنكبوت

٢-١	الم. احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون
٣	ولقد فتنا الذين من قبلهم
٧	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم
٤٠	سيئاتهم

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٣٢	لننجينه واهله الامر آتته كانت من الغابرين	٢٦٦
٣٨	وزين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٣
٤٥	ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ...	٤٠٠
٦٩	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ...	٣٠٠، ٢٠٤، ٢٠١، ١٩٠
١٣٠	ومن ذريتنا امة مسلمة ...	١٩٠

٣٠- سورة الروم

٢٢	واختلاف السننكم والوانكم	١٨٩، ١٥٨
٢٥	ومن آياته ان تقوم السماء والارض بامره	٨٧
٣٨	للذين يريدون وجه الله	١٤٣
٣٩	وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله	١٤٩، ١٤٣
٤١	ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس	١٦٥
٤٨	الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء	
	كيف يشاء ويجعله كسفا	١٨٤
٥٢	فانك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا	
	ولوامدبرين	٢٤٢
٥٩	كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون	٣٢٤، ٣٠٠

٣١- سورة لقمان

٧	واذا تتلى عليهم آياتنا - الى قوله - وقرا	٣٠٤، ٣٠٠
---	--	----------

٣٢- سورة السجدة

٤	ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولاشفيع	١١٤
٥	ثم استوى على العرش ... يدبر الأمر من السماء الى الأرض	١١٣، ١٢٥، ١٣٠
٦-٧	ذلك عالم الغيب والشهادة - الى قوله - كل شيء خلقه	١٣١
١٠	وقالوا اذا ضللتنا فى الارض - الى قوله - بلقاء ربهم كافرون	١٣٤
١١	قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم	١٣٢
١٢	ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم - الى قوله - انا موقنون	١١٤، ١٣٤، ٣٠١
١٣	ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها	١٥٨، ١٩٤
١٣	ولكن حق القول منى لأملثن جهنم من الجنة والناس اجمعين	١٩٤، ٣٠١
١٤	فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم	١٣٤، ١٩٤، ٣٠١
١٧	فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون	١٠٦

٣٣- سورة الاحزاب

١	يا ايها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين	٤٤٤
---	--	-----

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	والله يقول الحق و هو يهدى السبيل	٢٠٠، ١٧٣
١١	هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً	٣٦٩
١٧	قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءاً او اراد بكم رحمة	١٦٨
١٩	اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم	٣٨٥
٢٣	فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر	٣٣٣
٣٣	انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس - الى قوله - تطهيرا	٣٣٨، ٣٣٤، ٣٠١
٣٦	وما كان لمؤمن و لا مؤمنة اذا قضى الله - الى قوله - الخيرة من امرهم	٣٣٥، ٣٣٣، ٣٠٢
٣٧	وتخفى فى نفسك ما الله مبديه - الى قوله - احق ان تخشاه	٤٤٣، ٣٠٢
٣٧	وكان امر الله مفعولاً	٣٣٨، ٣٠٢
٣٧	فلما قضى زيد منها وطراً زو جناكها	٣٣٤
٣٨	وكان امر الله قدراً مقدوراً	٣٣٨، ٣٠٢
٤٣	ليخرجكم من الظلمات الى النور	٣٠٢
٤٤	تحيتهم يوم يلقونه سلام و اعد لهم اجرا كريماً	١٠٦، ٩٣
٣٣- سورة سباء		
٥	اولئك لهم عذاب من رجز اليم	٢٦٤
١٦	فارسلنا عليهم سيل العرم	٢٨٧
١٨	قدرنا فيها السير	٣٣٤

٢٨ وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً

٥٠ وان اهتديت فبما يوحي الي ربي

٢١١

٤٤٨

٣٥ - سورة فاطر

٣ هل من خالقي غير الله يرزقكم من السماء والارض

٨ فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

٨ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات

١٠ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه

١٣٠، ١١٣

١٠ ومكر اولئك هو بيور

٣٢١

١١ وما تحمل من انثى ولا تضع - الى قوله - يسيراً

٣٣٩، ٨٥

١٥ يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني

٢٦١، ١٤٦

الحميد

٢٢-٢٣ ان الله يسمع من يشاء وما انت بسمع - الى قوله -

نذير

٣٠٢

٢٤ وان من امة الا خلا فيها نذير

٢٥٨

٢٨ انما يخشى الله من عباده العلماء

٤٥١

٣٠ ليوفيهم اجرهم ويزيدهم من فضله

١٠٣

٤٣ ولا يحيق المكر السىء الا باهله

٣٢١، ٣١٩، ٣١٨

٣٦ - سورة يس

٩ انا جعلنا في اعناقهم اغلالاً فهي - الى قوله -

لا يبصرون

٣٠٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٥	وما لى لآعبء الذى فطرنى والىه ترجعون- الى قوله-	
	فاسمعون	١٠٠
٣٩	والقمر قدرناه منازل ...	٣٣٤
٤٩	ما ينظرون الاصبحة واحدة ...	٩١
٥٨	سلام قولاً من رب رحيم	١١٨
٧١	اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت -الى قوله- لها	
	مالكون	١٥١
٨٢	انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون	١٦٨، ١٨٨
٨٣	فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء والىه ترجعون	١٥١

٣٧- سورة الصافات

٨	لا يسمعون الى الملاء الاعلى- الى قوله- من كل	
	جانب	٢٩٦
٨٩	فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم ...	٤٢٠
٩٦	اتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ...	١٥٧
٩٦	والله خلقكم وما تعملون ...	١٨٥
٩٨	فارادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين ...	٢٩٧
٩٩	انى ذاهب الى ربى سيهدين ...	٤٤٨
١٠٦	ان هذا لهو البلاء المبين ...	٣٦٩
١٢٥	اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين ...	١٩٢
١٣٥	اذنجيناها وأهلها اجمعين الاعجوزاً فى الغابرين ...	٢٦٦

٣٨-سورة ص

	٢١	وهل اتاك نبؤ الخصم اذ تسوروا المحراب-الى
٤٣٣		قوله- وحسن مآب
٤٣٥	٢٦	ياداود انا جعلناك خليفة...
٤٣٦	٣٢	انى احببت حب الخير عن ذكر ربى ...
	٣٤	ولقد فتنا سليمان والقينا على كر سبه جسدا ثم
٤٣٦، ٣٦٨		اناب
٤٣٦	٣٥	وهب لى ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدى...
٤٣٣، ٤١٧	٤١	واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه-الى قوله-وعذاب
١٥١	٤٥	واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق-الى قوله-والابصار
١٥٢	٤٥	اولى الايدى والابصار
١٤١، ١٥١	٧٥	ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي

٣٩-سورة الزمر

١٣٦	٣	ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى...
٢٠١	٣	ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار
	٧	ان تكفروا فان الله غنى عنكم - الى قوله - لعباده
١٦٧		الكفر
٢٨٣	١٠	للذين احسنوا فى هذه الدنيا

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٧	والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها	٣٩٠
١٨	الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه - الى قوله-	
٢٠١	اولو الالباب	
١٩	أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذمن في النار	
٢٠٣		
٢١	ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما	١٨٤
٢٢	أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه	٣٠٣
٢٣	ومن يضل الله فماله من هاد	٢٩٥
٣٣-٣٥	والذي جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون	
٤٠١		
٣٦	ومن يضل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل	
٣٧	ومن يهد الله فما له من مضل	٢٣٠، ١٩٩
٤٢	الله يتوفى الانفس حين موتها	١٣٢
٤٢	فيمسك التي قضى عليه الموت	٣٤٠
٤٩	فاذامس الانسان ضردهانا - الى قوله - لا يعلمون	
٥١	فاصابهم سيئات ما كسبوا	٣٦٩
٥٣	لاتقنطوا	١٦٤
٦٢	الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل	٣٨٠
٦٥	لئن اشركت ليجبطن عملك	١٧٤، ١٥٧
		٤٤٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٧	والارض جميعا قبضته...	٢٤٠
٦٩	واشرقت الارض بنور ربها...	١٣٤
٧٣-٧٤	حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها - الى قوله -	
	اجر العاملين	٢٧٧- ٨

٤٠- سورة غافر

٧	ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما	١٢٧
١٥	رفيع الدرجات ذو العرش - الى قوله - يوم التلاق	١٢٥، ١٠٦
١٦	لمن الملك اليوم لله الواحد القهار	٢٤٥، ١٢٦، ١٠٧
١٦	يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء	٢٤٦
١٧	اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم	٣٨٤، ١٦٥
٢٠	والله يقضى بالحق	٣٤٠
٢٩	يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض - الى قوله - ان جاءنا	١٠٧
٣١	وما الله يريد ظلما للعباد	٢٢٥، ٢٠٦، ١٦٠
٣٥	كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار	٣٢٤
٣٧	وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل	٣٠٤
٣٧	فاطلع الى اله موسى	١٣١
٣٦-٣٧	يا هامان ابن لى صرحاً لعلى ابلغ - الى قوله -	
	لاظنه كاذبا	١١٣
٣٨	يا قوم اتبعونى اهدكم سبيل الرشاد	٢٦٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٨	يا قوم اتبعوني اهدكم سبيل الرشاد	٢٦٠
٤٠	من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها	٢٨٢
٥١	انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا	٤٤٢
٥٥	ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر	٤٤٩
٦٢	ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا اله الا هو	١٥٧
٧٣-٧٤	ثم قيل لهم اين ما كنتم تشركون - الى قوله - من قبل شيئا	٣٦٠
٧٨	فاذا جاء امر الله قضى بالحق و خسر هنالك المبطلون	١٣٢
٨٥	فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا	٢٥٧
٢١- سورة فصلت		
١- ٢	حم تنزيل من الرحمن الرحيم	١١٧
٤- ٥	فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون - الى قوله - انا عاملون	٣٢٥، ٢٨٢، ٢١١
٥	وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه - الى قوله .	
	حجاب	٣٢٥، ٣٠٤
٦	قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى - الى قوله -	
	للمشركين	٣٢٥
١٠	و قدر فيها اقواتها فى اربعة ايام	٣٣٤
١١	ثم استوى الى السماء وهى دخان	١٣٢، ١١٤
١١	فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا	
	أتينا طائعين	١٧٣
١٢	فقضاهن سبع سموات	٣٣٣
١٥	اولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة	٨٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	فارسلنا عليهم ريحاً صرصراً في ايام نحسات	٢٨٧
١٧	واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى	٢٠٨، ١٩٩، ١٧٣
٢٥	وقيضنا لهم قرناء - الى قوله - عليهم القول	٣٠٤
٣١-٣٠	ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الى قوله - وفي الآخرة	٢٠٢، ١٩٠
٣٥	وما يلقاها الاذوحظ عظيم	٣٦٥
٤٢	تنزيل من حكيم حميد	١١٧
٤٤	والذين لا يؤمنون في آذانهم وقروهو عليهم	
	عمى ...	٢٠٤
٤٧	وماتحمل من انثى ولا تضع الابعلمه	٨٥
٤٢-سورة الشورى		
٨	ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة	٢٠٤
١١	ليس كمثلته شيء وهو السميع العليم	١٢٢، ١٢٠، ٩٨
١٣	شرع لكم من الدين ما وصى به - الى قوله - ولا تفرقوا فيه	٢٦٠
١٥	لاحجة بيننا وبينكم	٢٠٤
١٥-١٦	وقل آمنت بما انزل الله من كتاب - الى قوله - عذاب شديد	٢٠٥
٢٠	من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه و من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها و ماله في الآخرة من نصيب	٢٨٨، ٢٧٩
٢١	ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم	٢٣٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٣	من يقترف حسنة نزدله فيها حسنا	٢٨٢
٣٧	والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا	
	ما غضبوا هم يغفرون	٢٩٠
٤٠	وجزاء سيئة سيئة مثلها	٢٨٢، ٣١٩، ٢٥٥
٤٤	ومن يضل الله فماله من ولى من بعده	٢٠٥
٤٨	فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك	
	الالبلاغ	٢١٦
٤٨	ان عليك الابلاغ	٢١٨
٥١	وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا - الى قوله -	
	فيوحى باذنه ما يشاء	١١٤
٥١	او من وراء حجاب او يرسل رسولا	١٢٣
٥٢	وانك لتهدى الى صراط مستقيم	٢١٨، ٢٠٠
٥٢	ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا - الى	
	قوله - مستقيم	٢٠٥
٥٢	ما كنت تدري ما الكتاب و لا الايمان	٤٤٨
٥٣	الا الى الله تصير الامور	٢٦١
٢٣- سورة الزخرف		
١٣	سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين	١٨١
٢٠	وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك	
	من علم - الى قوله - يخرسون	٣٠٥، ٢٦٧، ٢٦٤، ١٦٧
٢٠	ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرسون	٢٠٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٧	الذى فطرني فانه سيهدين ...	٤٤٨
٣٣-٣٥	ولولا ان يكون الناس امة واحدة - الى قوله -	
	للمتقين	٣١٦
٣٦	ومن يعش عن ذكر الرحمن - الى قوله -	
	له قرين	٣٠٦
٤٠	أفأنت تسمع الصم او تهدي العمى ...	٣٠٦
٧١	وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ...	١٠٦
٧٧	يا مالك لي قبض علينا ربك	٣٢٣
٨٣	فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى	
	يوعدون	١٠٧
٨٤	وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ...	١٢٦
	٢٣- سورة الدخان	
١-٣	انا انزلناه فى ليلة مباركة ...	١١٧
	٢٥- سورة الجاثية	
٢٢	ولتجزى كل نفس بما كسبت	٢٨٤
٢٣	افرايت من اتخذ الهه هواه - الى قوله -	
	افلاتذكرون	٣٢٢، ٣٠٦، ٢١٢
	٢٦- سورة الاحقاف	
٩	وه! ادري ما يفعل بى ولا بكم ...	٢٣٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	اولئك الذين نتقبل عنهم...	٢٨٥، ٢٨٤
٢٥	تدمر كل شيء بأمر ربها...	١٨٧
٢٩	واذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن...	٣٠٦
٢٧ - سورة محمد (ص)		
١	الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم	٤٠٢
٢	والذين آمنوا - الى قوله - كفر عنهم سيئاتهم	٤٠٢
٩	ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم	٢٨٥
١٦	اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم	٣٢٤
١٧	والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم	٢٦١، ٢١٠، ٢٠١، ١٩٠
		٢٩٤
١٩	واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات	٤٥٠
٢٠	رأيت الذين فى قلوبهم مرض - الى قوله - من الموت...	٢٤٤
	اولئك الذين لعنهم الله - الى قوله - اقفالها	٣٠٦
	يتدبرون القرآن على قلوب اقفالها ن ارتدوا على اديبارهم - الى قوله -	٢٤٣
		٢٥٥
	تبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه	
		٢٨٦
	قلوبهم - الى قوله - اضغانهم	٣٠٦
	المجاهدين منكم	٣٦٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٢	ان الذين كفروا وشاقوا الرسول - الى قوله - وسيجبط اعمالهم	٢٨٦
٢٨ - سورة الفتح		
٢	ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر...	٤٤٩
٥	ويكفر عنهم سيئاتهم ...	٤٠٢
١٠	يدالله فوق ايديهم ...	١٤١
١٠	ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله - الى قوله - على نفسه	١٥٢
٢٠	وكف ايدي الناس عنكم ...	٣٠٧
٢٤	وهو الذي كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم...	٣٠٧
٣٩ - سورة الحجرات		
١	لاتقدموا بين يدي الله ورسوله ...	٣٩٤
٢	ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضهم ...	٣٩٤، ٣٩٣
٢	لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي - الى قوله - وانتم لاتشعرون	٣٩٤، ٣٩٢
٣	ان الذين يفضون اصواتهم عند رسول الله...	٣٩٤
٤	ان الذين ينادونك من وراء الحجرات ...	٣٩٤
٧	ولكن الله حجب اليكم الايمان - الى قوله - والعصيان	٣٠٧
١٧-١٨	بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان	٣٠٧، ٣٦٨

٥٠- سورة قى

٢٤٥	ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ...	١٦
	لقد كنت فى غفلة من هذا- الى قوله- فبصرك اليوم	٢٢
١٣٣	حديد	
١٤٥	يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد...٣٠	
١٠٦، ٩٣	لهم ما يشاؤون فيها ولدنا مزيد ...	٣٥
٣٤٣، ٢٤١	ان فى ذلك لذكرى- الى قوله- وهو شهيد	٣٧

٥١- سورة الذاريات

٢٢٣	يا ايها الرسول لا يحزنك الذين- الى قوله- يفتنون	١٣
١٤٠	وفى السماء رزقكم وماتوعدون	٢٢
٢٨٧	وفى عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم	٤١
١٥١	والسماء بينناها بايدواناالموسعون	٤٧
١٩٣، ١٦٥، ١٦٠	وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون	٥٦
٨٥	ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين	٥٨

٥٢- سورة الطور

	والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم	٢١
٣٠٧	ذريتهم	
١٦٤	كل امرء بما كسب رهين...٢١	
	٣٦-٣٥م خلقوا من غير شىء امهم الخالقون- الى قوله-	
١٩١، ١٥٩	لا يوقنون	

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
٤٢	ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ...	٣٢٠
٤٨	واصبر لحكم ربك فانك باعيننا ...	١٤٩
٥٣- سورة النجم		
٤	علمه شديد القوى - الى قوله - بالافق الأعلى	١٣٢
٩	ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى	١٣٢، ١١٤
٣١	ليجزى الذين أساؤا - الى قوله - احسنوا بالحسنى	٣٨٩، ٢٧٤
٣٢	الذين يجتنبون كبائر الاثم - الى قوله - واسع المغفرة	٣٨٩، ٢٧٤
٣٨-٤١	ألا تزروا زرة وزر اخرى - الى قوله - الجزء الاوفى	١٦٣
٣٩-٤١	وان ليس للانسان الا ما سعى - الى قوله - الجزء	
	الأوفى	١٩٠
٣٩-٤٠	وان ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى	٢٨٤
٤٣	وانه اضحك وابكى	٣٠٨، ٢٩٠، ١٩٠، ١٥٨
٤٤-٥١	وانه هو أمات واحيي - الى قوله - وثمود فما بقى	١٩٠
٤٨	وانه هو اغنى وأقنى	١٤٦
٥٤- سورة القمر		
١٤	تجرى باعيننا ...	١٤٩
٢٤	فقالوا ابشراً منا واحداً نتبعه انا إذا لقي ضلال	
	وسعر	٢٠٦
٤٩	انا كل شيء خلقناه بقدر	٣٣٩
٥٢-٥٣	وكل شيء فعلوه في الزبر - الى قوله - مستنظر	٣٣٩

٥٥- سورة الرحمان

١٨٤	وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ...	٢٤
	كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال	٢٧
١٤٧	والاكرام ...	
١٠٥	ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام...	٢٧

٥٦- سورة الواقعة

١٧٧	أفرايتم ما تمنون، أنتم تخلقونهام نحن الخالقون...	٦٠
١٧٧	٧٤-٦٤ أفرايتم ما تحرثون - الى قوله - ومتاعاً للمقوين	

٥٧- سورة الحديد

	له ملك السموات والأرض والى الله ترجع	٥
١٢٥	الأمر ...	
١٦٥	وما لكم لا تؤمنون بالله ...	٨
٣٠٨	ليخرجكم من الظلمات الى النور ...	٩
٣٢٩	فطال عليهم الأمد فقسست قلوبهم . .	١٦
٣٢٩	سابقوا الى مغفرة - الى قوله - أعدت للذين آمنوا	٢١
	مأصبا من مصيبة فى الأرض - الى قوله - أن	٢٢
	نبرأها	
٣٣٩، ١٨٨، ١٥٨	لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم	٢٣
٣٣٩، ٢٥٣	وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة	٢٧
٣٠٨، ١٩٠، ١٥٨	فأتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم	٢٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	فاسقون	٣١٠
٢٩	وان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم	١٥١
٢٩	لثلاث يعلم اهل الكتاب - الى قوله - من فضل الله	٣٠٨
٢٩	والله ذو الفضل العظيم	٣٠٩
٥٨- سورة المجادلة		
١٨	يوم يعنهم الله جميعاً - الى قوله - هم الكاذبون	٣٥٩
٢١	كتب الله لأغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز	٤٤٢، ٢٣١
٢٢	اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه...	٣١١
٥٩- سورة الحشر		
٢	هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم	٣١١
٤	ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء - الى قوله - شديد العقاب	٣١١
٥	ما قطعتم من لينة أو تركتموها - الى قوله - فباذن الله	٣٤٠
٢٤	هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى	١٥٨
٦٠- سورة الممتحنة		
٤	الاقول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك	٤٢

٦١- سورة الصف

٥	فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم - الى قوله - القوم الفاسقين	٢٥٥، ٢٢٨، ٢١٢، ٢٠٦
		٣٢٧

٦٢- سورة الجمعة

٨	ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة - الى قوله - تعملون	١٣٣
---	---	-----

٦٣- سورة المنافقون

٣	ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا - الى قوله - لا يفقهون	٣٢٤، ٣٢٣
٤	يحسبون كل صيحة عليهم	٣١٧، ٢١٣

٦٤- سورة التغابن

١	له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير...	٢٤٦
٢	هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ...	٣١١
٩	ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته...	٤٠٢
١١	ومن يؤمن بالله يهد قلبه ...	٢٠١
١١	ما اصاب من مصيبة الا باذن الله - الى قوله -	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	يهد قلبه	٣٤٠، ٢٥٤
١٢	واطيعوا الله واطيعوا الرسول - الى قوله -	
	البلاغ المبين	١٦٧
١٥	انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم	٢١٧
١٦	فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا	١٦٧
٦٥- سورة الطلاق		
١	ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ...	٤١٦
٥	ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ...	٤٠٢
١١	ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات ...	١٦٤
١٢	يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله - الى قوله - عليما	٢٤٠
٦٦- سورة التحريم		
٦	لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون	٢٠٣، ١٣١
٨	عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم	٤٠٢
٦٧- سورة الملك		
١	تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ...	١٥١
٢	ليلوكم ايكم احسن عملا ...	٢٧٠
١٣-١٤	واسروا قولكم او اجهروا به - الى قوله - وهو	
	اللطيف الخبير	١٨٩، ١٥٨
١٤	ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ...	١٨٩
١٦	ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ...	١٣١

٦٨ - سورة القلم

٤٤٦	وانك لعلى خلق عظيم ...	٤
٤٤٥	ودوالو تدهن فيدهنون	٥
	يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود	٤٢
١٥٣، ١٤٥	- الى قوله - وهم سالمون	
	فذرني ومن يكذب بهذا الحديث - الى قوله -	٤٤
٣١٤	كيدى متين	
٣٢٠	واملى لهم ان كيدى متين ...	٤٥
٤٣٩	ولاتكن كصاحب الحوت اذ نادى ربه ...	٤٩

٦٩ - سورة الحاقة

١٨٤	انما لماطئى الماء حملناكم فى الجارية	١١
	١٨-١٣ فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة - الى قوله - لا تخفى	
١٢٥	منكم خافية	
١٠٧	انى ظننت انى ملاق حسابه	٢٠
٣٤٠	بالبتها كانت القاضية	٢٧
	٤٤-٤٦ ولو تقول علينا بعض الاقاويل - الى قوله -	
١٥٢	منه الوتين	
١٤٢	لاخذنا منه باليمين	٤٥

٧٠ - سورة المعارج

٤	تخرج الملائكة والروح اليه - الى قوله - خمسين	
---	--	--

رقم الآية	الاية	رقم الصفحة
الف سنة		١٣١، ١١٤
٧١ - سورة نوح		
٢٥	مما خطيئنا بهم اغرقوا فادخلوا ناراً ...	٢٦٨، ٢٥١
٢٦	قال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين	
	ديارا	٤١٨
٢٧	ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً	٢٧٥
٧٢ - سورة الجن		
١٦	وان لو استقاموا الى الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً	٢٩٤، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٠٢
٧٣ - سورة المزمل		
١٩	ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً	١٦٦
٢٠	والله يقدر الليل والنهار	٢٣٤
٧٤ - سورة المدثر		
١٨	انه فكر وقدر	٢٣٤
٣٧	لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر	١٦٦
٣٨	كل نفس بما كسبت رهينة	٢٨٤، ١٦٤
٤٩	فما لهم عن التذكرة معرضين	٢٤٢، ١٦٥
٥٠	كانهم حمر مستنفرة	٢٤٢
٥٠-٥١	كانهم حمر مستنفرة فرت من قسورة	٢٢٥
٥٤-٥٥	كلا انه تذكرة فمن شاء ذكره	١٦٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧٥-سورة القيامة		
٢٣	وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة	٩٨٠٩١
٧٦ - سورة الانسان		
٣	انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً	١٧٣، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٦٦
٩	انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكوراً	١٤٣، ١٤٩
١٢	وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً	١٦٤، ٢٦٦
٢٩	وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء -الى قوله - العظيم	٣١٠
٣٠	وما تشاؤون الا ان يشاء الله	١٦٠، ١٩٤
٧٧- سورة المرسلات		
٤٦	كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون	٣١٦
٧٩-سورة النازعات		
٤٥	انما انت منذر من يخشاها	٢١٠
٨٠-سورة عبس		
١	عبس وتولى ان جاءه الأعمى	٤٤٥
١٢	كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره	١٦٦
٢٠	ثم السبيل يسره	٣٥٣
٨١-سورة التكويد		
٢٨	ان هو الاذکر للعالمين لمن شاء منكم ان يستقيم	١٦٦

٨٢-سورة الانفطار

٢٤٥ ١٩ يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله

٨٣ - سورة المطففين

٢٥٤ ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون

١٠٧، ١٠٦ ١٥ كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون

١٠٧ ١٦ ثم انهم لصالوا الجحيم

٨٤ - سورة الانشقاق

١٠٧ ٦ يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه

٢١٢ ٢٠ فما لهم لا يؤمنون

٨٥-سورة الطارق

١٤-١٧ انهم يكيدون كيداً واكيد كيداً - الى قوله -

٢٢٠، ٣١٦ رويداً

٨٧-سورة الاعلى

٣٣٤ ٣ والذي قدر فهدى

١٨٤ ٥ والذي اخرج المرعى فجعله غثاء احوى

٣٦٤ ١١ وسيجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى

٨٨ - سورة الغاشية

٩١ ١٧ افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت

٢١٦ ٢٢ فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمصيطر

٨٩-سورة الفجر

٢٢	كلا اذا دكت الأرض دكاً دكاً - الى قوله - صفأ	
	صفأ	١٢٦
٢٢	وجاء ربك والملك صفأ صفأ	١٣٢، ١١٤

٩٠- سورة البلد

١٠	الم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين و هديناه	
	النجدين	٢٠٠
١٠	وهديناه النجدين	٢٦٦

٩١- سورة الشمس

١٢	إذ انبعث اشقاها ...	٣٦٤
----	---------------------	-----

٩٢- سورة الليل

١٢	ان علينا للهدى ...	٢٦٦
١٥	لايصلها الا الأشقى ...	٣٦٤
٢٠	و ما لأحد عنده من نعمة تجزى - الى قوله - ربه	
	الأهلى	١٤٣

٩٣- سورة الضحى

٧	ووجدك ضالاً فهدى	٤٤٨
---	------------------	-----

٩٥- سورة التين

٥-٤	لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل	
	سافلين	٣١٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦	الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٣١٢
	٩٦ - سورة العلق	
٨	ان الى ربك الرجعى ...	١٠٦
	٩٧ - سورة القدر	
١	انا انزلناه فى ليلة القدر	١١٧
	٩٩ - سورة الزلزلة	
٨-٧	فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره - الى قوله - شراً يره	١٦٤
	١٠٥ - سورة الفيل	٢٨٧
٢	وارسل عليهم طيراً ابابيل ...	
	١٠٩ - سورة الكافرون	
٦	لكم دينكم ولى دين	٣١٢

الفهرس العام لمواضيع الكتاب

٥	المحكم والمتشابه فى القرآن :
٧	١- التعريف بالمتشابه
٨	حقيقة الاحكام والنشابه
٩	الفرق بين المتشابه والمبهم
١٠	ما بين عوامل كل من المتشابه والمبهم من اختلاف
	* * *
١٣	٢- القرآن والتشابه
١٤	هل فى القرآن متشابه ؟
١٥	مز عومة كون جميع آى القرآن متشابهة
١٦	لماذا فى القرآن متشابه ؟
١٧	رأى ابن رشد الاندلسى
١٨	رأى الامام الرازى
١٩	العلاج الحاسم لمادة الاشكال

- ٢٠ التشابه ظاهرة طبيعية في القرآن
 ٢٢ رأى سيدنا الطباطبائي
 ٢٢ رأى الشيخ محمد عبده
 ٢٣ عامل آخر لوجود التشابه في القرآن ، هو اهم

* * *

- ٢٧ ٣- حقيقة التأويل
 ٢٨ مابين التأويل والتفسير من فرق
 ٢٨ التأويل معنى ثانوى للاية
 ٢٨ التعبير عن التأويل بالبطن
 ٢٨ التأويل بهذا المعنى عام لجميع آي القرآن
 ويتلخص استعمال التأويل فى موضعين :

- ٣٠ الأول - فى توجيه المتشابه
 ٣٠ الثانى - فى المعنى الثانوى (البطن)
 ٣١ وهما من قبيل المفاهيم الذهنية
 ٣١ مزعومة ابن تيمية : ان التأويل عين خارجى
 ٣١ تأييد سيدنا الطباطبائي لهذا المذهب و تهذيبه و تحريره
 ٣٢ تفنيد مزعومة شيخ حران ، حيث خلط أمر المصداق بامر التأويل
 ٣٣ المعانى الأربعة للتأويل
 ٣٣ تبدو على رأى سيدنا الطباطبائي مسحة عرفانية رقيقة
 ٣٣ مناقشة هذا الرأى
 ٣٤ ماذا وراء هذا القرآن لو كان عيناً خارجياً؟!

* * *

- ٣٥ ٤- هل يعلم التأويل الا الله
توجيه السؤال بصورة عامة :
- ٣٦ هل يعقل ان يوجد في القرآن آيات لا يعلم معناها احد ؟
- ٣٧ كلام الشيخ ابي على الطبرسي
- ٣٨ كلام الامام بدر الدين الزركشي
- ٣٨ ماذا يستفاد من الآية الكريمة بصورة خاصة ؟
- ٣٩ الكلام في الآية من الوجهة الأدبية
- ٣٩ كلمات أكابر أئمة الأدب والفن
- ٤٠ نظائر الآية في القرآن وفي الشعر القديم
- ٤٠ اقوى حجة اعتمدها الامام الرازي لمذهبه في الاستيناف
- ٤١ دحض هذه الحجة
- ٤١ النكتة الدقيقة في التقييد بالجملة الحالية
- ٤١ تنويع الناس تجاه المتشابه الى ثلاث طوائف
- ٤٢ الباحث الصادق لا يضطرب تجاه المتشابهات
- ٤٢ كلام الشيخ محمد عبده بشأن الآية
- ٤٣ الامام الرازي واستداقته للادب الرفيع بشأن الآية !
- ٤٣ موافقة السيد الطباطبائي للامام الرازي في هذه الاستدافة !
- ٤٣ تقييم هذه الاستدافة الأدبية بموازين الأدب
- ٤٤ مزعومة المنكرين
- ٤٤ نسبة السيوطي الانكار الى اكثرية الصحابة والتابعين
- ٤٤ مبالغته في هذه النسبة
- ٤٤ مناقضة ابن تيمية للسيوطي

٤٥	اكثرية السلف على ان الراسخين يعلمون التأويل
٤٥	كلام الامام احمد بن حنبل
٤٥	كلام ابي جعفر الطبرى
٤٥	مجاهد وابن عباس بشأن تأويل المنشآت
٤٥	كلام الراغب الاصبهانى
٤٥	مذهب ابي الحسن الاشعري فى ذلك
٤٥	انتصار ابي اسحاق الشيرازى له
٤٦	تزييف مستند منكرى العطف
٤٦	تعليل مفصوح

* * *

٥- من هم الراسخون فى العلم ؟

٤٧	اول الراسخين فى العلم وفضلهم رسول الله ﷺ
٤٨	ثم الأئمة الأوصياء من بعده
٤٨	ثم العلماء الربانيون الذين استقوا من منهل فيضهم النمر

* * *

تعرفه اجمالية

بمذاهب سلفية أوجدت التشابه

فى وجه الآيات

٥٤	السلف كانوا يتخرجون القول فى القرآن عن رأيهم
٥٥	وقد تبعهم على ذلك اصحاب المذاهب السلفية تقليدياً ، وهم : -

- ٥٦ الصفاتية : اصحاب القول باثبات مبادئ الصفات في ذاته تعالى المقدسة
- ٥٨ الحشوية : اصحاب الحديث المتقبلين لغته وسمينه
- ٥٩ الأشعرية : اصحاب ابي الحسن الأشعري في الاصول
- ٦٠ وهو شيخ اهل السنة والجماعة حتى اليوم
انتشار المذهب الأشعري رسمياً وبضغط من المحكم القادري العباسي في
- ٦١ نهاية القرن الرابع
- ٦١ تفويض دعائم مذهب الاعتزال نهائياً
- ٦٢ تشريح عقيدة الأشعري في الأصول
- ٦٤ المشبهة : يثبتون لله خصائص الجسمية
- ٦٥ الكرامية : اصحاب محمد بن كرام الذي خبط وخلط
الجبرية : ينفون عن العباد استطاعتهم على اختيار الافعال . وهم على
- ٦٧ طائفتين :
- ٦٧ جبرية خالصة وجبرية ملتوية
- ٦٨ الأشعري جبري خالص
- ٦٨ كلام سعد الدين التفتازاني
- ٦٩ عبارة الأشعري الصريحة في الجبر
- ٧٠ كلامه في الاستطاعة
- ٧١ هويصة مسألة الكسب
- ٧٢ القول بالكسب التواء في الجبر
- ٧٣ القدرية : اطلقت على كل من الاشاعرة والمعتزلة
- ٧٣ كلام ابي الفتح الكراچكي في ذلك
- ٧٤ رمى الأشعري اصحاب الاعتزال بهذا الاسم

- ٧٤ الواقعية تجعل من هذا الاسم خاصاً بالاشاعرة
- ٧٥ المعتزلة : الاعتزال انتفاضة في وجه الصفاتية ومنشعباتها من الظاهريين
- ٧٥ عقيدة المعتزلة بتوضيح ابي الحسن الاشعري
- ٧٦ كلام القاضي عبدالجبار في نفي الصفات
- ٧٦ رأى الاشاعرة والمعتزلة في مبادئ الصفات
- ٧٧ تحقيق مذهب المعتزلة في الاستطاعة
- الامامية : رسالة البيان عن جمل اعتقاد اهل الايمان ، تأليف الشيخ ابي
- ٧٨ الفتح الكراجكى
- ٧٩ كلام مولانا امير المؤمنين - عليه السلام - في معرفة الله

* * *

نماذج من متشابهات القرآن

- ٨٣ تحقيق عن الصفات الذاتية لله تعالى
- ٨٤ آيات تنعته تعالى بصفات ذاتية
- ٨٥ فساد مذهب الاشعري في صفات الذات

* * *

- ٨٦ صفاته تعالى الفعلية
- ٨٦ تفسير الاشعري لصفات الفعل
- ٨٧ تفسير اهل العدل لصفات الفعل
- ٨٧ استدلال الاشعري على مذهبه في الاثبات

* * *

- ٨٨ صفات تنزيه (صفات جلالية)
- ٨٨ الأشاعرة وسائر الصفاتية مجسمة

- ٨٩ القول بالتجسيم مذهب المتأثرين بتعاليم ابن تيمية حتى اليوم
* * *
- ٩١ الكلام فى رؤيته جل شأنه
- ٩١ استدلال الاشعري على جواز رؤيته تعالى بآيات
وجوابه عن آية «لاتدركه الابصار»
- ٩٤ كلام ابى سعيد الدارمى فى الرؤية واستدلاله بروايات
نظرة اهل العدل والتنزيه فى الرؤية
- ٩٦ كلام الاستاذ احمد امين وتأسفه فى هذا المجال
- ٩٨ كلام القاضى عبدالجبار ، والخوارجا نصير الدين الطوسى
الاجابة على استدالات الاشعري واذنابه
- ٩٨ * * *
- ١١٣ القول فى الجهة والمكان
- ١١٣ مذهب الاشعري وسائر التجسيم فى ذلك
- ١١٣ آيات استدلال بها اهل التجسيم
- ١١٥ اضافات من ابى سعيد الدارمى
- ١١٨ استدلال ابن خزيمة على اثبات الجهة
- ١١٩ سوء أدب فى تعبير الاشاعرة فى هذا المقام
- ١١٩ اجوبة اهل العدل والتنزيه عن ادلة الاشاعرة
- ١٢٠ كلام نورى من الامام امير المؤمنين - عليه السلام -
- ١٢٠ حديث الامام جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام -
- ١٢١ حديث الامام موسى بن جعفر الكاظم - عليه السلام -
- ١٢٢ صراحة القرآن فى نفى الجهة ونفى الجسمية

- ١٢٢ اعتراف الامام الرازي بذلك
- * * *
- ١٢٢ الكلام فى العرش والكرسى وبيان حقيقتهما لغويًا وشرعيًا
- ١٢٥ الكرسى : كناية عن احاطة ملكه تعالى
- ١٢٦ العرش : كناية عن تدبيره الشامل
- * * *
- ١٢٧ الكلام فى صفة الاستواء
- ١٢٨ الكلام فى الفوقية ، وانه تعالى فوق بالقدرة والتدبير ، لا بالجهة والمكان
- ١٢٩ تحقيق ذوقى عن اعتبار الفوقية له تعالى
- * * *
- ١٣٠ نظرة فى آيات زعموا دلالة على الجهة
- ١٣٦ تحقيق تاريخى عن حديث الأمة السوداء
- ١٣٩ سبب رفع اليدين الى السماء عند الدعاء
- * * *
- ١٤٠ الكلام فيما زعم اهل التشبيه من ثبوت الاعضاء والجوارح له تعالى
- ١٤١ مواكبة الاشعري لاهل التشبيه وتشبته بآيات
- ١٤٥ الحشوية من اصحاب الحديث يساندون اهل التشبيه
- ١٤٦ محاولة فاشلة لبعض اهل التشبيه
- * * *
- ١٤٧ الكلام فى ابطال مزاعم اهل التشبيه
- ١٤٧ الكلام فى الوجه واطلاقاته فى القرآن
- ١٤٩ الكلام فى العين واطلاقاتها فى القرآن

- ١٥٠ الكلام فى اليد واطلاقاتها فى القرآن
- ١٥٣ الكلام فى الساق واطلاقاتها فى القرآن
- ١٥٤ الكلام فى الرجل والقدم
- * * *
- ١٥٦ مسألة الاستطاعة (القدرة)
- ١٥٦ الاشاعة ينفون القدرة عن العباد
- ١٥٧ تشبثات الاشعري فى نفي استطاعة العباد
- ١٦١ تزيف هذه التشبثات على ضوء البرهان
- * * *
- ١٦٢ نظرة فى الأفعال الاختيارية
- ١٦٤ القرآن يرى من الانسان حراً فى مساعيه
- * * *
- ١٦٨ تنويع ارادته تعالى الى تكوينية وتشريعية
- ١٧٠ كلمات ائمة الهدى فى هذا التنويع
- ١٧١ تفكيك الارادة التشريعية عن المراد
- * * *
- ١٧٣ مسألة التوحيد فى الأفعال
- * * *
- ١٧٤ مسألة الأمرين
- ١٧٥ الاشاعة ارادت التوحيد المطلق فلجأت الى القول بالجبر
- ١٧٦ والمعتزلة ارادت اثبات عدله تعالى فأسرفت فى القول بالاستطاعة

- لكن الامامية اخذت الطريقة الوسطى - في ضوء تعاليم اهل البيت - فجمعت
 ١٧٦ بين التوحيد والعدل
- * * *
- ١٧٨ وجه انتساب الافعال الاختيارية الى كل من الفاعل والمخالق تعالى
- ١٧٩ امثلة توضح مسألة الأمرين الأمرين
- * * *
- ١٨٢ اختيارية الارادة ذاتية
- * * *
- ١٨٣ مسألة ارادة الله الحادثة
- ١٨٤ انتساب الحوادث الى الله
- * * *
- ١٨٥ حل شبهات اهل الجبر ، على ضوء ما تقدم
 نظرة اجمالية وعميقة الى الآيات والروايات التي استدل بها اصحاب القول
 بالجبر
- ١٨٦
- ١٩٥ نظرة في الحسنات والسيئات انهما من الله ام من العبد ؟
- ١٩٨ أصرح آية تدحض مزعومة الجبر
- * * *
- ١٩٩ مسألة الهداية والتوفيق
- ١٩٩ مراتب الهداية الخمس
- ٢٠٣ وهداية الجاء لم يشأها الله
- ٢٠٣ تقسيمات اخر بشأن مراتب الهداية
- ٢٠٤ تشبيه مراتب الهداية بدرجات النور

* * *

- ٢٠٥ الاضلال والخذلان
 ٢٠٦ تحقيق عن معنى اضلاله تعالى لمن يشاء
 ٢٠٧ مزعومة الاشعري في الالغاء
 ٢٠٨ تجهيل ابن حزم لاصحاب المزعومة
 ٢٠٩ استدراك على من حمل اضلاله تعالى على الحقيقة

* * *

- ٢١٠ عرض آيات الهداية والضلال
 كلام تفصيلي عن تأويل قوله تعالى : «وما كان لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله»
 ٢٢٩
 ٢٣٦ كلام تفصيلي عن تأويل قوله تعالى «يحول بين المرء وقلبه» .
 ٢٣٧ كلام الامام الرازي في الآية
 ٢٣٨ كلام الشيخ محمد عبده
 ٢٤٠ تفسير آخر أدق
 ٢٤٢ اختيارنا الذي رجحناه
 ٢٤٤ رأى سيدنا الطباطبائي
 ٢٤٨ محاولة الطبرى تعميم الآية
 ٢٤٩ روايات مأثورة عن ائمة اهل البيت بهذا الصدد

* * *

- ٢٧٠ كلام تفصيلي عن قوله تعالى : «أمرنا مترفيها...»
 ٢٧٢ اختيار اكثرية المفسرين
 ٢٧٣ تزيف الزمخشري لهذا الاختيار

- ٢٧٤ رأى امام المعتزلة (القفال) فى الاية
- ٢٧٦ الوجوه الاربعة التى ذكرها الشريف المرتضى
- ٢٨١ مواكبة شيخ الطائفة للشريف المرتضى
- * * *
- ٢٨٨ تحقيق عن فحوى قوله تعالى : «لايسأل عما يفعل...»
- ٢٨٨ رأى الأشاعرة فى الاية
- ٢٨٩ رأى اهل العدل والتنزيه
- * * *
- اختلاف المفسرين فى تأويل قوله تعالى : «لايقدرّون على شىء...» والتضارب
بين الأشاعرة واهل العدل فيها
- ٣٠٨
- * * *
- ٣١٢ مسألة الاستدراج وتوجيهها بما لايتنافى مع عدله تعالى
- ٣١٤ تأويل الايات الواردة بشأن الاستدراج
- * * *
- ٣١٦ الاستهزاء والمخدبة والمكر
- ٣١٨ تأويل الايات الواردة بهذا الشأن
- * * *
- ٣٢٢ الختم والطبع وماشاكلهما وتأويل الايات الواردة بهذه التعابير
- * * *
- ٣٢٩ مسألة القضاء والقدر
- ٣٣٠ الايمان بالقدر عقيدة جاهلية
- ٣٣٠ الأشاعرة استسلمت لهذه العقيدة البائدة

- ٣٣١ رأى الفلاسفة الاسلاميين فى مسألة القضاء والقدر
- ٣٣٢ رأى المتكلمين الاماميين فى المسألة
- ٣٣٣ كلام تفصيلى عن هذه المسألة
- ٣٣٥ تلخيص القول فى المسألة
- ٣٣٦ كلام الامام امير المؤمنين فى المسألة برواية الاصبغ بن نباتة
- ٣٣٨ خلاصة مذهبنا فى المسألة
- * * *
- ٣٣٨ عرض آيات تعرضت لمسألة القضاء والقدر
- ٣٤١ عرض روايات تعرضت للمسألة وهى على ثلاث طوائف
- ٣٤١ الطائفة الاولى : الآمرة بالايمان بها
- ٣٤٢ الطائفة الثانية : الناهية عن التعرض لها
- ٣٤٥ الطائفة الثالثة : المفسرة لها بالسن مختلفة
- * * *
- ٣٥٠ مسألة السعادة والشقاء وعرضها على صعيد علمى عقلانى
- ٣٥١ تفسير الحديث المشهور «السعيد من سعد فى بطن امه ...»
- ٣٥٢ للسعادة والشقاء معنيين
- * * *
- ٣٥٤ عرض آيات السعادة والشقاء
- ٣٥٥ كلام تفصيلى عن تأويل قوله تعالى : « فمنهم شقى وسعيد»
- ٣٥٧ تحقيق مدلول الآية بالمقارنة مع آيات اخر
- ٣٥٨ كلام تفصيلى عن مدلول قوله تعالى : « غلبت علينا شقوتنا»

- ٣٦٥ مسألة التمحيص والاختبار ، والفوائد المترتبة على ذلك
٣٦٦ عرض آيات الابتلاء والامتحان

* * *

كلام تفصيلي عن « الاحباط » و « التكفير » و « الموازنة » . وتقدمه مسائل :

- ٣٧١ الاولى : هل الجزاء استحقاق ام مواضعة ؟
٣٧٢ الثانية : هل الجزاء يستدعى الدوام ؟
٣٧٣ الثالثة : هل المغفرة تختص بالتائبين ؟
٣٧٥ الرابعة : ماذا يكون المراد بالاحباط ؟
٣٧٦ الخامسة : هل الفاسق مؤمن ام كافر ؟

* * *

- ٣٧٨ فرضية الاحباط في خطوات :
٣٧٩ ١- الموافاة على الايمان شرط في المثوبات
٣٨٠ ٢- التائب من الذنب كمن لا ذنب له
٣٨١ ٣- محق الحسنات بسببها لاحقة باطل عندنا
٣٨٢ الاستدلال على ذلك في اربعة بنود

* * *

- ٣٨٣ عموم آيات التوفية
٣٨٥ اختصاص آيات الحبط بمن يموت كافراً

* * *

- ٣٨٦ هل في آيات الحبط عموم ؟
٣٨٧ عرض آيات زعموها عامة

* * *

- ٣٩٥ التنكير بين العموم والخصوص
 ٣٩٧ عرض آيات تعرضت لظاهرة التنكير
 ٤٠٣ عرض أحاديث التنكير

* * *

- ٤٠٤ الموازنة او المحاطة
 ٤٠٥ ابطال القول بذلك عقلياً
 ٤٠٦ نظرة في حديث الكراجمي في الموضوع
 ٤٠٧ سيئات تمحق الايمان
 ٤١٠ انكار ائمة اهل البيت لظاهرة الحبط

* * *

- ٤١١ تنزيه الانبياء - عليهم السلام - عن المعصية اطلاقاً ، عند الامامية
 ٤١٣ خطيئة آدم - عليه اسلام -
 ٤١٤ عرض آيات الخطيئة
 ٤١٥ عناوين عشرة تنم عن الخطيئة
 ٤١٨ تلخيص الكلام عن تنزيه آدم - عليه السلام -

* * *

- ٤١٨ دعوة نوح عليه السلام
 ٤٢٠ تورية ابراهيم عليه السلام
 ٤٢١ استغفار ابراهيم لابيه
 ٤٢٢ مجادلة ابراهيم ربه
 ٤٢٢ تبرئة يوسف عليه السلام
 ٤٢٤ ابتلاء ايوب عليه السلام

* * *

- ٤٢٥ مخاطرة موسى ﷺ
 ٤٢٦ محاجته مع فرعون
 ٤٢٧ استغافوه عن الرسالة
 ٤٢٩ خيفته عندلقاء السحرة
 ٤٣٠ اعتراض ام استرحام
 ٤٣١ طلبه - ع- للرؤية
 ٤٣١ غضبه - ع- على اخيه

* * *

- ٤٣٣ اختبار داود - ع-
 ٤٣٦ فتنة سليمان - ع-
 ٤٣٦ قصة الايثار على الطاعة

* * *

- ٤٣٨ استعجال يونس - ع- في الخروج
 ٤٣٩ عيسى بن مريم - ع -

* * *

- ٤٤٠ خاتم النبيين ﷺ
 ٤٤٠ قصة اقتراح المشركين عليه بالمجاملة
 ٤٤١ حديث لقاء الشيطان في امنيته
 ٤٤٣ حديث تزوجه زينب بنت جحش
 ٤٤٤ نهيه عن الانقياد لمقترحات المشركين

- ٤٤٥ اوامر موجهة اليه من باب « اياك اعنى واسمى باجارة »
 ٤٤٥ قصة عبوسه فى وجه الأعمى
 ٤٤٦ كلام الشريف المرتضى فى ذلك
 ٤٤٧ كلام السيد الطباطبائى فى ذلك

* * *

- ٤٤٨ معنى ضلاله عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل البعثة
 ٤٤٩ معنى غفران ذنوبه عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد الفتح
 ٤٥١ وجه استغفاره عَلَيْهِ السَّلَامُ كل يوم

* * *

- ٤٥٣ فهرس الآيات القرآنية التى وردت فى هذا العرض بترتيب السور

* * *



Princeton University Library



32101 055469827

32101